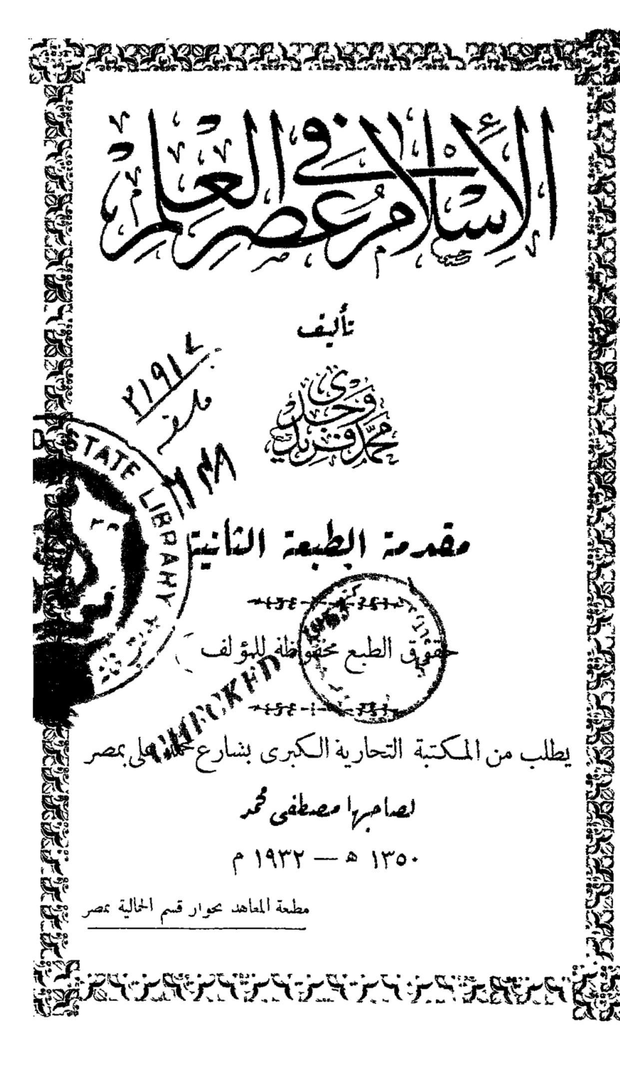


الإسلام في عصر العلم

تأليف

محمد فريد وجدي

مقدمة الطبعة الثانية

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بشارع محمد علي بمصر

لصاحبها مصطفى محمد

١٣٥٠ هـ — ١٩٣٢ م

مطبعة المعاهد بجوار قسم الجمالية بمصر

من كتاب الاسلام فى عصر العلم

ألفت هذا الكتاب وأنا فى ميعة السن قريب عهد بدور التحصيل والدرس ، فهو أصدق كتاب يمثلنى مناضلا عن الفلسفة الروحانية والدين باعتبار أنهما الركنان القويان من أركان الاجتماع والترقى ، فى أول أدوارى وأنا أدفع بالدليل تلو الدليل اكتساباً للانتصار حول هذا الأصل ، وهو أن الجماعة التى أقامها الاسلام فى أول عهدها بالوجود يجب أن يكون هو الذى ينعشها من كبوتها .

على هذا الأصل سرت فى تأليف كتابى هذا ، رامياً الى لفت نظر المتعلمين الذين فتنتهم فواتن الفلسفة الحديثة فتخيلوا أنها الطريق الوحيد لبلوغ الغاية القصوى من الرقى الانسانى ، واذا قلت الفلسفة الحديثة عنيت بها الفلسفة المادية التى تفرض أن الانسان حيوان راق وأن الغاية التى أمامه هى وصوله الى آخر ماتنيله اياه العلوم الكونية ، وما يعده استعداده لقبوله منها .

كنت فى ذلك العهد أى منذ ثلاثين سنة قد أتممت جولة شاقة متعبة قد جلتها وأنا فتى السن وحيدا فى متاهات خالية من الهداة والادلة ، وفى وسط جماعات علمية لاتمت الى هذه المباحث بسبب ، فكنت

أرتطم فى الشبهة العلمية وأصلى بنارها وحدى لاأجـد من يهدينى الى حلها ، ولا من يدلنى على مقابلها . فما كـدت أخرج منها ، سليم الايمان ، قوياً على النضال ، حتى ألقيت بنفسى من هذا الـكتاب فى مجال لايجسر أن يقفه المقرمون الفحول ، فما ظنك بناشىء لايزال من هو أسن منه فى دور التعلم والتحصيل ؟

خضت من البحث فى نفسية الانسان بحراً خضما ، فألقيت بنفسى بين أواذيه وليس لى من وسائل النجاة من طغيانها الا عزمة قوية للوصول الى ساحله . فلم أدع من عوامله الذاتية وعوامله الخارجية وروح العصر باباً للبحث الا ولجته ، ولا كلاماً عن الدين والعقـل والروح العلمية وما طوحت بى اليه من درس أول مناشئها وما أثر عن اليونانيين الأقدمين عنها . وما أتى به فلاسفتهم وحـكماؤهم فيها ، وما أنتجته الحروب بين الفرس وبينهم من الآثار على العـلم والفلسفة ، وما أحدثته جامعة الاسكندرية من النهوض العلمى فى العالم ، وما اقتضاه هذا الخوض من دراسة مذاهب الفلاسفة اليونانيين الخ الخ ، ثم الخروج من ذلك كله الى دراسة الروح الاسلامية ، والمثل الأعلى الذى أوجده رسول الله صلى الله عليه وسلم للانسان ، وما استدعاه ذلك من البحوث فى ماهية الدين الفطرى ، وعرض الأدوار التى تنتاب العقائد ، وكنه الفضيلة والرذيلة ، وغاية المدنية الاسلامية ، وما استتبعه هذا الدرس العميق من النظر فى المادة وماوراءها ، والالمام بالبحوث التجريبية التى يقوم علماء اوروبا فى هذا العصر بها لاثبات العالم الروحانى الخ الخ ،

إلا درسها درس تعمق ، فخرجت منها وأنا أشد إيمانا بصحة النتائج التى وصلت اليها منى بها قبل أن أخوضها ، فلم أشأ أن أختص بها فأخذت ادونها وأنشرها بين الناس حتى ملأت مجلدين ضخمين ، نالا من اعجاب القارئين قسطاً كبيراً ، فلم يمر عليهما غير زمن يسير حتى نفدت طبعتها الاولى ، وانصرفت لخوض غمرات اخرى فأهملت اعادة طبعها سنين رغماً عن كثرة طلبهما ومضت مدة كانت تكفى للتعفية على رسومه ، ومحو اسمه من الاذهان ، غير أن الذين وعوا ذكراه كانوا لا يفتأون يلحون فى اعادة نشره ، فأمكننا الله من ذلك ويسره وها نحن نقدمه للقراء مطبوعاً أجمل طبع ، راجين من الله التوفيق فيما نتوخى من نشر الحقيقة ، وبث الفضيلة ، وتغذية الروح ، انه ولى الكفاية وهو المستعان ؟

محمد فريد وجدى



تأليف





يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بشارع محمد على بمصر

لصاحبها مصطفى محمد

١٣٥٠ هـ -- ١٩٣٢ م

مطبعة معاهد خوارقسم الجمالية بالقاهرة
ادارة محمد عبد اللطيف حجازي

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمدك اللهم على أن هديتنا لدينك القويم ، وأقمتنا بكلامك القديم ، على صراطك المستقيم ، حمد عبدمعترف بالقصور عن حصر آلائك ، مقر بالعجز عن توفيتك الشكر على جزيل نعمائك ؛ وصل اللهم وسلم على الانسان الكامل الذى بعثته بالنور الشامل والبرهان الفاصل ، فنصرت به الحق على الباطل ، وأقمت به وبأتباعه الأماثل ، ميزان حكمك العادل سيد الوجود محمد عبدك ورسولك خاتم النبيين وإمام المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين آمين .

(أما بعد) فانى استخرت الله تعالى فى وضع كتاب كبير الحجم أضمنه موجز أبحاثى فى المواضع الفلسفية التى لها علاقة بالاسلام خصوصا وبالدين المطلق عموماً . وأريد من هذا العمل الشاق إقامة صرح مشيد للدين الاسلامى فى هذا العصر الذى اشتهر بزعزعة أركان الأديان وهدم صروحها وتقويض أساطين المعتقدات ونسف قصورها وسأتوخى ان شاء الله فى بناء هـــذا الصرح تسخير ذلك العلم الهادم للعقائد غير ذاهب بمدركاته مذاهب التعسف والتأويل ، ولا ناهج بمقرراته مناهج التكلف والتحريف . ولكنى سأسير معها سيرها الطبيعى

وأسلك بها مسلكها التحليلي ولم لا يتفق العلم والدين ويكون الأول مؤيد الثانى وناصره، وحاميه من شائبات الشكوك وموازره، مادام العلم منتزعا من أشياء الكون والدين وحى من خالقه؟ وهل يعقل أن يكون وحى سماوى مخالفا لوضع طبيعى وكلاهما مستمد وجوده من خالق واحد تتنزه أفعاله عن التناقض وتتعالى افاضاته عن التعارض؟ بل الذى يخشى صولة العلم ويتهيب سطواته، رجل يريد أن يعطف حقائق الكون على خيالاته، وأن يرى نواميس الوجود مطابقة لوهمياته، هذا هو الذى يرى العلم عدوا لدوداً، فيصد عنه صدوداً، ويكون أمامه حيرداً شروداً، هذا هو الذى ان ذكر العلم بحضرته عبس وبسر، وأدبر واستكبر، وقال ان هذا الا قول البشر. أما المسلم فمتى عهدناه أحجم عن العلم أو تهيب ورده؟ وانى رأيناه صدف عنه وخاف بطشه؟

العلم فى كل عصر ظهير الاسلام ومؤيده، وناصر تعاليمه ومعضده. لم يسقط المسلمون الى ماهم عليه الآن الا بلويهم عن العلم كشحا، وضربهم عن الخوض فى مناحيه صفحا. ألم ترأن فى كل دور من أدوار العلم كتبا للمسلمين اتخذت أرقى مدركاته سلاحا للدفاع عن الاسلام وتأييده، وجعلت أعضل مسائله آلة لتشييد صرحه وتوطيده؟ فما الاشعرى وابن تيمية والغزالى وغيرهم الا من فرسان تلك الحلبة، وأعلام ذلك الميدان. وقد فازوا وفاز من اقتدى بهم فى كل عصر على اعدائه فوزا ليس بعده مطلب للمريد. فلماذا لا يكون هذا العمل عمله فى هذا العصر الانور جاريا على سنة الطبيعة التى سارت مع الاسلام

فى كل عصر سابق ؟

أكبر سبب نراه لتراخى روابط الدين من قلوب بعض المتعلمين اليوم هو لاشك عدم استخدام القوام عليه العلم لتقرير حقائقه كما كانت هـذه عادة آبائنا الأولين ، وسنتهم فى نشر الدين لهذا الاهمال ظن أولئك المتعلمون ان أسلحة الاسلام أقل مضاء من أسلحة علومهم الكونية، فانتبذوا لأنفسهم مكانا بعيداً عن اخوانهم فى المدركات والعقائد .

نرى كثيراً من المتكلمين فى الدين لايسلكون فى تأييـد دعاويه الا مسلك القضايا المنطقية ، والفلسفة العقليـــة ، بينما يرى هؤلاء المتعلمون أنفسهم فى عصر الفلسفة الحسية ، والبراهين الطبيعية التحليلية فكيف يقر هؤلاء لأولئك بزعامة ويعترفون لهم برئاسة وهم يريدون أن يلمسوا ما يعتقدونه أو يدركوه بصفة تقرب من ذلك .

يقرأ هؤلاء المتعلمون من كتب الغرب ما يستدلون به على أن الانسان مترق من سلسلة حيوانية ، وان بينه وبين القردة والكلاب قرابة أصلية فتنكشط من أذهانهم بسبب هذه الشبهة الواحدة كثيراً من المدركات الدينية فى أصل الخليقة ومنابع الأخلاق ووجود النفس وخلودها وحقيقة الفضيلة وليسوا من العلم بمكانة يستطيعون معها النظر فى أدلة أولئك القائلين ومحاكمتها فتلتاث أفكارهم بشبه لايجدون أمامهم من أكثر القوام على العقائد رجالا نصبوا أنفسهم لتحليل أمثال هـذه المسائل التى طم بها العلم العصرى وصار بذلك جائحة على مايسمونه الدين : فلا يرى أولئك الشبان الا السكوت على مضض

والجمود على هواجس تجيش فى صـدورهم وترغمهم على عدم التعلق بالدين لتوهمهم أنه أضعف من أن يقاوم هذا التيار الجارف الذى لم يترك أمامه سدا أثريا الا هدمه ، ولا بناء قديما الا اكتسحه ، فيحسبون أنه فى حركته هـذه قد نسف صرح الاسلام أيضـا قياساً على غيره ويفوتهم ان صرح الاسلام ليس مبنيا من أجر الخزعبلات متماسكة بطين الأوهام ، حتى يعدو عليه تيار أو يقابله فى جريه اعصار « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون »

هذا هو السبب الأكبر فى عدم تمسك أكثر المتعلمين منا بالدين ، وهروبهم من كل ما يشم منه رائحـة الدين ، وهم أنفسهم لو رأوا من المدافعين عنه قوة حقيقية فى حمايتهم لبيضته لكانوا أعز أبنائه وأقوى اعضائه . بناء على هذه الاعتبارات كلها رأينا أن نشرع فى هذا العمل الشاق اقتداء بأسلافنا الاولين الذين استخدموا علوم عصورهم للدين وسنجعل ان شاء الله عمدتنا فى الدفاع عنه المقررات العلمية ، والمدركات الفلسفية الثابتة ، سالكين بها أقصد المسالك الاستقرائية والتحليلية ، غير تاركين فيما نظن هاجسا يهجس بالضمير بسبب أى مسـألة من المسائل العلمية الحديثة التى لها ارتباط بالعقائد الا أتينا على تحليلها وبيان الحقيقة منها مع البرهنة على أنها أقوى مؤيد لمدركات الاسلام وأشد ناصر لحقائقـه ، حتى أن القارىء سوف يرى ان شاء الله ان ماكان يخاله فى العلم الطبيعى ناسفا لأصول الدين ومبددا لفروعه أحسن مقرر لها وأمتن مثبت لبنائها وليس ذلك بعجيب ، فقد قال الله تعالى : « سنريهم

آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك انه على كل شىء شهيد » « ولتعلمن نبأه بعد حين » وعندئذ يليق بنا أن نتمثل بقول الشاعر :

(أفلت شموس الأولين وشمسنا * أبدا على أفق العلا لا تغرب)

وقد رأينا أن نقسم كتابنا هذه الى أربعة أجزاء كل منهـا يشتمل على بحث قائم بنفسه ولـكنها كلهـا ترمى الى غاية واحدة هى اقامة أقوى الأدلة العلمية لتقرير « ان الدين عند الله الاسلام »

سنتكلم ان شاء الله فى الجزء الأول على (الانسان) ثم فى الثانى على (المدنية) ثم فى الثالث على (ماوراء المادة) ثم فى الرابع على (حياة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم) أما مبحث (الانسان) فسندرس فيه ان شاء الله الانسان من كل جهاته التى لها ارتباط بالدين والفلسفة .

ولا يعجبن قارىء من تخصيص كـتاب ضخم فى موضوع الانسان وحده فان حقيقة الانسان أعوص مسائل الانسان ، وقد سهل عليه أن يدرس الـكون ويستخدم كثيراً من نواميسه ، ولـكن صعب عليه جدا درس نفسه والوقوف على سرها

نحن لا نعنى بدرس الانسان درس جثمانه فانا لا نعد ذلك الهيكل اللحمى على ادهاشه للعقل وتحييره للفكر الا جزءا من الـكون المادى الذى تغلغل الانسان فى اكتشافه ، ولا نعنى به أيضاً اكتناه سر روحه والوقوف على جوهرها ؛ هيهات ذلك مما لا نطمع فيه ولا نسمح لعقولنا بالتطفل عليه ؛ ولـكنا نريد به درس علاقاتنا بالوجود

المحسوس وبوجود آخر نشعر به ونذوب شوقا لمعرفته .

لو كان الانسان مدفوعا بالفطرة الى انتهاج سبيل خاص فى أمور حياته كما هو الشأن عند سائر الحيوانات لما كان ثمت حاجة الى درس علاقاته بالوجود الا من جهة محدودة ، ولكانت سعادته تبعاً لذلك محصورة بحدود الدائرة التى حجر عليه تعديها ولكنه خلق مطلوق القوى مرخى العنان لا يدرك لسعادته حدا ، ولا يتخيل لكماله تخما ؛ كلما ارتقى فى معارج احدى سعادته درجة لاحت له درجات ، وكلما جاز باحة تراءت له باحات ، وهو مع ذلك يجد من كنز فطرته مادة تمكنه من مداومة الجد والتعب ، ومن فيض مبدعه عونا على معاناة النصب ، حتى سمح لنفسه أن يقول وقد جال فى موامى المطالب وجاب ، وجاس فى انحاء الكون فأخطأ وأصاب :

(ولكن قلباً بين جنبى ماله * مدى ينتهى بى فى مراداجده)

الانسان فى كل جولة من جولات معناه ، وفى كل جوبة من جوبات فكره ، حتى فى كل همسة من همسات ضميره ، أو حركة من حركات وجدانه يحاول أن يستجلى جمال ذاته ، ويستكشف محياسره ، ويستديم مع ذلك وجوده الشخصى على أكمل صفة يدركها فى نفسه ، فهو لا يأكل أو يشرب ، ولا يلبس أو يتزين ، ولا يفكر أو يتدبر وبالاختصار لا يتحرك حركة مهما كانت بسيطة الا وهو مدفوع بدافع مبهم لتسجيل ذاته وشخصيته فى سجل الوجود ، ونقش معناه فى صفحاته نقشا يأمن عليه العاديات من كل نوع .

مضى على الانسان زمن كان فيه قريبَ العهد بهذا المشهد المدهش (الدنيا) فكان شغله بنفسه واهتمامه بدفع الطوارىء عنه . مانعا له من التفكر فى كنه القوى التى تصرفه ولكن حدثت عليه أزمان بعد ذلك تم له فيها التغلب على المبيدات الفجائية فما شعر الا وضميره يطالبه بأمر جلل وخطب عظيم ، و إذا بصائح فى فؤاده يصيح : ماذا أنا ؟ ما هذا العالم ؟ ماهى هذه المحسوسات التى تحتف بى من كل جانب ؟ ماهى علاقتى بها ؟ أين أنا ذاهب بعد فناء هذا الجسد ؟ أأتلاشى كما تتلاشى الأشياء أم أدوم فى عالم غير هذا العالم وعلى شكل غير هذا الشكل ؟ الوجود قديم أم حديث ؟ إن كان قديما فكيف وجد وان كان حديثا فمتى وجد ولماذا وجد ؟ أهو أبدى لايزول أم فان لابد له من أفول ؟ ان كان أبديا فماذا يكون فى المستقبل وبأى شكل يتشكل ؟ وان كان فانيا فالى أين يذهب وماالذى يحل مكانه حين يعطب ؟ أيحل مكانه لاشىء أم الفضاء ؟ ما معنى لا شىء وما معنى الفضاء ؟

دعنا من هذا كله : فما هى المادة فى ذاتها وما هى أسباب وجودها ودوامها وماهى عوامل رقيها وتدرجها ؟ كيف استحالت من تراب الى انسان ؟ وماهى الحياة وكيف نشأت فى الجماد وما هو هذا العقل المكرم وكيف تولد فى هذا الطين الأصم الأبهم ؟ ثم دعنا من هذا أيضا وهلم تتفكر كيف نشأ الحيوان ووجد الانسان وتدرج فى مراقى العرفان ؟ كيف اهتدى وتصرف وكيف نما وتطور

ثم دعنا من هذا فما هذه النباتات ولم وجدت بهذه الاختلافات ؟

وماسبب تلوين أزهارها وتطييب أنوارها وتحلية ثمارها ؟ هل خلقت للانسان والحيوان، أو هي عوالم مستقلة خلقت لذاتها ولها أغراض وقوانين ؟ كيف اهتدت الى مافيه حياتها وتمتعت بما به بقاءها واستمرارها؟ ثم ماهذه الحيوانات ولم اختلف فى الصور والهيئات وتنوعت فى الأقدار والأحجام وتباينت فى التراكيب والأجسام ؟ كيف نشأ فيهاذلك الالهام العجيب الذى يهديها لبناء مساكنها وتغذية صغارها والهيمنة على أحوالها وأمورها وانى اهتدت الى معائشها ووفقت لسبل غذائها وما يقيم أمر حياتها ؟ وما الانسان من بينها ؟

كل هذه المسائل جاشت فى صدر الانسان وتراءت له على مالا يعد من الصور على حسب المؤثرات التى أثرت على ذهنه، والمناسبات التى أحاطت به فى مكانه وزمنه، واشتغل بها قديما وحديثا وبنى عليها علومه وصنائعه وأخلاقه وسجاياه، وقاس عليها فضائله ومزاياه، وشرع على موجبها قوانينه، ونظم على مقتضاها عقائده ودينه، وعلى قدر تمكنه من درسها وتدربه على فحصها والقرب من أسرارها فاز من وجوده بقسط من السعادة محدودا، ونال من حياته جزءا مقدورا

فمنهم من حكم على وجوده بالحدوث والعدم، ومنهم من قضى له بالبقاء والقدم . فجرى الأولون فيه على سمت شكلوا على مقتضاه علومهم وعقائدهم : وسار الآخرون على طريق خالفوا فيه مناظيرهم على الجملة وبنوا عليه علومهم وعقائدهم أيضا وجرى الاثنان من قديم الزمن فى حلبة واحدة كان السبق بينهما سجالا فكان حكم العقل عليهما

فى كل زمن يختلف عن سابقه ولاحقه مما لا يجوز أن نخفيه عن قرائنا اليوم

قال الأولون بأن للوجود الها لا نهاية لحوله وقوته ، وللانسان روحا خالدة بعد موته ، وله فضائل مستمدة من دينه وعقيدته ، ولأعماله فى هذه الدار صور تنتظره فى آخرته ، وان الوجود وما فيه مسخر لسيطرته ، يجول فى ضمائره بما تقتضيه أمور مصلحته ، وتستدعيه مطالب سعادته ، جعلوا هذه العقائد تسلية للانسان فى دار محنته ، وروحا يتنسمها فى كربته ، وأملا يدفع به اليأس فى شدته

أما الآخرون فانغضوا رءوسهم سخرية وهزؤا ، وهزوا أعطافهم زهوا وعجبا ، ثم رفعوا عقيرتهم كبرا وصلفا وقالوا : هذه آثار الماضيين وبقية من بقايا الأقدمين . فقد حكم العلم (معاذ الله) بأن نواميس الكون كافية فى تعليل كل ظواهره وقوانينه قد فسرت أكثر غوامضه ، فلا داعى لفرض وجود قوى وراء الطبيعية ، ولا موجب لتوهم عالم علوى وراء هذه المرائى المحسوسة . أما الوجود فقديم إن لم يكن بصورته فبمادته الأولية وأما القوى التى تصرفه فلا استقلال لها فى ذاتها بل هى صفة هيولاه الأصلية . فلا مادة بلا قوة ولا قوة بلا مادة ، بل المادة نفسها مظهر من مظاهر القوة المتحركة فى الأثير من الأزل . أما الانسان وما نسبتموه اليه من نفس مستقلة عن الجسد ، وما منحتموها من مزية الخلود بعد فناءه وتبعثر ذراته ، فمما تبطله الشواهد العلمية وتحيله البدائة الشريحية فقد قرر العلم (معاذ الله) أنه لا فرق بينه وبين غيره من الكائنات السفليه ، ولا ميزة له على سواه من الأنواع الحيوانية بل ليس

هو فى ذاته الا حيوانا فاق فى قوة التعقل غيره من بنى نوعه ؛ على أن بنى نوعه (الحيوانات) ليست محرومة من قسط مناسب من العقل والفطنة ، واذا أردت الدليل فدونك كتب حياة الحيوان تر من آثار الفكر ونتائج العقل مايدلك تمام الدلالة على أن العقل ليس وصف الانسان المميز ولا حد الانفصال بين العالمين الحيوانى والانسانى . فاذا نسبت للانسان روحا مستقلة عن الجسد ومنحتها مزية الخلود والبقاء ، فلم لاتحكم هذا الحكم نفسه بالنسبة للحيوانات · اليس هذا من آثار المعلومات السابقة الناقصة حينما كان الناس لايميزون بين مايؤيده الحس والعيان وبين ماهو من قبيل الخيالات التى تنشأ فى الوجدان بلا روية ولا امعان ؟

أما الفضائل التى تقرعون الآذان بها ، وتضربون وجوه مناظريكم بسلاحها ، مدعين أنكم قادتها و زعماؤها ، وأن بيدكم حلها وعقدها ، وأن لكم حق السيطرة على الناس بها ، فليست فى الحقيقة تبعاً لتعليم من التعليم ولاحقاً لناس دون ناس ، بل هى تابعة لنواميس طبيعية تظهر فى الأمم الحية ظهور آثار سائر النواميس الأخرى ولاعلاقة لها بدين البتة ؛ بل الدين مشتق منها ومتفرع عنها . الاترى أن أكثر المتدينين بعداء عن الفضيلة مغمورين فى غمرات الرذيلة ؟ دونك الاحصائيات المدققة التى يستقصيها علماء الجرائم مثل (لومبروزو) و (فيريرو) و (سيرجى) وغيرهم ترى بعينك ان أكثر الجرائم صادرة من المتدينين الذين يزعمون أن لهم ارتباطاً

بالدين ، وغيرة على تعاليمه ثم انظر بعد ذلك للأمم التى تركت الأديان ، وجعلتها خبراً لـكان والتفتت للمدنية والعلوم الطبيعية ، ترأنها قد دبرت أمورها ، ونظمت شؤونها ، فقامت على قطب الاستقامة والاستقلال ونحت منحى الكرمة والجلال ، وكشفت لهـا المدنية عن وجهها الباسم ، وتجلت لهـا الحضارة فى شكلها الفاتن ، فسيطرت على الأمم الأخرى بعلومها وصنائعها ، وقهرتهم بقوتها وسطوتها ، كأنها صارت بالنسبة اليهم علماً فى فضائلها وآدابها ؟

إذا كان لافضيلة بغير الدين ، وأنها مطابقة لذات التعاريف التى تكلفون أنفسكم باثباتهـا فى كتب الأخلاق ، فما سبب هـذه الآثار المدهشة للعقول المضللة للمدارك ؟ إذا كان الانسان كما تقولون خلق مستقلا وأنه من طبيعة علوية ، وأنه مستعد لأن يسمو بروحه إلى أرقى منصة للحياة الملكية ، فلماذا هبطتم وعلا عليكم أولئك الذين يزعمون ان الانسان من سلالة القردة وان بينه و بين الحيوانات أواصر من القربى ، ووشائج من الرحم ؟ إذا كانت الفضيلة كما تقولون لا تثبت للانسان بغير دين ولا تلتصق بضميره بأى عامل غيره ، فلماذا حرمتم من أصغر أنواعها ، وسبقكم فى باحاتها أولئك الذين يقولون إن الفضيله صفة من صفات الحياة الانسانية والرذيلة كذلك ، تنشأ الأولى عند ما تكون شؤون تلك الحياة جارية على سمت طبيعى ملائمة لسنن الكون ، وتبرز الثانية فى ضد تلك الحالة ؟

أما ما تزعمونه من أن لا قيام للأمم بغير الدين ، ولا نظام لهم سوى

حبله المتين ، فما لا تحتاج معكم فيه إلى كبير جدال ، ولا كثير قيل وقال ، فدونكم الأمم الغربية الكبرى قد بنت عظمتها بملاشاته ، وأقامت وحدتها بمنابذة أشياعه ، وتشتيت شمل أتباعه ، ومع ذلك فلها كل يوم فى سجل المعالى أثر جديد ، وفى حدائق الفخار والمجد صرح مشيد ؛ فان كان الأمر كما تزعمون فما هذا الأثر المنعكس ، وما تفسير هذا الأمر الملتبس ؟ أليست كل هذا البراهين المحسوسة تدل على أنكم متمسكون بأقوال لايقوم عليها من عالم الشهود شاهد ، ولا ينهض لها من واقع الحوادث مدافع ! لاجرم أنكم تتأخرون ونتقدم ، وتخضعون ونتحكم ، ولاغرو إن علونا وسفلتم ، وعززنا وذللتم ، كما لاعجب ان استخدمنا نواميس الكون وأسرتكم ، واستدررنا خيرات الطبيعة وحرمتكم .

كل هذه الشبه المتعاصية قد نشأت فى وسط هذا العلم الأوربى ، ونبع سمها من بين ذرات دسم هذه المدنية العجيبة . فالتاثت أكثر العقول بأقذارها ، وتسممت بسمومها ، فدارت على محاورها ، وجرت على مخالجها ، فتأدت إلى حال سندرسه هنا إن شاء الله درساً مدققاً .

هذه السموم بعينها سرت إلى أكثر أفراد شبيبتنا الاسلامية ، التى نهلت من دن العلوم الأجنبية ، نخلعتها عن مجموعها وذهبت بها مذهباً لايجعلها مع هؤلاء ولا هؤلاء . وكفى أمة عجزاً أن لا يكون لشبيبتها وجهة

حلت هذه الشكوك والشبه من قادة النشأة وزعماء التقدم فى

البلاد الأجنبية محلاً علياً ، جعلتهم ينبذون معتقداتهم ظهرياً ، ويجعلونها نسياً منسياً ، وأمراً فرياً ، ولـكن قام مقامها موقتاً لديهم غيرة قومية ، وحمية جنسية أولغوية ، لمت شعثهم ، وضمت أجزاءهم ، ولاءمت بين أميالهم حيناً ظنوا فيه امكان قيامهم بدون الدين ؛ بل زعموا أن مصدر رقيهم ، ومنبع نظامهم والتئامهم ومنشأ ألفتهم ووئامهم ، هدم تعاليمه وتذريتها فى الهواء . ثم لمـا استقاموا على هذه المفازة الخطرة حيناً من الزمان ورأى قادتهم ورؤساء معارفهم أن هذه خطة عوجاء ، وسراب ليس وراءه ماء ، وأنهم بالادمان على متابعة خطتهم هذه الهلاك الملاشى والبلاء والمستأصل والحـاجة الـكبرى التى تهـدم عروش مدنيتهم ، وتطفىء نور حضارتهم ، وساعد هذا الأثر عندهم ما أحسته نفوسهم من الفراغ الموحش لفقد العقيدة بمستقبل أرواحهم ، ومصير حياتهم ، حنت فطرهم إلى الدين الصحيح حنين البائس ينتظر فرجة ، ويتنسم من روح الخلاص نسمة ، ولـكن أين الدين ؟

كانت الفلسفة الحسيـة فلسفة الفيلسوف (اجوست كونت) واتباعه القائلين بأن كل معقول لايؤيده شاهد من الحس جاز أن يكون ضـلالا آخذة من الأفكار مكانة لايمكن قلعها منها ، ولمـا كانت أسس الدين من عقيدة وجود الروح وخلودها فى دار غير هذه الدار مما لايمكن الاستدلال عليه بمحسوس جازت أن تـكون ضلالا لاحقيقة له فى الواقع ، فهى على حسب أسلوب هذا المذهب الـكثير الأشياع من قبيل مالا يمكن إثباته ، ومالا بد من عدم الخوض فيه .

وما معنى دين بدون روح وخلود ونعيم وشقاء فى دار بعد هذه الدار ؟
اذن كيف يمكن الاعتقاد بدين فى عصر هذه فلسفة بنيه وتلك مبادئها ؟
لكن الله أكرم من أن يخيب سائلا ، وارحم من أن يطرد عن بابه
طارقا . ارسل عليهم من جهة فلسفتهم هـذه آيات تأخذ بالأعنـاق
خضوعا ، وبالأبصار والبصائر دهشة وخشوعا ، فنشأت أبحاث سموها
(ابنوتزم وما نيتيزم) التنويم المغناطيسى و (اسبرتزم) استحضار
الارواح وغير ذلك استدل منها علیتهم على أن للأنسان روحا
فأنشؤا مئات من المجلات والمجامع . وعقدوا لهاالمؤتمرات والمحافل .
وألفوا فيها الـكتب والرسائل . وبلغ عـددهم من العلماء الاعلام ،
وقادة المعارف العظام . والمحامين الأماثل . والـكتاب الفطاحل . ما
لا يقـل عن عشرين مليونا وكل يوم يزيدون على هـذا فهم لم يقعوا
حتى نهضوا . ولم يضلوا حتى كادوا يهتدون ، ولـكن شبيبتنا التى شربت
من حوض علمهم . وتشبحت فى أذهانها صور معلوماتهم ، لم يشاؤوا
ان يوسعوا دائرة معارفهم وكأنهم لم يعلموا أن ما يدرس فى المدارس
من العلوم الطبيعية والرياضة ليس الا قطرة من بحر لا تنقع صدى ،
ولا تروى غلة ؛ بل كأنهم يعتقدون أن العلم واقف حيث هو عن عهد
(اقرازيير) و(تورسلى) و (ماريوط) و (ڤولتا) وان باب الرحمة
الالهية اغلق فى وجه بنى آدم والعياذ بالله ، فلا مرمى بعـد مرماهم
ولا مذهب بعد مذهبهم ! ثم نسوا ما تعلموه أيضا ولم تحفظ ذاكرتهم
منـه الا شكلا مشوها ليس له أصل يعتمـد عليه ولا ركن يرتـكن

اليه.فهم على مذهب (اجوست كونت) و (داروين) بدون أن يكلفوا أنفسهم معرفة ماهية مذهبهما ولا أصول نظرياتهما ، وكأنهم كفاهم أن يكونوا (اجوستيين) و (داروينيين) أن يروا شيئاً من فلسفتهما فى بعض الكتب ليس آتياً على أسلوب صحيح ، ولا سلك فيه كاتبه مسلك التحليل والاستقراء. ثم أنهم على فرض تعمقهم فى مبادئ فلسفة هذا العصر وتغلغلهم فى مناحيها تدقيقاً وتمحيصا ، لم يكلفوا أنفسهم النظر فى ماهية الاسلام ليروا إن كانت مبانيه مما يهدمها مثل هذه النظريات أو بالعكس تقويها وتسندها.

نحن لسنا من أعداء المعارف الحقة ، ولا من أضداد فرع من فروع العلوم الأجنبية الصحيحة ، لان الاسلام دين غايته العليا الحقيقة ، وغرضه الأسمى تخليص الانسانية مما ران على فطرتها من خبث الأوهام ، وقذر المعتقدات الباطلة ، فغايته وله المثل الأعلى كغاية مذاهب (اجوست كونت) و (باكون) وغيرهما فى تنقية المدارك من أدران الباطل ، وأسلوبه أدق من أسلوبهما واجمع للشرائط الموصلة للكمال الانسانى من كل وجوهه كما سيتضح لك ذلك عند إيراد تلك المذاهب ومقارنتها بالاسلام إن شاء الله

سيشمل الجزء الأول من مؤلفنا هذا عدا عما سبق على كلام مشبع على حياة الانسان وتطوراته وأسباب شقائه ومناشىء بلائه وماهية سعادته وطريق الوصول اليها .

خلق الحيوان على حال لا يستطيع عنها محيصاً ، ولا يرتقى فوقها

درجة ، وحصرت قواه العقلية والفكرية فى دوائر لا يستطيع تعديها
من تلقاء نفسه ولا بواسطة غيره ؛ ولكنه وهب فى مقابل هذا سوقاً
طبيعيا يهديه إلى مصالح وجوده جملة وتفصيلا ؛ حتى أنه ليأتى فى تربية
صغاره والعناية بها أموراً يعجز أكثر أفراد النوع الانسانى عن
معرفتها وإدراك أسرارها . فبينما ترى مثلا أن أكثر الأمهات والآباء
من نوعنا الآدمى يقتلون أفلاذ أكبادهم باتخامهم بالأغذية الدسمة قبل
وصولهم إلى السن المناسب لتعاطيها، ترى الهرة بجانبهم لا تعطى صغارها
شيئاً من المأكولات الدهنية إلا لما يبلغون سنا معلوماً فتراها قائمة
بتربيتهم على سنة قويمة صالحة حتى يشبوا صحاح الأجسام سليمى
البنية مستعدين لمكافحة العوارض من كل نوع . لا تجد فيهم عمياً ولا
عمشا ولا مهز ولين ولا ولا مما يكثر فى صغار عالمنا الانسانى وكباره ،
وماذلك إلا لأن الخالق جل شأنه فطرهم على قوانين حكيمة لا يتعدونها
فهم يقضون حياتهم فى سعادة مناسبة لهم تمام المناسبة . أما الانسان
المفطور على غير هذه الفطرة فتراه جاريا على غير هذه السنة : تتناوله
الجهالة من جميع جهاته ، من يوم ميلاده إلى يوم وفاته ، فتتقاسمه
الأمراض والأوصاب ، وتتنازعه الأعراض والمعاطب ، حتى أن
كثيراً من أفراده يموت على أتعس حالة بعد أن يكون قد عاش حياة
كلها نكد وكدر ، ومضى عمرا كان عبئا ثقيلا على البشر . لم هذا ؟
هل خلق الانسان أحط من الحيوان ؟ هل متع الحيوان لجهاده الحيوى
فى العالم بأسلحة أمضى وانسب لنوال غايته من أسلحة الانسان ؟ هل

كتب على الانسان الشقاء والبلاء وقضى عليه أن يمضى أيامه بين مزعجات الكون ومبيداته يقذفه تيار من المصائب، ويتناوله آخر من النوائب، وهو بينهما لا يكاد يستفيق حتى يغشى عليه، ولا يتخلص حتى يوثق من رجليه ويديه ! فهل سألنا أنفسنا يوماً قائلين ماهو الانسان، وماهى الحياة، وماهى المصائب، وما علاقتها بالانسان، وماحكمتها ولم صبت عليه صباً دون غيره من الكائنات الأرضية وكيف التخلص منها إن كان يمكن منها الخلاص، وهل الخلاص معقود بما هداب العلوم أو مرتبط بعلائق الدين، ماهو الدين وماهى الدنيا، كيف يتحدان وكيف يتنافيان وكيف هما ضروريان لحياة الانسان، ماهى الفضيلة وماهى الرذيلة وماهو كنه ارتباطهما بالانسان، هل الانسان مقصور على هذه الحياة فقط أم له عالم آخر بعد هذا الشكل المحسوس، ماهو ذلك العالم وماهى نسبة الانسان اليه وعلاقته به ؟

هـــذه كلها أسئلة يرى كل إنسان نفسه شيقة إلى حلها، مغرمة برفع الحجب عن حقيقتها، وشوقه وغرامه هذان دليلان حسيان على أنه مفطور على البحث عليها ومتمتع من القوة بما يمكنه من الوصول الى معرفتها؛ لأنه لولم يكن مستعداً ومتأهلا لها لما خلق الله تعالى فيه الميل اليها. فماله اذن مقصر عنها وواقف على ساحلها خائفا من الخوض فيها ؟ ماله يئن ويتألم، ويذوب طول حياته بين نيران المعاطب والجوائح، ويموت فى اليوم ألف موتة مما يحتف من شؤون الحياة ومصاعبها، ولا تتحرك فيه عاطفة همة تسوقه الى كشف المستور عنه

من الحقائق التى ترتبط بها سعادته تمام الارتباط ؟ قلنا الحيوان سعيد لكونه فطر على حال خاص وله وظيفة محدودة ولقواه الادراكية دوائر محصورة وتخوم معلومة ، وسعادته كلها مقصورة على أكل وشرب وسفاد وتناسل فما للانسان وهو الانسان يريد أن تكون سعادته حيوانية واحط ؟ فانه يريد أن (يسرف) فى الأكل ولا يتخم ، وفى الشرب ولا يمتلىء ، وفى السفاد ولا يضعف ، وإن يعتدى ولا يعاقب ، ويجهل ولا يضل ، مع أنه لم يخلق حيوانا ولكن إنسانا ، له ذهن يجيله فى ضمائر الكون ، وقوى يتسلط بها على النواميس فيأسرها ومواهبه تستخدم الجن والملائكة ، وله مستقبل لا يمكن لعقله مهما اتسع نطاقه تصوره ولا تحديده ؟ .

أليست هذه هى السعادة الموهومة التى نتطلبها صباح مساء وهى التى نستخدم لها قوانا ومداركنا ، ونستهلك فى تمنيها عواطفنا واحساساتنا ، وننقشها فى أذهان أبنائنا ونبنى عليها أشعارنا ودعواتنا وصلواتنا ؟ أليست هذه هى السعادة الحيوانية بعينها المبنية على الالتذاذ بالطاعم ، والاكثار من المشارب ، والتفاخر بالملابس ، وعدم الشعور بالحياة ، بتمضية الوقت بين الدنان والحدائق ، والغزلان والكواعب ؟ هذه هى السعادة التى يطلبها أكثر النوع الانسانى وليست هى سعادته المكتوبة له ، ولا المخلوقة مطابقة لاستعداده ومواهبه . فمهما طلبها فلا يجدها لأنها لا تليق لسمو ملكاته ولا تتناسب مع علو عنصره . لذلك يموت أكثر الناس وفى قلبهم من الحياة حسرة ، وفى أحشائهم من

لوا عجهانار . ولهذا يسب أكثرهم حظه وبخته ، ويمقت نفسه وجسمه ، ويدعى أن السعادة اسم لامسمى له ، ولفظ لايعنى شيئاً . وليس ذلك فيما نعلم الاجوراً بينا فى الحكم ، وشططا ظاهراً فى العقل ، فان الخالق الحكيم قرن بكل قابلية ما يناسبها من الكمال واللذة ، فكيف يعقل أو يتصور أنه يخلق الانسان وهو أكمل الموجودات وأجملها مجردا من غاية فى الحياة يسكن اليها ؛ ويستتب أمره عليها ؟ اذن لابد من ان يكون للأ نسان سعادة عالية ؛ قطوفها دانية ؛ وحدائقها مزهرة زاهية ؛ وانه منح كل الأسباب التى تؤهله لهـا ، ومتع بكل الأساحة التى تسهل له الجهاد لنوالها ، من أقرب الطرق وأمثلها ، فاذا لم يحصلها بعد ذلك فلا يكون ذلك دليلا على عدمها ، ولكن حجة ناطقه على أنه سائر على غير صراطها وناهج غير سبيلها ، وتائه عن مطلوبه ، وموجه فكره لما ليس له أى أنه يريد أن تكون سعادته على ما وصفناه سابقا على نسق حيوانى ولم يخلق استعداده مناسبا لذلك . فما هى اذن السعادة الانسانية ، وماهى شرائطها وكيف يسلك الانسان مناهجها ليصل اليها ؟ هذا مما يحتاج الى شرح طويل ، وتفسير كبير ، وتقـــديم مقدمات ، واستنتاج نتائج ليست من الفلسفة العويصة ، ولا من العبارات الضخمة ذات الألفاظ التى يذهب فيها الفكر مذهب الحيرة .

اذا انتهى معنا القارىء الى هنا تحقق أن الجزء الأول من مؤلفنا هذا لن يدع ان شاء الله تعالى شاردة من شوارد أحوال الانسان الا قيدها ، ولا مدركا من مدركات الفلاسفة والعلماء فيه الا عقلها ، ولا رأيا من

آراء أكثر الفرق المعروفة فى كيفية نشوء الانسان وحياته وخلوده أو فنائه الا أثبتها ، ولا شبهة ولا شبه شبهة مما يقيمه غلاة المذاهب المادية امام حماة الفضائل ، وما يتدافع به الفريقان من البراهين والحجج الا سجلها . ثم يتبع كل فصل من هـــذه الفصول تحليلات فلسفية ، واستقراآت علمية ، ومحاكات جدلية ، يتضح منها للقارىء صالح الآراء من فاسدها ، وصحيحها من سقيمها ، ومشتبهاتها من صريحها ، وتنجلى له النفس الانسانية جوهرة نقية صافية من كل درن ، مشخصة فى أكمل صورها ، وأجلى مظاهرها ، فى النفس المحمدية العلية ، التى هى النموذج الكامل لكل نفس بشرية تريد أن تتكمل وتتهذب لتستقيم على جادة الحق الأذلى الأبدى وتصل بحركتها الذاتية الى ما أعدلها من مقاوم الرفعة ومكانات الكمال الأقدس . هنالك يعرف الانسان معنى قوله تعالى « انا هديناه السبيل » وقوله تعالى « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين » وقوله تعالى « ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » وقوله تعالى « طه ما انزلنا عليك القرآن لتشقى » وقوله تعالى « ولتعلمن نبأه بعد حين » وسيلى هذا الجزء جزء ثان هو تابع للأول فى الحقيقة ولكنا فصلناه لأهمية موضوعه وسعة مجال ابحاثه وهو فى مبحث المدنية .

المـدنية لفظ شاع وذاع ، وملأ كما يقولون الأسماع ، وصالت به الأقلام فى ميادين التعبير ، وجالت به القرائح فى مجالات التحرير ، وسرى الى العامة ودخل فى مصطلحاتهم فطال معناه مرة وقصر ، وقل

محصوله آونة وكثر ، وعسر فهمه طوراً ويسر ، حتى أصبح الناس والمدنية أقل الالفاظ مدلولا ، وايسر الكلمات مفهوما ، فما هى فى عرف الكثيرين الازخارف الصناعة الأوربية فى الالبسة الجسمية ، والفرش البيتية ، والأوانى الفضية والذهبية ، وما تقتضيه هذه المصنوعات من التهيؤ لاستعمالها ، والتظاهر بها من تعلم لغة القوم وتقليدهم فى عاداتهم وطبائعهم ، وان شئت فقل وما تستدعيه من خفر ذمة الحشمة ، وخلع ازر التقية والجرى وراء ما تهواه النفس تمتعا بقانون الحرية الشخصية . هذا كل أو جل ما يفهمه الكثيرون من معنى المدنية . أما المدنية بمعناها الحقيقى من أنها روح سامية تهبط على النفوس المتهيئة لها فتزعجها الى الحركة والتقدم وتنتقل بها من اوج الى اوج حتى تجلسها على عرش الكمال الانسانى صوريا ومعنويا فمما لم نعتد فى بلادنا هذه على الخوض فيه كاننا قنعنا من كل شيء بقشره الظاهرى وغلافه الخارجى ، اللهم الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم . بناء على هذا رأينا ان الانسانية تطالبنا على عجزنا بتلافى هذا النقص بدرس هذا الموضوع الهائل درسا مناسبا لأهميته مبتدئين بايراد التعاريف الكثيرة التى حددوا بها المدنية ، مارين بالقارىء على معظم الاختلافات بين العلماء فى أمرها ، واقفين به على كل مرمى من مرامى مداركهم ، داليه على جهات قوة كل منهم وضعفه ثم مشهديه بعد ذلك محاكمة دقيقة بين مذاهبهم فيها ليكتنه بنفسه كنه الحقيقة النقية.

هذا الدرس التحليلى الشاق يستلزم بالطبع الاستمداد من جملة

علوم مهمة مثل علوم العمران والنفس وأحوال الانسان وطبائعه والتشريع وأساليبه والسياسة وقوانينها والاقتصاد ودستوره ؛ هذا عدا عما يجيء عرضاً من مباحث التشريح أوالظواهر الجوية وطبائع البلدان والأمم المختلفة ومايستدعيه الحال من المرور على كل مدنية قامت فى العالم القديم وما كان فيهامن علل وجراثيم أمراض وما كان من أمر هذه العلل من السريان فى جسم الأمة وما كان من شأن تلك الجراثيم من الكمون فى جسمها ثم ظهورها وتفشيها بالفواعل الاجتماعية المختلفة ؛ و يمر فى أثناء ذلك طبعا الباعث الحقيقى لكل من تلك المدنيات والدور الذى لعبته فى الوجود والدائرة المحدودة التى حكم عليها بعدم تخطيها بسبب قصر نظر واضعيها ، ومقدار ماجاءت به كل منهامن النفع للعالم ، وماجنته من جناية عليه وكيفية تسلسل تلك المنافع والجنايات بحكم الوراثة الى يومنا هذا . كل هذه الابحاث ستكون بطريقة سهلة يفهمها الخـاص والعام بعيـدة عن مصطلحات الفلسفة والتعبيرات العويصة .

هذا النوع من البحث التحليلى وان يكن شاقامتعبا الاان فائدته كبيرة وعائدته لاتقدر فان الانسان لايستطيع أن يتحلى بما يجهله ، ولا أن يتسم بما لايعرف حدوده اليك متلا لذلك بسيطاً ليس لدى الانسان أحب من المـال بعد نفسه وولده ، وربمـا فاقهما عند بعض افراده ، لانه يعينه على كل رغبية سواء كانت أدبيـة أو مادية ؛ وليست أمم الشرق بأقل طلبا له وشرها فيه من أمم الغرب : ولـــكنك مع ذلك

تراهم أقل من سواهم فيه قسطا ، وأهون من غيرهم منه نصيبا ! لماذا ؟ لأنهم يحبونه ولا يعرفون أساليب جلبه ، ويهوونه ولا يدرون طريق استدراره . هذه حادثة اجتماعية محسوسة . كذلك الحال بالنسبة للمدنية فانهم يحبونها ويتمنونها وتنبسط نفوسهم الى رؤيا مجاليها ومعاهدها ولا يمكن أن يقال انهم لا يودون طلبها كما يطلبها غير هم ، ولا أنهم مرتاحون من حالهم المخجل أمام مزاحميهم من أمم الغرب ، اذن ما المانع لهم عن الوصول اليها ، وما الآخذ بخناقهم دونها ؟ اليس ذلك المانع القاهر هو جهلهم سبيلها ، وعدم المامهم بحدودها وأصولها .

الأنسان مفطور على التكمل والترقى فهو ان تدنى وهبط فلا يكون ذلك لمحبته للهبوط ، فهو لا يهبط الا رغم أنفه ، ويكاد فؤاده فى كل دركة من دركات هويه يتمزق حسرة ، وتسيل مهجته اسى وأسفا ، وأنه لو رآى وهو فى تلك الحالة شبحا يميل لجذبه بيده لا يأنف أن يضحى نفسه له ، تحمسا به وفرحا بمعونته . ولكنه قد يعصى ناصحه الأمين ، ويستغش دليله الخريت ، ويهجو طبيبه وربما ضربه ؛ ولا يقال ان هذا عكس ما نقول ، لأن الانسان فى تلك الحالة المتناقضة يكون غير فاهم ما يراد به ، ولا عارف بنتيجة أمره فان رحمته وتركته حتى يفهم وصبرت عليه الى أن يؤوب الى رشده أتاك تائبا ، وعانقك متحببا متقربا ، ورجاك أن تغفر له ما قد سلف .

هذه حالة الانسان فى كل ما يجهله فان قال قائل بأن الشرقيين ميتون ، أو أنهم لهذا الشكل البديع من المدنية لا يصلحون ، أو أن دورهم انقضى

ونجمهم أفل ، فكل ذلك كلام يصح أن يكون شعرا لا علما ، وخيالا لا حقيقة ،ولا يجوز لمسلم دستوره القرآن أن يصدقه فانه يحرم عليه ذلك؛ بل ربما أداه اعتقاده ذلك الى الكفر ، فانه اليأس بعينه ، واليأس والاسلام لا يجتمعان فى قلب رجل . كيف ييأس مسلم يعرف أن واضع مجد هذه الأمة بأسرها وبانى أسس عظمتها التى أدهشت بها العالم كله ولم تزل تدهشه حتى اليوم،رسول قام بلا جند ولا مال ، ولا أعوان ولا أنصار ، فى وسط أمة لم تعرف للمدنية اسما ولا معنى ولم تستأهل بسبب قحولة أرضها وحالة حياتها الى شيء من الرقى الاجتماعى مطلقا ، والدليل على ذلك انها لبثت فيما كانت فيه من يوم وجودها ليوم البعثة بدون اقل تغير فى شؤونها، ولا ترق فى أمورها ، فلم يلبث فيها زمنا قصيرا حتى نهضت نهضة لو رام الشاعر لها من عالم الخيال صورة تحاكيها ، لضاق به على سعة ارجائه ضيقا يرى معه أن الحقيقية لو تجلت فى كمالها لأغنته عن تكلف الأكاذيب ولا اغتنت هى بذاتها عن كل تفخيم وتجسيم .

فالمسلم اذا تدبر فى هذه الحادثة التاريخية وحدها يصبح وفؤاده مملوء أملا ورجاء بأن حياته مرتبطة بذلك الاكسير الأعظم،والدواء المكرم، الذى حمله الى العالم ذلك الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم ، وانه لو أدرك سره وتركيبه وتعاطاه كما تعاطاه من قبله آباؤه الأولون لم تضره المزاحمات التى تحيط به من كل جانب ، ولم تعجزه المقاومات التى تحتف به من كل وجهة كما لم تضرهم مدنية الرومان والأعجام ، ولم تعجزهم بمؤثراتها عن مزاحمتهم فى مضمار العلاء وميادين الرقى والتقدم،

بل سبقوهم وسيطروا عليهم بعد ان جاروهم وبزوهم . فما هى تلك الروح العالية التى هبطت على هذه الأمة بواسطة نبيها وما هو ذلك السر العظيم الذى حمله اليهم ففرطوا فى حفظه ؟ ذلك مايجب ان يسأل عنه كل مسلم نفسه ؛ وهو ماسنجعله موضوع بحثنا فى هـذا المؤلف الضافى الذيول إن شاء الله .

اما الجزء الثالث من مؤلفنا هذا فقد أعددناه للبحث فيما وراء المـادة وقصرناه على ذلك الا مايمس الموضوع نفسه من المعارف المرتبطة به التى لامندوحة للسير فيه من الاتيان عليها والالمام بها .

الانسان لمـا كان فى دور الفطرة كان يعتقد أنله روحاً لها حياة أبدية فى عالم غير هذا العالم ، وعلى حال غير هذه الحـال لايقر به فى هذه العقيدة شك ولا يخالج صدره ريب ، ولكـنه لمـا خرج من هذا الدور الطفلى إلىدور أرقىمنه ، ودارت فيه القوة العقلية علىمحور البحث والتنقيب ، وتيقظت فيه عوامل اكتناه المساتير والمجاهيل ، وأراد أن لايصدق العقيدة الملتصقة بضميره الا بدليل ، جعل أهم مباحثه البحث عن ذاته للوصول إلى حقيقتها ، لاسيما وهى أحب شىء اليه ، وأعز عزيز عليه ، فظل يسأل نفسه : ماهى الروح فىذاتها ؛ هل لها استقلال وتميز عن الجسد وقوام بدونه ؛ هللها خلود فى دار بعد هذه الدار ؛ ان كان نعم فبجسم أم بغير جسم ؛ ان كان بجسم فهل هو جسمها القديم أم بجسم آخر ينشألها جديدا ؟ ان كان بجسمها القديم ، فكيف يتأتى ذلك بعد ماتضيع ذراته فى أحشاء الأرض ، وربما

دخلت فى تركيب الأشجار والحيوانات بل وربما فى انسان آخر ، وإن كان ينشأ لهـا جسم جـديد فـكيف يكون ذلك بدون خلق تدريجى وأدوار متتالية كما هى العـادة المحسوسة ؟ وإن كان ذلك الخلود بغير جسم فـكيف يحصل ذلك وعلى أى صفة يكون وكيف يتأتى السمع والأبصار والذوق واللمس بدون الحواس الموضوعة لها ؟

خلنا من كل ذلك الا يحتمل أن تـكون الروح عبارة عن مجموع وظائف الجسم ولا استقلال لهـا فى نفسها ؟ ألا ترى الانسان لوحرم الغذاء أوالهواء أوانتزف دمه مات وبطل حرا كه كأن مايسمى روحا متعلق بذاك كله ؟ فمـا معنى وجود روح مستقلة فى الجسم بعد هـذه المشاهدات ؟ إنا نرى الرجل مثـلا اذا قتر على نفسه فى الغذاء ، أولو سكن فى محل فاسـد الهواء ، أو ولو توالت عليـه الأدواء . قل عقله وهبطت حركته وقرب من الزوال والتلاشى ، ألا يدل هذا الارتباط بين وظائف الجسم والعقل أن مايسمى روحا هو الخـاصية العمومية الناتجة من كل هذه الوظائف والحاجات الجسمية ؟ اذ لو كانت فيـه روح مستقلة عن الجسد لدام عقله مؤديا وظيفته لآخر لحظة من حياته ولما وجد ذلك الارتباط التام بين مادة جسمه وقوى عقله . ثم دعنا من هذا أيضا ولنسأل : لماذا قلنا ان لناروحا لها كيت وكيت من الصفات والامتيازات ، ولم نرض للحيوان ببعض شىء من ذلك ، بل حكمنا عليه حكما قاسيا وشبهناه بالآلات الصناعية المحضة مع أنه يشاهد فيه ادراك وفكر واختيار ؟ ألا يعد هذا من الجور فى الحكم ؟ ان كنا

نحكم لأنفسنا بكل تلك الامتيازات بنـاء على مالدينـا من الادراك والفكر ، فلماذا لانحكم بشيء من ذلك لتلك الحيوانات أيضا وفيهاماهو أعقل وأحكم من كثير من متوحشى النوع الانسانى ،

كل هـذه الشبه ترددت فى نفس الانسان من زمن مديد فكان يحاربها بما لديه من الأسلحة العلمية النظرية ، والقضاياالكلاميةالمنطقية، ولـكننا اليوم فى عصر تشبعت الأفكار فيـه بأن العقيدة اذا لم يسندها من جهة الحس دليـل ملموس ، جاز أن تكون خرافة كما ثبت ويثبت مثله فى عقائد المتوحشين ، فما المخلص اليوم من هـــذه الشبه الهائلة والشكوك المتعاصية ،

اضطربت هـذه المسائل فى عقول علماء الغرب اضطرابا شديدا استدعاه ، غلواء أبناء ملتهم فى التشدد فى العقيدة ، والجمود على خرافات الأقدمين ، وتهالـكهم على تقليد أسلافهم ، ولو نابذ العلم وجافى البديهة العلمية ، فحملهم هذا التفريط الى افراط أشدمنه ، فنهضوا نهضة المنتقم ولم يدعوا صقعا من أصقاع الأرض الاوذروا فيـه من هـذه الشبه مالا يدع للعقيدة محلا فى النفس،وتذرع حزبهم لذلك بكل وسيله حتى زعموا أن العلم عـدو العقيدة وعدو كل مايثمره الفكر المجرد، وانه سينتهى أمر هذا التنازع بين العلم والعقائد الى تلاشى هذه الأخيرة مرة واحدة ، وطفقوا يفسرون كل مجاهيل الوجود بالنواميس الطبيعية المعروفة ، ويحلون جـل المشكلات الـكونية بالقوانين المـكتشفة ، فوقعوا فى تفريط مخجل كانت غايته تشويه حياة الانسان وسلبه أغلا

مسلياته ، والهبوط به الى عالم الحيوانية السفلى ، وآل الأمر الى خلل فى تركيب معناه السامى ، وفساد فى جوهره المكرم ، مما سنلم به ان شاء الله فى موضعه الماماً لا يدع للاستزادة مساغاً .

هذه الطائفة انكرت الروح والخلود والبعث والحشر والعقاب والثواب وزعمت أن ذلك كله من خيالات الافكار القديمة وبقية من بقايا السالفين ، سيلاشيها العلم والعرفان ، ويجعلها التمدن فى زوايا النسيان ، فانهم لكذلك يموجون فى قفص من الحيرة ، ويضطربون فى غيهب من الوحشة ، واذا بآية عظمى ، وقارعة كبرى ، ظلت الأعناق لها خاضعة والرءوس اليها منكسة والألباب أمامها حائرة ، والعقول بازاءها باهتة واذاهم بالتنويم المغناطيسى والاستهواء ثم تلاه فن استحضار الأرواح وتجسدها فهبوا ينابذون تلك الخوارق جريا على سنتهم السابقة مع كل مايشم فيه عالم ما وراء المادة . ولكن هيهات ، لم تزل تلك الخوارق تخترق كل ماسدلوه أمامها من الحجب ، وتمزق ماوضعوه حيالها من الأغشية ، حتى دخلت دور العلوم ، وغرف العلماء ، وقصور الملوك ، ومكاتب السياسيين ، وثكنات رجال الحرب ، ولم تدع مجالا من مجالات الحياة الا وجالت فيه جولة استلفتت لها الانظار والبصائر ، فلم يمر ردح من الزمن الا وعشرون مليونا من العلماء والرؤساء يعتقدون بها ويروجونها بواسطة مائتى مجلة تطبع وتنشر فى العالم اجمع بجميع اللغات الحية . فماذا كان من نتيجة هذه القارعة العظمى ؟ كانت النتيجة انهزام الماديين هزيمة كبرى لا يقوم لهم بعدها علم ، ولا يرفع لهم صوت

ولـكن اين الشرقيون من هذه الانقلابات المدهشة ؟ اين شبانهم الذين تعلموا اللغات الاوربية وتشبعوا بفلسفتها الالحادية فينظروا كم فى ضمائر الغيوب من آية وكم فى رحمة الله من سعة ؟

يقول قائلهم اذا انتهى الى هذا الموضع : هذا تجسيم لوهم وتجسيد لخيال قام ببعض العقول الساذجة فى أوروبا فطنطنوا به كما هى عادتهم فى كل أمر ، فقام صاحبنا هذا يردد صداهم ، ويؤمن لدعاهم ، بدون تحكيم العقل ، ولااستقصاء العلم . هذا مما يمكن أن يقوله بعضهم ممن لم يطالعوا فى هـذا الأمر سطرا ، ولم يجيلوا فيه فكرا ، مع أن الحقيقة فوق ماصورناه ، وأهمية تلك المسائل اليوم بين العلماء أكبر مماذكرناه ، وسيرى مطالع مؤلفنا هذا مما سنرويه عنهم ، ونسنده الى علمـائهم وفلاسفتهم خاصة من الذين كانوا بالأمس ماديين لايصدقون بشىء ، مايجعله يقول كما قال الاستاذ الأميريكى الشهير (هيزلوب) « العالم على وشك حصول انقلابات كبيرة » ويردد مافاه به العلامة (لودج) الانجليزى : « إن الحائط الموجود بين العالمين المـادى والروحانى أخذ يرق شيئاً فشيئاً وسينتهى أمره بالزوال مرة واحدة » ويرجع ماقاله الاستاذ الألمـانى (كارل دوبرل) « العلوم الطبيعية تجارت على التـكذيب بعقيدة الآخرة فسيعاقبها الله بأن يجعلها تقيم على وجودها البرهان القاطع »

أما كتابنا الرابع فسيكون موضوعه حياة سيد الوجود صلى الله عليـه وسلم .

لانعـلم بحثا أدق موضوعا ، وأدعى إلى العناية والاهتمام بالنسبة للعالم الاسلامى بل الانسانى من هذاالموضوع السامى . اذا كنا نعتقد أنه لاسبيل الى صلاح حال المسلمين ولاطريق الى استردادهم لمجدهم القديم ، وسؤددهم الأثيل ، الا بالرجوع الى دينهم الفطرى خالياً من درن البدع التى ألصقت به ، والقاءهم بأنفسهم بين يديه ، فلا يتأتى ذلك البتة الا بالمامهم بماهيته واسراره ، ووقوفهم على حقيقته وأنواره ؛ ولا يمكن الوصول الى تلك الحقيقة النقية ، وذلك النور الناصع الا بدرس ذلك القلب السامى الذى أشرق فيه هـذا الدين بادىء بدء ثم انعكس منه على غيره . بهذه الطريقـة نستطيع أن نعرف ماهية الدين فى ذاته وندرك كنه تأثيره على المعنى الانسانى النقى من ران الوساوس ، فنكون بهذه الصفة قد درسنا الشىء فى منبعه ، واستشرقنا البدر من مطلعه .

نعم إن درس هـذا الفؤاد الكبير أمر عسير . بل إدرا كه على حقيقته مستحيل على من لم يبلغ مبلغه من السمو الروحانى ، ولم يضرب مثله بسهم من العلاء الملكوتى ، لأنه لا يعرف الفضل الا ذوو الفضل ، وهيهات أن يحدد التصور درجة ذلك القلب العالى من عالم القدس ، أو أن يشرف على منزلته من حظائر الملأ الأعلا : ولكن الخالق العليم إذ أراد أن يكون ذلك الرسول الكريم الواسطة العظمى بينه وبين عباده ، والناشر الأمين لكلمته العليا ونوره الفياض بين مخلوقاته ، أبدعه على صورة ينجذب اليها كل نوع من أنواع العواطف الشريفة ، ويتعرف اليها كل جنس من أجناس العقول الانسانية ، ليصح أن

يكون حجة لله على خليقته ، وسببا لأفاضات الرحمة على عبدته ، ولو كان على غير تلك الصفة لـكان للناس عذر فى عدم التصديق به لعلوه عن متناول عقولهم ، ولعدم وجود نسبة بينه وبين عواطفهم وأميالهم يتوصلون بها إلى ادراك وظيفته ، ولجاز أن يرسل الله اليهم رسلا من الملائكة وهو ممـا تأباه الحكمة الالهية ولم تجر به سنته تعالى بين البشر

الانسان مهما سفل فى حضيض النقص والخسة ، وانحط الى دركات الغى والدناءة ، فلا يعدم خاصية التمييز بين القبيح والجميل ،ولا يفقد صفة الانجذاب الى الكمال حيث يراه . والنفوس وان كانت تتفاوت مراتبها فى هذه الخاصية ، وتتفاضل احساساتها فى تلك الصفة ؛ الا أن الجمال والـكمال فى ذاتهما قوتان جذابتان ؛ ولو تجلتا لنفس من النفوس قاومتا كل مايعترضهما من حجب الغفلة وإستار الحرمان ، وأثرتا على الفؤاد الانسانى مهما كانت صفته تأثيراً لايمكن محوه منه بوجه من الوجوه . ألا ترى أن أصحـاب الدعارة واحلاس الخسة والدنايا من الناس لايزالون يحترمون الفضلاء ويشعرون لهم فى أنفسهم باعزاز وإجلال مع مابين الفريقين من التباين فى المشارب ، والتخالف فى النزعات والمذاهب ، ولوجردنا النفس الانسانية من هذه الخـاصية فماذا نبقى لهـا بعد ذلك .

السنة الحكيمة التى نشاهدها فى بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام ان الله جل وعز يصطفيهم فى أممهم من أشرف معاصريهم نسباً ، وأعلاهم حسباً ، وأقواهم جسما ، وأزكاهم عقلا ، وأنداهم بالعرف كفاً ،

وأكرمهم خلقا ، وأكثرهم علما ، وأحكمهم سياسة ، وأرجحهم كياسة ؛ وأبسطهم بالمكارم يداً ؛ وأوسعهم بالحلم صدراً ، وأضوأهم بالبشر وجهاً ، وأسمحهم بذلة العبودية نفسا وأتعبهم فى مرضاة الله جسما ، رأفة بالناس ورحمة بضعفهم ، ليسهل الرضوخ لهم من الملك فى سطوته ، والشريف فى علو عنصره وسمو محتده ، ومن الشجاع فى قوته ورباطة جاشه ، ومن الفيلسوف فى نفوذ فكرته وسعة حكمته ، ومن السياسى فى دقة أساليبه فى سلوكه بين رعيته ، ومن السخى فى كثرة بذله وتكرمه ، ومن الصالح فى شدة تورعه ودقة تحرجه ، ومن العابد فى كثرة تهجده وحسن تعبده .

هذه سنة الله عز وجل فى إرسال الرسل الى خلقه أخذا للناس الى طريقه بأشد مايؤثر على عواطفهم ، وسوقا لهم الى صراطه المستقيم بأكبر مايطأ من من كبريائهم ، ويكسر من شرتهم ، ويدلنا الاستقراء التاريخى ان الله عز وجل راعى فى بعثة كل رسول أن يحليه من الصفات بأرقى مااصطلح قومه عليه من مفاخرهم ، وأسباب سؤددهم ، حتى توجد النسبة بينهم وبين نبيهم ؛ ثم يكون سموه فى كل تلك المفاخر والمحامد ، وزيادته عليها بما يكرمه به الله من اشراقات النبوة ، وسبحات الوحى ، مدعاة الى الخشوع له ، والخضوع لما يجىء به من الأوامر الالهية والحكم التشريعية . على هذه السنة الكريمة أرسل الله سيد البشر محمداً صلى الله عليه وسلم فى الحين الذى بلغ فيه الجوهر الانسانى نموه ، وتم فيه لعقله المكرم نضجه وكماله ، وتبينت فيه أشخاص الفضائل

والـكمالات ؛ وتميزت فيه الحقائق من الخيالات ، وعلم النوع الانسانى بوقع الحوادث المتوالية بأن له من الحياة غاية عالية ، ونتيجة شريفة سامية . قلنا أرسل الله فى ذلك الحين رسوله المصطفى جامعا لاشتات الفضائل والسجايا ، شاملا لمتفرقات المواهب والمزايا ،

ان تخيلت الملوك فى عروشها ، والقياصر فى أبهتها ، رأيت أنه صلى الله عليه وسلم أعلاهم فى السيادة كعبا ، وأعطفهم على رعيته قلبا ، وأشدهم على أعدائه صولة ، وأقواهم عليهم شوكة . وان تخيلت القواد وسط كتائبها ، وغطاريف الحرب بين صفوفها ، رأيته صلى الله عليه وسلم أشدهم لها مراسا ، وأقواهم فى هيجائها بأسا ، واسرعهم فى ادارة رحاها يداً ، وارحمهم فى اصلاء لظاها اسلوبا . وان تخيلت الفرسان فى ثبات جاشها ، والشجعان فى جلد أفئدتها ، رأيته صلى الله عليه وسلم أصبرهم فى غمراتها ؛ وأجلدهم فى هياجها ؛ وأطعنهم بالرمح فى صفوفها واضربهم بالسيف فى نحور فرسانها . وان تخيلت الفلاسفة فى حكمتها ، والمتشرعين فى دقة نظرها ؛ فى ادواء الامم وعلاجها ؛ رأيته صلى الله عليه وسلم احكم العالم قولا وعملا ; وأنفذ فى علل الامم وطبها نظرا . وان تخيلت الشعراء فى سعة خيالها ؛ وسبحها فى بحار الابتـكارات وغوصها ؛ رأيته صلى الله عليه وسلم أبعد منهم فى مجال وصف الحقائق مرمى ، وأكثرمنهم لشوارد المعانى المبتـكرة اصابة . وان تخيلت الخطباء فى منابرها ؛ وهى تخلب الافئـدة بسحـرها ؛ وتأسر الالباب ببيانها ؛ رأيته صلى الله عليه وسلم أحسنهـم بضروب الـكلام علما ؛ وأكثرهم

لأفئـدة سامعيه اسرا . وان تخيلت الزهاد فى صوامعها ؛ والعباد فى محاريبها ؛ رأيته صلى الله عليه وسلم فى الزهد صاحب العلم الأرفع ؛ والمقام الاول ، وفى العبادة النموذج الاكمل ، والمثال الأجمل .

من أى جهة نظرت الى سيد العالمين صلى الله عليه وسلم رأيته فيها نسيج وحده ، ووحيد عالمه فاق كل فائق فى صفته وبز كل سابق فى خاصيته ، وفات كل ذى كمال فى كماله مما يدلك بالحس انه النسخة الصحيحة الكاملة للابداع الالهى فى هذا العالم والنموذج الكمالى الذى وضعه الله للبشر نورا يعشون اليه . وعلما يهتدون به اليه . سيكون موضوع هذا الجزء اذن درس حياة هذه الروح الـــكبرى درسا مناسبا لدرجتها وستكون العلوم العصرية الجديدة أقوى وسائلنا فى تجلية هذه الحياة الكريمة فى مظهرها الباهر ، ومجلاها الآسر . متعنا الله بنعمة اتباعه ، وحلانا من اشراقات روحه الكريمة بنفحة من تعطفاته . صل اللهم عليه صـــلاة أبدية سرمدية ، وعلى آله وصحبه واتباعه الى يوم الدين . آمين .

(محمد فريد وجدى)

الباب الاول

معرفة الانسان نفسه

الفصل الاول

تمهيد

يشهد الوجود بتفصيله وجملته ، وينطق التاريخ الطبيعى بلسان حملته ، بل ويقر الانسان على نفسه بنفسه ، بأن الانسان أبدع الكائنات الأرضية من كل ناحية .

أما من جهة تركيب جسمه ، فهو الصناعة المدهشة للفكر ، الباهرة للمدارك ، قد ركبت جميع آلاته تركيباً متناسقاً ، ورتبت على بعضها ترتيبا متناسبا ، لاتجد فيها عوجاً ولا أمتا ، ولا تصادف فيها خللا ولا عيبا ، اللهم الا ماتلحقه به العوارض التى يجرها على نفسه أو تجرها عليه الطبيعة وفى ذلك حكمة ليس هنا موضعها .

تتحرك هذه الآلات كلها حركات منتظمة ، خاضعة لمحرك فرد . وناموس واحد ، فيؤدى كل عضو وظيفته الخاصة به ويبلغ منها غاية خاصة ، فتجتمع كل تلك الغايات المختلفة الى بعضها ، وتأتلف ائتلافا متناسبا مضبوطا وتؤدى الجسم الى صراط العدل المستقيم ، وتفيض على جميع اجزائه روح الراحة والصحة الى حين

عجيب أمر هذا الهيكل الانسانى : حركات دائمة ، ومجهودات من اجزائه متواصلة ، لاتهدأ مطرف عين ، ولاتقف لحظة من زمان : قلب يرتجف ، ومعدة تعمل وعصارات تفرز وسوائل تتحلل وتتركب وتترشح وتتصعد ، وغازات تتكون وتصعد . وغدد تختزن السوائل لحين الحاجة ، ودم دائب الجريان فى اجزاء الجسد ، وخلايا بسيطة تتلاشى وتتكون وتتكاثر الى غير نهاية وكل هذا لايهدأ لحظة ، ولا يسكن آونة من ليل أو نهار !

اليك من الجسم الانسانى مثالا عجيبا وقس عليه غيره : للانسان عين ترسم الأشياء على شبكيتها ، كيف ترسمها بهذا الضبط ؟ وكيف تصغرها بكل اجزائها الدقيقة ؟

يعلم كل من رأى التصوير الفوتوجرافى أن المصور يظل يقرب عدسة آلته مرارا ويبعدها ، بعد مايكون قد أعد لنفسه غرفة ذات أستار محكمة ونور كاف ، حتى يضبط البعد المناسب ثم يأمر من يريد أخذ صورته أمرا صارما بأن يلزم مكانه ويقف أمامه وقفة التمثال لأن أى حركة منه تؤثر على الصورة فتفسدها حتى انه ليغشى على بعض العصبيين من تلك الوقفة المضجرة : وبعد هذه العملية الثقيلة كلها قد يقف المصور أمام الشخص حانيا ظهره قائلا : عفوا ياسيدى ، أرجوك أن تقف مرة ثانية فقد أطارت الريح الستارة التى كنت أقمتها لحجز الأشعة فدخل منها اكثر ممايلزم فجاءت الصورة على غير مايجب .

أما العين ومادراك ماالعين ؟ فانها قدترسم لك فى الدقيقة الواحدة

ستين مرئيا منتظما مختلفة فى القرب والبعد والطول والقصر ، والكبر والصغر ، بدون أن تتكلف لها مشقة ولا تعبا .

المصور ان لم يتعهد آلته ولاسيما عدستها الزجاجية بالتنظيف والجلاء كل يوم فلا تؤدى وظيفتها الا على اسوإ حالة ؛ أما العين فقد يعمر الانسان مائة سنة حافظا لقوة الابصار وبلورية عينه لم تطالبه بشيء من ذلك . ولو أراد صاحبها تنظيفها لما استطاع الى ذلك سبيلا بل قد يعيش الانسان مائة وخمسين سنة ولا يدرى من تركيب عينه شيئاً ولا خطر بباله أن يسأل عنه غيره . هذا من حيث العين وهى من أصغر الاشياء فى الجسم . أما اللمس والذوق والمعدة والاعصاب والأوتار والأوردة والشرايين والقلب والرئتان وغيرها من اجزاء هذا الشكل الانسانى فمما يحير الفكر ، ويبهر العقل ، ويقضى على الانسان بالدهشة والحيرة حقيقة . كيف لا وقد حيرت العلماء الذين قصروا أعمالهم وأعمارهم على تقصى عجائبها ووقفوا حياتهم لدرسها ، فسبحان « ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » القائل « انا خلقنا الانسان فى أحسن تقويم » (١)

هذا حال الانسان من حيث جسمه وأنت تعلم أنه موضوع البحث والفحص من منذ ألوف من السنين ، ولم يزل أعجوبة العلم ، ومعجزة الخليقة ، وطلسم الكائنات الأرضية

---

(١) من أراد التوسع فى عجائب جسم الانسان فليطالعه فى كتابنا (الفلسفة الحقة فى بدائع الاكوان)

أما حالته من حيث روحه ومعناه فبحر لايدرك له ساحل ، ولا نهاية يتوه فى أرجائها الفكر ، وينقطع عنها العقل ، وتنحل دونها عزمات الروية ، وتقف أمامها البصيرة حيرى ، والعقل كليلا .

اذا كانت منزلة الهيكل الانسانى من العالم المادى نهاية الابداع ، وغاية الاختراع ، وزهرة الخلق والدليل الظاهر على وجود الحق ، فكانه روحه من عالم الملكوت السر الالهى ، والنور الربانى ، وصورة الجمال الأقدس ، والكمال الأقدم ، سكنت وهى هى فى جمالها وكمالها أبدع أشكال المادة تركيبا وهو هذا الجسد الانسانى ، فناسب الخالق الحكيم بينهما مناسبة أوجدت هذه الوحدة المحيرة للعقل التى نراها بين الانسان وروحه ليؤديا باتحادهما وظيفة شريفة فى عالم المادة تتميما لقانون الهى أبدى . وتكميلا لأبداع قدسى أزلى ، ان غاب عنا ادراك غاية كنهه ، ففى درس بعضه تسلية فى دار الغربة ، ومعز فى قرار المحنة .

- طبع الأنسان على حب ادراك المجاهيل ، واكتشاف المساتير ، وهتك حجب المضمرات من الأشياء ، وتاريخه من أول وجوده لليوم أكبر شاهد على مانقول .

يشاهد هذا الخلق منه طفلا ويافعا وشابا وهرما وفانيا كأن فى صميم معناه زاجرا لايهدأ يحدوه للبحث والتنقيب ، ووازعا قويا يزعه عن الوقوف فى معلوماته عند حد ، فهو من هذه الجهة كأنه خلق ليعلم ، ولو كان غير ذلك لقنع من العلم بقسط معلوم ، ولرضى بأمد منه محدود ، ثم انه من جهة أخرى منهوم بالادراك ، مشغوف بالفهم ، يزيده ادراكه للشىء

قوة على قوة فتضاعف خاصية ادراكه على نسبة ماأدرك من معلوماته فيزيد نهمه ويشتد طلبه وينمو الى المدركات ولوعه وشغفه كأن خاصية إدراكه غير محصورة ، ومداها غير محدود ولو كان غير ذلك لكان كلما ازداد ادراكا للأشياء قرب من الشبع بما حصل ، والرضاء بما اليه توصل .

اذاجاع الانسان طلبت معدته الغذاء لحاجة الجسم وكان ألم الطلب على قدر عظم الحاجة ، ومتى بدأ الانسان بالأكل أخذ باعث الطلب يقل شيئا فشيئاعلى نسبة حصول الأكل حتى تكتفي المعدة فيفنى عامل الطلب

أما طلب الروح للعلم وحصولها عليه فليست على هذه السنة نراها طالبة للعلم دائما وكلما نالت منه شيئا فلا يكون نوالها له مقللا من شدة الطلب بل منميا لعامله . ويرى الانسان روحه تدرك ولكن لا يقرب بها ذلك الادراك من الرضاء بل يزيدها طلبا للأدراك ، وباعثا عليه ، على عكس مايحصل فى الأمور المحسوسة . كأن غاية الروح أن تدرك علما لاغاية له ، وكمالها نوال كمال لها نهاية بعده .

***

ما من انسان فى الوجود الا وهاله أمر الحياة ، وشق عليه شأنها واحتوشته من أول يوم من ميلاده لآخر لحظة من حياته ، أحوال يرى نفسه بينها كالذرة الصغيرة سابحة بين أمواج بحر عجاج تدفعه موجة الى الأمام ، وترده أخرى الى الوراء ، وتتلقاه واحدة ذات اليمين ، وتجذبه الثانية ذات الشمال ، ثم تضغطه كلها بمجموع قواها

فتنازعه فى موقف لا أجد له من لغة الانسان وصفا ، ولايزال هكذا حتى تشتد عليه الأحوال فتضعف آلات جسمه ، وتهرم أجهزة أعضائه فيودع الحياة ويذهب الى حيث أتى . الى أين ؟

هـذا موقف الحيرة ، وموضع الدهشة ، ومضطرب الذهن ، ومزدلق الفكـرة .

يولد الانسان فيقوم بتربيته أبوان أو أب واحد أو مرب فيشب بين تكاليف ومشاغب يختلس منها اللهو اختلاسا ، وفى لهوه البلاء المحقق ، وهو يعلم ذلك من نفسه فيشب فى وسط يشكو أهله عين شكواه ويلاقى من حياته مثل ما يلاقون ، فيكبر وفى نفسه ميل الى النجاة مبهم ، وفى قلبه سوق الى الخلاص مضمر ، فيفكر فى وجه الحيلة ، ويعمل قواه الكامنة فى ابتكار الوسيلة فلا يجد أمامه الا ما يعطيه له ذلك الوسط الذى درج فيه فينساق بطبعه الى التقليد فيقع فى مثل ما وقعوا ، ثم يقف حيث وقفوا ، ولا يسعه الا أن يضم صوته الى اصواتهم فى الأنين فيكون تسليته الوحيدة فى دنياه انه تعيس بين تعساء ، وصريع بين مصروعين .

هذا الموقف المدهش بعث الى قلب الانسان فى الأجيال المتأخرة اليأس من الطمأنينة فجعله شعاره الحقيق اللاصق بضميره . أما الرجاء فجعله ثوبا عاريا يتظاهر به بين اخوانه كما يتظاهرون به أمامه . فتجده ان ضحك فلا يضحك الارياء يتصنع الفرح وفى فؤاده نيران متقدة تحمشها أمور جلى ، وخطوب عظمى ، يخفيها مضطا لفقد الآسى وعدم

الطبيب . وهو ان أكل وشرب أو تزين فلا يفعل ذلك الا وهو سادل على صوت ضميره الف غشاء حتى لا يسمع احتجاجه عليه ولا يعى ما يلقيه من القوارع والقوارص اليه ، فيغش على هذه الصورة نفسه غشا له فى محكمة قلبه عقاب صارم يعرفه ولكنه يتحمله رغم أنفه لعدم امكانه العيش على غير هذه الصفة ، لأنه لو أصغى الى الصوت الجهورى المنبعث من معناه الانسانى وعرف ماهية تكاليف الحياة لامتنع عن الأكل والشرب ولجمد مكانه من شدة الاسى على عظم المسؤولية ، وعدم الحيلة المنجية .

ماالتاجر فى حانوته يقاول ويبايع ، وماالزارع وسط مزرعته يحرث ويزرع ، وما الصانع فى معمله يتفنن ويجتهد، وماالغنى بين أملاكه يحسب ويختزن ، وما العاطل وسط الطريق يتمنى فى نفسه الامانى ، الا وهو حامل بين جنبيه خطوبا تضطرم اضطراما وأمورا تصطك ببعضها اصطكاكا لا علاقة لها بأمور جثمانه أصلا ولكنه لا يعرف لها تحديدا ولا يستطيع لها وصفا ، ولا يفهم لها مضمرا ، ولكنها من الهول بحيث تريه أن ماهو فيه من مال ومتاع ، وخدم ، وأتباع ، وقول مسموع وأمر مطاع ليس بشىء يذكر ، وماهو الاعرض حائل ، وظل زائل ويرى نفسه مفطورة على أن لا ترضى بشىء مهما عظم شأنه وكبر أمره ، مادام بين جنبيه تلك العلل المعنوية ، والأدواء القلبية .

ماهو هذا الداء الدفين الذى يحرم الانسان من التمتع بملذات حياته ولطائف معيشته ماهى هذه العلة السرية التى تنغص فؤاده ، وتبلبل

باله ، وتزعجه فى اهداء أحواله ؟ هل يصح أن يكون هذا حال الانسان فى الوجود مع أنه أرقى الكائنات جسما ، وأعلى الحيوانات روحا ، وأقدر من كل ماعداه من الأنواع الحية على استخدام أشياء الكون لمصالحه ؟ كيف يعقل أن يكون حال الانسان على ما وصفناه من الألم والحيرة وهو زهرة الابداع الالهى فى عالم الشهادة ، وغاية الاختراع التكوينى فى الوجود المادى باسره ؟

كيف يتصور أن يكون الانسان وهو جمال الدنيا وكمال الموجودات ، أحوج الى نادبة تندب حظه ، ومعددة تعدد له مصائبه ، ونائحة تنوح على بخته ، من مهنىء يهنئه على أنه انسان لاحيوان ، وذو روح تستخدم الملك والجان ، ووجدان يصور له الحكمة والعرفان ؟ كيف يصل الانسان من فقد التسلية واسوداد القلب لحد أن يعمد لترويح نفسه الى ازهاق عقله بشرب الاشربة المحرقة لكبده ، المفقرة لأهله وولده ، المهلكة لأمته وبلده ، مع انه النسخة الكاملة للوجود كله ، والنقطة الجامعة لمتفرق جماله وكماله ؟

كيف تعلل تسفل الانسان فى مطالبه ، واسفافه فى ملذات جسده ، وسلوكه اخس الطرق لنوال مآربه : فيخدع ويكذب ويسرق ويرائى ويقتل مع أنه مستأهل من العلاء العقلى والجسدانى لمنصة يقف أمامها الفكر كليلا ، والبصر خاسئاً حسيرا ؟

لقد استعصى أمر الانسان على نفسه ، وعلى القائمين عليه من عقلاء بنى جنسه ، حتى صار عقدة الاشكالات ، ومعضلة الرويات ، ودوضع

الحيرة والريب ، واصبح هو نفسه بعد ان كان لايخشى الا مبيدات الوجود ومهلكات الطبيعة ، لايرى لنفسه عدوا غير نفسه ، ولالذاته خصما غير من يحيط به من أهله وعشيرته ؟

كيف يصبح عدو نفسه وهى أحب الاشياء اليه . ووجودها أعز الوجودات عليه ؟ وكيف يضحى لا يأمن بنى نوعه وهم الذين يجب أن يكونوا كما كانوا قبل المكملين لوجوده ، والمتممين بأرواحهم لانالته غاية مايتمناه من لذة الحياة وطيب العيش

نعم أصبح الانسان عدو نفسه على علم منه بما أوصل اليه حياته الشخصية والاجتماعية من الارتباك والتناقض فظل لاهم له الا العمل على مايبيده ويبدده .

يشهد الانسان بأن الحق قوام كل أمر ، وروح كل موجود ، والناموس الأعم السائد على كل حركة وسكون من أكبر الاشياء إلى أصغرها ولكنه يرى نفسه مسوقا لمعاكسة هذه العقيدة ، فتراه مرغما ليركب متن الباطل فى كل محاولاته : يكذب فى قوله ، ويختل فى عمله ، ويتظاهر بالحذق فيما يجهله ، وبالقوة أمام مالا يطيقه .

وجعل التصنع ديدنه فاستعمله ، فى مشيته وقعدته ونظره وتسليمه وتكلمه وكتابته وغلا فى هذا السبيل حتى كادت تكون حياته كلها مبنية على رذائل اخلاق اصطلح عليها ، ودنايا صفات الفها ومال اليها ، وانس بذلك لحد أن أصبح يعتقد أن الحياة المدنية تسلزمها وتستوجبها

تراه يعلم علم اليقين أن للطبيعة قوانين يجب عليها ملاءمتها ، وتوفيق

مجهوداته على مقتضياتها ، ولكنه يجد نفسه مسوقاً للسير على عكسها : فيأكل أكثر مما ينبغى ؛ ويتفنن فى أشكال الاطعمة تفنناً يسمه بدل أن يغذيه ؛ ولا يقنع بذلك كله بل يدخل الى جوفه من السوائل المحرقة ، والمخدرات المؤبقة ؛ ما يمتص قوى حياته امتصاصا ؛ ويبدد روابط جسمانه تبديدا ؛ ولا يقنعه الرضاء بذلك على نفسه ؛ بل يعده بالتعود عليه احسن مايكرم به صديقا يزوره ؛ أو انسانايود أن يتحبب اليه .

وأصبح الانسان عدو لبنى نوعه لان الشكل الذى ورط فيه نفسه من اشكال الحياة صار يريه ويوحى اليه أن جميع أفراد جمعيته وبنى جنسه مزاحمون له فى الحياة لامساعدون له على تذليل صعابها ؛ وتيسير مطالبها ؛ فاضحى يكد ذهنه ؛ ويجهد قواه العقلية فى وضع العقبات الممكنة أمام من يعمل مثل عمله حتى أن الشركة اذا نجحت فى ملاشاة جارتها من الوجود وبلغت الغاية من تبديد شكلها ؛ عدت ذلك فوزا عظيما تهنأ عليه وتحبذ من أجله . وصارت الحكومة من الحكومات اذا توصلت لتوريط جارتها فى مشكلة من المشاكل الكبرى وهى اختها فى العقيدة والمذهب تحسب ذلك فوزا عظيما ونصرا مؤزرا تحلى من أجله صدور رجالها بالوسامات المرصعة ؛ وأجسامهم بالحلل المذهبة . وغلت فى ذلك حتى استباحت فى هذا السبيل الكذب ، والرياء ، والمراوغة ، والخيانة !

هذا ما آل اليه أمر الامم المتمدنه اليوم كما سندرسه درسا مدققا ان شاء الله فى موضعه مؤيدا بأقاويل عقلاء تلك الامم وفلاسفتها

ونخشى أن ينالنا ذلك الداء الدوى من طريق العدوى ان لم يقف عقلاؤنا أمامه وقفة حزم واخلاص .

انا لنعلم أن منا من يرى فى كلامنا هذا شيئا من الغلواء لأنهم لم يروا بأعينهم ولم يبحثوا بعقولهم هذاالشكل الذى نحكىعنه . ولكنهم لو كلفوا أنفسهم مشقة البحث فى حالة القوم من جهات متعددة ولم توقفهم سواحر الصناعة وانوار الكهربائية لعلموا أن الامر اهول مما نصف بكثير ولأدركوا ان مسائل الفوضويين وغيرهم من الأحزاب المتطرفة اصبحت جراحا دامية فى جسم تلك المدنية يتوقع منها خطر لا يرأب له صدع ولا يرتق له فتق البتة ان لم يتداركهم الله تعالى بشىء من رحمته . نظام حالة القوم الاقتصادية هى التى تضلل عقولنافى أكثر احكامنا بالنسبة لحال هذه المدنية فان المتحمسين منا بشكل هذه المدنية المادية يرون نظام حالة القوم الاقتصادية فيحكمون بنظامها على سائر أحوالهم الحيوية مع أن هذا النظام الاقتصادى نفسه أشدماتشكو منه أمم الغرب ؛ لانه نظام يجعل الملايين اسراء أذلاء لرجل واحدبيده اسعادهم واشقاؤهم ولو رأى الشرقيون بأعينهم أن السواد الاعظم من تلك الامم حيارى لا يملكون لحياتهم تصريفا ، ولا لأنفسهم من الحقوق الطبيعة شيئا .

ولورأوا أن هذه المخلوقات رجالا ونساء وأطفالا اسراء مسخرين لرجال يعدون على الأصابع ولاينالون قوت يومهم الابشق الأنفس وبذل مهجة الفؤاد امام التنانير المحرقة ، وفى باطن المناجم المظلمة

لاعتقدوا كما يعتقد فلاسفة القوم (وسترى أقوالهم إن شاء الله) إن وصول الانسانية لهذا الحد من الأثرة وعدم رحمة الضعفاء، ومن احتقار النساء والأطفال لابدله قارعة عظمى؛ وصاخة كبرى ولو بعد حين!

فهل حظ النوع الانسانى من الحياة أن توصله المدنية الى إحلال الرذائل محل الفضائل؛ واستبدال الحق بالباطل؟

هل يؤول أمر الانسان شيئا فشيئا لأن يكون قوام حياته المكر والخديعة والمداجاة والكذب والبهتان والمزاحمات.

هذا ماتنا فيه البداهة وتدحضه المحسوسات، إذن كيف وصل العالم المتمدن الى هذا الحد وماهى الأدوار التى دخل فيها فجرته عليه؟ وكيف ينجو المسلمون من الوقوع فيه؟

ومما يزيدنا قلقاً على حالة سجايانا الشريفة اننا أصبحنا نرى بأعيننا تسرب بعض تلك المكاريب الينا تسربا غيرمحسوس! ألانشاهد تهالك كثير من شباننا على تعاطى المسكرات وتعمير أفنية الملاهى والمنتديات العامة وشغل ساعات فراغهم بالدنايا والسفاسف ممايدل على حرج فى الصدر وضيق فى النفس وهروب من وجه الحق!

فهل قضى علينا أن ندور فى تلك الدائرة مع الدائرين، ونطوف أطوارها مع الطائفين حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا، أملم يزل بين ثنيات قلوبنا محل لقبول النور المحمدى الملكوتى تتشربها فتنير علينا مسالك الحياة، وتحيى فى أرواحنا روح الأمل. وتكشف لنا من مستور ضمائرنا سر البقاء وطلسم الوجود؟

الفصل الثانى

للانسان فى باحات حياته مواقف مختلفة تقيمه فيها أسباب شتى وعوامل لاتحصى ، ولكل موقف منها لوازم كثيرة تستولى على فؤاده وتتسلط على عواطفه فتجبره على سلوك السبيل الملائم لها الموافق لمراميها رغم انفه وضد ارادته . وربما كان وهو فى موقف من تلك المواقف يرى نفسه على هاوية حتفه فيريد أن يأخذ بيدنفسه ليحيدها الى ما يعتقد أن فيه سلامته ومنجاته فتخور ارادته وتخونه عزيمته ، ويجده مرغما على الوقوف أو السير ، كأنه مسحوب من أنفه أومقود من يده أو مدفوع من جميع جهاته .

الانسان كائن مفكر تقع عليه الحوادث فلا يدعها تمر بدون أن يتعقلها على وجه ما وقد يقع فى تعقله وادراكه الغلط والقصور ،وقد يخطىء فى تحديد نسب النفع والضر وعلاقتها بوجوده ، وهو يعرف ذلك من نفسه ، الا أنه مطبوع على أن يفتكر فى حوادثه ليدرك وجه العلاقة بينها وبينه .

العوامل التى تدفع الانسان بقواها ومؤثراتها فتقف به فى ساحات وجوده المواقف المختلفة كثيرة متنوعة متداخلة فى بعضها . منها ماهو طبيعى ومنها ماهو كسبى ومنها ماوجوده معلق على ازدواجها ولكل هذه الفواعل سير خاص ، واتجاه خاص ، وتعرجات خاصة ، وتأثير

لايشتبه بغيره ، ثم لاتلبث أن تتلاقى هذه العوامل فى نقط من سيرها فتتحد على وجوه وتشترك فى أفاعيل وتصير شبكة لايعرف أولهامن آخرها والانسان يعرف ذلك فى نفسه لأنه يحس بآثارها على جسمه وعقله ؛ ولكنه مع اعترافه بعجز وسائله عن الالمام بها يجد نفسه محفوزاً الى تعليل ماهو فيه من صلاح أوفساد بعلل يدركها ويفهمها ، فلايرى بدا من عزوماهو فيه لسبب أوأسباب ، وتعليقه بفاعل واحد أوبفواعل عدة ، فيظل يقنع نفسهبصدق تعليله وكمال إحاطته بأسباب بلائه ولايتجلى له قصوره الالماتهمبه الرغبة ، وتنفعلمشاعره للتخلص مماهو فيه ، مسوقا بما ركب فيه من عاطفة الهرب من المبيدات ، والتفصى من أنياب العوادى ، حيث يرى نفسه مجذوباً الى مركزه بجواذب كثيرة ، هنالك يتحقق أن فلسفته فى أسباب دائه غير كاملة لاحساسه بأن ثمت فواعل لمتدر فى خلده قد سيطرت على إرادته ، وتسلطت على اختياره ، فالزمته مركزه وقهرته على عدم التحول منه .
وربما لميصادففى مبدإ همه مايجذبه الىمكانه فيجرى تحت تصريف إرادته فى المجال الذى تخيله أبقى لحياته ، وأحفظلذاته ، ولكنه لايكاد يفرح بانطلاقه حتى تصدمه فى صدره دوافع ، وتقوم فى وجهه حواجز ، لو قاواها قليلا سحقته مكانه ، وذرت أجزاءه فى ذيول العواصف ، فيرى نفسه مرغما على الهزيمة مكرها على النكوص على عقبه . الاأنه مع هذا كله لايرتاح الااذا أدرك سببا لمايؤلمه وينغصه ، فيعمل فكره ثانية وثالثة فان كان مسلما حقاً لايتطرق اليأس الى قلبه

بل يظل يلتمس العلة على مقتضى مافطر عليه من طلب الخلاص وعدم الاستسلام للمهلكات حتى يجد العلة أو يموت باحثا عنها ليودع الحياة وداع رجل أدى الواجب ليجد بعد أن يخلع هذا الرداء الجسدانى قوة فى معناه يتابع بها خطته فى العروج الى عالم الكمال والجمال ، فى حياته الثانية وداره الباقية . وأما إن كان غير مسلم حقاً يئس من وجود المخاص ، وقنط من رحمة ربه ، ورنا للوجود بعين اليائس القانط ، ونشر على حياته غواشى سوداء من أوهامه ، وكسفا مدلهمة من سودائه ، ويلتجىء لأن يداوى هواجسه ووساوسه بغير دوائها الطبيعى ، فيعمد لازهاق عقله وفكره بالسوائل المخدرة ، ويركن فى الهاء نفسه الى الملهيات المادية من مأكل ومشرب ومسكن وملبس ، فيحتاج للمال الكثير ليستطيع أن يعطى اللهو حقه من العناية فيتكالب على إيجاده بكل ماتصل إليه قوته من الوسائل : بالغش ، بالتدليس ، بالتزوير ، بالسرقه ، بقتل النفس ، واذا يئس من ذلك كله قتل نفسه وأرسلها للعدم ، أوعاش على أسوإ حالة يمكن أن يتصورها خيال الشاعر!

اعتاد أكثر الخطباء أن يشكوا من أنهم لايجدون لنصائحهم أثرا فى قلوب سامعيهم ، ولانتيجة لها فى تحويل مجارى أعمالهم ، ويبالغون جداً فى الأسى والأسف على صلابة القلوب وخمود العواطف، ويتعجبون جداً من رؤيتهم هذا الأثر السيء ، ويزيدهم تعجبا مايعرفون من أن أمثال هذه المواعظ كانت تأخذ بقلوب سلفهم الصالح فتثير كامن قواهم ، وتبعثهم لأقوم السبل الواصلة بهم الى خيرى معاشهم ومعادهم . ولو سئلنا نحن عن

رأينا فى هذه الظاهرة النفسية لقلنا إن هذا مما لا يستدعى العجب، بل يستلزم البحث لمعرفة السبب. لأن الانسان مفطور على الشغف بنفسه وبكمالها. ومطبوع على حفظها من المبيدات وصونها ، فان شوهد منه خلاف هذه الغرائز بالنسبة لحال من أحواله ، فلا يصح أن يقال انه قد تغيرت فطرته فأصبح مدفوعا لاهلاك نفسه وولده وبنى نوعه، ولكن يجب أن يقال لابد من أن يكون هنالك عوامل تؤثر عليه فتقهره على لزوم مركزه ، وتجبره على عدم التحول من مكانه. وما مثل خطيب يكثر العجب من هذه الظواهر ولا يكلف نفسه البحث فى مظاهرها ليعثر على أسبابها الا كمثل رجل يقوم بأزاء رجل مكتوف من يديه ورجليه وبجانبه نار تمتد اليه بلهبها فيصيح به أن أبعد أيها الرجل عن النار فانها قد وصلت اليك أو كادت ، ولما لا يراه يستطيع الحراك يأخذ فى تقريعه وتأنيبه وشتمه ويتهمه بالكسل . . . أو بالجبن . . . أو بعدم الشعور . . . ولا يكلف نفسه الذهاب اليه ، وفحصه بيديه ليرى ان كان الحق فى عدم حراكه له أو عليه ، ماهو الكسل والجبن وعدم الشعور الخ الخ من الألفاظ التى يعلل الناس بها مايرونه من أمراض الأفراد والأمم ؟ الكسل ضد النشاط وهو داء كما اصطلح عليه الناس يمنع الانسان من الاتيان بالحركات اللازمة للأمر المطلوب الحصول عليه . والجبن ضد الشجاعة وهو داء يقعد بالانسان عن مدافعة مايراه عاديا على ذاته أو مايرتبط بها ، وعدم الشعور داء يحل بالنفس فيمنع عنها نعمة الاحساس بما يلزم التأثر منه

هذه هى كبرى الأدواء التى اعتاد الناس على تعايل جمود العواطف الاجتماعية والذاتية بها ، ولكنا هل نرى الذين نصمهم بالكسل فى الأمور النافعة العائدة عليهم بالفوائد الصورية والمعنوية كسالى عن التردد على الملاهى والمراقص . كسالى عن إعداد معدات الترف والسرف . كسالى عن موجبات الزينة والزخرف ؟ أترى الذين نصمم بالجبن جبناء امام الخمر الذى يعرفون أنه مميتهم وملاشيهم ، عن القمار الذى يتحققون أنه مفلسهم و مفقرهم ، عن الافراطات التى يتأكدون أنهامسرعة بهم الى خمود حياتهم ؟ أترى فاقد الشعور بما يمس مصالحه الحقيقية فاقد الشعور كذلك بلذات خلاعته وقصفه، بنعيم مأكله ومشربه بلطائف ملبسه ومسكنه؟

اذا كان الذى يقعد بالانسان عن الالتفات لمصالح ذاته وبنى نوعه هى هذه العلل الاصطلاحية لوجب أن يكون الكسلان كسلان فى كل اعماله ومحاولاته ، وعن جميع ما يرتبط بأمور حياته ، لا أنه يكون كذلك أمام مايرجع عليه بالمنافع المادية والمعنوية ، ويكون مثال النشاط والحركة أمام ما يهلكه ويتلفه . ويلزم أن يكون الجبان جبان حيال كل ما فيه مظنة الضرر عليه ، لا انه يكون كذلك بازاء الاخطار التى فيها حياته وحياة ذويه واشجع الشجعان أمام مافيه ثبوره وعطبه مما يرتبط بملاذ بدنه . ولكان المعقول ان يكون الفاقد للشعور فاقده بكل شىء ، لا انه يكون كذلك بالنسبة لما فيه تلف ذاته وذوات أهله وبنى جلدته ، وأشعر الشاعرين بماله علاقة بلذات بدنه وسرف نفسه

ان قيل ان تأثير الشهوات ، وفعل النزغات هى التى تذهب بالنفوس

مذاهب الخور والضعف أمام معالى الامور وشريف الاعمال ، وتميل بها نحو السفاسف والدنايا ، قلنا : ماالشهوات ؟ ما النزغات ؟ ماالاهواء ؟ هل هـذه كلها الفاظ مجملة قنعنا بها فى تعليل أعمالنا التى نرى أنفسنا مدفوعين لها رغم انفنا وضد ارادتنا ، وأنسنا بها حتى أخذت من خيالنا شكلا لا يجب أن يكون لها دفعنا هذا الشكل الذى تخيلناه عليها الى الخطأ فى تكييفها وتصويرها ، والشطط عن حدود سلطانها ، والبعد عن مداواتها وعلاجها ، حتى جرنا ذلك الى محاربتها بألفاظ مثلها فاستحالت ادواؤنا وعلاجاتها الى الفاظ تتفنن فيها تفنناً وتتلاعب بها تلاعباً ، وهيهات أن تنجلى هذه المعارك اللفظية عن حقيقة ، أو تقف بنا عند حد .

اذا كانت أمراضنا هى مدلولات هذه الالفاظ ، وعلاجاتها ما نطالعه فى الكتب وما نسمعه من قراء الخطب على المنابر وفى المحافل ، فلماذا لم يظهر لها أثر فى تقويم الملكات ، وتعديل الطباع ، والأخذ بأيدينا عن السفاسف ، والصعود بأرواحنا الى مكانات الفضائل ، ومقامات المكارم ، مع علمك بأن هذا التشخيص وذاك العلاج مستعملان فينا من منذ قرون عديدة ؟هل عهد فى طبيعة الانسان ان يأنس بمرضه ويعتاد آلامه ، فلا يلتفت الى علاجه وهو بين يديه ، ونصب عينيه ،

لم يبق فينا رجل الا وأحس بشر منقلبه ، وضلال مذهبه ومرارة مشربه ، وتحقق انه مأخوذ به الى حتفه ، ومقود بأنفه الى تلفه ، وليس فينا رجل الا وهو يتنسم روح الخلاص بمجموع قوته ، ومذخور

وسائله وحيله ، فلماذا لم يصادف من تلك العلاجات المستعملة علاجا مرضيا ، ولا من القائمين بها طبيبا حفيا ؟ اذا كنت تستهجن فكر من يداوى السعال بمحض ذم السعال ، وتشهير ما يجر اليه من الأهوال ، ومجرد النصيحة بالاقلاع عنه بدون امهال ، فليس من يداوى شهوات النفوس وعلل القلوب بسبها وسرد مخازيها ومشائنها ، والنصيحة اللفظية بالاقلاع عنها باقل استحقاقا من الأول لاهمال قوله، والاغضاء عن مضجرات نصائحه . أليس المصاب اكثر شعورا بآلام دائه ، واحس به من أفصح خطبائه ؟ فان كانت تلك الآلام لم تهده الى وسائل النجاة منها ، فكيف تهديه اوصافها ونعوتها ؟ واذا كانت جميع جوارحه السنة طالبة الخلاص منها ، وارادته شرهة الى الفكاك عنها ، ومع ذلك فلم يستطع التفصى من حبائلها ، ولا النجاة من اشراكها ، فكيف يكفيه أمر من الواعظ بتركها وعدم اتيانها ؟ اليس ذلك يدل اجلى دلالة على أن هنالك عوامل مؤثرة على الانسان تجره على لزوم الصراط الذى ترسمه له ثم تدفعه اليه بمؤثراتها المختلفة دفعا يسيطر على ارادته واختياره ، ويحكم على عزيمته واقتداره ؟ نعم هذا هو الذى يحس به كل انسان عنى ببحث نفسه ، وهو ما يمكن أن يفسر به سائر الاختلافات الانسانية فى العوائد والطبائع ، والفضائل والرذائل ، وهو ما يجب علينا أن نبحث عنه بحثا دقيقا ونتحسس منه تحسسا ذريعا لانه طب الانسان والانسانية ، وطلسم السعادة الذاتية والعمومية فنقول : ماهى تلك العوامل المؤثرة على الانسان ؟ ماطبيعتها ؟ ماحدودها

ما وظيفتها ؟ ماهى وجوه اختلافها ؟ هل هى من ضمن نواميس الوجود الثابتة التى لاتتبدل ولا تتحول ، أم هى تابعة لنواميس أخرى متغيرة تظهر بظهورها وتعدم بعدمها ؟ هل هى داخلة تحت ارادة الانسان وممكن له تغييرها وتحويلها لتفعل عليه فعلا مناسبا لمصالحه ، أم هى خارجة عن ارادته لا يستطيع لها تحويلا ولا تبديلا ، ولا يملك لها تحويرا ولا تعديلا ؟ ان كان الأول فكيف يسلط عليها ارادته ليغير مجاريها على مقتضى مصالحه ، ويحول قوتها على حسب منفعته ؟ وان كان الثانى فهل هو متمتع بما يخرجه من دائرة سلطانها ليدخل تحت نفوذ فواعل اليق منها بحياته ؟ ان رمت رأينا فى هـــذه المسائل فاليك : إنانرى نوعين من العوامل سائدين على الانسان ، أحدهما عوامل ذاتية ، والآخر عوامل عمومية . أما الذاتية منها فليست الاما يحس به الانسان فى تركيبه من المطالب المختلفة المتعلقة بحفظ ذاته وتكميلها . هذه العوامل الذاتية الكثيرة كان يمكن تقسيمها الى عاملين عامين فقط : عامل مادى جثمانى سلطانه على الامور الجسدانية ، وعامل معنوى روحانى سيطرته على الامور الروحانية ؛ ولكن لسنا فى مقام التعميم ، بل نحن فى صدد التفصيل حتى لا يضيع علينا شىء من جزئيات البحث ولذلك نقول : الانسان يحس بأنه محتاج للأكل والشرب والمسكن والملبس ثم يحس مع هذا بعاطفة حب العلو على غيره فى كل مايشترك فيه معه ، فيحب أن يكون أعلم وأفصح وأجمل وأغنى وأولد وآهل من كل من يقع تحت بصره من بنى جنسه ، وهو مع هذا كله

يشعر فى بعض أوقاته عندمايرى الموتى أويتذكر أنه لامحالة ميت ، إن كل مطالبه الأولى عرض حائل ، وظل زائل ، وإن الأجمل من ذلك كله والأكمل ، أن يكون بينه وبين السماء صلة وسببا ، وعنده من أحوالها علما وخبراً ، وأن ينال فيها بعدموته من الأرض جزاء وعوضاً.
هذه أكثر عوامل الانسان الذاتية التى لها الأثر الظاهر فى وجوده ، والطابع البين على حياته . فيندفع أولا وراء الصق الحاجيات به من مأكل ومشرب فاذا نالها ذهب وراء الملبس والمسكن ، فاذا حصلها وارتاح باله من جهة مطالبه الوقتية ، عملت فيه العوامل الأخرى عملها ، وساقته إلى أشباعها ، فيجرى أشواطا بعيدة فى مواميها ؛ وبما أنه غير محدود القوى ولامقيد المواهب فيجرى وراء كل منها فى المجال الذى يهديه إليه علمه ، ويرى أن فى غايته نوال أربه فان عجز وجد من حيلته مايساعده على اخفاء عجزه : فيمكر ويداجى ، ويتصنع ويرائى ، ويكذب ويدلس ، ويسرق ويغدر وإن اشتدبه ألمه يقتل وقد ينتحر .

هذه العوامل الذاتية فطرية طبيعة لايمكن تبديلها ولاتغييرها أى أنه ليس للارادة الشخصية سلطان عليها من جهة الملاشاة أوالتعطيل ، ولكنها مثل كل شىء فى الانسان قابلة للتهذب والترقى ، ورقيها وتهذبها متعلق برقى الانسان فى معارج العلم والمعرفة . فانها بصفتها الأصلية أى قبل أن تتهذب وتتعدل بارادة الانسان قدتنقلب شر الشرور عليه ، وتكون أسرع فى إهلاكه من كل مايهرب منه من المبيدات والعوادى الطبيعية . ذلك لأنها مغروزة فى جبلته على حالة مطلقة غير مقيدة .

أودعها الخالق الحكيم على هذه الصفة ليكون أهلا للمنصة العلية التى خصصهاله فى عالمى الملك والملكوت وليستحق خلافته على الأرض ، فان وجودها مطلقة يجبره على الاحتكاك بكل مايقع تحت حسه من أشياء الوجود ، وهذا الاحتكاك يعرفه من أسرارها ويكشف له من ضمائرها ، مالايمكن الوصول اليه الامن هذا السبيل .

هذه الدوافع الذاتية دوافع إلهية ، وبواعث ربانية ، طبعت فى جبلة هذا الانسان لترفعه إلى المكانات العلآ ، والمنصات السامية ، ولتنشر من سلطان روحه على الكائنات الأرضية ، وتمد من أيدى حوله وقوته عليها وعلى نواميسها مالايتخيله أكبر فكر الآن ،ولكن ماأجهل الانسان بنفسه ، وما أهون ذاته فى نظره ، وما أشد تغاضيه عن درس قواه ومواهبه ؛ هذه الغرائز والعوامل الذاتية صارت بجهل الانسان واغضائه عن تعديلها وتهذيبها ؛ وباهماله فى درسها ومعرفة طبائعها . عوامل شرعليه وعلى أهلهوبنى نوعه . أحس بضرورةالمأكل والمشرب والمسكن والملبس ولما حصلها وجدمن نفسه ميلا إلى شىء مبهم ، وشعر بما يدفعه عن الرضاء بحالته والوقوف عند حدها ، فلم يسكن حتى يعرف ماهية ذلك الميل إلى الشىء المبهم ، بل اعتراه داء العجلة فظن أن ذلك الشىء المبهم هو الافراط فيما حصله ، والغلو فيما ناله ، فوقف كل قواهعلىذلك ، فتفننفى صنوفالطعامواشكالاللباس ، وفى بناء المساكن ورياشها ، وفى أنواع المشارب حتى صار كل ذلك وبالاعليه بعد أن كان مقوما لشخصه ، لما أدى إليه من أنواعالافراط

والتفريط والأدواء النفسية القاتلة ، مع أن المسألة بسيطة فى ذاتها لاتعوز منه كل تلك الحمى الهائلة ، فان شعوره بعدم الرضاء بما حصل ليس سببه قلة ماوصل اليه ، وإنما هو باعث وجدانى يلفته إلى أنه لم يخلق ليأكل ويشرب فقط فان ذلك مما يشاركه البهائم فيه وربما كان منها ماهو أقل جهاداً فى نوال مقومات ذاته منه ، وإنما خلق لأمر عظيم يؤديه للعالم ، ولوظيفة كبرى لاتتم إلا به فى عالم الشهادة فلم تذهب به هذه المذاهب المضللة إلا إهماله فى درس مواهبه وملكاته .

كذلك غلط الانسان من جهة تكميل ذاته فتاه فى متائه كلها خطر عليه وعلى بنى نوعه : فانه لما أحس بعاطفة التكمل والاعتلاء حسب أنه يؤدى مطالب تلك العاطفة بالتفضل على غيره فى المزايا التى يشترك فيهامعه سواه فبذل غاية جهد فى هذا السبيل ، ومال لأن يكون أغنى وأعلم وأفصح وأولد وآهل واخ اخ من مجاوريه ، فنشأ التحاقد والتحاسد والتباغض والتسافك ولو صبر قليلا أولو أصغى إلى الرسل الكرام الذين لم يحرمه اللهمنهم أومن تعاليمهم من أول وجوده لليوم ، لعلم أن اشباع تلك العاطفة العالية لا يتأتى بالتعالى على غيره بل بنوال مراكز روحانية هو مستعد لنوالها بالفطرة ، وأن أمثاله من بنى نوعه ليسوا بمزاحمين له فى الحياة بل هم أعوانه وأنصاره فيها ، فكان يحل بينهم الوئام بدل الخصام والسلام بدل الحرب ، والتحاب بدل التباغض ، والترافد بدل التناهب ، وكانت الحياة الانسانية أجمل أشكال الحياة لا أن تكون مجال صراع وقراع ؛ وميدان نضال وضراب ، ومضماراً لسفك الدماء وتيتم الأبناء

من يرد أن يعلم أن كل هـذه العوامل بدل أن تكون كما هى الآن أسباب الافراطات والتفريطات المبيدة للانسان ، كالتحاقد والتباغض بين الأفراد والشعوب ، يمكن أن تصير عوامل ملكوتية تبعث الانسان للرقى المادى والمعنوى ، والكمال الجسدانى والروحانى بمحض تعديلها وتهذيبها بالانصياع لأوامر خالقها وواضعها ، فلينظر إلى ذلك التبدل السريع الذى حصل فى الأمة العربية فى بضع وعشرين سنة . ألا ترى كيف استحال ذلك التباغض والتنازع والافتراق إلى تحاب وتعاطف واجتماع ؟ كيف حصل هذا أتبدلت الفطر أم جاءها مالم يكن فيها من قبل ؟ لاشىء من ذلك .

وإنما هى روح التهذيب الالهى الذى أنزله الله على رسوله الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم سرت إلى تلك الأرواح فأزالت ما كان يحجب عنها نور الحق فدارت فى مجاريها الأصلية فتأدت إلى تلك النتيجة الطبيعية ، وهى نتيجة أدهشت المؤمن والجاحد على حد سواء ، فكيف لاتهتز العواطف شوقا إلى معرفة أسرار ذلك التهذب الذى يجعل قلوبنا وأرواحنا مستعدة إلى مثل هذا الكمال المحبوب ؟ وكيف لاتلتهب الحمية غيرة للوصول إلى مثل ذلك النعيم الملكوتى الجدير بحياة الانسان ؟ وكيف لايهيم الانسان لمعرفة تلك الفواعل القاهرة التى تصدنا عن الانتفاع بتعاليم خالقنا الحكيم (الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) القائل (إنا هديناه السبيل إما شاكراً واما كفوراً) ؟ ذلك مالا يمكن الخوض فيه إلا بعد معرفة ماهية العوامل العمومية

العوامل العمومية

أو

روح الجيل العمومية

ماقلناه فى الفصل الماضى عن العوامل الذاتية التى تتنازع الانسان فتوقفه من باحات وجوده المواقف المختلفة رغم أنفه وضد إرادته لايكفى فى تفسير ذلك التناقض الهائل الذى يشعر به الانسان فى ذاته بين علمه وعمله وبين عقله وإحساسه ، وليس فيه ماينقع غلة الباحث عن كمال نفسه ، المغرم بالاستقامة على صراط العدل المستقيم . وقد أشرنا نحن إلى ذلك فى بحثنا عن عواملنا الذاتية وعلقنا بلوغ الغاية من هذاالبحث على العوامل العمومية التى هى موضوع كلامنا اليوم .

أصدق العلوم أثرا فى تحسين حال الانسان من جهة صورته ومعناه ، وأقواها عاملا فى انالته مايتمناه ، من سعادة دينه ودنياه ، ما كانت أصولها مستمدة من حقائق الكون ومشاهداته ، وفروعه منتزعة من حوادثه التى تشاهد آثارها فى كائناته ، لامما يتصيده الفكر تصيداً من أرجاء الخيال وخطرات الأفكار المجردة . لهذا لامناص لنا ، مادمنا نرجى الوصول إلى نتيجة محسوسة ، من سرد كثير من الحوادث سرداً استقرائيا ، وجمع ماتشابه منها إلى رابطة واحدة ، والسعى فى رد ماتخالف منها إلى أصولها الرئيسية ، واستنتاج القوانين

السائدة على كل نوع منهـا استنتاجا تحليليا محسوسا ، والاجتهاد فى رد تلك القوانين إلى مبادئهـا الأولية ، لامكان تحديد روحها العمومية ، بطريقة يفهمها الخاص والعام فهما جليا ، وهو عمل شاق جدا يستدعى من الكاتب عدم الطيش أمام الحوادث ، وثبات الجأش حيال مايصادفه من المتناقضات الكبيرة ، ويستلزم من القارىء كثيراً من الصبر والجلد حتى تشرق له الحقيقة اشراقا كاملا . . .

رأينا أن مجرد معرفة الانسان بطريق العلاج لا يكفيه فى اقامته على منهاجه ، ولا يجديه فى تمشيته فيه ، وضربنا لذلك الامثال العديدة فى فصلنا المتقدم ، وقلنا لابد من أن يكون هنالك عوامل عمومية تسيطر على ارادة الفرد الواحد فتوجهه كيف شاءت ، بل على الامة برمتها فتسوقها الى الطريق الذى ترسمه لها وتدفعها اليه دفعا فتسلكه مضطرة لا مختارة ! فما هى تلك العوامل العمومية ؟

(مناقشة فى التعليلات المصطلح عليها)

يقولون ان سبب ما يقع فيه الواحد والامة باجمعها من الخبط فى الأحوال ، والخلل فى الاقوال والاعمال ، واللوث فى الشؤون الخاصة والعامة ، هو عدم الدين الهادى الى سوء السبيل ، أو ضعف الارادة ، أو الجبن ، أو عدم التربية ، أو الجهل الخ .

نقول كل هذا صحيح ولكن كل هذه العلل لوازم لتلك العوامل لا هى بذاتها ، والمدار فى مداواة المرض على معرفته بذاته لامكان مكافحته مكافحة حقيقية ، أما مكافحة لوازمه واعراضه فلا يكون من ورائها

غير اضاعة الوقت فى مصاولة شىء لايتلاشى حتى يتجدد ، ولا يسكن حتى يتهيج .

فما هو ذلك العامل القوى الكبير ، أو العوامل القوية الكبيرة التى انتزعت منا الدين انتزاعا ، وما هى تلك المؤثرات الخارجية الهائلة التى اخترقت اغشية افئدتنا وسرت فيها سريانا سحريا حتى وصلت الى مكانه من صميمها فأجلته منها اجلاء غير محسوس ؟ وماهى تلك الفواعل الشديدة التى عدت على الفطر فمسختها ، وعلى الوجدانات فغيرتها ، وعلى العواطف فحولتها ، وعلى المشاعر فثلمتها ، وعلى الاميال فخورتها ، وعلى المدارك فضللتها ، حتى صرنا ونحن أبناء الدين ، واساطين العقائد ، واراكين الايمان ، واحفاد بناة الحقائق ، نلتمس الدين فلا نجده ، وننشده فلا نهتدى اليه ؟ ما هى هذه العوامل المدهشة ؟ ماطبيعتها ؟ ما حقيقتها ؟ ما حدودها ؟ ما سلطانها ؟ ما آثارها ؟ كيف تنشأ وكيف تؤثر ؟ هل هى متعلقة بطبيعة الهيئة الاجتماعية ؟ هل مرتبطة بتطورات الافكار والمعارف ؟ هل هى نتيجة من نتائج العلم أو أثر من آثار الجهل أو هى لازم من لوازم الرقى المادى أو هى صفة من صفات طور مخصوص من أطوار الحياة ؟ هل هى فى ذاتنا وفينا مادتها ومنا روحها ، أو هى عارضة علينا من سوانا ؟ ان كانت منا فكيف نشأت ؟ وكيف تطورت وتدرجت ؟ وان كانت عارضة علينا من غيرنا فكيف جاءت ؟ وبأى وسيلة عملت فينا هذه الافاعيل ، وكيف واجهت معاقد عقائدنا فحلتها ، وصادمت صروح تقاليدنا فهدمتها ؟

لامشاحة فى أن التنازع بين العقائد الراسخة والفواعل العارضة شديد عنيد فمتى بدأ ذلك التنازع ، ومتى شعرت به الامة ، كيف كانت الحرب بينهما فى أنفسنا وبأى وسيلة حصلت الغلبة للثانيةدون الاولى؟

اعتدنا أن نقول أن سبب هبوطنا عدم الدين ، ولكننا لم نكلف أنفسنا بالبحث عن ماهية الدين ولا عن مكانه من أفئدتنا ولا عن مادة بقائه ونمائه ، ولا عن جرثومة فنائه وتلاشيه، هل هو روح تحل بالنفوس من الخارج فتقيمها على طريق مخصوص ؟ أو عاطفة ذاتية من عواطف الفؤاد تتيقظ فيه بسبب من الأسباب ، وتنام وتتخدر بسبب آخر ؟ ان كان هو روحا تحل بالنفس من الخارج فكيف يكون التهيؤ لقبولها ، وكيف يعد الانسان نفسه لتحل فيه ؟ وان كان عاطفة من العواطف المغروزة فى جبلتنا فأين مكانها منا ؟ وما هى أسباب تيقظها وما هى علل نومها ؟

دعنا من كونه روحا خارجية ، أو عاطفة نفسية ، فهل هو ضرورى فى ذاته ؟ هلا يمكن أن يقوم مقامه عامل غيره ؟ كيف قامت امم اوروبا بدونه ، وادعت أنها استغنت عنه ؟

هذه كلها مسائل يجب حلها حلا فلسفيا تحليليا محسوسا ليخرج الانسان من تلك المجاهيل المظلمة التى كونتها حوله تلك الألفاظ الضخمة ، والتعبيرات المفخمة ، التى لاطائل تحتها ولتنجلى أمامه هذه المتناقضات الكثيرة بين مايسمعه من مرشديه وما يراه بعينيه من الحوادث الكونية ، ولتتجلى له جلالة وظيفة الأنبياء والرسل عليهم

الصلاةوالسلام تجليا باهرا فى مجلاها المعجز. فلقد ساء فهم الناس فى أولئك الرجال الفخام الذين اصطفاهم الله من بين سائر الأنام فظن كثير منهم أنهم لم يعملوا الا أن دعوا الناس الى شيء فاتبعوهم وقادوهم فى طريق فانقادوا فيه ، ووجهوهم لغايات من الحياة فتوجهوا اليها ، فكان من شأنهم مايرويه لنا التاريخ من جلائل الأعمال ، ومدهشات السير ، ويغيب عن أفكارهم أن معالجة أدواء النفوس وتمريض الأفئدة الغرقى فى دياجير الفتن، ومراس الطباع المتسممة بسموم المفاسد ، امور لايقدرها قدرها الاالذين سبرواعلى النفس والاجتماع البشرى ، خصوصا ما كان منها مختص بالعالم القديم أى فى الزمن الذى أرسل الله تعالى فيه أولئك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وقد تخيل بعض الناس أن معالجة تهذيب المتوحشين أسهل وأيسر من معالجة المتنورين ، وهو ظن فاسد ، فقد أثبت علماء الانسان ، أن المتوحشين أشد الناس اباء لدعوة الدعاة ، وأكثرهم استعصاء على هداتهم ، وقدلبث المبشرون المسيحيون فيهم آمادا طويلة ولم يبلغوا منهم مايكافىء محاولاتهم ، رغما عما يبدونه لهم من اللطف واللين ، ومايبذلونه لهم من الرشا والهبات وحسن الملبس والمسكن ، وقدأثبت الاستاذ (أرثوردوليما)فى كتابه (الانسان على حسب مذهب داروين) إن من المتوحشين الذين يخضعون للمبشرين من يتظاهر بالدخول فى المسيحية ظاهرا لينال قسطه من الخبز والتبغ والشاى ولكنه فى الباطن على مذهبه الأول لم يتحول عنه قيد شبر

من هنا يرى ان حل المسائل التى أشرنا اليها كما يكون من ورائه نفع للشخص من حيثية تكمله وتهذبه ، كذلك يكون من ورائه ادراكه لجلالة وظيفة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، وتحققه بأن كل من لم يتبع نهجهم خطوة بخطوة فى سبيل ترقية الأمم لا يفلح فى دعوته ، ولا ينال سوى الخيبة الفاضحة من وراء جهاده .

واذا علق هذا الهبوط الذى نحن فيه على ضعف إرادتنا ، وقلة مادة همتنا ، نقول لماذا ضعفت إرادتنا وقويت إرادة غيرنا ؟ وما هى الارادة فى ذاتها بالنسبة للفرد فى نفسه وبالنسبة للأمة فى مجموعها ؟ كيف تنشأ وكيف تنمو ؟ كيف تقوى وكيف تضعف ؟ هل هى تابعة للمزاج ؟ هل هى مرتبطة بصحة الانسان ومرضه وبقوته وضعفه ؟ هل يمكن أن تقوى الارادة بعد أن تضعف ؟ وماهى الأسباب التى تقويها وتؤيدها ؟ الا يكفى فى تقوية الارادة أن نرى أنفسنا مسوقين التلاشى ؟ واذا كان هذا لا يكفى فى تقويتها فأى شىء أشد من ذلك تأثيراً عليها ؟ هل الأمم القوية الارادة قوت إرادتها بنفسها ، أم نشأت قوية الارادة ولم تفكر فى ذلك يوما من أيام حياتها ؟ هل تقوية إرادة الأمة متعلق بالفرد على حدته أم بالمجموع ؟ وهل أسباب ضعف إرادة الأمم آتية اليها من ذاتها أم تأثيراً من الأمم المرتبطة بها ارتباطا ما ؟

وهكذا يقال فى الأسباب الأخرى التى نتخيلها لتعليل ما نحن فيه من الضعف كعدم التربية والجهل والجبن وغير ذلك . ومهما ترقينا فى انتحال العلل والأسباب فلا نزال نرى فى أنفسنا داعيا الى اختراق

صفوف تلك العلل الى العلة الرئيسية التى تهدأ اليهاالنفس ، ويسكن بها اضطراب الفكر ، ويركد منها جيشان الروية .

قلنا مرارا ولم نزل نقول انا اكتفاءنا فى تعليل مضانكنا بالألفاظ الضخمة ، والعبارات المفوقة ، هو الذى ضلنا فى مدركاتنا ، وصغر فى أعيننا وظيفة تربيةالأمم ، وشجع كثيرين مناعلى التكلم فى علم الاجتماع البشرى ولم يقرأوا فيه كتابا بسيطا ، لاجرم يكون نبيجةهذا أن يصبح الناس هنا كلهم فلاسفة اجتماعيين . يشخصون أدواء الأمم ويصفون علاجاتها وصف الطبيب النطاسى بغاية الجسارة والحرية . ولم يكونون كذلك وقداختصروا العلل الاجتماعية فى كلمتين : (عدم الدين وعدم التربية) وجمعوا سائر علاجات الأمم فى نقطتين أخريين : (الدين والتربية) فصرت ترى أفكار الناس تتراوح بين وصف عدم التدين وعدم التربية ، وبين وصف مزايا الدين ومزايا التربية ، حتى اقتصرت أكثر الكتابات على ذلك وصار الكلام كله ترديدا فى ترديد لايختلف عن سابقه شكلا ومعنى الاعلى قدر نسبة اقتدار الكتاب فى التصوير ، ومهارتهم فى ابتكار أساليب التعبير والتحبير ؛ واذا كان هذا كافيا فى معالجة أدواء الأمم وبعث الحياة اليها . فالأمم الشرقية اليوم اعلم أمم الأرض بدائها ودوائها ، وأقدرهم على النهوض بنفسها من وهدتها . واذا كان الأمر كذلك فماالذى يأخذ على متنفسها فيكبحها عن العمل ، وما الذى يمسكها فى مركزها ويمنعها من التقدم خطوة الى الأمام .

قول القائل ان تأخرنا سببه عدم الدين يشبه قوله ان سببه عدم.

الفضائل الاجتماعية والذاتية . وهو صادق فى كلا الزعمين ؛ ولكن ماهو الدين وما هى الفضائل ؟ اذا سهل عليه أن يسرد بعض قواعد الدين وبعض أمهات الفضائل ، ويقول هاهو الدين وهاهى الفضائل فلا يدل ذلك على أنه فعل شيئا غير ترديد عبارات قرأها فى بعض الكتب أو سمعها على ألسنة بعض الخطباء وهذه التعبيرات الضخمة كما ليس لها أدنى تأثير فى تحسين حالة القائل الشخصية ، تعديلا لطبعه ، وتهذيبا لنفسه ، كما يقر هو بذلك ويعترف به ، كذلك ليس لها أقل أثر فى المجموع كما يرى ذلك بعينيه . وقد اعتلى الجيل الأول من المسلمين الى ذروة من الفضائل الذاتية والاجتماعية يكاد الانسان يعد أخبارها من الشعر ، ولم يقرأ الفاضل منهم ولا كتابا واحدا فى علم الأخلاق . بل ولم يكن يستطيع أن يعد من أمهات الفضائل وحدودها وآثارها ما يستطيع اليوم أن يعده رجل من أحلاس الرذائل يكون قد قرأ فى علم الأخلاق كتابا ؛ فماذا أغنتنا تلك الألفاظ الفارغة ، وماذا ضر آباءنا الاولين من عدم معرفتها .

يقولون : ان سبب تأخرنا عدم الدين ولا بد لنا من الرجوع اليه ، والتعويل عليه ، ونحن وكل صغير وكبير . وعالم وجاهل من المسلمين يقول ذلك ، ولكن ليست هذه هى النقطة الصعبة من المسألة ، بل النقطة الصعبة التى يجب حلها هى ابتكار الوسيلة التى بها يرجع المسلمون الى الدين بقوة طبيعية دافعة مثل سائر القوى التى تدفع الافراد والامم الى أى موقف من مواقف الحياة .

أقم نفسك متأملا قليلا فيما يدور حولك ، وتخيل أولئك القوم الذين يعمرون محلات الملاهى والمراقص والمواخير والحانات

من بعد غروب الشمس إلى مطلع الفجر ، وتدبر جيداً تلك الحركة النشيطة والروح التي تديرها وتدبرها ، وتبصر في القوى ذات الأشكال الكثيرة التي تستهلك في تلك المجالات الابليسية الموبقة ، وصور لنفسك الناس وهم داخلون الى تلك المحلات أفواجاً أفواجاً يتدافعون بالمناكب ويتزاحمون إلى الصفوف الاولى تزاحم العطاش على الماء ، أو الجياع إلى الغذاء ، ووجوههم تتألق بشراً وسروراً ؛ وجيوبهم تسيل لجيناً وتبراً . ثم تأملهم في خشوعهم وانصاتهم ، وسكون حركاتهم حينما يغنيهم المغني أو تمايل أمامهم الراقصة يميناً و يساراً .

دع هؤلاء جانباً ثم صور لذهنك أولئك القوم الذين يعمرون المساجد ! أنظرهم في قلة عددهم ، وفتور حركاتهم ، وانكماش كل منهم في نفسه ، حتى ليود الرجل منهم أن يصلي في صف وحده من شدة مايحس في نفسه من الاستقلال وعدم الارتباط ، تأملهم في يوم الجمعة أثناء خطبة الخطيب ترى السآمة والكلال قد ألقيا أستارهما على وجوه الكثيرين منهم وترى من القرائن ما يدلك على أن فكر كل منهم قد شطح في مجال من مجالات مصالحه الخارجية ، وان زدت في انتقاد الوجوه بدقة وجدت منهم من تتراوح رأسه نعاساً فلا يهب حتى يقوم الناس للصلاة ، فاذا تمت هرعوا إلى الباب كأنهم خارجون من سجن مظلم ، لايلوي أحد على صاحبه ، قد أخذ التقاطع منهم مأخذه ، وفعل التهاجر فيهم فعله . تخيل حال هذين القسمين ثم فسر لنا سر هذا المعمى المدهش ، وأوضح لنا طلسم هذا التناقض المستغرب ؟

الاولون من أصحاب الخلاعة يعلمون أن ماهم فيه سبب فسادهم وفساد بلادهم ويسمعون عن ذلك كل يوم فى الجرائد والمجلات من أنواع الزجر والوعظ ، والنصح والارشاد مايذيب الصخر لويفهم ، ويسحق الحديد لويدرك ، ومع ذلك لايزدادون الاجريا وراء ماهم فيه من بذل ماء الوجه وماء الحياة ، وانضاب معين الثروة والحط من كرامات الأسر ، والقضاء المبرم على الشرف وحسن السيرة ، ويعرف الآخرون من أصحاب التدين أن ماهم فيه هو عين الفلاح والنجاح وبين أيديهم مئات من الكتب والجرائد تنشطهم فى حركتهم ، وتصيح بالناس للانضمام اليهم ولكنهم رغماً عن ذلك يحسون انهم الاقلون عدداً ، والأضعفون جنداً ، ويأنسون من ذواتهم الضعف ومن أشخاصهم الضؤولة ، حتى يكاد بعضهم يتوارى عن الناس كيلا يرونه فى تلك الزمرة .

اذاحضر أحدهم فى مجلس اعضاؤه من القسم الأول وخشى فوت الصلاة فلا يجد من نفسه القوة الكافية لأن يقوم لتأدية مطلوب روحه ، وان وجدها فلا يقوم من بينهم الا تسللا ؛ وان دعوه الى الشراب فلا يجد من نفسه جسارة يصرح لهم بها أنها حرام فى دينه ، بل يظل يبتكر لتركه لها الأسباب والعلل الصحية والمالية ويفيض فيما قاله عن ضررها علماء الأجانب .... واذا صادف أحدهم فى الطريق أوفى بيت صديق تراه مع تشبع فكره بانه جرثومة من جراثيم الخراب والمحن ، وأرومة من أرومات الفتن ، هش إليه وبش ، ودلس على

ضميره وغش ، ومدله طنافس الحفاوة ، وبوأه مكانات الكرامةورفعه على صديق بجانبه يشاطره حلو الحياة ومرها ، ويزامله فى قطع مراحلها . وإذا نشأ له ولد سرت إليه مكاريب العدوى من أصحاب القسم الاول فكلف باللهو والقصف ، وغرى بالشرب والرشف أمده بالمال ، واسدل عليه استار الامهال ، وربما داخله الاعجاب به فوصف تفرنجه فى المجالس بلسان الشكوى وهو ينوى التفاخر لما يتخلل عباراته من الابتسامات والفكاهات .

ماسبب هذا التناقض المدهش ؟ ماالذى ينفخ فى أنوف أصحاب الخلاعة والاباحه هذه الروح فيجعلهم الاعلين الاغلين مع علمهم وعلم الناس بانهم احلاس الرذائل ، وزوامل الباطل ، وجراثيم دائنا القاتل . وماالذى يرغم من معاطس أصحاب التدين فيجعلهم الأحطين الادنين مع ظنهم أنهم على الهدى وبمعزل عن الردى ؟

ان قيل لأن الاكثرين من الأولين متعلمون مثرون وجلهم من أصحاب الكلمة النافذة والقول المسموع ، بخلاف الآخرين فسوادهم الاعظم جهلاء معدمون ، ومتى اجتمع العلم والغنى والمنصب مع شخص رجح فى ميزان الحياة الانسانية ولو كان من النقص بحيث يأنف من نفسه . وفاز على خصمه الصالح المجرد من تلك المواهب الثلاث ولو كان من الفضائل بحيث يكسف نوره ضوء الشمس ، نقول هذا تمحل شعرى لا تعليل فلسفى ، ولو صدق هذا التعليل لما انتصر أبداً الحق على الباطل ولما قشعت أنوار الفضائل غياهب الرذائل ، مع أن تاريخ العالم

مشحون بما فعله الانبياء والشهداء والصالحون من كسر شوكة المبطلين والغض من أعين الضالين ، والتنكيس لاعلام الطغاة المتمردين مع فقرهم وضعف وسائلهم بمحض قوة الفضيلة الذاتية ، وصولتها الروحانية . بل هذه صفة الفضلاء والصالحين فى كل زمان ومكان . وبها عرف فضلهم فى تاريخ الانسان .

الفضيلة قوة تحل بالنفس فتخلع عنها غاشيات الباطل فترى صاحبها الحق فى اجلا مجاليه ، وأنور جهاته فلا يتأتى بل لم يسع فى تاريخ العالم أن يستخذى الفاضل لعاطل ، ولا يتصور أبدا أن يذل الصالح لطالح . وان أردت أن تقيم الدليل على أنه قد يتأتى أن يخشع الكامل لناقص فأقم الدليل أولا على أنه قد يتغلب الضعف على القوة .

الفاضل لا يتصنع القوة ولا يتظاهر بها ، ولكنه يجد نفسه رغماً عنه متلألئة نابغة ، فتتزاحم عليه العيون والظنون ، وهو لا يريد ذلك فيسعى فى تبديل أشعة الأنظار والافكار المتوجهة اليه ، ولكنه لا يزداد الا إشراقا و لألاء .

الفاضل يحس فى نفسه نهاية العجز والضعف أمام الله وحده لا أمام أمثاله فتنفجر له من ذلك العجز والضعف قوة لا يعرف مستقرها من نفسه ، ولا يتخيل محلها من صميم سره . يراه الناس مهيباً قويا ، وهو لا يرى نفسه الا عاجزا ضعيفا . يهابه الناس ويتوقونه ، ويرون فى وجهه سمات تدل على علو روحه ، وسمو صفاته ، وهو لا يرى ذلك فى نفسه ، ولا يبحث عنه ، وإنما يحس أنه هادىء السر من كونه عبد

مليك قوى تذل لعزته الجباه والنواصى ، وتعنوا لجبروته الوجوه ·

ومن يتصفح تاريخ الرسل وأتباعهم لاسيما تاريخ خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم وتاريخ أصحابه ير العجب العجاب من تأثير قوة الفضيلة ، وتغلبها على الرذيلة تغلبا طبيعيا . كما تتغلب القوى الطبيعية على بعضها فى عالم المادة « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الارض »

اذا تقرر ماقدمناه رجعنا نسأل عما سألنا عنه آنفاً قائلين : ماسبب ظهور المبطلين على المحقين ، وماسر غلبة روح الشريرين على الخيرين مع علمك بأن الناموس الطبيعى ينادى بلسان فصيح « ألا إن حزب الله هم الغالبون »

هذه مسألة من أكبر المسائل الفلسفية ولانريد أن نحلها بألفاظ مجملة لاطائل تحتها كقولهم مثلا : سبب ذلك ان الناس أصبحوا كلهم مبطلين ، أوقولهم سبب هذا قرب الساعة وهذا الحال من أشراطها · لأن الزعم الأول لايعد حلا للمسألة بل يعد تعقيداً لها اذ ينبنى عليه مسائل أعوص من الأولى وهى : لم أصبح الناس كلهم مبطلين ، ولم يصبحوا كلهم محقين ؟ وهل الانسان مفطور على الشر دون الخير ؟ واذاعدم الخير الآن فكيف قامت الانسانية بدونه ؟ وهل هذا يعد دليلا للذين يجحدون الفضيلة ويدعون امكان قيام الحياة بدونها ؟

هذا بعض ماينبنى على الزعم الأول . أماقولهم إن هذا من أشراط الساعة فليس يعد حلا للمسألة أيضاً ولا يفسر جبن انصار الحق أمام

انصار الباطل ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (بعثت أنا والساعة كهاتين) ومع ذلك سعى فى تحسين حال الانسانية سعياً لم يتفق قبله لنبى ولا بعده لمصلح ولا ولى ، وأوصلها من السعادة الحقة الى ذروة لم تصل اليها أبدا . وهؤلاء الخلفاء الراشدون ، والأولياء الصالحون ، الذين عرفوا ذلك الحديث ونقلوه الينا لم يقصروا لحظة عن محاربة الباطل ودحضه حتى خلص السلطان للفضيلة ، وتقوضت أركان الرذيلة .

يتضح من هنا أن هذين القولين ليسا من الحلول فى شىء وإنما هما من آثار الجبن الذى وقع فيه اليوم انصار الحق وغفلوا عن سببه .

يصيح بعض الناس من حين لحين آخر قائلين : العلماء مقصرون عن الارشاد ، والرؤساء عائثون فى الأرض الفساد وعاسفون العباد والبلاد ، وأصحاب المهن غافلون عن علوم الاقتصاد ، وواقفون من مهنهم حيث وقف الآباء والأجداد ، ثم يسلقونهم بألسنة حداد ، ويقرعونهم بمآيذيب الصم الشداد . ولكنا نغضى عن ذلك كله ونسأل بهدو وسكينة عن سبب هذا الخدر الذى نزل بالأعضاء فأضعفها ، وبالعقول فأتلفها ، وبالأفكار فأوقفها ، وبالأبصار فغشاها ، وبالنفوس فدساها ، وبالفضائل فأجلاها .

نسأل عن هذا السحر الذى حل بالأعيان فقلبها ، وبالأوهام فجسدها ، وبالوساوس فجسمها ، وبالآثار فغيرها ، وبالطبائع فبدلها . ولا نزال نكرر السؤال عن منشأ هذا الخدر ، وعن مصدر هذا السحر

حتى نعرفه فنداويه ، أو يغم علينا فنترصده .

نبحث عنه أولا فى ذاتنا فأن لم نجده ففى أهل بلدنا فان لم نجده ففى عموم أقاليمنا فأن لم نجده ففى الأمم المجاورة لنا فان لم نجده ففى العلم أجمع

(داؤنا روح الجيل)

قد بحثنا جهدنا عن سبب هذا الخدر فوجدناه فى العالم كله ، ولا عجب فلكل جيل روح خاصة تعم عموم الناس بأثر واحد ولكن لا يظهر تأثيرها فى الأمم الاعلى حسب استعدادها وقابليتها وقد تتخالف تلك الآثار فى الأمم المختلفة تخالفا لا يجعلك تتوهم وحدة الفاعل فيها ولكنك لودققت النظر ، واخترقت الحجب الظاهرية ، لرأيت ان السبب واحد فى ذاته وإنما هى آثاره التى تباينت على حسب تباين الأمم فى قوتها وضعفها ، أوعلمها وجهلها الخ الخ كما ينتشر شيء من الرطوبة فى الجو فيصيب الأجسام البشرية اصابات مختلفة : يصيب هذا بصداع ، وهذا بغثيان ، وهذا بانقباض ، وهذا بنزلة شعبية الخ مع أن المؤثر واحد فى ذاته .

هذه الروح العمومية التى تنتشر فى كل جيل فى آفاق العالم فتعم الأمم كلها بأثر واحد قد تكون روحا طيبة سامية أورديئة سافلة أومركبة من خير وشر وتكون آثارها فى الأمم على هذه النسبة بغاية الاحكام والضبط . هذه الروح لا تنتشر فى الوجود من غير سبب ظاهر وإنما هى روح أقوى أمة فى الجيل أوأقوى الأمم فيه . ففى القرون التى كانت فيها الأمة المصرية القديمة أقوى أمم الأرض كانت

الروح العمومية مصرية لاتدع أمة من الأمم الداخلة فى دائرة الاتصال بها الاطبعتها بطابع مصرى فى صنائعها وأفكارها ومداركها . فكانت الفكرة الفلسفية التى ترن فى هيكل (امون) يسمع لها صدى خاص فى معبد (جوبيتير) بأتينا وغيرها من العواصم وفى القرون التى كانت فيها العظمة للآشوريين والفارسيين واليونانيين والرومانيين والعرب والعثمانيين والفرنساويين كانت الروح العمومية آشورية أوفارسية أو يونانية الخ الخ .

هذه الروح العمومية التى تسيطر على أحوال الأمم فى كل جيل هى التى يجب معرفتها جيدا ليمكن مشايعتها ان كانت روحانية سامية أو منابذتها ومحاربتها ان كانت رديئة سافلة وما دمنا لا نعرفها فلا نصل من بحثنا فى أنفسنا وأمتنا الى شيء من الحقيقة ، ولا نزال نتخبط فى علل ثانوية ، ونرتطم فى اعراض نتخيلها امراضا حتى يكل المريض ويسأم الطبيب وينتهى الأمر الى مثل ما انتهى بنا اليوم من عدم الاهتمام بالارشاد والوعظ لقلة فعلهما على النفوس وعدم تأثيرهما فى تعديل القلوب ،

هذه الروح العمومية المنبعثة من أقوى أمة تشبه السيال المغناطيسى المنبعث من الذى ينوم رجلا أمامه نوما مغناطيسا . يحس هذا فى مبدأ الأمر أن قوى أحاطت به من جميع جهاته وأن روحا من الخدر تمشى فى سائر أعضائه ولكنه لايزال حافظا ذاكرته وارادته وانما يجده ميالا للرضوخ لتلك القوى المحيطة به ومسوقا للاستنامة اليها .

ولا يزال به هذا الحال حتى تضمحل ارادته الذاتية وتفنى فى ارادة منومه فيكون تحت تأثيره مباشرة يوجهه كيف شاء حتى لو أمره بقتل ابنه بعد أن يوقظه لقتله .

كذلك روح الامة أو الامم القوية التى تنتشر فى أفق العالم فتعم سائر الامم . تجد هذه الامم انها محاطة بقوى حولها غريبة عن ذاتها فتنكرها وتشمئز منها فان كانت قوية قاومتها ونابذتها وبذلت وسعها فى عدم الاستنامة اليها ، وأما ان كانت ضعيفة عديمة الوسائل الدفاعية هان أمرها على تلك القوة المحيطة بها فلا تزال تساورها حتى تخدرها وتتسلط على ارادتهافلا تنتفع بوجودها ، ولا تغتبط بحياتها ، وتكون كل حركاتها وسكناتها فى صالح تلك الامة أو الامم التى اكتنفتها بروحها من جميع جهاتها .

تقع امثال هذه الامم المستضعفة من جراء هذا التأثير الخارجى فى اللوث فى شؤونها ، والخلل ، فى أحوالها ، وهى ترى ذلك بعينها ، وتعرف طرق الخلاص مما هى فيه ، ولكنها لا تستفيد من ارادتها بشىء كمن غشيه الكابوس يريد أن يهم فلا يستطيع النهوض ، ويتخيل انه ملأ الافق صياحا وهو فى الحقيقة لم يسمع من حوله الا انينا خافتا وهنينا مشوشا .

يدعو الناس بعضهم بعضا فى امثال هذه الامم الى الاتحاد والوئام ، ويكثرون فى ذكر أمراضهم الكلام حتى يكادون يلمسون داءهم بأصابعهم ، ثم يتواصفون الدواء فيرونه أمام أعينهم وبين أيديهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يمدوا أيديهم لتناوله كان أيديهم مغلولة وما هى مغلولة ،

فيرجعون الى بعضهم يتساءلون عن السبب ، ويقضون منه بالعجب . وربما زاد بهم الخلل فاتهم بعضهم بعضا بتبعةهذا الاحجام ، وتبادلوا من أجل ذلك التقريع والملام ، بل ربما زاد بهم الحال وندرج من التلاوم الىالتخاصم ، ومن التحاور الى التشاتم ، حتى يعلو بينهم صوت التلاحي ، ويشتد اوار التمارى ، فيكونون بفعلهم هذا اظهر مثال لما يعترى الامم الساقطة من التناقض فى أحوالها : يتهاجرون وهم يتداعون للاتحاد ، يتخاصمون وهم يتنادون للتحاب ، يتشاتمون وهم يتناجون فى التسامح ؛ يتناهبون وهم يتصايحون بالتواهب ، وقد يشتد بهم الامر فيكون حالهم اعجب من هذا فى شدة التناقض : يأمر الآمر منهم بالمعروف وهو أول المنتهكين لحماه ، وينهى الناهى منهم عن المنكر وهو أول من يغشاه ، يذم الخمر وهو فى دنها غريق ، ويزرى بالميسر وهو له زعيم . يدعو الى الصلاة وهو هاجرها ، والى الزكاة وهو تاركها ، والى الصوم وهو متجاهر بالافطار . يعلم علم الاقتصاد وهو أول المسرفين ، وامام المبذرين ، يعرف الناس قوانين الحكمة وهو لمبادئها قائدالمقوضين ونقيب الهادمين .

فى هذه الدرجة تكون ارادة الامة تد تلاشت وفنيت فى ارادة الأمة أو الامم القوية المحيطة بها ويكون شأنها من بعض الجهات كشأن النائم نومامغناطيسيا لا استقلال له فى ذاته ، وحياته تبع لحياة منومه .

وكما لاتنتفع الأمة بوجودها تحت تأثير هذه الروح الاجنبية

العمومية كذلك لا ينتفع بوجوده الفرد الواحد منها . فيرى فى نفسه أنه حى ولكن لا كالاحياء ، وله ارادة ولكن لا كارادة المستقلين ، يحس أن هنالك شيئا غير محسوس قد ران على فؤاده وأيقظ فيه عاملا من الأرق والضجر لا يكاد يفارقه طرفة عين . يرى أن له عقلا ولكنه غير سائد عليه ولا مهيمن على أفعاله ، لشدة ما يرى نفسه منسوقا الى مناقضة احكامه ، ومنابذة تعاليمه ، ويرى أن له فكرا ولكنه لا رابط له ولا نظام ، يجول فى بيد الخيالات حتى اذا أعياه الجولان خمد خموداً ، فاذا هب هب طائشا أخرق لا يدبره علم ولا ينظمه قانون . ويشعر أنه مسؤول عن أفعاله وإن فيه قوة تحوله عن القبيح وتميل به إلى الجميل ، ولكنه يرى نفسه مسوقا رغم أنفه لعمل من يعتقد انه غير مسؤول وانه مجرد عن كل اختيار فى أموره . يجد نفسه حرا رشيدا ذا عقل وعلم وبصيرة ، ولكنه يحس أنه مرغم لأن يعمل عمل الأسير القاصر المجرد من العقل والعلم والبصيرة . يرى التناقض الفاضح بين علمه وعمله ، وبين سيره وعقيدته فينسبه تارة لتقصير نفسه وطوراً لتقصير غيره ، ولا يزال يكثر من العلل والاسباب حتى يخيل له أن الوجود كله يحاربه ، فتعتريه رعدة من خوف يتمنى معها أن لو خلق بلا فكر ولا روية ، فيجتهد فى أن ينسى نفسه ولو بازهاق عقله ، ثم يقنع من العيش بمجرد البقاء ولو كان اليأس قرين شخصه .

أمثال هذه الامم لا تعيش لنفسها ، ولكن للامم ذات الروح العمومية فتكون كل قواها وقفا على مصالح مغتصبيها وهى تعلم ذلك

و تتململ منه على ألسنة كتابها وخطبائها فتراهم يذمون مظاهره كالتقليد على أشكاله والسرف فى ترويج زخارف صنائعها ومموهات زيناتها وما يتبع ذلك من التزاحم على ما يقيمه آحادها من الملاهى والمراقص، والتغاير على اجابة دعوة كل قزم منهم ، يذمون ذلك كله ولكنهم يرون أنفسهم مسوقين اليه بقوة غير قوتهم الذاتية وكثيرا ما يكتب الكاتب منهم تلك النصائح وهو فى وسط ناد من تلك المنتديات المجتاحة .

يبكى الناس على ما آل اليه أمرهم من التناقض وضعف الارادة وانحلال الروابط وسوء المنقلب ويعرفون أسبابه القريبة جيدا ، ويكثرون الكلام فيها سرا وجهرا ، تلميحا وتصريحا بل وتراهم إذا جمعهم ناد أو ضمهم مجلس سمر ، لا يكادون يجدون حديثا يقضون به الوقت غير ذكر ماهم فيه والافاضة فى أسبابه وعلله وطرق شفائهم منه ، ثم لما يرفض مجلسهم ترى كلا منهم محفوزا بكليته لا الى الأخذ بأسباب الشفاء ، بل الى تقوية الداء وامداد جراثيمه بما يجعلها أشد فعلا وأنكى أثرا كأنهم لم يكونوا بالامس يتناجون فى شيء . يحدث منهم كل هذا التناقض ولا يجدون فى أنفسهم مايحط من كرامتهم فى نظرهم ، بل ربما أتوا بما يعتبرونه أقتل أمراضهم وهم فى ذات المجلس ، عقب محاوراتهم فى شؤونهم مباشرة ، ولا يؤاخذ بعضهم بعضا على هذا التناقض الفاضح كأنهم رضوا بأن يكون لحياتهم حالتان متميزتان : حالة كلامية وهمية وحالة عملية حقيقية ، ولا علاقة لهما ببعضها ، فى

الأولى متمتعون بادراك وارادة ، وفى الثانية مجردون منهما تماما .
وقد انفصل فى نظرهم عالم القول عن عالم العمل انفصالا لم يعد من العيب عندهم أن يقول الرجل ما لا يفعل أو يفعل مالا يريد . حتى انهم ليندهشون ممن يؤذى لاصراره على التوفيق بين قوله وعمله وبين عمله وإرادته لشدة ما يحسونه فى أنفسهم من صعوبة ذلك .

خلاصة ما تقدم ان لكل جيل روحا عمومية تنتشر فى أفق العالم وهى روح أقوى أمة أو أقوى الامم فى ذلك الجيل فتحيط بالامم الداخلة فى دائرة المواصلات العامة إحاطة السوار بالمعصم وتزاحم قواها كما يتزاحم الناس بالمناكب . فان كانت قوية قاومتها وحفظت استقلالها على نوع ما ، واما ان كانت ضعيفة خدرتها كما تخدر بعض الحيوانات فريستها قبل صيدها ، وحينئذ تشعر تلك الامم الضعيفة بأعراض وعلل يتوه فكر عقلائها فى تحديدها وتصويرها ، ولاتزال بها تلك القوة حتى تفقدها إرادتها وشخصيتها وهوما يعبر عنه بفناء أمة فى أمة أخرى .

الروح العمومية السائدة اليوم على البشر روح أوربية مركبة من أرواح أمم قوية كثيرة لها على الأمم الضعيفة أفعال وآثار مختلفة يطول شرحها فى هذا الفصل وربما فصلناها فى فرصة أخرى ان شاء الله .

وظيفة الرسل عليهم الصلاة والسلام الذين يرسلهم الله لتغيير أحوال الأمم هى انشاء روح جديدة فى أمة من الأمم يختارها الخالق تعالى لذلك لتقاوم الروح العمومية الموجودة وتكسر من شرتها وتحل

مكانها كما قال تعالى « يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده »
فترى الواحدمنهم لايدعو قومه الى التقليد لأنه لامعنىله الا الرضوخ
لتلك الروح السائدة المراد ملاشاتهـا ، بل يواجهون الأمة من جهة
حياتها الكامنة فينفخون فيها روحاطيبية صالحة فتهب فى الأمةعواطفها
الذاتيـة بسرعـة مدهشة وتسرى الحيـاة الى مجموعها سريانا غريبا ،
فيصبح الرجل وكأنه خلق خلقـاً جديداً أو سرت فيه روح لم تـكن
فيـه ولا فى آبائه ، فتتيقظ فى نفسه عوامل النشاط والحركة ويجـد
نفسه مدفوعا لجلائل الاعمـال وعظائم الامور دفعاً طبيعياً لانزقاً
تحمسياً . ومن يطالع سيرة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم يجد
أصرح مثـال لما نقول « وكـذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا
ما كنت تدرى ما الـكتاب ولا الايمان ولـكن جعلنـاه نورا نهـدى
به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى الى صراط مستقيم » الآية

لمـا كنـا فى كتابنا على الانسان نريد أن نعرف أمثـل الطرق
للاستقامة على صراط الحق المستقيم فلا نجد بدا من افاضةالـكلام
فى الروح العمومية السـائدة فى جيلنا هـــذا لان الفرد منا مرتبط
بمجموعه ومن العبث البحث فى سعادة الفرد قبل سعـادة المجموع .
فليس من العقل أن يسعى الرجل الضعيف فى تقوية ساعده قبل
أن يعرف سبب ضعفه العام فيداويه بعلاج عام مثله لتعم القوة
ساعده وجميع أجزاء بدنه والافيكون سعيه فى تقوية عضو واحد
منه من المستحيلات الواضحة .

انا نرى من خلال الحوادث ان الحرب التى أضرمتها الروح الأوربية على روح الأمة الاسلامية شـــــديدة مزعجة لم يسبق مثلها فى تاريخ الأرواح العمومية ، ولكنها ستنجلى ولا شك عن هزيمة الروح الأوربية وفنائها فى الروح الاسلامية فناء أبدياً . وأن ما الأمة الاسلامية فيه اليوم من الفتن والمحن مهما عظمت وتفاقمت ، فلا تعد شيئاً بجانب ما لقيته وتلقاه الأمم الضعيفة من تأثير أرواح الأمم القوية . فبينما تتخيل الروح الأوربية أن السلطان قد خلص لها ترى الروح الاسلامية من وراء حجاب تكتسب عواطف الأفراد والأمم وينمو سلطانها على العقول يوما بعد يوم وقد شعر بذلك كبار مديرى الروح الأوربية فأخذوا يتساءلون عن السبب وبعضهم يجد نفسه مدفوعا لايقاظ الروح الاسلامية بيده بواسطة كتاباته واحاثه على الاسلام والمسلمين مصداقا للحديث الشريف (ان الله ليؤيد هذا الدين برجال ليسوا من أهله) .

قلنا ان البحث فى هذا الكتاب خاص بالانسان ولكن طبيعة نظريتنا هذه تلجئنا الى الكلام على الروحين الاوربية والاسلامية لارتباط حال الفرد الواحد بشكل الحرب القائمة بينهما ونتيجتها . لذلك سنجتهد ان شاء الله فى تصوير تلك الروح الاوربية تصويراً حقيقيا ، وتحديد تيارات آثارها فى الامم عموماً وفى المسلمين خصوصاً تحديداً استقرائيا ، وتوضيح أحوالها فى تطورها من القرن الخامس عشر الى هذا اليوم ، وتبيين ادوار تدرجها من روح الحاد وعناد الى روح خضوع

واعتقاد ، ثم سنختم ذلك كله ببيان كيف ان هذه الروح الاوربية سينتهى بها الامر الى مقابلة الروح الاسلامية فى أفقها العالى ، وكيف انها ستفنى فيها وتدع لها السلطان المطلق على الارواح والاجساد معاً « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » « افغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والارض طوعا وكرها واليه يرجعون » .

﴿ اصل الروح العمومية السائدة فى هذا الجيل ﴾

قلنا فى الفصل الماضى ان لكل جيل روحاً عمومية هى روح أقوى أمة أو أقوى الامم فيه واننا تحت تأثير روح عمومية مركبة من أرواح أمم قوية كثيرة ، وقلنا ان هذه الروح الاوربية سائرة بالناس سيراً طبيعياً الى مقابلة الروح الاسلامية والفناء فيها وترك السلطان لها . وسنزيد على ذلك ان شاء الله بان هذه الروح الاوربية هى حركة من الروح الاسلامية العامة كما يقر بذلك قادتهم ولو لم يعرف ذلك دهماء المسلمين اليوم .

هذا البحث الذى تصدينا له لا يتأتى حصوله ولا ننال به من قرائنا ما نريد الا بالبسط الشافى ليكون القارىء من سلسلة هذه الحوادث الكبرى بمكان المشاهد لحركات الجنود من مرقب عال يلم بمجموعها لاول نظرة ولا يغيب عنه من دقائقها الا مالا يخل بحكمه عليها . وهذا يستدعى منا قبل كل شىء امساك تلك السلسلة من طرفها الاقصى ولو كان ذلك يطوح بنا إلى السريان فى صميم التاريخ سرياناً دقيقا، والسبح

فى مناحيه سبحاً طويلا ، فلا يحسبن القارىء اننا شردنا عن الموضوع إذا انس منا الذهاب به يميناً ويساراً ، فان ذلك لحرصنا على أن لايخرج من هذه الجولة الطويلة قانعا من الغنيمة بالاياب ، وراضياً من البحث بعظم حجم الكتاب ، والله المسئول فى هدايتنا الى الصواب

﴿ الدين قبل ظهور العلم ﴾

لانريد من العلم مطلق مايدل عليه اللفظ لانه لايتصور أن يكون الانسان قد عاش يوماً واحدا بلا علم ولو على ابسط أحواله ، وانما نريد منه أخص معانيه ، وهو النظر فى حوادث الوجود نظرا مجردا عن الصبغة الدينيةوالبحث عن علاقاتها ببعضها وترتيب تلك العلاقات على كيفية تستخدمها اليد فى تحسين الحالة المعيشية ، ويعتضد بها الفكر فى سبحه فى مرامى المسائل العقلية . تخصيص العلم بهذا التحديد يسمح لنا أن نقول انه مر على الانسان حين من الدهر لم يكن يذكر العلم بلسانه ، ولايخطره بجنانه ، فلم يكن له غير الدين قائد ، ولم يكن يعرف مصدرا لحياته سواه ، ولا قائماً على أحواله غير كهانه وحملة أسراره . فكانت الهياكل كما تعلمه كيفية الاخبات لمعبوده ، تعرفه ايضاً سبل المعيشة فى جوده بل وتهيء له آلات تلك المعيشة .

فىهذا الدور القديم كانت الامم منعزلة عن بعضها تقريباً وواقعة فى أشد حالات تنازع البقاء ، حاجاتهم الجسدية مستوعبة مواهب عقولهم ، ومستولية بهولها على مشاعرهم ، ليس لافكارهم من الفراغ

مايسمح لها بأن تجول فى فيافى النظر ، أوتحلق بهم فى جو العبر . وكان القائمون عليهم عاملين على تكثيف الحجب عليهم كيلا ينفذ اليهم بصيص من نور الوجود فيخلعوا نير سلطتهم ، ويتخلصوا من قيد سيطرتهم وكان هؤلاء التابعون من الجهل بالكون والعماية عن أسراره بحيث لم يشكهم الشك فى شىء من عقائدهم ، ولم ينلهم الريب فى أمر من أمور دينهم ، ودام الناس فى هذه الظلمات يخرجون من غيهب ويدخلون الى غيهب، اللهم إلا فى أزمنة النبوات ، حتى جاء القرن الرابع قبل ميلاد عيسى عليه السلام فجال الفكر على نفسه جولة كسر بها كثيرا من اصفاده، وتفصى من حبائل كانت آخذة بقياده ، فكان له بعد ذلك شأن لا تكفى فى بيانه الاشارة فاليك التفصيل .

﴿ يقظة العقل ﴾

كانت الامة اليونانية من حيث الدين مثلها كمثل سائر الامم الاخرى لاميزة لها عليهم فى شىء أخذت المدنية ومبادى الصناعات والفنون عن المصريين الاقدمين فجرت على سمتها بما يناسب حالتها العقلية والاجتماعيه وموقع بلادها ، وكان لها من صفاء جوها ، ورونق الطبيعة المحيطة بها أكبر منشط لافكار بنيها على متابعة السير فى باحات الرقى العقلى والروحانى معا مما صار له فى تاريخ العالم الاثر الجميل الذى سيمر بك طرف منه ان شاء الله . فلنا انها كانت من جهة الدين على نفس الطريق الذى كان عليه غيرها من الاقدمين : تجسيم للقوى المدبرة

للكون وتعداد للآلهة المهيمنة عليه ، وأساطير خيالية ، تناسب حال تلك الآلهة الجسدانية . وكان ادراكهم للوجود لايتعدى ماتنتهى اليه مشاعرهم ، فكانوا يتخيلون أن السماء مقر الآلهة وهى موضوعة على جبال (أولامپيا) وهى سلسلة جبال فى تركية أوروبا بعضها فى مقدونيا وبعضها فى تساليا . وكانوا يتوهمون أن الغيوم التى تحيط بأعلا نقطة منها البالغ ارتفاعها (٢٩٧٣ مترا) تسترمدخل السماء عن أعين البشر . وكانت آلهتهم مقسمة الى أربع رتب : الرتبة الأولى (الآلهة العلويون) وهم المكونون لمجلس شورى السماء وعددهم اثنى عشر يجتمعون فيتداولون فى الشؤون العامة والخاصة ويصدرون بذلك الاوامر المناسبة . وكان من أعضاء هذا المجلس (جوبيتير) رئيس الآلهة و(نبتون) اله البحر و (اپولون) اله المعجزات والطب والاديبات والصنائع الخ و (منيرف) ابنة جوبيتير الهة الحرب والعقل . الخ الخ

الرتبة الثانية (الآلهة التابعون) وهم من الكثرة بحيث لايحصى لهم عدد فقد كان لامة الرومان وحدها منهم أكثر من ثلاثين الفا

الرتبة الثالثة (الآلهة الطبيعية) وهم السماء والارض والقمر والنجوم الخ

(الرتبة الرابعة) الآلهة الحيوية وهم الرجال الذين ينبغون منهم فى الشؤون الكبرى فتمنحهم الآلهة رتبة الالوهية بعد موتهم ومنهم (هيركرل) البطل الشهير . وقد كان هذا دأب الاولين فى تأليه كل من يسمو على غيره منهم حتى لاتكاد تعثر على أساطير ديانة قديمة

خالية من هذا الضرب من الجهل فقد كان الرومان يزعمون أن مؤسس مملكتهم (روموليوس) ابن الاله (مارس) وكان تلامذة أفلاطون المصريون يعتقدون أنه ابن الاله (أبولون) ولما فتح الاسكندر مصر وخلصها من جور الاعجام زعم سدنة هيكل الأله (آمون) أن هذا الاله أخبرهم بأنه ابنه فكان المصريون والسوريون يقولون بذلك ويعتقدونه لدرجة لا يتصورها العقل (١)

كان إدراك اليونانين لصفات الكمال اللائقة بهؤلاء الالهة لا تتعدى درجتهم فى العلم فكان آلهتهم رجالا ونساء مثلهم لهم أعين واسماع وغير معصومين من الشهوات والجرائم فقد زعموا أن الاله (أورانوس) كره أولاده وحبسهم فى جهنم فجاء ابنه (ساتورن) فخلعه وحكم الكون بدله . أما سارتون هذا فحدث منه أنه كل أولاده ساعة ولادتهم وفاء لوعد كان وعده (للتيتان) وهم من القوى السفلية أولاد السماء والارض فاحتالت (سيبيل) امرأته فوضعت حجراً مكان أحد أولئك الاولاد وهو (جوبيتير) فابتلع (ساتورن) ذلك الحجر ظناً أنه ابنه فنجا الولد ثم ثار ضد أبيه وعزله وطرده من السماء وحكم الكون بدله . أما (ساتورن) هذا فهبط فى (اللاتيوم) وهو قطر قديم من ايطاليا الوسطى وصرف زمنه فى تعضيد السلم وهبة البركات وتعليم الناس فنون الزرع وأساليب الحراثة

هذا موجز يسير من أساطير اليونان الأقدمين جئنا به كنموذج

---

(١) كتاب (المنازعة بين العلم والدين) تأليف الاستاذ الامركى الشهير (درابر)

لما كانوا عليه من جهة العقائد ، أما تفصيله فيحتاج لأسفار كثيرة لان هذه الآلهة لما كانت لا تعلو فى نظر اليونانيين عن الآدميين الا فى كونهم خالدين وان لهم التصرف فى الكون فلاجرم كان يصدر منهم كما يصدر من الناس أنواع من التحاسد والتحاقد والتنازع ولاعجب بعد ذلك إن كان لكل منهم سيرة طولى وتاريخ مسهب صقله خيال اليونانيين بصقال التصورات ، وذهبوا من الابداع الشعرى به كل مذهب فكان للشعب فكاهة ودينا فى آن واحد .

(مبدأ النظر فى الكون)

هذا كان حال اليونانيين من أول تكونهم الى القرن الرابع قبل الميلاد فماذا حدث بعد ذلك ؟ حدث ان طبيعة بلادهم القاحلة دفعتهم بوخزات الضرورة المعاشيه لامتطاء صهوة البحر والاتجار فى السواحل القريبة للاستعاضة عن الزائد من محصولات بلادهم بما تستدعيه حالة الحياة من مصنوعات الأمم الأخرى ومحصولاتها فارتقت لديهم مهنة الملاحه ونشأ لهم فيها غرام استحال الى ملكة راسخة فى نفوسهم فصاروا يتوغلون فى البحر المتوسط شيئا فشيئا ويجوسون خلال الجزائر والثغور فوقفوا على ما كانوا لا يحلمون بوجوده قبل ذلك ولا يتخيلونه تخيلا

كان نتيجة هذه المشاهدات وغيرها ان اتسع نطاق فكرهم عما كان عليه وصار إدراكهم للكون أوسع مما ورثوه من أساطير

آبائهم الأولين ، فنشأ تناقض بين ماوصلوا اليه من سعة الفكر وما عليه دينهم من حرج المدركات فسرى الشك إلى نفوسهم ولم يبق للدين فى نظرهم مقامه السابق . وما زالت الريب تنتقل من فؤاد إلى فؤاد حتى توجس حمله تلك الأساطير خيفة على مستقبل العقائد ، فقرروا العقوبات المختلفة لاصحاب النزغات الالحادية بمصادرتهم فى الأموال ونفيهم من البلاد أو بقتلهم بالسم أو النار أو الرجم ، فلم تنجع تلك الوسائل بل استمر العقل آخذا مجراه فى التخلص من نير الضغط والحجر وكان موقف العقائد القديمة بازاء هذه الحركة من أحرج المواقف حتى انتهى الأمر بتلاشيها بالمرة ولكن بعد أن جازت ثلاثة أدوار متوالية يلزمنا أن نبهها شيئا من التفصيل لانها من القوانين الثابتة التى تنتاب العقائد الباطلة .

(الادوار التى تنتاب العقائد الباطلة)

لما سرى بين اليونانيين الشك فى عقائدهم من جراء اتساع نطاق فكرهم وقف السواد الأعظم بازائها ثلاث مواقف متوالية يعد كل منها دور من أدوار ثلاثة . (١) زعموا أولا أن الأقدمين لا يجوز عليهم تصديق الأباطيل ولا يتصور أنهم ينخدعون لزخارف الخرافات مع رجاحة عقولهم وسمو مداركهم . قالوا : فلو لم تكن هذه العقائد حقة لاغبار عليها لما تمسكوا باهدابها هذا التمسك الذى له فى الكتب الأمثلة المدهشة . وضعوا هذه الثقة باسلافهم نصب أعينهم وقاموا

يحاربون الشاكين بكل ما يصل اليه امكانهم. ولبثوا على هذا الحال أمداً حتى ازداد تيار الشك فى الأذهان وكادت تكون له الأغلبية واعتادته الاسماع فاستحال التشدد السابق بحكم الضرورة إلى شيء من التساهل فى الدور الثانى (٢) وذلك أنهم أخذوا يقررون بأن هذه العقائد لايجوز أن تؤخذ على علاتها بصورتها المادية فما هى إلارموز لمدركات عالية ليس المقصود منها مدلولاتها القريبة. فما الآلهة فى تناسلهم وتنازعهم وتصرفاتهم، وما السماء فى عجائبها الا إشارات لاسرار عظمى، ورموز لمفاهيم جلى قرروا هذا الأصل ثم طفقوا يطبقونها على ماوصلت اليه أفكارهم من الرقى العلمى والفلسفى وقنعوا بذلك أمدا مناسبا حتى نمى علمهم بالكون إلى درجة أصبح من العبث الجمود على الماضى وادعاء قدسيته فدخلوا فى الدور التالث (٣) وهو اعتقاد بطلانها بالمرة.

هذه سنة الأمم كافةمن جهة التصديق بالعقائد الباطلة: يحل الشك أولا محل الاحترام المطلق لها، ثم يتطور الشك ويتدرج فى أدمغة التحمسين إلى شرحها وتأويلها والسعى فى تطبيقها على المدركات الجديدة، ثم يقع أصحاب البصر فى الخلاف والتلاحى من جرائها حتى ينتهى الأمر بتركها بالمرة. وهذا بعينه ماحصل للأوروبيين بالنسبة لعقائدهم فان الحروب الصليبية التى شرعوا فيها فى القرن الحادى عشر لكسر شوكة المسلمين وانتزاع بيت المقدس من يدهم سمحت لهم بالاشراف على تلك المدنية الباهرة التى أقامها المسلمون فى سوريا أحدإيالات

الملك الاسلامى الفخيم ، فأثرت فى أفكارهم تأثيرا كبيرا وحولت من مجراها بعض الشىء فحدث الشك فى العقائد وصار اللغط به كبيراً فالتجأت رئاستهم الدينية لتأليف محكمة التفتيش لمعاقبة المبتدعة بالقتل والحرق والتمثيل حتى عدت على حياة أكثر من ثلاثمائة الف نسمة من كبار الرجال وغيرهم ومع هذه الشدة والصرامة لم تستطع أن توقف تيار الشك بوجه من الوجوه قال الأستاذ (درابر) فى كتابه (المنابذة بين العلم والدين) « ان محكمة التفتيش لم تنجع فى عملها رغما عن سلطتها الكبرى . ولما لم يستطع المبتدع النجاة من غوائلها كان يلجأ إلى كتمان شكوكه وعدم إظهارها فكانت نتيجة هذا أن انتشر الشك فى جميع أرجاء أوربا » انتهى

ثم أعقب هذا الشك الذى عم الناس أن تحمس بعض المتدينين من ذوى البصر وتعصبوا للدين وقاموا فى طريق وسط بين الحزبين وسعوا فى إيجاد التوفيق بين العلم والعقائد ولكن انتهى الأمر باتساع مسافة الخلاف بين العلم ومقررات الدين ففشلوا فشلا لم يقوموا بعده قال الأستاذ (درابر) فى المتقدم : « لقد قام عدد عديد من رجال الخير ذوى النوايا الصالحة وسعوا فى التوفيق بين مقررات خلق الكون من الكتاب المقدس وبين مكتشفات العلم ، ولكن كان الخلاف بينهما قد وصل الى حد أن أصبح فى حكم المقرر امحاء أحدهما بالمرة » . انتهى

ثم انتهى هذا الدور فى القرن السابع عشر وحل محله اعتقاد المنافاة

التامة بين العلم والدين ، وتقرر لديهم بأنهما عدوان لدودان ، وضدان لايجتمعان ، وسرت تلك العقيدة من العلماء إلى الأمراء ومنهم إلى الخاصة فالعامة . فلم يسع الناس إلا الانحياز لجهة العلم مدفوعين بالضرورة ، ومحفوزين بحكم الحاجة لمايرون من خيرات العلم وبركاته ومايتنعمون فيه من اكتشافاته وابتكاراته وسينتهى الأمر كما يكتبون فى كتابهم بزوال الدين بالمرة ، ولا يريدون بالدين الدين المطلق بل الدين بالمعنى الذى قام بحفظه سدنة الهياكل ، وخدمة المعابد ؛ أما الدين المطلق فهم بازائه على أقسام شتى على حسب مذاهبهم مماسيجىء كلامنا عليه إن شاء الله تعالى .

﴿ نظرة على ما سبق ﴾

إذا تقرر هذا فهل نحن أيضاً على ذات الطريق الذى سارت الأمم عليه قبلنا وهل لامناص لنا من التطواف على هذه الادوار الثلاثة حتى ينتهى بنا الأمر إلى المروق التام من الدين ؟ يقول قائل « نعم وقد اجتزتم منه عقبة وأنتم اليوم فى العقبة الثانية وليس بينكم وبين الدور الذى فيه أوروبا الاقارعة نتصب عليكم فتريكم أن سبب انحطاطكم هو عدم العلم لا عدم الدين ، وأن أوروبا لم تأخذ بمتنفسكم ولم تمسك بأكظامكم فى كل شأن من شؤون حياتكم إلا بوسائل العلوم الطبيعية ، والاكتشافات الفنية ، لا بالوسائط الاعتقادية ، والمقالات الجدلية »

ولئن سألت هذا القائل عن تفسير ما قاله من اننا اجتزنا الدور الاول من الادوار الثلاثة ونحن فى الدور الثانى وعلى مقربة من الثالث لقال : «لا اذهب بكم بعيداً ، هاهو قطركم المصرى لبث تلك الاجيال الطويلة من عهد فتح مصر بالجيوش الاسلامية الى آخر عهد المماليك وهو جاعل من العقيدة حصنه الحصين ، وركنه الركين ، وقد توالت عليه الغارات والفتوحات ، وتداولته الامم المختلفة وهو لم يتحول عن تلك الحالة حتى هل القرن الثانى عشر الهجرى ودهمته الجيوش الفرنسوية وأعقب ذلك تكون حكومة منتظمة فى البلاد غيورة على صالح الأمة وترقيتها على مقتضى روح المدنية الأوربية، فشيدت دور العلوم والصنائع وأقامت معالم المعارف والفنون ، وأرادت اعطاء هذه الحركة الممدنة حقها فأرسلت عدداً كبيراً من أبناء البلاد إلى أوروبا للاشراف على أسرار المدنية من قرب ، فلم يكد هؤلاء الشبان يشرفون على تلك المعاهد الفخيمة وينيفون على هاتيك المعالم الباهرة ويرتضعون ثدى العلم الجديد حتى أحسوا بالبون الشاسع بين ماورثوه عن آبائهم من العقائد وبين ماعليه الوجود من الفخامة والجلال فسرى الشك اليهم سريان النار فى الهشيم فجاؤا إلى بلادهم وفى نفوسهم من الهواجس والشبه ما فيها فتظاهروا بالتفرنج والتقليد ، وتركوا من العادات ما لا يتفق مع الفكر الجديد ،» .

فماذا حدث من هذا الانقلاب السريع ؟ حدث أن حمى وطيس التحمس للدين فى بعض الأدمغة الحريصة على ذكرى الماضى فأخذت

تصيح بانطباق الدين على المدنية ، وعدم منافاةالعقائد للعلوم الطبيعية .
وقد كتبتم فى ذلك المجلات والكتب ، وواليتم فيـــه الابحاث
والخطب ولم يزل كتابكم يزاولون هذه المجاهدات الشاقة إلى اليوم .
فهل ينتظر بكم بعد هذا إلا الوقوع فى الدور الثالث وهو تحققكم
أن العلم ينافى الدين ؛ وأن العلم منبع الحياة الحقيقية ؛ وملاك السعادة
الانسانية : وأن للأديان أزمنة خاصة فى تاريخ الانسان تؤدى وظيفتها
ثم تنتهى بانتهاء دورها ؟ وهل مثلكم بالنسبة للأدوار التى قدرت
للأنسان إلا كمثل غيركم ، فاذا كان غيركم مر على هذه الادوار وانتهى
إلى ماترون فلماذا تزعمون أنكم لاتنتهون إلى حيث انتهى وتقفون من
الحياة حيث وقف . »

هذا ما يستطيع أن يقوله قائل تشبع فكره بابحاث الماديين
من هدمة العقائد الباطلة فى أوروبا أوتقليدا لمن تشبع فكره بها وانا
لنعلم ان القائلين بهذا القول فى البلاد الشرقية قليل ولكنه فى زعمنا
من الشبه التى وقع الناس فيها بالعمل قبل ان يدركها فكرهم بالتصور
وهى لفحة من لفحات المدنية المادية التى حكم علينا بالاحتكاك بها
والافتنان بمظاهرها .

هذا القائل لو درى ما هى الغاية التى خلق النوع الانسانى مسوقا
اليها ، وما هى الدوافع التى تدفعه فى خلال القرون والحوادث للتوجه
اليها ، وما هو سر الحياة الانسانية والعواطف القلبيه ، ثم علم ما هو
الاسلام فى ذاته ، وما علاقته بالنفس البشرية وباحساساتها الداخلية ،

وما الغرض منه لتحقق ان شبهته هذه التى هدمت العقائد البـاطلة وجعلتها خبرا لـكان هى بالنسبة للاسلام أو هى من بيت العنا كب، وأضعف من أن تسمى شبهة بل لعلم علما يقينيا ان شبهته هذه هى ادل الادلة على أن الاسلام دين الله ، وان العالم مسير اليه بدوافع الطبيعة ، ونواميس الحياة ، لأنه دين الفطرة الأصلية المجرئة من الأوهام والاباطيل ومطلب الروح الاقصى المنزه عن الوساوس والأضاليل ، ولـكن ماذا يغنى هذا القول مجرداعن الدليل ، وعاريا عن الشرح والتفصيل ، بل ماذا يفعل فى خصمنا ان لم نقف فى حيزه الذى هو فيـه ليعلم انا واياه فى مستو واحـد ثم نساوره من قرب بنفس علومه مقررات معارفه مما يتوهم انها أكبر هوادم العقائد ، وأقوى معاول الخيالات ، ليعرف أننـا لا نندافع عن حقائقنا من وراء حجب تحاميا من صولة العلم ، وتحاشيا من مواجهة اصوله وقوانينه .

هذا وظيفة كتاب خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم فاقرأ حل هذه الشبهة هناك ولنرجع نحن الى متابعة الـكلام على تاريخ نشأة الروح العلمية فنقول :

﴿ نشأة الروح العلمية التى يسيطر بها ﴾

(الغرب على الشرق)

قلنا ان الأمة اليونانية القديمة مصدر نشأة الروح العلمية التى أيقظت العقل من سباته وفكته من قيوده حينما ألقت بنفسها على أسنمة الامواج تجوب البلاد . وتخترق الآفاق ورأت ما رأته من عظم الكون وجلالته مما شككها فى دينها وأنزل من فؤادها مقام أساطيرها ، ولكننا وقفنا بالقارىء وقفة كان لابد لنا منها صيدا لشاردة العبر ، وتأملا فى سنة البشر ، ونريد اليوم تتميم الكلام فنقول :

مازال اليونانيون يجوسون خلال الثغور والامم البحرية للاتجار حتى مرنوا على السياحات وصارت لهم الملاحة ملكة راسخة وتبع هذا اتساع فى نطاق مداركهم ، وتهذب فى عواطفهم ، ورقية فى طبائعهم من كثرة اشرافهم على أجناس الشعوب فى رحلهم واناقتهم على مختلفات القوانين ، ومتباينات النظامات ، واحتكاكهم بصنوف الامم المتخالفة فى عوائدها وعقائدها وألوانها ولغاتها كل هذا وما وهبه اليونانيون من مضاء الفكر وحب النظر وحسن التأثر بالمشاهدات قذفت بهم الى باحات من الرقى العقلى فاقوا به سائر الامم المعاصرة لهم .

كان اليونانيون فى ذلك الوقت أى حوالى القرن الخامس قبل الميلاد منقسمين الى قسمين : قسم فى أوروبا وآخر فى آسيا . الثانى كان راضحا لنير الفارسيين لايحدث نفسه بالاستقلال ولا يمنيها بتغيير

الحال أما الأول فكان نشوان من خمرة الحرية ، عدوا للاستبداد والعبودية وكان منقسما الى ممالك عديدة لكل منها ملك خاص ونظام خاص وكان يقع بينهم النزاع كما يقع بين الامم المتخالفة الاجناس ولكن ذلك لم يكن ليمنعهم من الاتحاد على بلوغ غرض عام احيانا كما اتحدوا على مقارعة الفارسيين فى القرن الخامس قبل الميلاد حينما أرادوا أن ينشروا عليهم سلطانهم . وكان هذا الانقسام داعيا لبعض ذوى الاطماع الواسعة من أولئك الملوك لمحاولة اخضاع اخوانه لسيطرته فكانت تقع بينهم الحروب من جراء هذا الامر وتصطلم كثيرا من زهرة نشأتهم وتصدهم بعض الشىء عن بلوغ نهاية ما قدر لهم .

كان من أولئك الذين تاقوا الى توحيد اليونانيين فيليب المقدونى لما بينهم وبينه من صلة الرحم فبدأ فى تتميم مشروعه بشن الغارة على المدائن المتاخمة لبلاده فلم يؤبه به اليونانيون رغماً عن نداء خطيبهم الشهير (ديموستين) ولم يدركوا الخطر المحدق بهم الا فى سنة (٣٣٨ ق . م) فقاوموه بالقوة فهزمهم وأخضعهم لصولجانه وعين نفسه قائداً عاما للجيوش اليونانية وعزم على الاغارة على بلاد الفرس فكمن له يونانى فقتله نخلفه ابنه (الاسكندر) الاكبر سنة (٣٣٦ ق . م) وعين نفسه فى كورنت قائدا عاما لليونانيين وعزم على فتح بلاد الفرس وتتميم رغائب أبيه .

﴿ سبب توق اليونانين إلى فتح فارس ﴾

كان ملك العجم فى القرن الخامس ضريب ملك الرومان فكانت مساحته تبلغ نصف مساحة اوربا يمتد من سواحل البحر الأبيض الى سواحل البحر الأسود فبحر أيجيه فبحر قزوين فبحر الهند فالبحر الأحمر وكان به ستة من أكبر أنهار العالم وهى الدجلة والفرات والأندوس والأكسوس وجاكسارت والنيل تفيض كل عام بالخيرات والبركات على البلاد التى تمر بها فتغمر أهليها من نعيم العيش وخفض الحياة بما يسمح لهم باستثمار قوة العقل واستثارة كنوز الفكر واستنباط غرائب الصنائع وعجائب الفنون ، فلا جرم كانت بلاد الفرس حديقة العالم الأرضى ونموذجا لغاية مايمكن الوصول اليه فى تلك الاجيال من المدنية الصناعية والحضارة .

أمة هذا شأنها من العظمة وسعة السلطان وكثرة الجند والمال لم تكن تحسب لليونانيين حسابا فى قلة عددهم ووهن وسائلهم فكانت من أمن جانبهم بحيث لاتتحامى أن تستخدمهم فى جيوشها لمقارعة أعداء دولتها ومن هنا ادرك اليونانيون جهة الضعف فى جنديتها فصارت نفوسهم تحدثهم بامكان قلب سلطانها واكتساح كنوزها ، وكان فيليب ملك مقدونيا أكبر من حدث نفسه بذلك الأمر الجلل ولم يثنه عن عزمه الا طعنة ذلك اليونانى كما ذكره .

خلفه ابنه (الاسكندر) فلبث ريثما استتب له أمر الحكومة ثم

جال بخاطره ماكان يجول بخاطر والده من فتح بلاد الفرس فسار اليها بأربعة وثلاثين ألف راجل وأربعة آلاف فارس فى سنة (٣٣٦ ق . م) ودخل أسيا الصغرى والتقى بجيش الفرس فكان النصر فى جانبه فى آسيا الصغرى ولبث بها ريثما نظم حكومتها ثم اتجه لفتح سوريا فصادف جيش (دارا) ملك الفرس يموج فى ستمائة ألف مقاتل فلم يغنه كثرة عدده شيئاً فولى الادبار فاتجه الاسكندر للجنوب خوفا من ان يقطع الفرس عليه خط الرجعة ثم جمع أركان حربه وشاورهم فى الأمر فاجمعوا على لزوم فتح صور تحاميا من أن يشن الفرس الغارة على بلاد اليونان فيحملون على النكوص على أعقابهم وترك مغانمهم فحاصرها فقاومته ستة أشهر ثم دخلها وسلمت له اورشليم فاتجه الى غزة ففتحها عنوة ثم اتجه للقطر المصرى فطوعه ونظم حكومته ثم رجع الى سوريا بأربعين ألف محارب واجتاز نهر الفرات فصادف فى الشاطىء الايسر جيشاً فارسيا مؤلفاً من مليون ومائة ألف مقاتل فالتقت الفئتان وانتهت الوقعة بهزيمة الفرس وحدث أن قتل (دارا) بعدها بقليل فصفا الامر للاسكندر فجاست خيله خلال ذلك الملك البازخ بلا مزاحم ولا مقاوم وأخذت من خزائن الفارسيين وكنوزهم مالا يقبل الاحصاء ولا يدخل فى حسبان .

﴿ نتيجة هذا الفتح على اليونانيين ﴾
﴿ وتأثير المدنية على العقائد الباطلة ﴾

نشأ لليونانيين من جراء هذا الفتح نمو سريع فى ملكاتهم وفكرة

كبرى على عظمة الكون وجلالة الوجود ، وناهيك بقوم فيهم قابلية للحركة الفكرية والرقى العقلى مطبوعين على التأثر بالمناظر والمشاهد يمرون فى ردح قليل من الزمن على معاهد المدنيات القديمة ويجمعون فى وقت واحد بين الينبوعين العظيمين للمدنية الانسانية أى النيل فى مصر والجانج فى الهند ويمرون بينها على تلك المدنيات الصغيرة التى استمدت حياتها من ذينك الينبوعين كأمم الاشوريين والميديين والليديين والبابليين وغيرها .

رأوا الاهرام القائمة تناغى السحائب وتسامر الكواكب ، وتلك النصب المنصوبة من منذ آلاف من السنين تخلد ذكر ملوك قادوا الكتائب ، وزانوا العروش والمواكب ، ثم شارفوا بعد ذلك منصات سلاطين الآشوريين المحفوفة بالاصنام ذوات الاجنحة ، وشاهدوا بقايا هيكل بعل وهو من العلو بحيث تكنفه السحب من كل جانب . ورأوا فوقه مرصد الافلاك ، لذا تنزلت منه على تلك الامة أساطير دينها الذى باعت له أرواح بنيها وصحت من أجله أفلاذ أكبادهم ، ثم أبصروا ذينك القصرين الشهيرين بحدائقهما المعلقة فى الهواء على أعمدة متينة وفيها من ضخام الاشجار وعظام الدوح مالا يقل عما على البسيطة منها . وبصروا ببقايا تلك الآلات الضخمة العجيبة التى كانت ترفع المياه الى تلك الحدائق الهوائية .

ثم استعرضوا بلاد العجم ورأوا من عجائب المدنية ما هو أحدث عهدا من كل ما سبق : لحظوا أواوين (بيرسوپوليس) المعلقة على أعمدة

محلاة بالنقوش الغريبة وشهدوا تلك التماثيل الضخمة والأنصاب الباذخة ومروا من هناك اكباتان مصيف الاكاسرة الفخام وهى محاطة بسبعة أسوار مبنية بالأحجار المفصلة المصقولة ذات الألوان المختلفة وهى ترتفع لجهة المركز لتعطى بذلك صورة مدارات الكواكب السبعة . وأموا ذلك القصر الذى غشيت ثقوفه بالفضة الناصعة وكسيت خشبه بطبقات من الذهب الوهاج وعاينوا تلك الأهلة المصنوعة من النفط التى كانت تضىء ذلك القصر بما يشبه ضوء النهار .

نعم رآى اليونانيون كل هذا الملك الباذخ وتأملوه جيداً فكانوا يشرفون فى كل خطوة يخطونها على مشاهدلم يحلموا بوجودها ولم تتولد فى خيالهم صورتها ولما كانوا هم بطبعهم أميل الامم للنظر والتأثر بعجائب المخلوقات فقد صادفوا فى هذا الملك الواسع ما يبل غليلهم ويشفى صدورهم فبينما هم وسط صحراء رملية لا يتصور الوهم لها حدا اذا هم بسفح جبل ينقطع شعاع البصر دون بلوغ ذروته علوا وشموخا ، هذا عدا عما كانوا يمرون به من التلال والظلال والوهاد والنجاد والحيوانات المختلفة الاشكال والالوان والاحجام والنباتات المتباينة الاجناس والفصائل مما لم يكونوا يتوهمون له وجودا .

فماذا كان من نتيجة ذلك على عقائدهم ؟ كان ولاشك الحكم البات على بطلان أساطيرهم والجزم بأنها من مخترعات كهانهم ، وبذلك أصبح الشك الذى كان اعتراهم من جرى رحلاتهم السابقة حكما جازما

وعقيدة راسخة . وقد أثرت عليهم هذه المشاهد تأثيرا أنام عاطفة الدين من نفوسهم مرة واحدة وقذف بهم الى متاهات الالحاد المطلق فلم يعودوا بعدها يصدقون بشيء واعتبروا سائر العقائد صورا ولدها الخيال وجسمها الوهم وغلوا فى الشك والتشكيك حتى شكوا فى وجود المحسوسات ووجود أنفسهم .

﴿ نظرة على ماسبق ﴾

﴿ لماذا تؤثر المدنية على العقائد ﴾

نحن بعد أن جلنا بالقارىء هذه الجولة التاريخية يحسن بنا أن نسأل أنفسنا قائلين : ما هذا التلازم بين الرقى المادى والشكوك فى الدين ؟ وما هذه العلاقة الاكيدة بين العلم بالكون والالحاد ؟ لو كان هذا شأن أمة من الأمم لقلنا ان له سببا عرضيا استدعته حالة من أحوالها الخاصة ولكنه يشاهد فى جميع الأمم على حد سواء (الا الأمة الاسلامية) وأظهر مثال لنا ما نشاهده بأعيننا من الأوربيين فانهم أصبحوا من ترك العقائد بحيث لانستطيع أن نتخيل امكان رجوعهم اليها وقد علقوا رقيهم كله على تركها وكل حين تردنا كتبهم ومجلاتهم مفعمة بالمطاعن الشديدة على البقية الباقية منهم على عقائدها ، فهل فى هذا دليل على قول بعضهم من الملاحدة ان الدين باعثه الجهل ومادته العماية عن حقائق الكون ؟ وهل فيه حجة للقائلين بأن الاديان الموجودة هى حوادث تاريخية استلزمتها أدوار خاصة وقد أدت وظيفتها وأخذت فى الانحلال ولن يقوم لها فى عصر العلم قائمة ؟

إن كان لا هـذا ولا ذاك كما برهنا عليـه فى الفصل السابق وكما سنعود اليـه ان شاء الله بصور مختلفة ، فهل فى الرقى المادى شيء من السحر يعترى النفوس فيلفتها عن مطالب أرواحها ويعميها عن رؤية كمالاتها ؟

إن كان كذلك فما هو ذلك السحر فى نفسه وما منشأه وكيف يؤثر على العقول هذا التأثير المدهش ؟ وهل لا يمكن أن يوجد على سطح الأرض مدنية مادية متحدة بكمالات روحانية ويكون الانسان بينهما مغمورا فى نعيم روحه وجسده متمتعا بلذائذ مادته ومعناه ؟ ان كان لا يمكن ذلك فهل شرع الدين ليكون مقصوراً على الفقراء والمساكين وموقوفا على المحرومين والمستضعفين ؟

وإن كان من الممكن جمع مدنية مادية أو كمالات روحية فما بال بعض المسلمين الذين قضى عليهم بالاحتكاك فى قشور هذه المدنية الأوروبية قد خلعوا أعنة الدين ، وأملسوا من وشيجة العقيدة ؟

ليس من العـدل أن نصمهم كلهم بالعماية والطيش فان منهم المتعلم الذى يفخر به معلموه ، والسمح الذى هام به محبوه ، والأريحى الذى يحمده قاصدوه ، فما الذى أمال أعناق هؤلاء الى الهوى ودفعهم الى الردى ؟ واذا كان لامناص من أن يكون الرقى المـادى يقابله عدم الدين وقد رأينا بوادره فى اخواننا الأقربين فانتظر اذن حينا من الدهر لاتصادف فيـه راكعا فى محراب ، ولاداعيا الى غير شراب ، لان المدنية الصناعية آخذة فى الانتشار ومتسربة الى سائر الأمصار ،

وانك ترى أنهـا تعدت من كبار الافراد الى من يليهم وممن يليهم الى من دونهم حتى دخلت الى قرى الفلاحين ، وكادت تطرق الباب على صغار الحراثين ، فان كان كما قلنا فى المدنيـة شيء مما نسميه سحرا فقد قرب الوقت الذى ندعو فيه الى الدين فلا يجيبنا غير الصدى ، ويذهب كل ما كتبناه فى الحث على التخلق به سدى ؟

أليست هذه مسألة يجب التعمق فيها لادراك سرها ، والوقوف على حقيقة أمرها ، لنعرف مكامن الداء وحقيقة الدواء تفاديا من التعب فى غير متعب ، وهربا من الذهاب فى غير مذهب ؟

ماهى المدنية وما تأثيرها على الروح الانسانيـة ؟ ماهى الشهوات الجثمانية وما هى الـكمالات النفسانية ؟ لماذا يفضل الانسان الشهوات الفانية على الـكمالات الباقيـة ؟ هل السبب فى ذلك عدم الأيمان ؟ فما هو الأيمان ؟ كيف يقوى وكيف يضعف ؟ هل فى العلوم المادية مايقوم مقام الدين فى إيتاء الروح حاجتها وتهدئة النفس فى جيشانها ؟ هل فيها مايغذى عواطف الروح ويجعلها تقنع بنعيم الحياة الأرضية وتكتفى بملاذها الجسدية ؟ هل نمو القوة العقليـة ينتهى بالانسان الى اعتقاد بطلان الأديان ، وادراك فساد مابنيت عليه من الأركان ، فيكون الشأن تأخر الدين كلما تقدم العقل حتى يتم الأمر بزوال الدين وانتهاء سلطته ، وقيام العقل مقامه فى أداء وظيفته ؟ يمكن أن يقال نعم ، وان يقال لا.

ان قيـل نعم فما هو العقل وما هو الدين وماحدود سلطانهما على النفوس ؟ هل هما يتنازعان الانسان من جهة مشتركة فيكون هو للغالب

منهما دون الآخر ، أم لكل منهما دائرة نفوذ خاصة يؤثر على الانسان من قبلها ؟ ان كانا يتنازعان الانسان من جهة واحدة فما هى تلك الجهة منه ، وان كان لكل منهما جهة خاصة فماهى جهة سلطة العقل وماهى جهة سلطة الدين ؟

وان قيل لا . نقول : اذن ما هذا الاثر الذى نشاهده ؟ لماذا نرى كل من ازداد علما بالكون وبالأمم من أصحاب الاديان سواء الاقدمين أو المحدثين يشكون فى العقائد ويتهاونون فى أمرها ، ولا يزالون كذلك حتى يتركوها بالمرة ؟

ان قيل : ذلك لما تسهله المدنية لهم من أسباب اللهو والترف ، ومايجلبه لهم من المغريات على الخلاعة والسرف . نقول : وكيف يقوم لأمثال هذه الامم قائمة وكل ما ذكر من صنوف اللهو محلل لروابط الهيئة الاجتماعية ، عاد على كيان حوافظها الاصلية ؟ هل ذلك لانا واهمون فى تحديد ماهية الفضيلة وماهية الرذيلة ؟ ماذا يكون جوابنا لو استشكل علينا خصم فقال :

« إنكم سميتم عاداتكم فضائل ودعوتم أضدادها رذائل وجعلتم ذلك قانونا تحكمون به على الامم والأفراد فيذهب كل يوم حكمكم أدراج الرياح . تطبقون عاداتكم على أمم الغرب فلا تنطبق عليها فتحكمون عليها بأنها بعيدة عن الفضيلة وترون فيها أضداد عاداتكم فتحسبونها رذائل فتسرعون بالقضاء عليها بقرب الزوال والتلاشى . والحقيقة غير ماتحكمون وماتظنون .

« انكم تنظرون الى الربا فتظنونه رذيلة مجتاحة (هذا قول المعترض) مع أن عليه تدور دائرة التعامل فى العالم المتمدن كله وبه تتوطد الدعائم الاقتصادية فيه . وتلتفتون إلى الخمر فتعدونها رذيلة حتى الاعتدال فيها مع أنها المورد الأكبر لمالية الأمم المتمدنة ، وترنون الى مسألة تكشف النساء وحضورهن فى مجالس الرجال فتخالونه رذيلة مع أنه أهم الأسباب التى رقت الأوربيين وأخذت بأيديهم الى مكانات العلاء والرفعة . وهكذا سميتم كل ماخالفكم فيه غيركم رذيلة وهى فى الحقيقة فضيلة وصرتم تثرثرون بها كل يوم حتى اعتادتها الأسماع ولم يعدلها تأثير .

« انكم تتعجبون من كونكم مسحوبين من أنوفكم الى تقاليد الأوربيين والأخذ بعاداتهم وتذهبون فى تعليل هذا الأمر مذاهب الخيال والشعر فتسمونه سحراً أوتسمونه روحا . وقد جعلتم التفيهق بأمثال هذه الكلمات مادة لكم فى ابحاثكم وكتاباتكم . أتدرون ماتجدونه فى أنفسكم من الاندفاع للتقليد أثر أىقوة هو ؟ هو أثر قوة الفضيلة فىالأمم التىتحتكون بها لأن الفضيلة جذابة خلابة تؤثر تأثير السحر على العواطف والأميال فهى تجذبكم كل يوم اليهابقوتها الذاتية فترضخون لأحكامها بالفعل بينما تكون السنتكم وأقلامكم لائكة تلك العبارات الاستفهامية والجمل التعجبية اندهاشاً من كونكم مسحورين بالرذائل ومجبرين على ترك الفضائل . فعليكم أن تتبصروا وتجيدوا استعمال الروية ، قبل أن تقع على عاتق المتهورين من

كتابكم المسئولية ، مسئولية صد الشرق عن الاستفادة من خير المدنية »

هـذا ما يستطيع أن يقوله مجادل عنيـد فى مناسـبة ماسقناه من النبذة التاريخية وماتساءلنا عنه من ذلك المؤثر الذى يؤثر على العقيدة الدينية فى عصور المدنية . وهو من الشبه الرائجة فى أيامنا هـذه على ألسنة بعض الناس ممن يستطيعون التعبير . وفى ضمائر البعض الآخر ممن لايحسنون القال والقيل . فلا مناص لنا من حلها حلاجلياً تفصيلياً إن شاء الله تعالى ، لأنهامن أحابيل شياطين الشرق اليوم التى وقع فيها كثير من أفراد النشأة الجديدة مسوقين اليها بتيارين : تيار سحر الزخرف الصناعى المنصب الينا من أوروبا وتيار القوة والنفوذ اللذين هما فى جانب الغرب اليوم .

هذان التياران وإن كانا فى العادة دافعين هائلين للأمم المستضعفة الى الانحلال ، الاأنهما لايبلغان غاية قوتهما الاأمام الأمم الجاهلة الغافلة عن سر الحياة ، التى لاتسمح لها عمايتها بالتفكر فيما بعد يومها الذى هى فيه ، وتوهمها وساوسها بأن الحال لن يتغير عما هو عليـه . وإن العالم قد طبع بطابع نهائى أى إن القوى يبقى قويا الى الأبد والضعيف لايبرح ضعيفا الى الأبد ، ولامعنى لهـذا الااليأس بعينه وهو أشد درجات الكفر فى مذهبنا ،

فالعلم والحالة هذه يفتح للأرواح باب الأمل الواسع ويحلهم بساحة الرجاء المنعش فيطلبون الحياة بمـا لديهم من الوسائل فان أكدت الوسائل اليها ولو بالتمنى ، واحتموا بذلك من اليأس الذى هو

طاعون الهمم ، وسرطان الشعوب والأمم ، ولولم يكن فى حلولنا لهذه الشبه الا الالمام بشىء من أسرار الحياة لكفى به نتيجة عظمى ولا محل لتلك الحلول غير كتاب خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم عسى أن يصادفنا من نوره الاقدس شعاع نستقيم بلألائه على المنهاج السوى ، والصراط الآلهى ، والله مولانا فنعم المولى ونعم النصير ·

﴿ تأثير فتح بلاد الفرس على اليونانيين ﴾

(من جهة العلم والفلسفه)

درسنا فى الفصل المتقدم الأثر الذى أحدثته على عقائد اليونانيين معالم المدنية المادية فى بلاد الفرس ومستعمراتها الواسعة ، ثم وقفنا بالقارىء وقفة اعتبار وتأمل وقلنا فى ذلك ماشاء الله أن نقول على مقتضى أسلوبنا فى هذه المباحث ، ونريد اليوم العود إلى موضوعنا الأصلى لاستيفاء درس ذلك التأثير من جميع وجوهه العلمية والفلسفية فنقول :

وجد اليونانيون بازاء تلك الكنوز الثمينة من اللجين والعقيان ، والجواهر والذهبان ، والأبنية التى كانت تناغى الكواكب ، وتسامى الدرارى الثواقب ، كنوزا أدبية أثمن قيمة ، وأغلا ثمنا ، وأصلح لاقامة الحياة الانسانية ، وأليق بعواطف الفطرة البشرية ، وهى نتائج أفكار تلك الأمم القديمة التى كان يتكون منها ذلك الملك الفارسى الضخم من الكلدانيين والبابليين وغيرهم من الشعوب العريقة فى القدم ممن

كانت مدنياتهم بين جدولى الدجلة والفرات تبهر الأنظار، وتحير المدارك، وتدلنا نحن، ونحن أبناء القرن العشرين، على مقدار ما كان يبذله قادة أفكار تلك الامم من المجهودات الفكرية، والمحاولات النظرية، مما يليق أن نعجب به ونتعجب منه.

وجد اليونانيون فى بلاد البابليين من ذخائر العلوم الفلكية جواهر لاتوازيها الجواهر، وكنوزا دونها الذهب الباهر، كأسباب الخسوف والكسوف وطرق معرفة أوقات حصولها بالضبط، وعثروا على جداول تبين مواقع النجوم من السماء، ومواضعها من الاجواء، مع بيان ثبات ثابتها، وحركة متحركها، ومنازلها بالنسبة إلى أخواتها، مع معرفة مقادير الابعاد الشاسعة التى تفصل بعضها عن بعض، ووقفوا على غير هذا من الآلات الفلكية، والمعدات الرصدية، والعدسات المكبرة، والمعادلات الرياضية النافعة مما لايكفى فى العثور عليه القرون المتطاولة، والاحقاب المترامية.

رأى اليونانيون كل هذا ولا تسل عما أحدثه على عقولهم ونفوسهم وهم قوم لم يكونوا لذلك الحين اعتادوا من أعمال المواهب الادبية غير التأملات المطبوعة بطابع الاساطير الوهمية، المقيسة على خرافاتهم الاعتقادية.

كان هذا تأثير هذا الفتح العظيم على اليونانيين من جهة العلوم النظرية والتجريبية أما أثره عليهم من جهة الفلسفة والحكمة فما لا يستهان به.

عاش اليونانيون تلك القرون كلها وهم بين يدى كهان الهياكل وسدنة

المعابد ، افكارهم أسرى تعاليمهم ، وعقولهم وقف على تصديقهم ،كأن رؤساءهم أرواحهم التى بها يتحركون ، ومشاعرهم التى بها يشعرون ويتأثرون ، كما هو شأن كل الامم الطفلة بين يدى قادتها المتغلبين ، وسادتها الروحيين ، ولم يكونوا لذلك العهد قدوقفوا من أسرار الحكمة التى نزل بها الوحى على بعض الامم ، أومن الاساطير المؤنقة التى ولدتها وصقلتها قرائح الشعوب الراقية ، على شىء يصلح لان يحدث حركة فى افكارهم ، أو يستجيش من غيابة ضمائرهم مكنون ملكاتهم ،الا أنهم لما شارفوا هذه الامم التى ذاقت حلاوة الوحى الحق ، واستضاءت بنور الرسل والنبيين ،واجتازت دور الطفولية الاولى ، وان كانت عدت على حقائقها بالتحوير والتبديل ، رأوا أنهم حيال بحر من الحكمة زاخر ، وفى وسط باحة من ثمرات الفكر ليس لها أول ولا آخر .

رأو تعاليم ديانة (ذورو واستر) الفارسى الذى ولد كما يدعى اليونانيون قبل زمن جاهليتهم بخمسة آلاف عام ،ولم يهتد العلم التاريخى الى تحديد زمن وجوده للآن ، أول تعاليم تلك الديانة فرض وجود الهين مستقلين يحكمان الوجود ، إله للخير ، وله سبعة أعوان عظام يتلقون أوامره ويساعدونه فى ادارة العالم ويصرفون القوى الخاضعة لهم الى الوجهة التى يريدونها ، وإله للشر ، وهو متسلط على عالم الظلمة وله أعضاء سبعة كالاول يوازرونه فى تصريف شؤون عالمه الظلمانى . هذان الالهان فى نزاع مستمر ، وتناظر دائم ، يتجاذبان بينهما هذا الانسان الضعيف ويود كل منهم ان يخضعه لسلطانه ، فهو اذن لمن

غلب منها . ولكن هذا النزاع ليس بأبدى لا آخر له ، بل له يوم ينقطع فيه بغلبة إله الخير على خصمه إله الشر ، هناك تنقطع مادة الشرور و يصل الانسان من نعيم الحياة ولذات الفضائل الى حالة ليس بعدها غاية لطموح . ثم رأى اليونانيون بجانب هذه الديانة العقيدة المجوسية التى ترى فى النار أعظم مظهر للقوة الخالقة المحيية للكون ، وناهيك بما فى هذه الاساطير من صور خيالية ، واشكال تصورية ، وأحلام شعرية ، ومدارك فلسفية ، انتزعت من باحات المعنى الانسانية ، واصطيدت من شوارد العواطف القلبية ، فكان مثلها مثل الشعر فى تلطيف العواطف ، وتليين الشكائم ، والتملق لاحساسات النفس وأميالها ، والتزلف لمراميها وآمالها .

سبح فكر اليونانيين من كل هذه الثمرات الفلسفية فى بحار تتراوح أمواجها ، وتتقاذف تياراتها ، فذهبت بافكارهم مذاهب شتى ، وانتحت بمدركاتهم مناحى بعيدة ، وصارت لعقولهم صقالا جلت عنها غاشيات الجمود ، وحجب العماية ، فجرت بهم فى ساحات التصورات اشواطا شاسعة نقلتهم من حالة الى حالات أخرى ، وقذفت بهم فى اطوار عدة اعدتهم لأن يكونوا المكان المناسب لتكون جرثومة العلم التى انتقلت منهم الى العرب فأفرعت فيهم وبهم هذه الأفرع المثمرة التى من ثمراتها مدنية اليوم . هذه الأفرع الوارفة الظلال ، السابغة الأفياء ، وإن زاحم فيها الشوك ثمراتها اليانعة حتى أصبح الجانى لا يصيب ثمرة حتى تصيبه شوكة ، فليس ذلك الامن غلطات القائمين بحفظ غياضها ،

وهو ماسنجعله إن شاء الله من بعض مباحثنا لتتجلى دوحة العلم طاهرة مما يشينها ويعيبها *

﴿ وفاة الاسكندر وتجزؤ ملكه ﴾

توفى الاسكندر بعد اداء هذه الفتوحات الباهرة فى سنة (٣٢٣) قبل الميلاد ولم يجاوز سنه اذذاك الثلاث والثلاثين سنة ، فأعقبت موته فتن قامت لها دولته وقعدت أكثر من عشرين سنة ثم انتهت بتجزؤ ملكه الى ثلاثة أقسام : (١) مقدونيا (٢) آسيا الصغرى (٣) مصر * أما المملكتان الأوليان فليس لنا عليهما كلام لعدم تعلقهما بموضوعنا وأما الثالثة وهى مصر فهى مرمى غرضنا فى هذه العجالة لمساسها بما نحن فيه من كل وجهة .

وقعت مصر فى هذه القسمة نصيباً لبطليموس أخى الاسكندر من أبيه ، وهو وإن لم يكن فى مقام الاسكندر من حيث قيادة الجيوش ، وفض المعاقل والحصون ، الا أنه مؤسس دولة العلم وغارس علمه ، وهو أمر جعل اسمه مقروناً بالاعجاب والاكبار ، فى تاريخ الحكمة والعرفان .

اتخذ هذا الملك الكبير مقر ملكه مدينة الاسكندرية التى بناها أخوه الاسكندر . وكان قد علم من حسن موقعها أنها ستكون نقطة الاتصال بين الغرب والشرق وحشر اليها أمة كبيرة من اليهود رجاء تعميرها ، فلما اتخذها بطليموس هذا الملقب (سوتير) مقر ملكه ، وعش دولته بعث اليها مائة ألف من الاسرائيليين وأظلهم هم وأهلها

الأصليين بأجنحة النظامات والقوانين العادلة ، والمساواة النادرة المثال ، وسهل لهم سبل المعاش والرغد . فلم يمض عليهم طائفة من الزمن تهاطل اليونانيون اليها من كل حدب ، طمعاً فى الحياة تحت ظل هذه الحكومة العادلة فى خفض من العيش وأمان من الظلم وبهذا أصبحت الاسكندرية وأهلها من ثلاث طوائف مختلفة : المصريون الأصليون ، واليهود المستعمرون ، واليونانيون المهاجرون ، والكل عائشون فى سلام ووئام ، لايفكرون فى غير حفظ النظام ، فلم تمر على تلك المدينة غير سنوات قليلة حتى حلاها صناع اليونانيين ومهندسيهم بمالايقبل الوصف من المعاهد والبنيان ، والبساتين والجنان ، والآثار الحسان ، مما جعلها زهرة البلدان ، ودرة ثغور اليونان . ولكن كل هذا ليس بشىء يذكر فى تاريخ بطليموس أخى الاسكندر اذا قسته بأثره الخالد الذكر ألاوهو شروعه فى تأسيس (دار الآثار) التى منها انبعثت أشعة العلوم والعرفان ، وتدفقت جداول الحكمة والبيان ، وفيها حفظت ذخائر الأولين من الدثور والزوال ، فكانت منبتاً لشجرة العلم الوارقة الظلال ، التى من ثمراتها مانحن فيه اليوم من وسائل الصناعة ، وأساليب سهولة المعاش .

﴿ دار آثار الاسكندرية وكليتها العلميـة ﴾

وضع مشروع هـذه الدار الخالدة الذكرى وأقام جدرانها (بطليموس سوتير) فى أجود بقـاع الاسكندرية هواء ، وأحسنها منظراً ورواء . واتم بناءها ابنـه (بطليموس فيلادلف) السالك على

قدم أبيه ، ولا عجب بعد هذا فى دار يتولى أمرها ملكان ، ويبذلا دونها خزائن العقيان ، ويقفا عليها قرائح المهندسين العظام ، والصناع الكبار ، أن تجىء من الرواء على أحسن الأشكال ، ومن الفخامة على أكمل حال ، فلا تسل عما أودعته فيها يد الصناعة من الانصاب والتماثيل ، وما وشته بها أنامل الفنون الجميلة من النقوش والتلوين ، وما أودعته بها أدوات الابداع من التنسيق والتنظيم ، وما نشرته عليها راحات الغنى من رواء الفخامة المهيب ، ورونق الظرف العجيب الغريب ، دع كل هذا جانباً فان ماحشر إليها من نفائس الكتب ، وذخائر مجهودات العقول ، وجواهر القرائح والأفكار لما يدهش الواقف عليه ، والمطالع لأخباره ، وناهيك بما يستدعيه جمع سبعمائة ألف مجلد منسوخ من نوادر المؤلفات ، وشوارد المباحث فى وقت لم تكن للطباعة فيه أثرولاخبر ، ولامن المصاريف الباهظة ، والكلف البالغة حد الكثرة . الا أنه لو عرف الغرض من هــــذا التبذير والاسراف لقيل التبذير فى أشرف الأغراض قصد واعتدال .

كان الغرض من اقامة معالم هذه الدار ثلاث أمور مهمة : (أولاها) صيانة ثمرات العقول والافكار الانسانية من أن تغتالها يد الضياع ، أو تلعب بها أنامل التبديل والمسخ . (ثانيها) انماء تلك الثمرات واستثمار جراثيمها على مقتضى ناموس الترقى . (ثالثها) نشرها بين العالم ، واشرابها للعقول لتحسين حال الحياة الانسانية .

أما مايختص بالأمر الأول فقد وكل إلى من كان يديرها من قادة

الأفكار ، ، ملوك العقول شراء كل مايقع تحت أيديهم من الكتب مهما بلغ ثمنها ، وايداعها فى محالها من المكتبة ، ولا تسل عما كان يتبع ذلك من عدد النساخين والمصححين والمرتبين الخ مما لاقبل للقلم بوصفه كالمجهودات التى كانت تبذل للحصول على المؤلفات النادرة من العواصم المتنائية ، والبلدان البعيدة .

أما مايختص بالأمر الثانى أى بانماء تلك العلوم واستثمارها فقد وكلت الى رجالها من أئمة الأفكار ، وسلاطين المدارك الذين اسكنهم الملك تلك الدار ، وأحلهم بها فى أمنع جوار ، وأعد لهم فيها مايلزمهم من حجرات ومطاعم وأجرى عليهم الأجور والمرتبات ، وكان كثيراً ما يجيء الملك اليهم ويشاركهم فى غذائهم اكبارا لشأنهم ، وتفخيما لأمرهم .

أما العلوم كلها فى هذه الجامعة فكانت تنقسم الى أربعة أقسام : (١) العلوم الأدبية (٢) العلوم الرياضية (٣) العلوم الفلكية (٤) العلوم الطبيةوكانت الفروع العلمية الباقية تابعةلهذه الأصول الاربعة

كان لهذه الدار حديقة كبرى غرس بها كل ماأمكن الاهتداء إليه من النباتات التى يقبلها الجو المصرى لتسهيل دراسة علم النباتات كما أنه كان بها محل خاص بالحيوانات حشر إليه كل ماوصلت إليه يد الثروة من أنواعها لتكميل درس التاريخ الطبيعى ، وزيادةعمامضى، فقد أودع هذا الصرح العلمى الفخيم كل ما كان معروفاً من آلات الأرصاد وعدد الكمياء ومعدات سائر الفنون المعروفة مما يستحيل

وجوده مجتمعا فى مكان واحد . أمافيما يتعلق بالأمر الثالث : أى نشر أنوار المعلومات الانسانية فى سائر طبقات العالم فقد ساروا فيه باعداد محلات للمطالعة وسماع الخطب يحضره من شاء من كل صنف وجنس ، وزيادة عن ذلك فقد كان فيها من طلبة العلم مايزيد عن الأربعة عشر ألفاً من أقاصى الارض وأدانيها .

دستور العلوم الطبيعية

(فى هذه المدرسة الكلية)

بالنسبة لما كان بين الاسكندر وأخيه بطليموس وبين الفيلسوف الشهير أرسطو من المحبة الاكيدة ، ونظراً لما كان يحفظه هذا الملكان فى قلبيهما لهذا الرجل الكبير من الشعور بحقوق التربية والتعليم سادت تعاليمه وأفكاره فى زمانيهما وكان لها السهم العالى من الاجلال والاعزاز ، حتى أنه لما تم بناء مدرسة الاسكندرية جعل دستور التعليم فيها مطابقاً لدستور أرسطو ، وأسلوب البحث تابع لأسلوبه .

أما دستور أرسطو هذا فى مباحثه لاستكناه المجهولات ، واستطلاع خفايا المساتير الكونية ، فقد كان النظر فى الحوادث الجزئية ، ثم التدرج منها الى الأمور الكلية على معراج الاستدلال والاستقراء ، ومن كان هذا أسلوبه فى مباحثه احتاج الى مشاهدات كثيرة ، وأعوزه الدأب والسهر وراء اصطياد نوادها . وتقييد شواردها

وأعمال قواه فى الفحص والتدقيق، والمقارنة والتوفيق، وبذل الوسع فى التأمل ليستطلع تبين علائها، وادراك نسبها بعضها الى بعض، واستشراق قانونها السائد عليها. ورد ما شذ عنه الى القانون الملائم له، ولا يخفى ما فى هذا من المشقة لأنه يرتكن على صفاء التعقل وجودة التفكير، لا على قوة الخيال وحسن التصوير وما يعد على أرسطو من الاغلاط الكبيرة فلا يدل على فساد مبدئه بل هو يؤيده ويقويه لأن منشأها قلة المشاهدات التى ارتكز عليها فى الحكم ليس الا.

هذا الدستور الذى وضع أرسطو دعائمه هو بعينه دستور العلم الحالى وبسببه نشأت نشأة هذه المدينة الصناعية الساحرة التى أصبحت فتنة الاعين والقلوب وكادت تنسى الانسان جمال العالم المعنوى الذى خلق للبحث عليه واستشراقه « والله غالب على أمره »

دستور العلوم الادبية

(فى كلية الاسكندرية)

بينما كانت العلوم المادية تابعة أسلوب فيلسوف (أثينا) فى كلية الاسكندرية، كانت العلوم الأدبية سائرة على مقتضى فلسفة (ذينون) التى كان لها المقام الأول مدى قرون كثيرة فى تعزية الانسان على مصائبه، وتشجيعه على خوض غمرات الحياة واقتحام حزونها مطمئن الجأش ثابت العزيمة.

أول غرض وجه (ذينون) اليه سائر قواه ، ووضعه نصب عينه هو ايجاد قاعدة قديمة حكيمة اذا سارعليها الانسان وأدمن عليها أدته الى كمال الفضيلة وأجلسته على كرسى السعادة والطمأنينة . الأساس الذى بنى عليه هذا الفيلسوف فلسفته فى تكميل الانسان هو التربية فقدسمع يقول : « اذا كنا نعرف الخير لملنا اليه ميلا فطرياً وعملنا به لا محالة . فيلزمنا أن نركن الى مشاعرنا فى تهيئة العلوم الأولية لنا وهدايتنا الى مبادى المعارف الضرورية ، وأن نعتمد بعد ذلك على عقلنا ليكون لنا من مجموعها ما يحسن بنا السير عليه فى اقامة أمر الحياة وتحسينها . فان الحسد والميل للشهوات والشره أدواء لم تنشأ فينا الا من نقص معارفنا . أما أجسامنا فانها وان كانت خلقت على نظام ومزاج لادخل لنا فى كسبه ، الا أننا يجب علينا مع ذلك أن نتعلم كيف نحكم على شهواتنا ، وكيف نعيش أحراراً عقلاء فضلاء خاضعين لأحكام العقل فى كل حركاتنا وسكناتنا . أما حياتنا فيجب أن يسود فيها سلطان الفكر على سلطان الجسم . وبناء عليه فيلزمنا أن لانحفل باللذات ولا بالأوجاع البدنية ، ويجدر بنا أن نروض أنفسنا على استصغارها وعدم الخشية منها مهما تفاقمت وعظمت وان كان فى أعقابها الموت نفسه ؟ ويجب علينا أن لا نغفل عن هذه الحقيقة وهى أن الطبيعة مسوقة الى الكمال العام وأنها تضحى الجزئيات فى سبيل الكليات فليس أمامنا والحالة هذه الا الرضوخ لهذا القضاء والرضاء به ، فلنجعل كل همنا موجهاً الى زيادة معارفنا وتقوية عاطفة الاعتدال والحكمة

فى نفوسنا ، فان المعارف هى العناصر الاولية للفضيلة اللازمة لنا التى هى رأس مالنا فى هذا العالم .

«انا لنرى ان كل ما حولنا من العالم يتنابه التغير والتحول وإن الموت يعقب الحياة ، وإن الحياة تعقب الموت فمن الجهل اذن أن لا نريد الموت فى عالم كل ما فيه صائر الى الزوال والتلاشى . وكما أن التيار الجارى يحفظ شكله وقوامه دائما مهما تبدلت مياهه وتحددت فكذلك الطبيعة يمكن تشبيهها بتيار دائم الجريان تتبدل كائناته وتتغير وهو حافظ صورته الى الابد . (كذا) . وانك اذا نظرت للوجود فى مجموعه وجدته ثابتاً لا يتغير ولكن الخالد منه فى الحقيقة هو الفضاء والجوهر الفرد والقوة ، أما صور الكائنات فهى أشكال وقتية معرضة للزوال والتلاشى .

« يلزمنا أن نعلم أن أكثر الناس على فساد عظيم من حيث التربية ، وبناء عليه فيجب علينا أن لا ننعى عليهم ما هم فيه من العقائد والتعاليم الراهنة . أما نحن فيكفينا من العقيدة أن نعترف بأنه وان كان يوجد فى الكون قوة أسمى من أن يحددها التصور الا أنه لا يوجد فيه ذات مشخصة ، أى أنه يوجد فى العالم أصل محجوب عن نواظرنا ولكن ليس هو الهاً مكيفاً ذا شخصية يوصف بصورة واحساسات وأهواء ، كما للانسان من ذلك . ذلك مستحيل بل كفر صراح . من هنا فلا وجه لتصديق ما يسميه الناس وحياً (كذا) . أما ما يدعوه الناس (صدفة) فليس الا نتيجة لسبب مجهول فان للصدفة نفسها قانونا» ثم

ذكر كلاما دل على جحوده بالعناية الالهية وعلى أن الكون سائر على مقتضى نواميس طبيعية . ثم عزى اليه بعد ذلك قوله : « ان التغيرات التى تنتاب الكائنات تحصل بطريقة لازمة ضرورية ، حتى انه يمكن أن يقال ان العالم فى ترقيه وتدرجه مثله كمثل الجرثومة التى لا تستطيع أن تنمو الا على صفة محدودة .

« أما الروح فهى شعاع من الشمس الحيوية التى هى الأصل العام لجميع الكائنات ، وهى تنتقل كالحرارة من فرد الى فرد وتنتهى بأن ترجع ثانيا الى محتدها العام التى جاءت منه . وبناء عليه فليس حظنا بعد الحياة العدم والزوال بل الاجتماع والانضمام . وكما أن الرجل اذا أعياه الكد بالنهار يلجأ الى النوم والسبات ، فكذلك الفيلسوف متى تعب من مجهودات الحياة وتكاليفها يتمنى الموت والراحة . على أنه ليس لدينا الا معلومات تافهة على هذه الأمور المجهولة لأن العقل لا يستطيع أن يدرك نفسه بنفسه . ومن الأمور المضادة للفلسفة الحقة أن يدأب الانسان للبحث عن أصول الأسباب ، فالواجب القنوع بدرس الحوادث فى ذاتها . ومما يجب علينا وضعه نصب أعيننا هو أن الانسان لا يستطيع أن يصل الى الحقيقة المطلقة مهما حاولها وتطلع اليها . وان الثمرة النهائية لمجهودات الانسان وراء اكتناه اسرار المادة هى تأكده بأنه لا يصلح للالمام بكل شىء . واننا على فرض وصولنا الى حقيقة من الحقائق فلا نزال نشعر بالحاجة الى دليل على أنها حقيقة . اذن فماذا بقى علينا بعد هذا من الواجبات ؟ بقى علينا العلم

بالكون على الطريقة التى يهيئها لنا البحث العميق والفضيلة والصداقة وحب الحقيقة وصدق النية وقبول تكاليف حياتنا بالصبر والثبات والمعيشة على صفة تلائم قوانين العقل ونواميس الحكمة . »

هذا ملخص فلسفة (ذينون) . على أن تلك الجامعة لم تكن قاصرة على فلسفة ارسطو وذينون بل كانت تتناول من سائر المذاهب حصصاً مناسبة بحيث انها كانت ملتقى لأشعة أفكار سائر الأعلياء من النوع الانسانى .

نظرة على ماسبق

نحن بايرادنا تاريخ العلم من أول نشأته وتنقيبنا عن أصول المذاهب الفلسفية والوصول الى جراثيمها الأصلية ، لانقصد بسط مجرد تاريخها ؟ بل نقصد بذلك أن نوآتى مقتضيات نظريتنا التى بسطناها فى كتاب (خاتم النبيين) صلى الله عليه وسلم وهى ان الألحاد حال من الاحوال الانسانية تقتضيها الفواعل الاجتماعية والأدبية والدينية التى تحتوش لأمة ، حتى ان تلك العلوم التى يقصد بها الالحاد والجحود (تأمل) هى نتيجة الحال لاسببها المولد لها .

قلنا ذلك ووعدنا ببذل الوسع فى السلوك فى هذا الموضوع المسالك التى تلائمه وتوافقه من اختراق غلف الظواهر والنفوذ الى

سرائر المسائل وضمائرها لنحصر ان شاء الله تلك الحال الالحادية التى لاتوافق مطالب الروح الانسانية فى دائرتها الضيقة ليمكن علاجها فيها واستئصال شأفتها . ذلك أولى من أن نتابع الخطة المعروفة فى محاولة حل مسألة الالحاد بالحجج والبراهين التى لانصيب لها من التأثير على الأفعال الانسانية الا مانراه من التناقض بين العمل والعقيدة .

وقد رأينا انا لانستطيع أن نوفى حق أسلوبنا هذا الا بدرس الأحوال الانسانية المختلفة من لدن تكونها ، ومشارفة العلوم والمعارف من أول نشأتها . وقد وفينا بعض ذلك بدرس أحوال اليونانيين وهى الأمة التى نشأ فيها العلم ثم طفنا بها فى فتوحاتها حتى وصلنا الى تأسيسها لجامعة الاسكندرية التى جمعت فيها جراثيم المعارف المنثورة فى الآفاق ، ومن هنا نرجو أن نوفق لتتبع حركة نمو هذه الجراثيم العلمية فى مدى القرون والأجيال مع درس الأحوال الانسانية التى اقتضته . مجلين فى كل دور من هذه الادوار مكان العاطفة الدينية من القلوب ،وكنه ما تأثرت به من تلك الحال ، حتى نصل بهذا السير الى عصرنا الحالى ان شاء الله فنقف بالقارىء موقفا يطلع منه على حال الانسانية فى علومها وصنائعها وفلسفاتها ومكانة الدين لديها وعلى السبيل التى تسيره بمجموعها وعلى آثار مدنيتها فى تعديل أو تعويج أمورها .

أما كتاب خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم فسيكون من وظيفته فى كل دور من هذه الأدوار تتبع كل بحث من هذه الابحاث بما يحله

ويجليه من كتاب الله تعالى ، ليتجلى للقارىء بأوضح بيان قوله تعالى « مافرطنا فى الكتاب من شىء » « ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الانسان أكثر شىء جدلا » وليسطع أمام عينيه البرهان المحسوس على أن لاحياة للعالم ولا قوام له ، على الحال التى تليق بالانسان الراقى ، ولاعدالة تسود على جميع أفراده فتعمهم بالفيض الالهى على السواء الا بالاعتقاد برسالة المصلح الأعظم خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم واتخاذ القرآن دستورا للنظام والمدنية فى كل الازمان . ومن الله نستمد العون والقوة .

تاريخ الفلسفة

وصلنا بالقارىء من تاريخ ارتقاء الفكر الانسانى وتدرجه فى معارج الكمال الى ذكر تأسيس مدرسة الاسكندرية الجامعة التى بدأها بطليموس سوتير وتمم بناءها ابنه ووريثه فى الملك (بطليموس فيلادلف) ملك القطر المصرى . وقلنا عند ذاك : « ومن هنا نرجو أن نوفق لتتبع حركة نمو هذه الجراثيم العلمية فى مدى القرون والأجيال مع درس الأحوال الانسانية التى اقتضتها ، مجلين فى كل دور من هذه الأدوار مكان العاطفة الدينية من القلوب ، وكنه ماتأثرت به من تلك الحال ، حتى نصل بهذا السير الى عصرنا الحالى إن شاء الله

فنقف بالقارىء موقفاً يطلع منه على حال الانسانية فى علومها وصنائعها وفلسفاتها ومكانة الدين لديها وعلى السبيل الذى تسيره بمجموعها وعلى آثار مدنيتها فى تعديل أو تعويج أمورها . »

قلنا ذلك فى الفصل المتقدم ونود اليوم أن نسير على الطريق الذى رسمناه لأنفسنا سيراً يناسب موضوعنا من جميع وجوهه بحول الله تعالى وتوفيقه . ولذلك رأينا أن نأتى على مذاهب الفلاسفة اليونانيين الذين اتخذت أساليبهم فى البحث والنظر دساتير محترمة سار على مقتضاها من جاء بعدهم من كبار العقول وأئمة الفلسفة ، ولن تتقيد بمن سارت جامعة الاسكندرية على مذهبه رسمياً كأرسطو وأفلاطون وذينون ولكن سيتناول كلامنا إن شاء الله غيرهم من فلاسفة اليونانيين السابقين والتالين ليتكون للقارىء من ذلك صورة محكمة التركيب من شكل الفكر الانسانى فى عهد خلافة الأمة اليونانية فى الأرض ، أيام كانت (أثينا) عاصمتها مثابة كبار الرجال ، ومحط رحال الأقيال من سائر آفاق الأرض يطلبون فيها العلم ويقابلون العلماء ويستشرفون منها شموس المعارف وأنوار المعلومات ليكون قارئنا على بينة من مبدأ تكون الجرثومة الأولية لدوحة العلم الوارفة الظلال ، وليستطيع أن يتتبع معنا سلسلة هذا التاريخ العلمى الحافل من أقرب الطرق وأيسرها وبالله التوفيق .

هنا ننبه للقارىء اننا لن ننقل من مذاهب الفلاسفة اليونانيين الاعدداً يعد على الأصابع ممن لهم أثر ظاهر فى حركة الفكر الانسانى ،

ولأساليبهم فى البحث اعتبار إلى يومنا هذا . وقبل أن نتكلم على مذهب كل فيلسوف من هؤلاء يحسن بنا أن نقدم للقارىء طرفاً من ترجمته

مذهب فيثاغورس - بيتاجور -

ولد فيثاغورس فى سنة ٥٦٩ قبل الميلاد ومات سنة ٤٧٠ أى عاش تسعاً وتسعين سنة . ولد بجزيرة (ساموس) من جزائر الأرخبيل اليونانى وكان أبوه نقاشاً اسمه (أمنيزارك) وقيل أن موطنه (توسكان) .

تعلم فيثا غورس صناعة أبيه وصنع بنفسه ثلاثة كؤوس من الفضة وأهداها لثلاثة من قسوس المصريين . معلمه الأول الفيلسوف (فيرسيد) وكان يحب أحدهما الآخر حباً جماً حتى أن استاذه لما مرض المرض الذى مات فيه ونحل جسمه جداً خاف أن يكون مصاباً بمرض معد فيعدى تلميذه المخلص فيثاغورس . فلما جاء ليعوده على حسب عادته أغلق دونه الباب رغماً عن حبه الشديد له وأخرج اليه أصابعه من شقوق الباب قائلا تأمل نحول أصابعى تعلم منه حالتى . ولما مات أستاذه فيرسيد لزم فيثاغورس الفيلسوف (هرمودامنط) بجزيرة ساموس مدة من الزمن . ثم هزه الشوق للسياحة وتعرف أخلاق الأمم والأخذ عن فلاسفتها وعلمائها . فتوجه الى مصر بوصية من الملك (بوليكراط) ملك ساموس الى الملك (امزيس) ملك مصر بشأنه ، فمكث فى مصر مدة يتردد فيها على كهان المعابد المصرية ويلقف منهم أسرار

العلوم والمعارف التي يسمحون له بها . ثم سافر من مصر الى بلاد الكلدانيين ليتعلم علومهم ويقف على مساتيرهم . ثم اتجه من هنالك الى كثير من البلاد الشرقية الشهيرة بالآثار والفنون ثم آب من هناك الى مملكة (اكريطه) ولاذ بالفيلسوف (ايمنيديس) وتودداليه ، ثم رجع من هناك الى وطنه الأصلي جزيرة (ساموس) فرأى أن الملك (بوليكراط) قد أحل قومه محلة البوار وأوغل فيهم عسفاً وظلماً ، فهاله ذلك الأمر ولم يطق الصبر على تلك الحالة المريعة فهاجر الى ايطاليا وسكن (باكروطون) وأخذ يعلم الناس الفلسفة والأخلاق . فنشأ من ذلك أن مذهبه سمى (ايطاليا) . فانتشر من صيته وذاع واشتهر اسمه وكثرت تلامذته وطلابه حتى صار من يلازمه منهم أكثر من ثلاثمائة كون بهم جمهورية صغيرة مرتبة ترتيبا جميلا . وذهب بعض المؤلفين إلى أن (نوما) الذى تولى امبراطوراً على الرومان كان أحد أولئك التلامذة والحقيقة هي أن نوما كان سابقاً فيثاغورس بعده قرون ولم ينشأ هذا الغلط إلا من وجود تشابه كبير بين آراء نوما وفيثاغورس فظن بعض الناس أن ذلك جاء من كونه تلميذه وليس الامر لذلك .

كان فيثاغورث يقول ان أشياء المتحابين يجب أن تكون شيوعا بينهم بحيث يكونون كلهم سواء فى الانتفاع والمتاع بها . لذلك كان تلاميذه متبعين هذه القاعدة تمام الاتباع ولم يكن لأحدهم ملك خاص ولا مال ذاتى ، بل كان كل مايملكونه عاما بينهم على حدسواء . وكان

من القوانين التى وضعها للأخذ عنه أن الطالب الجديد يكلف بأن يصبر خمس سنوات متوالية فى تلق كل مايلقى اليه بدون أن ينطق ببنت شفة طول تلك المدة ، حتى اذا وفى هذا الامتحان على مايرام وينتظر أدخل الى فيثاغورس نفسه ليزوره ويحاوره فى العلوم والمعارف .

أوصاف فيثاغورس الشخصية ـ كان معتدل القامة وسيم الطلعة تلوح عليها المهابة والوقار وكان من عادته أن يلبس ثوباً رقيقاً من الصوف الأبيض البالغ الحد فى النظافة . وكان عفيف النفس حاكما عليها لايميل لأهوائها وخطوطها . يحافظ على السر اذا استودعه ويبالغ فى كتمه . ويؤثر عنه ان لم ير ضاحكا قط ولم يسمع أحد منه مزاحا ولا هزلا قط . وكان اذا غضب لاينتقم ممن أغضبه حتى أنه كان متى أثم بعض عبيده ووقع منه ما يستحق التأديب يكبر عليه أن يضربه بيده . لهذا كان تلامذته تعتقد ألوهيته . ولا عجب فقد غلا القدماء فى تأليه كل رجل يرون فيه فضل عقل وحكمة حتى أنه قد لاتخلو أمة من مثل هذه الكبوة المردية . وكان الناس يقصدونه من آفاق الأرض لسماع كلامه والحظوة بالتقرب إليه . حتى قيل انه كان يأتى الى (كروتون) فى كل عام نحو من ستمائة من الناس لهذا القصد ليس غير . ولقد شاع ذكر فيثاغورس فى البلاد بالعقل والحكمة حتى أن كثيرا من الأمم طلبت منه أن يسن لها قوانين تصلح به أمر حكومتها وتبنى به هيئة اجتماعها ؟ ومما أثر عنه من صفاته أنه كان يحرم الحلف بالآلهة والاستشهاد بها فى جميع الأحوال تحريما . وكان يقول يجب

على كل انسان أن يؤدب نفسه ويروضها على الكمالات حتى تتصف بها لكيلا يكون فى حاجة إلى الحلف لأجل أن يصدقه الناس.

حياته السياسية ومذهبه — قلنا ان فيثاغورس نزل من أيطاليا بمدينة (كروتون) واتخذ بيت (ميلون) مدرسة له وحشر اليها مع النفر الذين كانوا معه من اليونانيين شرذمة من أهل تلك البلدة ممن التفوا حوله ولازموه رجاء الوصول الى لباب الحكمة على يديه.

فى عصر هذا الفيلسوف كان جنوب ايطاليا وهى القطعة التى اختارها دار هجرة له شاملة لجملة حكومات (أريستوكراسية) أى إن الحكومة فيها بيد الأعيان والأشراف. ولكن فيثاغورس كان فكره متشبعا منذ صغره بأفكار الشعوب الشرقية المتبعة فى الحكم المبدأ (التيوكراسى) وهو المبدأ الذى يستبد بالحكومة فيه نفر قللون استبداداً كلياً بدون حق للشعب فى الملاحظة عليهم. بهذا السبب نشر فيثاغورس هذا المبدأ بين تلك الشعوب فاتبع نصائحه كثير منها وأكسب المبدأ الأريستوكراسى صبغة (تيوكراسية) جديدة تميزت به عن بقية تلك الحكومات. وكان قصده من كل ذلك حصر السلطة والحكم فى يد طائفة منتخبة من صفوة الأمة وقصر أسرار العلوم والمعارف عليها دون العامة لتعتبرهم الأمم ملوكا معصومين من الخطأ كما عليه الحال فى بعض الفرق الدينية بالنسبة لرؤساء دينها. هذا المبدأ بعينه كان انشودة سائر فلاسفة اليونان فلقد كانوا لا يودون اعطاء السلطة لرجل واحد ولا لأمة بأجمعها ولكن للفلاسفة منها. هذه

كانت أمنيتهم وكثير ماسعوا فى تحقيقها ولكن لم يتح لواحد منهم ماأتيح لفيثاغورس من النجاح فى تقريرها .

نجاح فيثاغورس فى مشروعه الاجتماعى هذا أكسبه شهرة فائقة فانتخب رئيساً للحزب (الأريستوكراسى) فى مدينة كروتون . فاتفق فى ذلك الحين أن الحزب (الديموكراسى) أى الجمهورى تغلب على الحزب (الاريستوكراسى) فى مدينة (سيباريس) ففر انصاره الى (كروتون) واستجاروا باخوانهم فى المذهب ، فارسل الفيلسوف وفداً الى أهل تلك المدينة يدعوهم إلى مذهبه ، فغضبوا وقتلوا الوفد فلم يسع الفيلسوف غير شن الحرب عليهم . ثم جهز اليهم جيشاً من ساعته وهو وإن كان أقل عدداً من جيش الأعداء الا أنهم صبروا صبر الأبطال وهزموا عدوهم شر هزيمة واستولوا على المدينة فخربوها الا قليلا واستعبدوا أهلها وقسموا مافيها على المقاتلة فخص فيثاغورس حدائق زاهرة فابتنى فيها مدرسة جامعة على الشكل الذى رآه فى مصر وبلاد الكلدانيين واشتهرت هذه المدرسة باسم مجمع فيثاغورس العلمى ووكل الى تلامذته أن يجعلوها منبعاً لنشر مذهبه وتخريج خلاصة الناس عليه ليتكون منهم طائفة صالحة لأن تحكم الأمم والشعوب

وقد نقل عنه كثير من الرواة أشياء خرافية ولكن ثبت الآن أنها موضوعات عليه وان كثيراً منها لم يعرف الا بعده بزمن طويل . والذى أجمع الرواة عليه أنه كان يصدر منه كثير من الخوارق للطبيعة أمام تلامذته ومريديه . أمامذهبه فقد حفظ عنه ودونه تلامذته بالدقة

فيما يقال وهو أنه كان يعتقد بالتناسخ وإن النفس الفاضلة متى خرجت من جسم صاحبها تلبست بجسم شخص فاضل وبخلاف ذلك لو كانت شقية فانها تتقمص جسم حيوان قذر . وكان يقول انه يتذكر الحالات التى كان فيها هو نفسه فى أجساد مختلفة .

هذه العقيدة قديمة جداً ومبدأها فيما يرجح الهند . ومما يحسن ترجيحه جداً ان فيثاغورس كان له عقائد عالية فى الحكمة الالهية والعناية الربانية والوحدة الذاتية وإن كانت تعليماته العامة مخلوطة بأشياء خرافية كثيرة فيما يقال . والذى يميز مذهب فيثاغورس عن كثير من المذاهب الأخرى هى صبغته العلمية ، فان تلامذته كلهم كانوا يتعمقون فى درس الرياضيات تعمقاً كلياً . ولقد كان فيثاغورس رياضياً من الطبقة الأولى وينسب إليه جملة نظريات هندسية وهو أول من قال بحركة الأجرام السماوية حول الشمس وهو الأمر الذى ثبت بالحس فى القرن الخامس عشر بواسطة الفلكى (كوبرينك)

ولكن رغماً عن كون تعاليم فيثاغورس ومدرسته انتجت للمدنية أعظم الآثار وطبعت تاريخ الرقى الانسانى بطابع لايزول أثره ، لم تبق زمناً بعد تأسيسها . وذلك فى العادة شأن كل جمعية تتكون بقصد الاستيلاء والحكم . فان محض رؤية شكل الترتيب الذى كان مسنوناً لتلك المدرسة كان يدعو للارتياب فى أمرها . الاترى أنه مما يريب الأمم والشعوب أن يروا جمعية من الشبان ملتئمين غاية الالتئام فيما بينهم ومنفصلين تمام الانفصال عن الهيئة الاجتماعية ومشتغلين

الليل والنهار بالأشغال العقلية والعلوم الرياضية يعدون أنفسهم لمنصات الحكم وأرائك السياسة ؟ نعم كان ذاك سبباً لارتياب النفوس واضطرابها على مدرسة فيثاغورس حتى ثار ضدها الناس فى ثورة عامة بمدينة (كروتون) وصاروا يقتلون من وصلت اليه أيديهم من تلامذة فيثاغورس وفى أى جهة صادفوهم ونفوا كثيراً منهم أيضاً الى البلاد الأخرى ولم يعفوا الاعن فيثاغورس نفسه وقد كان وقتها بلغ الثمانين من عمره . فعرض على كثير من المدائن أن تقبله نزيلا فيها فلم تفعل وأخيراً قبلت منه ذلك مدينة (ترانت) فرحل اليها وأقام بها حتى توفى . ومابقى من تلامذته لم يناموا عن نشر مذهبه فى كل جهة حلوا بها

هذه الترجمة نقلناها عن علماء أوروبا والعهدة عليهم فى روايتها فربما كانت سيرة هؤلاء الرجال أرقى مما قالوه عنهم ولكنهم حرفوها وتصرفوا فيها كما فعلوا فى سير أكابر الأنبياء صلوات الله عليهم

أفلاطون

ولد هذا الفيلسوف الشهير (بأثينا) ويقال فى جزيرة (أجين) سنة ٤٣٠ قبل الميلاد وتوفى سنة ٣٤٧ فيكون قد عاش ثلاثاً وثمانين سنة . وكان اسمه (اريستوكايس) ثم لقب بعد ذلك أفلاطون واشتهر به وهو من عائلة عريقة فى النسب مال أولا الى الشعر ويقال وللتصوير أيضاً ثم لما تعرف الى الفيلسوف (كراتيل) تلميذ (هيروكليت)

والى (سقراط) مال بكايته الى الفاسفة ووقف حياته عليها . فاتخذه سقراط تلميذه الأول لما تفرسه فيه من النجابة والفطنة ، ولكنه لم يعش حتى يرى ماهى غاية استعداد تلك القريحة العالية . لازم استاذه ثمان سنوات ثم حدث بعدها أن فرقة السوفسطائية اتهمت سقراط بالالحاد فى صفات الآلهة فقام بالذب عنه أفلاطون حتى صعد على منبر مجلس النواب وابتدأ يخطب فى الدفاع عنه حتى اذا كاد يتغلب على الأميال ويخلب بسحره عقول الرجال أخذأعداء سقراط يلغطون لكيلا يسمع الناس بلاغة الخطيب فيقرروا عدم قتله . فلما لم ينجح فى دفاعه ونفذالحكم على أستاذه هجر وطنه غماً وكدراً وذهب الى ميجار، وحدثته همته بعدم ادخار شىء من حوله فى طلب العلم حتى لا يبقى منه شىء يند عنه . وكانت اذ ذاك المذاهب الفلسفية مشتتة فى أصقاع الأرض فقصدأولا ايطالياولحق بتلامذة فيثاغورس فاشركوه فى أسرار مذهبهم ، ثم رجع منها الى سيرين لدرس هندسة (تيودور) ثم يمم مصر ومكث مدة فى مدينة (هيليو بوليس) ويقال ان كاهناً مصريا لقنه علم الفلك . ثم رجع الى أثينا وأسس بها دار العلوم فحازت شهرة فائقة وكان كثيرا مايتركها ويسافر طلباً لتعرف أحوال الأمم والشعوب المختلفة . ذهب مرة الى جزيرة سيسايا فاستجاب سخط ماكها (دونيس) لحريته وجراءة فؤاده فأسره وباعه عبداً فرآه بعض أصحابه فاشتراه وأعتقه فآب الى وطنه . ثم ذهب اليها ثانياً وسافر مرة أخرى الى (سيراكوز) .

أما فلسفة أفلاطون فكانت هى بعينها فلسفة أستاذه سقراط الا أنه

بما اكتسب من العلوم الكونية والوجودية القاها على الناس بصفة جديدة وشكل لم يكن معهودا قبله وأضاف اليها أفكاره الخاصة فجاءت أكمل فلسفة وجدت لذلك العهد . وقد ذاع صيته فى البلاد وانتشرت شهرته فى المدائن وعرف بسمو العقل وبعد النظر فى الشرائع والقوانين ولذلك كانت تطلب اليه كثير من الحكومات أن يسن لها من القوانين ما يستصلح أمرها وتطرد به عماريتها . وقد لقب بالالهى وكانت فلسفته وأفكاره محترمة معتبرة لدرجه أن كل العقلاء كانوا على أفكاره وآرائه . وكان كأستاذه سقراط لايميل للمناصب : ولما توفى ترك مجمعه العلمى لزعامة حفيدة (سبوزيب)

كل كتابات هذا الفيلسوف وصلت الينا ولكنه كان يلقى دروسه شفهيا وكان يقول :

« كل كتابة على الورق يجب أن تكون مذكرة فقط للذى تعلم وانتهى ، لا أن تتخذ واسطة للتعليم ؛ فانها لا تنطق ان سئلت ، ولا تدافع عن نفسها ان فندت . فكل موضوع مكتوب باليد هو بناء هذا عمل خفيف الوزن وتذكار غير كامل مخلوط بكثير من الغلواء . فليس للافكار اذن من ثمرة جنية نافعة الا خطابة مرتجلة موضوعها العدل والجمال وتكون منقوشة فى صميم الفؤاد »

ولقد كانت تروقه الخطابة لدرجة ان مؤلفاته شبيهة بالخطب وكل كتاباته ماعدا رسائله عبارة عن محاورات فيها سقرط أحد من محاوريه . وكثيرا ما تكون الافكار فيها أفكاره الذاتية ولكنه كان يضعها

فى المحاورة فى فم استاذه ويجعله هو البادىء بها .

لم يدون مذهب أفلاطون بصفة مضبوطة وخالصة من الخبط واللوث لان المشهور عنه أنه كان له مذهبان : مذهب عام ظاهر فيما بينه وبين الناس ، ومذهب خاص به لا يفاتح به الا نفرا من أهل خاصته ممن يثق بعقلهم وثباتهم

الفلسفة عنده هى معرفة العموميات والالمام بالضروريات وكان يقسمها الى جدليات وطبيعيات وأخلاقيات . وكان يقرر أن للعقل ثلاث خصائص وهى الاحسات والمدركات والافكار . فالاحساسات تقابل الأشياء المتغيرة والمتشخصة ، والمدركات تقابل الأشياء المتغيرة أيضاً ، ولكن مع تجريد أشخاصها من الحس بها . أما الأفكار فتقابل الأشياء الثابتة والحقائق العامة . وعنده أن الأفكار فى ذاتها ليست مدركات بسيطة للعقل ولكنها أصول الأشياء وحقائقها بمعنى أنها كل ما فى الكائنات من حق وباق وعام . وكان يقول انها عالم قائم بذاته فوق عالم الكون والفساد وهى واصلة الينا من الله مباشرة ، وهى القوالب التى شيأ الله تعالى على قوالبها جميع الاشياء. ولما كانت الافكار على رأى أفلاطون هى الأشكال الحقيقية السرمدية لكل ماهو موجود فقد سماها (بالنموذجات) قال وأنه يوجد خارجا عن الله تعالى أصل متغير ناقص قابل للفناء موجود بذاته هو المادة العمياء الصماء التى لا شكل ولا صورة. فبأثر الله تعالى الذى أوقعه عليها ازدوجت النموذجات التى هى الافكار المجردة بالمادة عديمة الصورة والشكل على درجات مناسبة فنشأ منها

جوهر متوسط مشترك بين خصائص كل من هاتين الطبيعتين · وهذا الجوهر روح العالم فروح العالم هـذه بتشخصها وانقسامها الى أرواح مختلفة تكون الالهة التى يعبدها العامة وتولد الناس وهم الكائنات المتمتعة بعقل وادراك . وفى رأيه أن الكون المادى مكون من عنصرين متضادين : التراب وهو أصل لجمود العالم وجعله محسوساً ،والنار وهى سبب صيرورته مرئيا . هذان العنصران الترابى والنارى ملتئمان ببعضهما بواسطة عنصرين وسطين بينهما : هما الهواء والماء . وهما من جهة متشابهان فى صفة مشتركة هى السيالية ، ومن جهة أخرى كل منهما مشابه للطرفين الآخرين فالهواء يشبه النار والماء يشبه التراب

أما روح الانسان فى نظر الفيلسوف فهى حياة غير قابلة للفناء محصورة فى سجن فان هو جسد الانسان . وهى متمتعة بثلاث قوى مختلفة : الادراك أى العقل . والقلب أى الشجاعة ، والرغبة أى الشهوة فأما الجزء السامى من النفس التى هى حية بالافكار والمطالب التى توافقها وتلائمها فمحله الرأس . أما الشجاعة فموطنها القلب . وماسفل من قوى النفس فموضعه الامعاء

وكان يقول ان الفضيلة هى مطابقة عمل الانسان لأصل الخير المحض . والدستور العام للأخلاق هو التخلق بأخلاق الله تعالى . وكما أن الله تعالى يحب الافكار التى استخدمها قوالب لتكوين الأشياء بحقائقها فيجب على الانسان أن يغلب حبه للأفكار أى للخير المطلق على حبه للسفليات واللذات الجسدية ، وأن لا يأتى بحركة الا فى

سبيل تحقيق الأفكار الالهية بقدر ماتسمح به قوته ، أما الجميل فى نظر أفلاطون فهو رونق الحقيقه وبهاء الأفكار التى جعلها نموذجات للأشياء وقال عنها انها عالم قائم بذاته . والجمال المادى فى نظره ليس هو الا صورة مرئية آتية من الجمال السرمدى .

هذا موجز من فلسفة أفلاطون ومذهبه ومنها يتبين للقارىء مراميه الفكرية على الانسان والنفس والأخلاق . أما اقتداره فى التشريع والتقنين فمما لا يستهان به أيضا . وكتبه فى ذلك كانت فى زمانه المورد الوحيد العذب لطلاب الشرائع ورواد القوانين ، وبقيت بعده قرونا كثيرة مثابة لعقول المشتغلين بقيادة الامم وزعامة الشعوب والممالك . وأحسن مايبل صدى الباحث فى تشريع أفلاطون هى كتبه التى بقيت الى اليوم ككتابه المسمى « الجمهورية الفاضلة » وكتابه « السياسة » وكتابه « القوانين » فانه بسط فيها أفكاره بسطا جليا واضحا .

فكتابه « الجمهورية » عبارة عن محاورة طويلة مقسمة الى اثنى عشر بابا جعل أكبر مخاطبيه فيها سقراط . وسواء كانت هذه المرامى التشريعية هى له أو لأستاذه فانها تكون نظامات جمهورية فاضلة اتخذها قادة الاصلاح وطلاب العدالة فى الحكومات مرجعا يرجعون اليه للاستقاء من حياضها فى تأييد مطالبهم وتدعيم نظرياتهم . ومما لسنا فى حاجة الى التنبيه عليه هو أن كل مافى تلك الكتب التشريعية ليس اختراعا لأفلاطون أو لأستاذه بحيث لم يسبقهما فيه أحد. فان المعلوم أن أفلاطون أخذ شيئا كثيرا عن نظمات ليكورج متشرع (اسبارطا) من

ممالك اليونان القديمة ، وأخذ أيضا عن قوانين السفسطائية القدماء حصصا مناسبة . وقد نقل تلميذه (أرسطو) نفسه أن (هيبوداموس) هو أول من كتب كتابا فى « الجمهورية الفاضلة »

كان مذهب أفلاطون فى الحكومة مثل مذهب سائر الفلاسفة الاقدمين وهو أن يكون مبدأها سيادة الاعيان والاشراف وهو المبدأ الاريستوكراسى بعينه الذى تكلمنا عنه فى تاريخ (فيثاغورس) وهم لا يريدون من الاعيان كما قلنا هنالك أيضا الاغنياء وذوى الجاه والقوة، بل الفضلاء النبلاء أى الفلاسفة . فأين حولت بصرك فى كتب الشرائع الفلسفية القديمة وجدت هذا المبدأ واضحا جليا فيها بطريقة لا تسلم به الفلسفة الحقة فانهم يفرضون للطبقة الحاكمة وهى بالطبع منهم كل اكبار واجلال بما يشبه العبادة ، وبازاء ذلك لاترى للعامة والمحكومين الا الازدراء والاحتقار . هذه صفة عامة لجميع كتب الفلاسفة الاقدمين الذين تكلموا فى الشرائع والجمهورية الفاضلة لأفلاطون غير مستثناة من هذه القاعدة العامة أيضا فقد حكم فيها على طوائف بحذافيرها أو على أنواع برمتها بالطاعة الدائمة والجهالة الخالدة . على أن (الجمهورية الفاضلة) لأفلاطون على ما بها من خلط بين المدركات العالية والمدركات الضيقة . وبين النظريات الفلسفية الجليلة والخياليات المحتقرة ، وبين الحرية المعتدلة والاستبداد الجائر ، كانت رغما عن هذا كله فذلكة موجزة للحكمة القديمة وكانت المرجع الاصلى الذى ورده كل الفلاسفة الذين اشتغلوا بأمر الاجتماع الانسانى .

فى الجمهورية الفاضلة يفضل أفلاطون الحكم الملكى أى حكم الفرد بالواحد على مبدأ حكم الأعيان أى (الاريستوكراطى) وعلى المبدأ الجمهورى أى (الديموكراطى) . قال لأن الملك الصالح يحكم أمته أحسن من أن يحكمها أى قانون كان ، لأنه صالح لأن يلم بكل التغيرات الطارئة والعلاقات المتجددة ويقابلها بما تتطلبه من رأى أو عمل . بخلاف القانون فانه ثابت لا يتغير وجامد لا يلين . ثم قال : ومع ذلك فالقانون لازم ينطبق على الجماهير ، والملك لا يستطيع أن يعرف كل انسان بشخصه ، ولكنه مع ذلك يجب أن يكون القانون تابعا للملك مباشرة دون غيره ويلى هذه الحكومة فى نظر أفلاطون الحكومة المتمسكة بالقانون التى لا تحيد عنه فى شىء . قال لأن القوانين لم تتقرر ولم تستتب الا بعد تجارب طويلة واختبارات عديدة فى أحوال شتى . وبناء عليه فيجب أن تكون محترمة مرعية ولا يجوز عصيانها بوجه من الوجوه ومن رأى أفلاطون فى الصنائع أن يحجر عليها فى قواعد ثابتة لا تتغير وهذا معناه تقييدها ووضع العقوبات الكؤود أمام رقيها .

قسم أفلاطون الناس فى جمهوريته الى ثلاثة أقسام : (١) المشرعون أى الفلاسفة (٢) المحاربون (٣) الصناع . أما الأولون فهم المخلوقون للحكم الصالحون له دون غيرهم ، وأطلق عليهم الصنف الذهبى . وأما المحاربون فهم حراس المملكة وخفراؤها وأطلق عليهم الصنف الفضى . وأما الأخيرون أى الصناع فهم المخلوقون للطاعة العمياء الصنفين المتقدمين وأطلق عليهم الصنف الحديدى . أما العبيد فقال عنهم انهم

ماشية الأمة مثلهم فيها كمثل البهائم العاملة . وهذا رأى الأقدمين كلهم فى الرقيق فان لهم عليه أحكاما جائرة لا تنطبق على عقل ولا على عدل حتى جاء الاسلام بدستور المساواة والحرية فرفع عن عاتق العبيد آثاراً ثقيلة مما ستراه مفصلا فى محله من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى

الناظر لجمهورية أفلاطون هذه يرى أن حكومتها تشبه الحكومات الشرقية القديمة ذات المبدأ (التيوكراطى) أى التى يخول فيها حق الحكم لطائفة من رؤساء الدين ويفرض على العامة والخاصة اطاعتهم اطاعة عمياء بدون رقابة على أعمالهم ولا هيمنة على ارادتهم . وانما الفرق بين هذا المبدأ ومبدأ حكومة الجمهورية الافلاطونية أنه أبدل فيها الموبذان والبرهمى بالفيلسوف والمشرع . ومن نظامات جمهورية هذا الفيلسوف أن المحاربين يجب ان يكونوا دائماً على أهبة تامة متحفزين اما لقمع فتنة داخلية أو صد غارة خارجية . وهؤلاء المحاربون لا يجوز لهم أن يمتلكوا عقاراً ولا أن يكتنزوا دينارا بل يجب عليهم أن يعيشوا أحرارا من كل التكاليف الشخصية والعائلية وعلى بيت المال أن يجرى عليهم مايلزم من غذاء وملبس ومسكن وما تقضيه سائر الحاجات المعيشية . أما العلوم التى يجب عليهم تعلمها فهى كيفية تمرين أجسامهم على الألاعيب الرياضية وفن حفظ الصحة والموسيقى والأخلاق ويلزمهم أن يتربوا ويتمرنوا على الخضوع والطاعة للقواعد العسكرية الصارمة ليكونوا بذلك مثال النظام والأحكام أمام الناس أجمعين .

اما بالنسبة للنساء فقد فاه عنهم الفيلسوف بكلمات فاق بها فى الشعور أهل زمانه بمراحل وان كان مقلدا فى ذلك ماعلمه من حالة النساء وحريتهن فى جمهورية (اسبارطا) اليونانية وذلك أنه وهبهن حقوقاً لم تكن لهن من قبل واعترف لهن بمزايا كانت لذلك العهد ضائعة لايسلم بها أحد فقد قال: « ان هذا الجنس (أى النساء) الذى نحجر عليه ولانسمح له فى العادة إلا بالاشتغال بالاشياء التافهة والشؤون المنزلية أليس فيه استعداد لأمور أشرف، ووظائف أرقى؟ ألم يعطنا أمثلة كثيرة من الشجاعة والعقل والرقى فى كل ضرب من ضروب الفضيلة » ولكنه لم يغال فى السير فى تيار هذا الشعور الجميل الذى خالف فيه عموم أهل عصره بل رجع فاعترف بأنها أحط من الرجل منزلة وأقل منه درجة. ولم يقصر فى الاشارة والنصيحة باعطاء النساء ذات العلوم التى تدرس للرجال كما كان الشأن فى مدينة (لاسيديمونيا) اليونانية عاصمة جمهورية (اسبارطا) وقرر بأن يشاركن الرجال فى الالاعيب الرياضية وفى التمرينات العسكرية أيضاً.

اما المتشرعون فيجب ان ينتخبوا من صنف المحاربين فيرتقون من الصنف الفضى الى الصنف الذهبى. والنسل الحاصل من هذا الصنف الفضى يجب أن يؤخذ ويربى تربية خاصة تؤهلهم للانخراط فى سالك الطبقة الحاكمة ولا يجوز أن يربى هذه التربية ويهيأ هذا التهيء الا الاطفال الذين تتوفر فيهم شرطى حسن الخلق والخلق ويكونون حاصلين على مواهب طبيعية جليلة. وتلك التربية الخاصة هى تخريجهم

فى كل العلوم والفنون المعروفة وادخالهم فى قواعد شاقة وتحميلهم تكاليف صارمة ليشبوا متعودين على الخشونة والنظام وليصلحوا أن يكونوا بأفعالهم وأقوالهم أمثلة فى الفضيلة والزهادة حتى اذا صبروا على كل هذه المشاق فى التربية وخرجوا من كل دور منها لابسين تيجان النجاح ألحقوا بذاك الصنف الذهبى الحاكم على غيره وسلموا مقاليد الحكومة عفواً بغير تعب .

أما العامة وهو الصنف الحديدى فلم يشر عنهم الفيلسوف أقل اشارة لانهم فى نظره وفى نظر سائر الفلاسفة الاقدمين خلقوا للطاعة العمياء للأولين ووجدوا لأن يحيوا بحياتهم ويتحركوا بحركتهم .

ارسطو

الفيلسوف ارسطو أشهر فلاسفة اليونان بل فلاسفة العالم كله . وهو أكبر قريحة ظهرت فى العالم القديم ولذلك يلقب بأمير الفلاسفة . ولد بمدينة (ستاجير) من مملكة مقدونيا فى سنة ٣٨٤ وتوفى سنة ٣٢٢ وله من العمر ثلاث وستون سنة . كان أبوه طبيبا شهيرا اسمه (نيكوماك) عنى بتربية ابنه ارسطو وهيأه لدراسة الطب ، ولكنه لم يعش حتى يرى المواهب العظمى التى وهبها الله لابنه وتركه ولم يناهز السابعة عشر من عمره : فكفله صديق لأبيه وقام له مقام الوالد وهو ماجعل ارسطو يذكر طول حياته بر هذا الرجل بهويثنى

عليه بما هو أهله .

روى ثلاثة من المؤرخين الأقدمين أنه لما مات كفيل أرسطو جمع هذا كل « ما آل اليه من ميراث آبائه وأقربائه ، وأطلق لنفسه عنان الهوى فى ميادين اللهو حتى أتى على آخر ما يمتلكه ولم يبق له ما يسدبه حاجة الحياة ، فلما ضاقت به حلقات العيش الحق نفسه بخدمة الجندية ولبث بها مدة ولكنه لما لم يطق مشقاتها وصرامتها تركها وألقى بنفسه بين يدى الفلسفة .

يقول أنصار أرسطو ان هذه الرواية واهية السند لا يستطاع اثباتها لانقطاع اسنادها ، ومع ذلك فلو فرض أنها صحيحة فلا تؤثر كما يقولون على مقام الفيلسوف بشىء ولا تنزل من اعتباره ، فمابالك وهى من الضعف حيث رأيت

الذى لا شك فيه من بدايات أرسطو أنه تعاطى فى أول أمره صناعة الطب طلبا لاقامة أمور المعيشة ، ولقد حفظ لهذه الصناعة أثرا جميلا فى نفسه حتى أنه لما اتصل بالاسكندر بصفة مرب له نقش فى فؤاده حبها واكبارها فشب الاسكندر على ذلك . وقد ألف أرسطو فى الطب كتاباً نفيسا اسمه الصحة والأمراض

دعنا من هذا كله فكله قليل الخطر وأكثره واهى السند ، ضعيف الرواية ، أما الذى لاشك فيه ولا غبار عليه من ترجمة حياة ارسطو هو أنه حضر الى (أثينا) فى العصر الذى كانت تتلألأ فيه علما وفلسفة، وتتهادى مدنية وحضارة ، وكان علمها الخفاق فى العلم فى ذلك الحين

الفيلسوف (أفلاطون) فلم يكد يضع أرسطو قدمه فى أثينا ويرى ذلك الينبوع العلمى الفياض حتى التحق به واكتتب فى مدرسة أفلاطون ولازم الفيلسوف مجداً فى الدرس دائباً فى البحث والنظر حتى لحظ ذلك منه أستاذه وتحقق من مكانته فى توقد الذهن وبعد النظر وسعة مجال الفكر فقال عنه لبعض خواصه : انه ليس مثل (أكسينوكرات) محتاجاً الى مهماز يحثه ، بل الى لجام يوقفه .فلازم أفلاطون عشرين سنة يتلقى عنه العلم والفلسفة ويسمع منه الحكمة والخطابة ثم تركه فجأة ، فكان ذلك مساغا لاعدائه فى الطعن عليه وتنقصه ووصمه بما هو براء منه من ذمائم الصفات ومشائن الخلال . قائلين ليس من الانسانية أن يلازم الرجل أستاذه عشرين سنة ثم يتركه غضبا عليه منكرا فضله وجاحداً اتعابه . والذى حققه المحققون ان الأمر بخلاف ذلك وان ارسطو لم يترك معلمه ومربيه على صفة غير جديرة بمثله من رجال الحكمة والعلم ، ولكن الذى أتاح لأعدائه أن يتظنوا هـذا الظن السيء الخلاف الذريع الذى بين فلسفة أرسطو وفلسفة استاذه وهو خلاف جوهرى لا يسمح للمطالع أن يحكم بأن أحدهما تلميذ الآخر . ذلك لأن فلسفة أرسطو مبناها المشاهدات والمحسوسات وأسسها التجارب والمقارنات ، فهو فيلسوف حسى من الطبقة العليا لا تفترق فلسفته عن فلسفة الفرق المعاصرة لنا فى شيء . أما أستاذه أفلاطون ففلسفته على خلاف ذلك فان دعامتها التصورات وسنادها الأفكار والتأملات فهو فيلسوف عقلى من الطراز الأول .

هذا هو الذى حكم به العرفاء فى هذا الموضوع وزد عليه أن ارسطو لم يذكر قط أفلاطون فى كتبه الا بما يستحقه من الاعجاب والاجلال حتى أنه لما التجأ بحكم وظيفته أن يدحض مذهب أستاذه أمام تلامذته قال لهم : وانه وان كان قدقال هذا المذهب قوم نعزهم ونجلهم الا أن الحق أولى بالاتباع وأجدر بالاحترام والدفاع .

لبث أرسطو فى أثينا مدة حياة أستاذه أفلاطون ولما مات رحل عنها مدفوعا بما كان يلحق المقدونيين من الاذى والاضطهاد بسبب الحقد على مقدونيا وملكها فيليب أبى الاسكندر فلحق (بهرمياس) الظالم الغاشم ملك بلاد (اترنا) هرمياس هذا كان مملوكا سمت به همته الى أن ارتقى عرش الملك فى بلاد (اترنا) ولكنه كان مع همته هذه ظالما عتيا فلما لحق به أرسطو زوجه أخته وأكرمه غاية الاكرام ، فمدحه أرسطو مدائح خلدت له اسمه فى التاريخ . وهذا من أكبر مايتذرع به أعداؤه للحط من كرامته . ولم يزل الملك هرمياس هذا يسوم الناس الخسف ويذيقهم الحيف والعسف حتى حاقت به سيئاته وارتكست عليه نياته فقتله الفرس شر قتلة . عند ذاك رحل الفيلسوف المقدونى الى جزيرة (لبسون) وبينما هو بها اذ جاءه كتاب من الملك فيليب المقدونى يستدعيه لتربية الاسكندر واعداده لحكم مملكة مقدونيا . فشخص ملبيا طلب الملك الى مقدونيا وأقام بها اثنتى عشرة سنة ملازما للاسكندر يغذوه لبان الحكمة ويرشفه ثدى الآداب والفلسفة ثم رجع بعد ذلك الى أثينا وأسس بها مدرسته

الشهيرة بمدرسة المشائين لان من عادة أرسطو التدريس ماشيا .

حل أرسطو بأثينا بعد هذه الغيبة الطويلة عنها وقد فاض صدره علما وتجارب فأراد أن يشرك العالم أجمع فى ثمرات حياته فأكب على التأليف والتصنيف واختراع علوما جديدة لم تكن موجودة وساعده على هذا الجهد العالى تلميذه الملك اسكندر فانه أمر الالوف المؤلفة من جنوده وضباطه أن يلتقطوا له أينما حلوا ونزلوا أنواع النباتات وصنوف الحيوانات ويحملوها الى الفيلسوف المقدونى بأثينا لتساعده وتعينه عل دراسة التاريخ الطبيعى والتعمق فى أسراره ولبابه . هذا فضلا عما أعده له من المال الجم لشراء الكتب وتأسيس المدرسة وما يستدعيه ذلك الشأن من الأمور . ولكن لم يدم تعضيد الاسكندر له بل حدث مايكدر صفو الحب بينهما . وذلك انه كان لارسطو ابن عمة اسمه (كاليثينوس) رباه واعتنى بتربيته حتى صار حكيما فلما انفصل أرسطو عن الاسكندر ورجع إلى أثينا استودعه ابن عمته هذا على أن يتبعه فى غزواته وغاراته وأوصاه عليه كثيرا ، فلم يحفظ (كاليثينوس) هذه المنزلة على ما يروى عنه فانه كان لا يبالى بالملك ولا يقدم له الاحترام الواجب فغضب عليه الاسكندر وحدث بعد ذلك أنه قتله لجرم ارتكبه يستحق عليه القتل فى نظر الاسكندر ولكن أرسطو لم يقتنع بصحة ذلك. فكانت النتيجة أن تكدر الفيلسوف من هذا الأمر وقاطع الاسكندر .

حدث بعد ذلك أن هبت ثورة عامة فى أثينا ونزع أهلها الى

استرداد استقلالهم من المكدونيين واستدعى الأمر بعد ذلك بحكم الضرورة أن يلحظوا المكدونين الذين بين أظهرهم شزرا ويوسعهم اضطهادا وعسفا . وبما أن أرسطو مقدونى الأصل وقوى كبرى من قوى مقدونيا تذرعوا الى قتله تذرع السوفسطائية لقتل (سقراط) وذلك أنهم اتخذوا مدح أرسطو للملك (هرمياس) الظالم واسطة لاتهامه بالالحاد . فلما رأى أرسطو هذا التألب عليه خاف من أن يصيبه ما أصاب (سقراط) فأوى الى جزيرة (أوبيه) وصدر عليه الحكم بالقتل من محكمة أثينا ولم يكن بها . وعلل انسحابه من أثينا وتجنبه لحكم القتل بقوله : « فعلت ذلك لأحول بين الاثينيين وبين العود الى اهانة الفلسفة » يشير بذلك الى إهانتهم الأولى للفلسفة بقتل سقراط . ولم يعش بعد هذه الهجرة طويلا بل مات فى تلك السنة . وقيل انه انتحر سأما من الحياة . وروى بعض قسوس النصرانية أنه لما يئس من تعليل ظاهرة المد والجزر ألقى بنفسه فى اليم ، وليس من مستند لهذه فى الرواية والله أعلم .

كان أرسطو ضعيف الجسم نحيف الساقين ذا صحة مضطربة يشكو من معدته كثيرا ولقد كان ضئيل الصحة لحد أن معاصريه كانوا يعجبون من احتمال مثل بدنه لاعباء الحياء وتكاليفها ثلاثا وستين سنة .

من حكم أرسطوا الشهيرة التى تستحق الذكر قوله : « جذور العلم مريرة ولكن ثمراته حلوة »

« الفرق بين العالم والجاهل ، كالفرق بين الحى والميت »

« لا شيء يهرم الانسان أسرع من الاحسان »

« الأمل حلم اليقظان »

« لنحفظ حب سقراط وافلاطون . ولكن لنحب الحقيقة أكثر منهم »

« رسائل الاخوان زينة فى السراء وتعزية فى الضراء »

« لا فضيلة الا فى التوسط »

مذهب ارسطو

يمكن اختصار مبنى مذهب أرسطو فى هذه القاعدة الاساسية وهى : « لا يصل الى العقل إلا ما يمر أولا بالحواس الخمس » وهى قاعدة كما لا يخفى تجعل الحواس أصلا للأفكار ومنبعاً للمدركات . ومن هنا ترى أن أرسطو ألح فى تمييز الواجب عن الممكن ، والمطلق عن المقيد . وبما ان الممكن والمقيد تقابلها الحواس الخمس فى الادراك الانسانى . فتكون المدركات التى تقابل الواجب والمطلق تشبه ما كان يسميه أفلاطون (افكاراً) . وكان ارسطو يريد من ذلك أن يؤسس فلسفة وسطا بين المذهب الفكرى والمذهب الحسى . ولكن غاب عنا الآن ماهية ذلك التوسط وكيفيته حتى إنها عميت على بعض أتباعه فوقعوا فى المذهب الحسى المطلق . ونحن لاجل إيراد موجز من فلسفة ارسطو يحسن بنا ان نوردها من أصدق مصادرها صارفين النظر عما

نالها من جدل المجادلين واراء الممحصين ، فلسنا بصدد إيراد تاريخ الفلسفة على الطريقة التاريخية وإنما غرضنا الالمام بجوهرها وروحها على الطريقة الفلسفية المحضة .

يفرض مذهب ارسطو أن للعقل الانسانى جزأين متميزين عن بعضهما تمام التمايز . وهما الاشكال العقلية والاصول التى تتأثر بها الحواس من الخارج . فالعقل بما وهب من تلك الاشكال الاصلية فيه يصدر أحكاماً عامة ضرورية يصبغ بها المتغير والشخصى بصبغة الضرورى العام ، كادرا كه استحالة المستحيلات وجواز الجائزات ولكن هذه الاشكال العقلية التى تصدر منها تحتاج لمادة تنطبق عليها هذه المادة يهيئها الاحساس والتجربة .

اذا تقرر هذا يعلم من أول وهلة أن مذهب ارسطو يوافق من بعض الجهات مذهب إفلاطون ويلائم مذهب (ابيقور) من جهات أخرى ، ولكن مع حفظه شخصيته وصونه استقلاله عن كليهما .

أما موافقته لمذهب (إفلاطون) فذهابه إلى وجود عنصر فى العقل الانسانى يتميز تمام التميز عن الاحساس ، وأما موافقته لمذهب (أبيقور) فلتسليمه بأنه لولا الاحساس لما أمكن الانسان أن يعلم عن الوجود شيئا ولا أن يحصل عنه خبرا . أما كونه مع ذلك حافظا لشخصيته صائنا لاستقلاله فلكونه يبتعد عن كلا هذين المذهبين بعدا شاسعا فى بقية مستلزمات هذه المبادىء . فان إفلاطون يذهب الى أن (الافكار) التى هى منابع الأحكام المطلقة ، هى حقائق أبدية ، مستقلة

عن العقل وخاوجة عنه ومشرقة عليه فقط ، ويذهب (أبيقور) الى أن أحكام العقل ليست الا تعميا لاحساس الحواس ، أما فى مذهب ارسطو فالامر بخلاف هذا فان الاشكال العقلية فى فلسفته وان لم تستطع أن تنطبق الاعلى الحواس فقط ، إلا أنها تضيف اليها عنصرا خارجيا مستفادا من التجربة ليتم أمر الادراك والعلم .

من هنا يعلم سر تشدد اتباع افلاطون فى الاستقلال عن فلسفتى (افلاطون) و (ابيقور) فانهم كانوا ينصبون أنفسم منصب الموفقين بينهما ، الموجدين خط الوسط بين تطرفيهما .

وقد اختلف بعض الفلاسفة فى تقرير مبادى ارسطو هذا اختلافاً ذريعاً فمنهم من جعله فكرياً محضاً ومنهم من صوره حسياً صرفاً وهو تناقض شديد تكبر عنه كما يقول بعض الفلاسفة فلسفة ارسطو وهى تلك الفلسفة التى كان لها المقام الأول فى زمانها الى ماقبل أربعة قرون ، ولم تزل لليوم رائجة لدى بعض العقول التى تحب الأمور القديمة

اذا تحقق ان ماأوردناه هنا عن ارسطو عن أئمة الفلسفة فى أوروبا هو حقيقة مذهبه فيكون مبناه اذن تحديد القوانين الداخلية السائدة على العقل الانسانى ، أو بعبارة أخرى يكون معتمده الأول علم المنطق ، وهو أعظم عمل عمله ارسطو ، وبه يمكن معرفة سائر تأملاته ، ويستطاع التوفيق به بين جميع أجزاء مذهبه الكبير الواسع . ورغماً عمانال مدركات ارسطو فيما وراء الطبيعة من عدم الثبات بعد ظهور لألاء العلم العصرى ، فان المنطق لم يزل حياً معمولا به فى

بعض المذاهب الفلسفية ، ولقد كان فى القرون الوسطى الآلة الوحيدة فى الجدليات وتقرير الدليل .

العلم فى نظر (ارسطو) هو حركة العقل ، وهذه الحركة لها شكلان رئيسيان : وهما النظر والعمل . ومن هنا قسم العلم الى قسمين : علم نظرى تأملى وعلم عملى . فالعلم الأول تدخل تحته العلوم النظرية (علوم ماوراء الطبيعة والعلوم الرياضية) والعلوم التجريبية (التاريخ الطبيعى وعلم النفس) والعلوم المختلطة (علم الطبيعة العمومية التى ليست فى ذاتها الا تطبيق علوم ماوراء الطبيعة على الحوادث العامة للكون) أما القسم الثانى وهى العلوم العملية فعلم الأخلاق والسياسة والاقتصاد .

هذا هو التقسيم الذى يمكن استنتاجه من فلسفة ارسطو وكتبه ، ومن يعتنى باستقصاء مرامى اتباع هذا المذهب على الاخلاق والفضيلة والسياسة والاقتصاد والعمران يرى أن مبدأهم فى الاخلاق التوفيق بين أحكام العقل ومطالب الشهوة وتوخى الاعتدال فى تلك المطالب حتى تكون خاضعة لأحكام العقل تمام الخضوع .

أما الفضيلة فى نظرهم فقد خالفوا فيها (افلاطون) الذى جعلها فى أداء الواجب المطلق وخالفوا (أبيقور) أيضاً فى قوله انها اللذة المعتدلة . وقالوا انها القيام على الخط الوسط بين الشهوات المتعاكسة فى النفس . والغرض من الأخلاق فى نظرهم هى الراحة التى تنتج من الاعتدال فى الشهوات الجسمية .

أما قاعدتهم فى السياسة فكانت اجتلاب المنفعة من وجوهها

المعتدلة ويعلم ذلك من قاعدتهم الأخلاقية وهى التوسط فى مطالب البدن لتحصيل السعادة الجسدية وهى الراحة والصحة ، ولما كان قاعدة سياستهم النفع فقد قرروا الاسترقاق فى قانونهم وعدوه أصلا من الأصول التى يقوم عليها بناء الهيئة الاجتماعية .

أما قاعدتهم الاقتصادية العائلية فكان قسط الحرية فيها ضعيفا ، وذلك أنهم كانوا يعتبرون العائلة مملكة مستقلة فيها الحكم بين الزوج والزوجة على الأسلوب الاريستوكراسى أى الحكومة التى يكون فيها رجال قلائل مالكين زمام الاحكام ومخولين سيادة مطلقة على سائر أفراد الشعب ، وبهذه الصفة كانت الزوجة تحت سلطة الزوج مباشرة ولا يخفى أن تلك السلطة قد تكون استبدادية عسفية على حسب أخلاق الرجال وعادات الجيل . وهذا ليس من العدل فى شيء . هذا بالنسبة للزوج والزوجة . أما بالنسبة للأب وأولاده فكانوا على سنة الحكومة المطلقة الاستبدادية ، أي أن للأب على أولاده سلطة غير محدودة وارادة نافذة لا تقف عند حد . أما الأولاد فيما بينهم فكانوا على الدستور (الديموكراسى) أى المساواة المطلقة فى جميع الحقوق . وفى مذهبهم أنه لو كان يهم الأب تربية أبنائه ، أو تقوية أجسام أرقائه فما ذلك الا لانهم مكونين لركنى مملكته

فلسفة ارسطو هذه دخلت الى أوروبا بواسطة ابن رشد الفيلسوف الاسلامى فقوبلت من بعض الفرق النصرانية هنالك بالحماسة والحفاوة . فتردد علماء اللاهوت فى قبولها أولا ثم قبلوها نهائياً وتحمسوا لها تحمسا

غريبا وتعصبوا لذلك الفيلسوف تعصبا مدهشا حتى أنهم كانوا يعتبرون أقل كلماته وأصغر أحكامه غير قابل للنقض . فلم يستطع أحد أن يجاهر بفلسفة غير فلسفة ارسطو مهما كانت صفته . ولما جاء أوان يقظة أوروبا حوالى القرن السادس عشر أخذت تلك الفلسفة فى السقوط شيئا فشيئا . فقام فيلسوف اسمه (راموس) فرنساوى الاصل ونقض أصول تلك الفلسفة بالدلائل والبراهين فقتل فى مقتلة (سان برتلمى) التى حصلت فى فرنسا بين الكاثوليك والبروتسانت وقتل فيها من هؤلاء عدد عديد (١) . ثم ظهر بعده (پاتريزى) فسار على خطة (راموس) ثم نبغ (كامبانيلا) وشن على تعاليم ارسطو غارة شعواء فحكم عليها بالحرق ، ولكن ما الحيلة ولكل شيء أجل ، ولكل نابغة جيل أو أجيال معدودة، فلا يستطاع اماتة شيء له فى الحياة نصيب كما لا يستطاع احياء شيء قضى عليه الله بالموت . فرغما عن هذه السلطة الهائلة التى أيد بها علماء اللاهوت فى أوروبا فلسفة أرسطو حتى قتلوا وأحرقوا اضدادها تلاشت تلك الفلسفة تحت أنظارهم بتوالى ظهور العقول المضادة لها تواليا عجيبا . فقد نبغ بعد الذين تقدم ذكرهم (باكون) الانجليزى و(ديكارت) الفرنساوى وغيرهما من رجال العلم والفكر فقضوا على تلك الفلسفة قضاء نهائيا . ولكن كان لم يزل لها انصار متحمسون للدرجة القصوى

(١) حصلت هذه المقتلة الهائلة فى فرنسا فى ٢٤ أغسطس سنة ١٥٧٢ تحت حكم شارل التاسع وسببها تحاقد الطوائف الدينية فيما بينها فاستمرت مدة أيام متوالية فى سائر البلاد الفرنساوية وخصوصا فى باريس

من رجال الدين الأقوياء فقد تحصلوا على أمر من مجلس نواب باريس سنة ١٦٢٤ بقتل كل من تجاسر على تعليم فلسفة تناقض فلسفة ارسطو. ولكن هيهات . لكل نبأ مستقر . فلم تفعل تلك العقوبات شيئا فان العقوبة لا تنصر ماقضى عليه الحق بالزوال فنبغ (موليير) بأسلوبه المضحك المروتلاه (بوالو) بطريقته الاستهزائية القاسية وأدخلوا ذلك من ضمن أضاحيك رواياتهم حتى جعلوا تلك الفلسفة التى كانت بتلك المنزلة من الاحترام مضغة فى الأفواه وسخرية فى السهرات والتياترات والنوادى . ذلك كله جزاء الغلو السابق فى الانتصار لهذا المذهب فسبحان الملك الحق الذى لايزول كلامه ولا يحول . ولا يعترى أحكامه الأفول .

(مذهب ابيقور)

ولد هذا الفيلسوف الشهير سنه ٣٤٢ وتوفى سنة ٢٧٠ قبل الميلاد وهو من عائلة عريقة فى الشرف ، قديمة فى النسب . وكان مولده فى (جارجينوس) وهى قرية من قرى مقاطعة (اتيكا) اليونانية فلما بلغ الثمانية عشرة سنة شخص الى اتينا ولم يطل مكثه بها ، فغادرها قاصداً (كلوفون) فى آسيا الصغرى مع أبيه ، وهناك أسس مدرسة لتدريس اللغة والقواعد النحوية .

مال ابيقور منذ نعومة اظفاره لدراسة الفلسفة فاشتغل بها ولم يتجاوز عمره الأربعة عشر ربيعاً وظل مكباً عليها ست سنين ثم أخذ فى

تدريسها ونشرها بين مواطنيه على قدم كبار الفلاسفة وعظماء المفكرين . يقال انه لم يترك علم البيان الذى كان يشتغل به فى مبدأ أمره الا احتقارا له وازدراء به حيث لم يجد فيه ما يكشف له عن كنه هذا الفراغ الشاسع الشامل للكائنات كلها . وذلك أنه بينما كان يتلقى عن معلمه قول (هيزيود) : « أول ماحدث فى الكون هو الفضاء » سأل معلمه ومن أين نشأ الفضاء ؟ فلما لم يجد جواباً علم أن العلوم النحوية لن توصله الى شيء من المعلومات الضرورية لحياة الانسان فمال عنها الى دراسة الفلسفة . هذه رواية من روايات كثيرة بشأن تحوله من العلوم النحوية الى العلوم الفلسفية . وقد نسب كثير من الكتاب الأقدمين تعلقه بالعلوم الفلسفية الى الصدفة ، وذلك أنه وقع بين يديه يوما من الأيام بعض كتب ألفها الفيلسوف (ديموكريت) فانعم النظر فيها . فارتاح اليها خاطره . وثلج عليها صدره ، ووجد من نفسه باعثاً شديدا اليها وحنيناً قوياً لها ، فانضم الى الفلاسفة ، وسواء صحت هذه الرواية الأخيرة أولم تصح فان كتب (ديموكريت)أثرت على (ابيقور) تأثيراً ظاهراً جدا لاسيما مذهبه فى الجوهر الفرد .

لا يعلم بالضبط التاريخ الذى غادرفيه (ابيقور) كولوفون ورحل إلى (ميتلين) ثم الى (لمسالا) وهى تلك البلدة التى كانت معروفة بالثروة والرونق والعلم ، ولكن مما لاشبهة فيه انه عاد إلى اثينا سنة ٣٠٦ قبل الميلاد وسنه اذ ذاك خمسا وثلاثين سنة ، فاشترى بها فى وسط الاحياء حديقة غناء بثمانين ألف مين (المين سكة قديمة الثمانون

ألفاًمنها تساوى ٧٥٠٠ فرنك) عرفت هذه الحديقة بحديقة (ايقور)

صفات (ايقور) . كان ايقور حاوياً الصفات التى تحببه الى الناس وتأسرهم له فقد كان هادىء النفس ، سليم النية ، ثابت الجأش ، متواضعاً . لا يقابل انساناً بالمعارضة والملاجة ، سمحاً هيناً ليناً ، ذا صحة ضعيفة . كثير الأمراض ، لايحابى ولا يجور . مما حفظ عنه من الخلال النادرة أنه لما أصاب بلاده مجاعة صرف كل أمواله فى تقويت تلامذته حتى صار معدماً لا يملك شيئاً ، وهذا من السماحة التى لا تصادف فى الناس الا قليلا ، ولم يلبث على التدريس الا سنين قلائل حتى ذاعت شهرته فى جميع البلدان ، وتحدثت بسعة مداركه الركبان ، وجابت سمعته أوروبا وأسيا وأفريقيا ، ورغماً عما تقول الناس على هذا الفيلسوف ونسبوه اليه من الميل للملاذ البدنية فانه كان على جانب كبير من البساطة فى المأكل ، فقد كان يأكل فى العادة خبز الشعير مغموساً فى الماء ومتى أراد فى بعض الأيام أن يأتدم كان لا يتعاطى الا قليلا من الجبن مع ذلك الخبز الخشن ، وكان يقول : « يجب أن يكون العيش الكفاف كافياً لاسعاد الرجل الحكيم ، وارى أن خبز الشعير والقليل من الماء يكفيان لايتاء الانسان مثل سعادة جوبتير »

هذا ما كان يرويه عنه تلامذته من صفات القناعة ، وخلال العفاف . اما من لم يكونوا تلامذة له فقد نقلوا كثيرا من حوادث تمس شرفه وتزرى بمقام الفلاسفة من الافراطات والتفريطات الخلقية ، ولكن (ديوجين لايرس) المؤرخ الشهير نقل عنه انه حاصل على جميع الفضائل

النفسية التى تجعل الانسان محبوباً محترماً .

شيخوخة (أيقور) كانت اليمة جدا فانه أصيب بالشلل فى آخر أيامه وأصابته قبل ذلك آلام أخرى ومات وعمره اثنان وسبعون سنة ، وخلفه فى رئاسة مذهبه تلميذه (ميترودوردولمساك) ولم يعش بعده كثيرا فآلت رئاسة المدرسة الايبقورية الى (أبوالودور) أحد مشاهير تلامذته

﴿ فلسفة أبيقور ﴾

لا تعرف فلسفة فى العالم خرجها أعداؤها عن أصولها وبعدوا بها عن حقيقة مراميها وصوروها بصورة تخالف صورتها الحقيقية مثل فلسفة أبيقور فقد ادعوا أن الرجل شهوانى محض وفلسفته شهوانية صرفة لاهم لمتبعيها الا الانغماس فى لذائذ الشراب والطعام والانغمار فى لجج اللهو والغرام ، والحقيقة فوق مايتوهمون ، فان هذا الفيلسوف كما نقله عنه الثقات كان من الزهد فى الملاذ البدنية بحيث كان يكتفى بخبز الشعير غذاء اعتياديا ، وفلسفة توصل رئيسها الى هذه القناعة والزهد لا شك لا يكون من أصولها الدعوة الى الانهماك فى الملذات والاغراق فى الشهوات ، أن فلسفة زينون التى درسنا أصولها فى مقالة سابقة لم توصل ذويها الى مثل هذه الظلاقة النفسية فكيف بما يدعونه على ايبقور من المبادى الشهوانية ، والأصول الافراطية ؟ لاشك فى أن هذه المزاعم انما نشأت من التقول عليه بالباطل حسدا وحقدا ،

واما من سوء فهم مراميه الفلسفية وكثيرا ما يؤدى سوء الفهم الى هذا الشطط فى الحكم .

لسنا نقول هذا اطراء لفلسفة ابيقور وذهابا بها فوق ما تستأهله من الاجلال والاحترام فانا على بينة من النقص الذى فيها هى وسائر فلسفات الفلاسفة الأقدمين كما تراه فى فصل خاتم النبيين ان شاء الله تعالى ، وانما نقول ماقلناه دفاعا عن الرجل فقدهضموا حقه ، وألبسوه غير ثوبه ، ووصموه بماهومنه براء ، ولقد كانت مبادئه الاخلاقية فى مذهبه مهذبة لكثير من اتباعه فقد نبغ على يديه فضلاء كثيرون يحفظ التاريخ اسمهم للآن . على أن تلك الفلسفة ليست فلسفته الخاصة وانما هو نشرها وعممها ، ومن يطالع كتب (ديموكريت) و (لوسيب) يجد أن أبيقور قد استقى منها شيئا كثيرا ، ولكن فاقهما فى نشر تلك المبادىء وإشرابها فى العقول ولا يخفى أن هذه صفة أخرى من صفات الكمال البشرى تتفاضل النفوس فيها الى مالا نهاية . فمن العلماء من لا يشق لهم غبار فى العلم والحكمة ولكنهم من موات العزيمة عن نشر علمهم بحيث يرحلون عن الدنيا وهم لا يفترقون عن عامة جيلهم فى شىء ويتلاشى اسمهم على طول الزمن ولا يبقى لهم فى الوجود الذى وردوا اليه أثر يذكر ، ومنهم من فتح الله لهم خزائن العلم وكنوز العزيمة أيضا فأخذوا من هذه وتلك فأصبحوا النجوم السوارى يهتدى بها الضال ويؤوب اليها التائه ، ولسنا نرى على سطح الكرة فى جميع أدوار التاريخ الانسانى إنسانا نال من هذه القوة ماناله خاتم النبيين محمد صلى الله

عليه وسلم فقد نشر ديناً جديداً فى أمة تعد بالملايين الكثيرة فى مدة ثلاث وعشرين سنة ولا يخفى الفارق الجسيم بين نشر دين ونشر فلسفة فان نشر الدين يستلزم أن يخلع الانسان عاداته الوراثية ، وفى ذلك مافيه من الصعوبات خصوصا فى الأمم الجاهلية الشديدة البأس كالأمة العربية ، فنجاحه صلى الله عليه وسلم لم يكن إلا تأييداً الهيا ، وعونا ربانيا ، ومن ادعى غير ذلك فليرنا مستنده من نواميس الطبيعة أو قوانين النفس ، وهيهات « لو أنفقت مافى الأرض جميعاً ماألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم »

إذا نظرت لفلسفة (ابيقور) نظرة اجمالية لم تجد فيها تلك الاصالة والجدة التى تصادف عادة فى مؤلفات كبار فلاسفة اليونانيين ، هذا النقص يمكن عزوه إلى ما كانت عليه حالة البلاد اليونانية فى ذلك العهد من القلاقل والاضطرابات الداخلية . يقول العارفون ان العصر الذى وجد فيه (ابيقور) وهو العصر الذى كان يتنازع فيه السلطة خلفاء الاسكندر الأكبر بين قارتى آسيا وأوروبا وكانت الجيوش الرومانية تتقدم إلى الامام فى كل جهة تبتلع الأمم والعواصم ، لم يكن أهله صالحين لظهور أفكار كبيرة بين ظهرانيهم ولا لنبوغ قرائح قوية يستضيئون بنبراسها ، ويحيون بحياتها العالية ، فالتجأ (ابيقور) أن يسالم السنة الطبيعة ويسير كما شاء القدر .

كان مثل (ابيقور) فى هذا الجيل المشحون بالقلاقل والمشاغب الخالى من الفلاسفة والعقلاء كمثل قائد تفرقت عنه أجناده شذر مذر

فأراد أن يجمع شملهم ، وينظم عقدهم ، فلم ير أحسن وسيلة لأداء مهمته هذه من أن يجعل الفلسفة الى معناها الحقيقى ويوصلها الى غايتها الأصلية وهى تهذيب ملكات الانسان ، وترقية مواهبه الطبيعية بالرياضة والعمل بالنظريات والعبارات الفارغة كما كان يفعله أكثر الفلاسفة . حيث ينبغ منهم فيكون همه ابتناء القصور والعلالى الفكرية الخيالية ، ثم يورثها لتلامذته فيصقلونها شرحا وتنقيحاً ثم يدعونها لأخلافهم مثلها كمثل العوبة عقلية ، او رياضة تصورية ليس إلا . فلأجل ان يصل (ايقور) بالانسان إلى هذه النقطة من الفلسفة العملية التطبيقية جعل همه الوحيد دراسة الانسان والطبيعة معاً .

نعم انا لو استعرضنا أفكاره على الطبيعة بعلمنا الحالى لرأينا أكثره حديث خرافة ولكن مثله فى ذلك كمثل سائر الفلاسفة الاقدمين فلم يكونوا أقل منه غلطاً على مساتير الطبيعة وضلالا عن أسرارها . ولكن رغما عن هذا فان طبيعيات (ايقور) تحتوى على حقائق طبيعية من الطبقة العليا جداً ، ذلك كوجد انه ناموس الجاذبية العامة ، وناموس التجاذب بين الجواهر الفردة فى الاجسام ولا يخفى أن على هذين الناموسين قامت صروح العلوم الطبيعية والكيماوية فى هذا العصر .

قبل أن يبدى فكره على شىء من أشياء الكون سأل (ايقور) نفسه عن مصدر علمه وادراكه فلم يره فى غير (الشعور) الذى بتشكله وتطوره على حسب الأحوال والمناسبات يسمى بأسماء مختلفة كاللذة والفرح والحزن وغير ذلك وليست كل هذه الاحساسات فى الحقيقة الا الشعور

بذاته مصبوغاً بصبغة مختلفة .

فمذهب (ايقور) والحالة هذه هو المذهب الحسى الذى لا يعتمد إلا على الأمور المحسوسة والدلائل العيانية المشاهدة باحدى الحواس الخمس .

هذه قاعدة فلسفة (ايقور) وهو بعينه مذهب (لوك) و (كونديلاك) و (ديستوت) و (تراسى) من فلاسفة هذه العصور المتأخرة

أما عقائد (ايقور) فى أمور ماوراء الطبيعة فلا يعلم لنا منها شىء يركن اليه والظاهر أنه كان لا يصدق بشىء منها ، ولكن لم يرو عنه أن نابذها وهم بدحضها علنا بل أثر عنه أنه كان يتكلم عن الآلهة باحترام وتبجيل ، ولكن قيل ان ذلك كان منه مشايعة للعامة فقط وقد عده الفلاسفة (الذينونيون) أتباع ذينون من ضمن الفلاسفة الذين لا يعتقدون بالصانع وقد عجب بعض الفلاسفة من دعواه أن الروح الانسانية جوهر لطيف له خصائص عالية وأنه وجد فى هذا الجسد أمدا محدود واستخدمه حتى اذا ماصار البدن عديم الفائدة واختل خرج منه وتحلل هو أيضا (أى الروح) وتلاشى فى الوجود .

عجب بعض الفلاسفة من دعواه هذه لمخالفتها لأصول مذهبه فانه لم يرذلك الجوهر اللطيف ولم يحضر تحلله وفناءه . قالوا وما دام هو حسياً لا يعتقد بغير المادة أفما كان من السهل عليه أن يزيد المادة صفة فوق صفاتها التى عرفها بها ليستطع أن يفسر مسألة الحياة الانسانية ، بدل أن يفرض هذه الفروض الغريبة ؟

الغرض من فلسفة (أيقور) البحث عن ماهية الاخلاق الفاضلة

التى توصل الانسان الى الحياة الدنيوية السعيدة . فماهى تلك الاخلاق الفاضلة ؟ هى البحث عن السعادة . وما هى السعادة ؟ السعادة قد عرفها فلاسفة الأقدمين بحدود كثيرة اختلفوا بها اختلافات بعيدة . فقدقال (أفلاطون) هى التخلق بأخلاق الله تعالى . وقال(ذينون) هى ملائمة العمل لنظام الكون . وقال (أريستبيب) هى اللذة . أما رأى (أبيقور) فى السعادة فهى : سكينة النفس وسلوك جادة الفضيلة ،

روى عن (أبيقور) أربعة أصول خلقية تهذيبية بسببها كذب عليه الكاذبون واتهموه بأنه طالب للشهوات ليس غير وهى :

(١) أطلب اللذائذ التى لايكون وراءها ألماً

(٢) إياك والالم الذى لا يجلب لذة

(٣) إياك واللذة التى تحرمك من لذة أكبر منها ، أو تكون عاقبتها ألماً أكبر منها

(٤) احتمل الالم الذى ينجيك من ألم أكبر منه ، أو الذى يكون من وراءه لذة كبرى .

هذا مايروونه عن(أبيقور)وينسبونه بهالى الانهماك فى الشهوات ويصمون مذهبه بما هو براء منه . ولكن(أبيقور) يزيد عن هذه الأصول الأربعة أصولا أجل منها وأفضل فان هذه الأصول الأربعة لاتشير الا الى فضيلة واحدة ، وهى الاعتدال ، ولكن لا تنس أن (أبيقور) كان يوصى باتباع ثلاث أصول أخرى بجانب هذا الاعتدال وهى : التبصر والحزم والعدل .

السبب فى اعطاء (ابيقور) هذه العناية للذات الانسانية هو أنه أطال بحثه فى أحوال الانسان ومراميه البدنية والعقلية، وأمياله المادية والأدبية، فرأى أنه تحت سلطان كثير من مطالب جسدية ركبت فيه بالفطرة، وسلطت عليه تسليطاً طبيعياً فلم يرد أن يغفل البحث عنها ولو فعل لما استطاع أن يصل بالانسان الى شيء مما يوده له من السعادة النفسية فجعل درسها من بعض اشتغالاته ليصل الى حدود الاعتدال منها. وليكسر من سلطتها على هذا الانسان الضعيف. فاعتبر اللذات أموراً مشروعة حقة ولم يحرم على أحد من أتباعه شيئاً منها مادام الاعتدال رائدها.

قسم (أبيقور) المطالب الجسدية الى أقسام: وهى طبيعية، وضرورية، وغلابة كالجوع والعطش. وهناك مطالب أخرى وان كانت طبيعية الا أنها شهوية كطلب صنوف الأطعمة، وأنواع الحلوى والأشربة وغير ذلك، وزاد عليها مطالب سماها صناعية تعوديه خطرة كطلب شرب الأشربة الروحية والحشائش المخدرة وغير ذلك. والاعتدال فى نظره هو ايتاء النفس المطالب الطبيعية والضرورية والغلابة. والاحتراس من المطالب الشهوية، ومكافحة المطالب الصناعية بكل سلاح. فغرضه الأول من الفلسفة اذن هى الحكم على الحواس لا الخضوع لها.

يظهر أن أبيقور غالى جداً فى بعض الأمور بحثا عن الراحة والسعادة فقد حرم على نفسه الاشتغال بالأمور العامة وحرم ذلك على أتباعه، وقد سلك هذا المسلك فى هذه العصور المتأخرة الفيلسوف

الفرنسى (مونتنى) حيث كتب فى ذلك فصولا بديعة سماها معاصروه قانون الأثرة الظريفة . ولكن مما لايجب أن لاينساه أحد أن كلا هذين الفيلسوفين اليونانى والفرنساوى عاش فى جيل مشحون بالقلاقل والفتن ، غاص بالاضطرابات والمحن بحيث يعذر من يعتزل الناس ويتركهم جانبا .

(فلسفة پيرون)

هو الفيلسوف اليونانى الطائر الصيت ولد بمدينة (اليس) من البلدان اليونانية سنة ٣٨٤ قبل الميلاد ولا تعلم بالتحقيق السنة التى مات فيها واختلف المؤرخون فى اسم أبيه. فقال(ديوجين لايرس) ان أباه اسمه(بليستارك) وقال(بوزانياس) ان اسمه(پيستوكرات) .

ولد (پيرون) فقيراً لا يملك شيئاً واشتغل فى حداثة سنه بفن التصوير . نقل معاصره وكاتب سيرته (أنتيجون دوكاريست) أنه رسم فى شرف مسقط رأسه صورة شمعية (شمعدان) ذات جملة شعب فأعجب بها العارفون اعجاباً كبيرا

يقال ان الذى أثر على فكر (پيرون) وحوله عن الرسم الى الفلسفة هى كتب الفيلسوف ديمكريت فلقد كان مكبا على مطالعتها ، منشغلا بفك رموزها ، وكان قبل ذلك متبعاً سير الفيلسوف (بريزون) تلميذ (سيتلپون) ثم اقتفى نهج الفيلسوف(أناكزارك)وهو تلميذ (ميترودور) وميترودور هذا أحد قادة المذهب الديموكريتى.

ويقال ان (پيرون) هذا لحق بجيوش الاسكندر فى غزوته

لآسيا ودرس الفلسفة الفارسية من موابذتها أنفسهم كما أخذ الأسرار الهندية عن ذات الهنديين فى بلادهم . فكان مثال فلاسفة الهند فى سكينة أنفسهم وهدو خواطرهم لايغيب عن ذاكرته ، حتى إن أستاذه (انا كزارك) الذى كان يعلمه كيفية تسكين نفسه وتهدئتها ، كان يوقظ فى نفسه دائما ذلك الحنين الى مذهب الهنود فى السكينة حتى قوى على تأسيس مذهبه الشهير كما ستراه بعد قليل إن شاء الله

رجع (پيرون) الى مسقط رأسه (أليس) فاجتذب قلوب مواطنيه إليه وا كتسب احترامهم وتبجيلهم بأخلاقه العالية وشمائله الطيبة وفقره المدقع واستجماعه الصفات التى يعرف بها الفاضل فى زمنه فلم يلبث غير قليل حتى عينه أهل بلده رئيساً للكهنة : ولأجل حبه اعفت تلك المدينة سائر فلاسفتها من سائر الضرائب .

معاصره وكاتب سيرته المؤرخ (انتيجون دوكاريست) نقل عنه حوادث مضحكة ونسب اليه خللا فى القوة العقلية ولو كان كذلك لما انتخبه أهل بلده رئيساً للكهنة فى زمن كان اليونانيون فيه شديدو التمسك بالدين . أما (انيسيديم) فقد فند كل التفنيد سائر مانسب الى هذا الفيلسوف من خلل العقل ولكن لم يعفه من داء التشكك وعدم العقيدة . وكذب القائلين بأن من مبادى مذهبه أن يترك الانسان نفسه للحوادث تقذفه حيث شاءت ، الأمر الذى يشير الى اغفال الارادة واهمال العزيمة

مات (پيرون) بالغاً من السن أ كثر من تسعين سنة وهو حاصل

على احترام اليونانيين عموماً .

أخلاق پيرون ـــ كان پيرون يحب العزلة والانفراد وهما للفيلسوف مهبط التأملات ومسقط الافاضات ، ويهوى البساطة التامة فى معيشته الداخلية حتى ضرب به المثل فى ذلك . وكان يشتغل مع أخته فى الشؤون البيتية ، وروى أكثر من واحد من المؤرخين أنه كان يحمل إلى السوق الدجاجات والخنازير بنفسه.

يروى أنه رؤى يوماً غضباناً يؤنب أخته على أمر فعلته ، فقيل له أيها الفيلسوف ألست القائل بأن العاقل يجب أن لايحفل بشىء ، وأن لايهتم لحادث ، فأجابه على الفور : « أتظن أن فلسفتى تنطبق على النساء ، وكان يكره الاطماع فى أى موضوع كانت ،سواء فى الثروة أوالجاه وعلى الخصوص فى المدح والمجد . ولايخفى أن هذه الصفة الأخيرة هى طلبة الفلاسفة وأنشودتهم الوحيدة ، قنعوا بها عن سائر الصفات والمواهب المادية الأخرى .

وقد علل (پيرون) كراهته للمدح بعبارة يحسن إيرادها . قال : « إن الناس فى أحوالهم وشؤونهم يشبهون أوراق الأشجار الدائرة مع الرياح تبقى خضراء هنية ثم يعتريها الجفاف واليبس فتصير هشيما ، ومن كان هذا شأنه فأجدر به أن لايؤبه لمدحه ولالذمه »

(أپيكتيت) الفيلسوف كان فيلسوفاً اعتقادياً متعصبا لمذهبه تعصبا شديدا ، وكان بالطبع عدواً للملحدين واللاأدريين الذين يرأسهم (پيرون) ولكنه مع ذلك كان يعترف لخصمه بثبات الجأش ورباطه

الفؤاد وكان كثيراً مايظهر اعجابه بذلك ،

يروى أنه كان يلقى على تلامذته يوما قوله : « يستوى عند العاقل الموت والحياة » فقال له أحد تلامذته ولماذا لم تفضل الموت أيها الاستاذ ؟ قال « لأنهما يستويان »

ويروى أنه كان مسافرا على البحر فهب اعصار شديد انخلعت له الأفئدة ، وانحلت أمامه العزائم ، وأشرفت السفينة معه على التردى فى مهاوى التلف ، فصاح بيرون بمن فى السفينة قائلا انظروا إلى ذلك الخنزير الذى يشتغل بالأكل وسط هذا الخطر المزعج ، واعلموا أن هذا مايجب أن يكون عليه الفيلسوف من الهدو والسكينة »

يظهر أن (بيرون) لم يكتب شيئا غير قصيدة مدح بها الاسكندر الأكبر كما رواه « سكتوس » و « بلوتارك » أما كتبه الحقيقية فكانت تلامذته أمثال « أوريلوك » و « فيلون داتين » و « هيكاثيه دابدير »

قلنا انه مال لمطالعة فلسفة « ديموكريت . والغوص فى بحارها ولكنه تركها واتبع فلسفة « ميجار » ثم تركها هى الأخرى واتبع فلسفة « السوفسطائية » ثم يئس من الوصول الى الحقيقة بواسطة كتب الفلاسفة فتركها جميعا والتفت الى الطبيعة نفسها فهى كتاب الكتب لمن يستطيع أن يفهم عنها . لذلك رحل مع الاسكندر الأكبر إلى آسيا فى حملته على دارا وتكبد مشاق هذه الرحل الشاسعة فى سبيل العلوم والمعارف . وقد كان « لبيرون » الحق فى ماطرأ عليه من سوء

الظن بالنسبة للفلسفة فقد كانت فى زمنه فى اضطراب لم يسبق له مثيل فى زمن من الأزمان .

وذلك أنه مات افلاطون فخلفته الجمعية العلمية التى أسسها فلم تستقم على آرائه ومبادئه بل مال بعضهما إلى مذهب « فيثاغورس » وبعضها الى مذهب اللاأدرية . وكان ارسطو فى ذلك الوقت وهو رئيس الحزب المضاد للحزب السابق ساقط الآراء والمبادىء لاستناد مذهبه على الحس والتجربة ومجافاة ذلك لميل اليونانيين لاسيما اتباع الفيلسوف سقراط .

(والسينيكيون) رغما عن احتقار الناس لهم كان لهم مستقبل كبير أمامهم . وقد كان هؤلاء الفلاسفة شأنهم عجيب جدا وذلك انهم كانوا يعيشون عالة على الغير ، معفين أنفسهم من سائر التكاليف الاجتماعية وكانوا يهزأون بالحضارة والمدنية ، ويسخرون بالشرائع والقوانين الادارية ، ويتربصون للمارة يوسعونهم هجرا وشتما ، ولم يكن يجمعهم بيرون الا توافقهم على ذم الحياة المدنية وتسوىء سمعتها .

وكان أتباع الفيلسوف ذينون متبعين نهج « السينيكيين » فى هجر العقل والمعقولات وزاعمين أن معتمدهم فى الحياة اداء الواجب ليس غير . ولم يكونوا كذلك بل كانوا رغما عما يقضى به عليهم مذهبهم من الخشونة المعيشية والظلافة النفسية ، متبعين سيرة الابيقوريين فى ترف الحياة ولذات الحس .

فكان « بيرون » بين هذه الزعازع الفكرية كلها فى غاية التردد والذبذبة ، لا يدرى أى فيلسوف يتبع . ولا أى فلسفة يدافع عنها .

فلم يسعه الا أن جعل ذلك التردد مذهبا فلسفيا ودعمه تدعيما منطقيا واتبعه فيه ناس كثيرون ممن هم على شاكلته فى ذلك التردد بين المدركات المختلفة. فكان فى نظره الاعتقاد مستحيلا وكذلك الانكار، ولم يكن امامه الا خطة الحيادة بين الطرفين والتردد والشك

ليس بيرون هو أول شاك فى العالم ولا أول من رأى الشك اسلم الطرق له بل هو أول من جعله مذهبا فلسفيا، وأسسه على دعائم علمية بقى قائما عليها لليوم.

اليك كيف وضع « بيرون » أول حجر لاقامة صرح مذهبه، قال:

الانسان متى خرج من غيابة العدم الى نور الوجود وأراد أن يسبر غور هذه المساتير المحيطة به من كل جانب فلا يجد أمامه الا أحد أمرين: فاما أن يصدق كل مايراه ومايستنتجه ويعده حقائق غير قابلة للنقض، واما ينكر كل ذلك ويدعى ان ليس هنالك شيء. ولا يخفى أن كلا هذين الأمرين تطرف ينافى طبيعة الانسان، ويعاكس فطرته الأصلية إذن فليس للانسان الا خطة الاعتدال وهى الامتناع عن الحكم على الأشياء

هذا المبدأ يحسن كثير من الناس فهمه كما يريد « بيرون » نفسه فظن خصومه ان يخصموه بأقل الحجج واصغر البراهين فقالوا له مثلا:

اما أن يكون شكك عاما وبذلك فأنت شاك فى وجود نفسك وكفاك بذلك تناقضا فى مذهبك، لانك بشكك فى نفسك أقررت على انك تفكر وتبحث، وبناء عليه فانت موجود. واما أن يكون شكك ليس عاما وتقر بوجود نفسك فتكون قد أثبت شيئا

وناقضت مذهبك .

يقول العارفون ان أمثال هذه المقالات تدل على عدم معرفة قائليها بمذهب « بيرون » فانه لا يقول انا أثبت ، ولا يقول أنا انفى ، وانما يقول أنا اشك فقط ذلك لأنه كان يقول ان كل شيء امامه سر غامض ؟ ومساتير مغلقة ، يقضى العقل والتبصر أن يكون الانسان بأزائها متبصراً حكيما ، فلا يصدر عليها حكما ربما كان غلطاً وناقصا

هـذا مارآه « بيرون » أليق بالمتبصر ، وأدعى لعدم الجور فى الاحكام على الكون وما فيه .

هذا الشك الذى جعله « بيرون » مذهبا فلسفيا لا يقتضى أن يكون الانسان مترددا متذبذبا فى سائر أحواله المعيشية ، وفى كل حركاته وسكناته ، فلقد كان من قواعد فلسفة هذا الفيلسوف الدعوة الى الاعتدال فى المطالب الجسدية ، والشهوات البدنية . وانما جعل الشك فقط منظما لسير الفكر امام البحث وفى اثناء التنقيب على مساتير الكون .

قالوا ان بيرون لم يكن عدواً للدين ، ولا خصما للفضائل ، كما يريد أن يدعيه السوفسطائية الخياليون الذين جعلوا الفلسفة آلة لتضليل الأفكار ، وتغرير العقول ، وانما كان كل اهتمامه موجهاً لمنع الانسان من ترامية بالاعتقاد ، وتهالكه بالتصديق ، على كل مايقال له ويقدم اليـه ، من قبل قوم لاحظ لهم من العلم الاجمـل اتقنوا التفيهق بها ، ومرنوا على حسن أدائها وتصويرها ليس الا . وهى بعيدة عن الحقائق الثابتة كل البعد . فلم يرد « بيرون » من هؤلاء الناس الا ارجاء الحكم

على تلك الاعتقادات والمرامى الفلسفيةوالوقوف بها موقف البحث والتقيب لاالذهاب مذهب الأشر والبطر ، زعماً أنها حقائق ، وهى ضلالات وأوهام .

يزعم بعض الناس أن (بيرون) ينكر وجود الحقيقة ، وهو زعم كما يقول بعض المحققين ، لامستند له البتة ، فان بيرون لم يقل ذلك وانما قال انهاستعرض فلسفات سائر الفلاسفة فلم يجـــد الحقيقة فى واحدة منها ولا فى مجموعها فتركها كلها لعدم فائدتها واتبع طريق الشك فوجد فيه راحته ، وثلج عليه صدره .

بالنسبة لمـا كانعليه « بيرون » منالمبادىء المتقدمةاتهمهأعداؤه بأنه مثل بعض السوفسطائية كان ينـكر العدل والظلم ويدعى أنالـكل وهم فى وهم . وهذا كله افتراء عليه كماتدل عليهفلسفته . والقولالمعتمد أنه ماكان ينـكر وجود الحقيقة ولـكنه ماكان يسلم بها الا للحوادث المشاهدة المحسوسة وكان لا يأنف منأىشىء يقال علىشريطة أنيبدأه قائله بكلمة (يظهر لى) وكان يسلم بالموجودات ولايدعى انهاخيالات أو أوهام كما يتهمـه به خصومـه ، وكان يعـترف بالفطرة الانسانيـة والنواميس الأدبية العامة ويرى أنها منقوشة فى صميم المعنى الانسانى.

والذى يؤاخذ به (بيرون) هوأنه جعل الشكغاية لمذهبه ، ونهاية لمطلبه ، لاوسيلة يتقدمبها نحو البحث ، ويسلك بهأفى فيافىالنطر .

أما مايقوله عنـه أضـداده من أنه كان ينـكر المحسوسات ولذلك فكان طولحياته محتاجا لمن يمشى معه فى الطرقات مخافة أنيتردى فى

هاوية ، أو يصطدم بحائط ، من شدة ماعلق بفكره من أنها خيالات لاحقائق ، فبهتان لاحقيقة له .

خلاصة مذهب (بيرون)

من مبادىء هذا المذهب التصديق بالشيء الواقع أى الحادثة . فاذا حدثت حادثة طبيعية وأحس بها الانسان ، فلا يجوز له أن يقول : انها شديدة أوهينة ، باردة أوحارة ؛ وإنما يقول : يظهر لى أنها شديدة أوهينة ، ويظهر لى أنها باردة أوحارة

وقدأبى « بيرون » أن يضع لمذهبه قواعد بنفسه قائلا مامن شيء الا ويمكن معارضته ودحضه . وقد أدهشه ماوصل اليه علم الجدل من الرقى الباهر ، حتى أنه كان يقول انه يخشى أن يبرهن علم الجدل للناس « ان مقطعا من الحروف الهجائية أكل جبنا » كما كان يفعله بعض السوفسطائية لأعدائهم المغلوب على أمرهم .

قالوا وليس من شأن مذهب « بيرون » أن ينكر شيئا ولو فعل لسقط أساسه وانهار ركنه ولذلك متى قال « البيرونى » : أنالاأفرض شيئا . يعجل بقوله : بل ولا أقول انى لاأفرض شيئا .

اليك الأسباب العشرة التى يستندون عليها فى عدم حكمهم على الاشياء:

(١) اختلاف الاحياء من حيث السن ، وتركيب الجسم ، وقوة المشاعر ، ودرجة الاحساس امام الشيء الواحد

(٢) اختلاف الناس فى الصفات الادبية والفزيولوجية « التشريحية »

(٣) اختلاف الاعضاء الحساسة فى الانسان الواحد ، الامر الذى

ينتج منه أن كل حاسة من تلك الحواس تنتج له كمية محدودة من الشعور بالشيء الموجود ، فلا يدرى الانسان أذلك القدر من الشعور خاص بعضوه الذى أحس أم طبيعى فى الشيء المحسوس

(٤) اختلاف الشعور فى الجسم الواحد بالنسبة للأحوال المختلفة، كالمرض والنوم والحزن والهرم

(٥) الاختلاف فى الحكم على حسب كمية الشيء المحسوس : فان زيادة البرودة وقلتها ، أو سرعة الحركة وبطؤها أو شرب قليل من الخمر يغير الحكم السابق عليها كل التغيير .

(٦) اختلاف الناس فى أساليب التربية ، وفى الشرائع والعقائد

(٧) اختلاط الاشياء بعضها بحيث يستحيل الحكم على كل شيء منها على حدته . كاستحالة وزن الحديد مجردا عن الهواء المحيط به ،أو ادراك الالوان الا تبعا لأخلاط العين التى يخترقها الشعاع أثناء سيره

(٨) استحالة مواجهة الاشياء مجردة ، فلا مناص من رؤيتها على مساند أوفى أماكن أو أوضاع أوأحوال مختلفة

(٩) ندرة أو كثرة الحوادث التى تحدث لمستجليها الجمود عن رؤيتها أوعدم العناية بها

(١٠) القيود التى لايمكن الافتكاك عنها فى حكم من الاحكام على الموجودات . فان الاشياء متعلقه بعضها . والحكم على الشيء لابد من أن يكون مقيداً بحالة الحاكم عليه .

هذه هى الأصول العشرة التى يستند عليها أتباع (بيرون) فى عدم

حكمهم على الأشياء . ويؤيدون بها دعواهم من عدم إمكان الوصول إلى حقيقة ما . وهناك أصول أخرى خمسة نشأت بعد العشرة الأولى بقصد إسقاط فلسفة ارسطو وهى :

(١) إحساسات الناس تختلف بالنسبة لكل موجود من الموجودات

(٢) كل برهان يسوقه الانسان لاثبات شىء يحتاج إلى برهان يثبته ، وإلا فعلى أى دعامة يستند فى كونه حقاً ؟ فاذا أقمت الدليل الثانى احتاج هو أيضاً لدليل ثالث يثبته كما احتاج الاول اليه ، ثم يحتاج الثالث إلى رابع وهكذا لما لا نهاية له .

(٣) الذى يبرهن على وجود المحسوس بالدليل المعقول يلزمه الدلالة على حقية برهانه الاخير . ولكن لما كان لا يمكن الدلالة عليه ببرهان عقلى (بناء على الأصل المتقدم) وجب الدلالة عليه بالمحسوس وهذا أمر يقتضى الدور والتسلسل

(٤) الفرض الذى هو كما يقولون حقيقة يجب التسليم بها بدون دليل لتكون ركنا لدليل آخر لا تقبل ، ولا يمكن التسليم بها ، لأنه لا دليل لهم على أن ما يجب أن يكون أساسا للدليل لا يحتاج لدليل يثبته

(٥) كل معقول تابع للعاقلين الذين يدركونه ، وكل محسوس تابع للكائنات المتمتعة بالحساسية ، وكل شىء تابع لما لا يمكن أن يعرف إلا به

هذه الأصول الخمسة الأخرى التى يعتمد عليها اللا أدرية فى حقية مذهبهم . نقلناها عن مواطنها الصحيحة المستخلصة عن شوائب الافتراء والتعصب الذميم

أشهر اتباع « بيرون » من أهل القرون المتأخرة « انيزيديم » اليونانى الذى كان عائشاً فى القرن الأول الميلادى . فقد كتب هذا الفيلسوف كتاباً كبيرا فى مذهب اللا أدرية سماه « حجج البيرونيين » قسمه إلى ثمانية أبواب :

الباب الاول عرض فيه الأصول العامة للمذهب اللا أدرى ، وبين الخلاف بينه وبين مبادىء الجمعية العلمية الجديدة التى تشكلت فى البلاد اليونانية للمبادى اللاأدرية . وكتب فى الفصل الثانى تحليلات فلسفية على المدركات الآتية : الحقيق والعلة والشهودة والحركة . والتوليد . وزعم انها غير قابلة للحل . فى الفصل الثالث سرد وجود التناقضات الموجودة فى مدركاتنا على الحركة وعلى الاحساس . فى الفصل الرابع جادل ضد أفكارنا على العالم والعقائد . فى الخامس درس العلة أى السبب من حيث هو وعرض الثمانية أشكال المعيبة . أما الثلاثة فصول الباقية فدرس نهاية الانسان ومصيره ، ولم يذكر عنه إلا أشياء سلبية محضة

كتب الفيلسوف « انيزيديم » غير هذه الكتب على مذهب « بيرون » كتباً مهمة أخرى منها « كتاب الفروض البيرونية » ، وكتاب ضد العلم ، وكتاب فى البحث .

بعد موت « انيزيديم » انتشر مذهب « بيرون » بسرعة فى الاقطار العالية من المملكة الرومانية ونشبت فى أذهان أعلياء القوم هنالك ، وقام بالدفاع عنها وحفظها عقول من الطبقة العليا توالت

بدون انقطاع مدة من الزمن مثل « زوكسيس دوتارس » و « انتيوكوس دولا أوديسيه » و « مينودوت » و « هيرودوت دوتارس » و « سكتوس » الذى كان فى عصر الامبراطور الرومانى الشهير « ستيم سيفير » . وسكتوس هذا هو الذى جمع فى المذهب اللاأدرى كتابا كبيرا حشر اليه ماوقف عليه من أقوال الفلاسفة البيرونيين . وليس لهذا الكتاب أثر الآن .

ومما يحسن الالتفات اليه أكثر أشياع « بيرون » الاخيرين هم من الاطباء ، وكان فى المذهب الذى اختاروه لأنفسهم فذلكة الفلسفة اليونانية القديمة القريبة منهم .

لما تأسست جامعة الاسكندرية التى تكلمنا عنها فى بعض فصولنا الماضية لم يستطع مؤسسو نظامها العلمى ان يجدوا محلا فيها لفلسفة « بيرون » فتركوها لنفسها فوجدت انصارا كثيرين من الخارج فى كل مكان وكل زمان حتى أنها دخلت الهياكل واتبعها بعض رجال الدين فى أوروبا . وقريب منا « مونتنى » و « بسكال » الفيلسوفين الفرنساويين كانا تابعين لهذه الفلسفة اللاأدرية وفى العالم لليوم كثيرون غيرهم

نظرة على ماتقدم

الى هنا انتهى بنا الكلام على موجز فلسفة الأقدمين ، فقد عمدنا الى أصولها الرئيسية فأتينا بها معزوة الى قائليها من قادة الحكماء اليونانيين . ونظن أننا بهذا البسط قد استعرضنا أمام نظر القارىء

درجة رقى الفكر الانسانى فى تلك القرون البعيدة وأشرفنا به على مبلغ حظهم من العلم بالحياة الانسانية فى جميع أشكالها وأطوارها وبالكون فى جملته وكليته ولكنا لن نكتفى بذلك فسنعقد فصلا مطولا نحشر اليه إن شاء الله خلاصة مجموع تلك الفلسفة القديمة على المسائل الفلسفية الكبرى فى فصول متعددة .

وذلك اننا سنشرح مبلغ مداركهم فى اللاهوت ، ثم فى الروح والخلود ، ثم فى الانسان وأخلاقه وأطواره والفضيلة وماهيتها وعلاقتها به ، ثم فى الكون بجملته ثم فى أفرع العلوم الكونية الخ لنستطيع أن نحاكمهم على مدركاتهم تلك فى كتاب خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم على كل نوع من أنواع تلك المدركات ، ثم نخرج إن شاء الله من هذا البحث الى اتباع حركة سير العلم فى خلال القرون التى توالت بعد اليونانيين حتى نصل الى الأمة العربية فندرس مقامها فى العلم الطبيعى فى جميع فروعه وفى الفلسفة ، ومواهبها بالنسبة لكل فرع من أفرع المعارف الانسانية والخ الخ مما يعز عليه سرده الآن والله المستعان .

ثم نخرج من هذا البحث الى إيراد تاريخ العلم والفلسفة عند الأوربيين فنورد إن شاء الله أشهر مذاهبهم الفلسفية وآرائهم فى كل فن من الفنون الانسانية ، رادين عليهم بحول الله كل ماتطرفوا به عن جادة العلم . وسلاحنا فى ذلك كله كلام الله العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد

مبلغ حظ الفلاسفة الأقدمين

من ادراك الحقائق الأولية

درسنا فى فصولنا المتقدمة تاريخ ماوصل اليه النوع الانسانى من مبلغ الادراك فى العصور البعيدة وهى فلسفة اليونانيين ، وقصدنا من ذلك كله تتبع حركة رقى العقل الانسانى وتدرجه فى ادراك الحقيقة جيلا بعد جيل حتى يومنا هذا ليرى قارئنا بالبرهان المحسوس إن شاء الله أن الاسلام هو الحقيقة المطلقة التى ليس وراءها مرمى ولا بعدها مطلب بل هى غايات الغايات ، ونهاية النهايات ، ولا نستطيع ذلك الا بالطريقة التى سلكناها هنا وهى استعراض معقولات النوع الانسانى كله أمام نظر مطالعنا جيلا بعد جيل ليكون على بينة من قوله تعالى « إن هذا القرآن يهدى لتى هى أقوم » وقدبدأنا بالعالم اليونانى لأن الفلسفة لم تكن مستقلة عن تعليم الدين الافيه ، ولقد سردنا أمام نظر القارىء كثيرا من رؤساء المذاهب الفلسفية المختلفة من اعتقاديين وملحدين ولاأدريين رجاء أن يكون لقارئنا فكرة عامة على مبلغ ما كان وصل إليه العقل الانسانى فى تلك القرون ولكنا نخشى أن يكون قد طال الكلام وصار تطاول الزمن على الموضوع وتشعب فصوله مانعين من وصول قارئنا الى النقطة التى ترمى إليها ، لذلك ، رأينا أن نعقد هنا فصلا كبيراً نحشر إليه نتائج مقالاتنا السابقة المبعثرة فى أطواء الصحف الكثيرة لتكون النقطة التى نود أن

يشرف قارئنا عليها مشخصة أمام نظره فى حيز محدود . هذا لا يعد تكراراً لما سبق إيراده وإنما هو استخلاص لجوهره ، وتصفية للبابه ، وإيضاح لماغمض فىأثناء العبارات ، واستتر فىطى التقريرات ، وسنزيد عليه إن شاء الله ما لا بد منه للوصول الى هـــذه الخلاصة الجوهرية ، وسنقسم الـكلام فى هذه الخلاصة الى أقسام عدةسنبدأها بمبلغ مدارك الأقدمين على مسألة اللاهوت ثم نتدرج منها الى مبلغ علمهم بمسألة النفس والخلود ، ثم بمسألة الكون المحسوس ومافيه ، ثم بمسألة ماوراء الطبيعة ، ثم بالاخلاق ، ثم بالسياسة ، ثم بالشرائع الخ الخ وهو بحث كما يراه القارىء كما يحتاج من المؤلف لـكلام جديد وتحليل جديد ، يستدعى من القارىء التفاتاً ونظراً .

﴿ مبلغ مدارك فلاسـفة اليونانيين ﴾
« بالمسـألة اللاهوتية »

الفلاسفة اليونانيون الذين أتينا على فذلكات من فلسفاتهم فى فصولنا المتقدمة يشخصون مبلغ ما وصل اليه الأقدمون من المدارك الفلسفية على الأصول الأولية ، والحقائق العلمية . ولقد كانوا ينقسمون الى ثلاثة أقسام : قسم يعتقدون بوجود الصانع جل وعز ، وقسم ينكرونه ويكفرون به ، وقسم شاكون لا يقررون نفيا ولا اثباتا.

القسم الأول أكثرهم عدداً ، وأقواهم جنداً لميل فطرة العالم الانسانى الى العقيدة ، واحتياجها اليها كل الاحتياج .

أما الكافرون والشاكون فقد كان كفرهم سبباً لسقوط مبادئهم ، وموجباً لانفراط القلوب عنهم . وأى جناية يجنيها الرجل على العالم الانسانى أشد من حرمانه من نور الايمان الذى هو مصباحه المنير فى ظلمات هذه الحياة ، القصيرة الأمد ، وكيف لايظهر الانسان أشد الكراهة والمقت لمن يسعى فى اطفاء ذلك المصباح الطبيعى المتلالىء فى ضمير هذا القلب الواجف ؟

لايوجد برهان ولا شبه برهان على نفى العقيدة بالصانع جل وعز وقد تتبعنا آثار أقوى العقول الملحدة ، وأشد الأفكار جماحا وعناداً فى هذه المسألة . وأتينا على نزغاتهم واحدة بعد أخرى (١) فلم نجد من بينها شيئاً يستحق العناية به ، فما هى الا ظنون وهواجس تلم ببعض النفوس المظلمة لأسباب خلقية طبيعية ، أوعارضة اكتسابية، فتخرج صاحبها عن الطور المعتاد الى أطوار أخرى ظلمات بعضها فوق بعض نعوذ بالله منها ، لذلك لانرى موجبا لايراد أقاويل كفار الفلاسفة الأقدمين فى نفى عقيدة الصانع ، لاسيما وانهم لوجودهم فى عصر كان للدين فيه سلطة تامة ما كانوا يستطيعون أن يتكلموا بتمام الصراحة فى بسط عقائدهم الالحادية ؛ ولقد كان الملحد منهم يكتم ما به من الشكوك والهواجس ويتظاهر بالدين واحترام المعتقدات ، كما كان شأن أبيقور على ما يقال ، فلقد كان كما قررنا يتكلم عن آلهة اليونانيين بتبجيل واحترام وهو فى الحقيقة على ما يدعيه أتباع ذينون

---

(١) انظر مؤلفنا الحديقة الفكرية فى اثبات الله بالبراهين الطبيعية

ملحد لا يعتقد بوجود الصانع .

سنأتى هنا ان شاء الله . من بين أقوال سائر الفلاسفة اليونانيين على ثلاثة أقوال فى هـــذا الموضوع السامى وهى أقوال سقراط وأفلاطون وأرسطو ، وهى تدل المطالع بأجلى بيان على مقدار ما بلغ اليه العقل الانسانى فى عصر الفلسفة اليونانية من الرقى فى ذات العقيدة والبرهان عليها.

﴿ مدارك سقراط فى المسألة اللاهوتية ﴾

سقراط كما يعلم قارئنا من فلاسفة القرن الخامس قبل الميلاد ،وهو عصر كانت الشكوك قد كثرت فيه بواسطة السوفسطائية الذين استعملوا أسلحة الجدل فى التضليل والتغرير حتى زلزلوا عقائد بعض الناس ، فكان سقراط أقوى ناصر للعقائد فى زمنه ، أصلاهم حربا عوانا ذاقوا لواعجها سنين كثيرة ، ثم توصلوا الى الوقيعة به فرموه بالالحاد وقتلوه بالسم فى السجن وهو وسط بعض تلامذته وأصدقائه يقرر لهم خلود الروح وذهابها من هذا العالم الى عالم آخر بعد الموت ، وقد احتمل مضض السجن وآلام التسمم بصبر وجلد ضربا بهما المثل ، وعرف بهما كنه نفسه العالية ، وهمته الكبيرة

سقراط لم يؤلف كتابا قط وانما كانت كتبه تلامذته وخيرهم (أفلاطون) فقد نقل عنه مذهبه كله وزاد عليه ، ونحن هنا نورد أقواله عن (أكسونوفوت) الفيلسوف اليونانى المعاصر له قال :

« سأقص عليكم الحادثة التى حصلت ذات يوم بين (سقراط) وبين

« أريستوديم الملقب بالصغير بشأن مسألة اللاهوت . فقدكان سقراط
« علم عن (أريستوديم) هذا أنه لا يقرب للآلهـة القرابين (١)
« ولا يتقرب اليهم بالصـلاة والدعاء وأنه لا يستقسم (يستقسم
« أى يعـرف ما قسم له فى المستقبل) بل وأنه كان يهزأ بمن يمارس
« تلك الأمور »

قال سـقراط : « قل لى يا أريستـوديم ! أترى أنه يوجـد رجال يستحقون منك الاعجاب فى مهارتهم وحسن أعمالهم »

قال أريستوديم : « بلى »

قال سقراط : « ألا تخبرنا عن أسمائهم . »

قال أريستوديم : « انى فى نوع الشعر التاريخى أعجب (بهومير)
« وفى الحماسة يطربنى (ميلاتييد)، وفى المراثى يشجونى (سفوكل) ،
« ويروقنى فى التماثيل (پوليكليت) ويعجبنى (زوكسيس) فى فن ،
« التصوير . »

قال سقراط : « قل لى ايهما أحقهم من اعجابك بالقسط الاكبر ،
« آلذين يعملون صوراً لاشعور بها ولا حراك ، ام الذين يخلقون
« الكائنات الحية المتمتعة بالادراك ؟ »

قال اريستوديم : « وحق الاله ان الاحق بالقسط الاكبر من
« الاعجـاب هم الذين يخلقون الكائنات المتمتعة بالحياة ، اذا لم تكن

(١) كان اليونانيون معددين للآلهة مثل كل الشعوب القديمة التى لم تقف عند حـدود الوحى الالهى وسيجىء فى أقوال سقراط لفظ آلهة كثيرا ، ولعله كان يجارى العامة فى تلك اللهجة أما هو فلا تظنه الا موحدا

« تلك الكائنات نتيجة الصدفة بل كانت نتيجة حكمة وارادة »

قال سقراط : « أرأيت لو عرضت عليك مصنوعات مختلفة منها
« ماهو خفى المنفعة ومنها ماله منفعة ظاهرة وحكمة فى الوجود باهرة ،
« فأيهما أولى بأن تظنه من نتائج الصدفة والاتفاق أومن نتائج العقل
« والحكمة ؟ »

قال اريستوديم : « تقضى علينا بداهة العقل أن نقول ان الذى
« له حكمة فى الوجود ظاهرة ، ومنفعة فى نظام العالم بينة ، هو من فعل
« العقل والحكمة »

قال سقراط : « ألاترى معنا ان الذى خلق الانسان وسواه قد
« أعطاه كل عضو من أعضائه لمنفعة خاصة ، وفائدة بينه ، ومتعه من
« الأجزاء والأجهزة بما يحس ويشعر بواسطته . فمتعه بعينين ليرى
« بهما المحسوسات : وبأذنين ليسمع بهما الأصوات . وبماذا كانت
« تفيدنا زكيات الروائح لو لم تكن لنا أنوف تدركها وتحس بها ؟
« أترى انا كنا نتمتع بادراك الحلو والمر من الطعام وبالالتذاذ بمحبوبات
« الفم لو لم يكن لنا ذلك اللسان الذى وضع لتمييزها والحس بها ؟ ألا
« ترى أن من دلائل التدبير والحكمة أن تمتع العين وهى ضعيفة
« بجفون تنفتح وتنغلق عند الحاجة ، وتنطبق عند النوم طول الليل
« وان توهب تلك العين غربالا من أهداب لتقيها فعل الرياح الثائرة
« وأن تمنح لها تلك الحواجب كميزاب يمنع عنها غوائل العرق
« المتساقط من الرأس ، وأن تصنع الأذن على صورة لاتكل من سماع

« الأصوات ولا تعيا من الحس بها ، وان تعطى جميع الحيوانات أسنانا
« امامية لقطع الأغـذية وأضراساً جانبية لسحقها ، وأن يكون الفم
« الذى تدخل الحيوانات منه الأغذية الصالحة لها الى أجوافها موضوعاً
« قريباً من العينين والمناخير ، وأن المحـل الذى يحصل منـه الافراز
« للمواد المستقذرة بعيد عن مرمى النظر ومعكوس الوضع وعلى أبعد
« مايمكن من الأعضاء الرئيسة . أترى نفسك بازاء كل هذه الأعمال
« الـتى تدل على تدبير وحكمة لاتزال متردداً بين عزوها الى الصدفة
« والاتفاق وبين اسنادها للحكمة والعلم ؟ »

قال (اريستوديم) : « لا والاله ، فان أقل نظر فى هذه الكائنات
« الحية يدلنا على أن هنالك ذات عالم رحيم خلقها وعدلهـا .

قال سقراط : « زد على هذا الميل المودع فى الطبائع للتكاثر ، والرحمة
« المودعة فى قلوب الأمهات لتغذية صغارها واعالتهم ، وماغرس فى
« نفوس تلك الصغار من عواطف حب الحياة والهرب من الموت؟ »

قال اريستوديم : « لاشك أن كل هذا يدل على أنه اختراع موجود
« حكيم أعد الأرض وهيأها لسكنى الحيوانات »

قال سقراط : « أتظن بعد هذا انك وحدك للكائن المتمتع بحكمة
وعـلم وانه لايوجـد غيرك فى هذا الوجود كله عاقل ولا حكيم ، وأنت
« تعلم ان جسمك هذا هو قطعة لاقدر لهـا من حجم هـذه الأرض
« ونطفة من مياه هـذا المحيط الزاخر ، وان الذى أقام أودك وكون
« شكلك هذا هو جزء لايؤبه به من هذه المواد العظيمة الحجم ، الـكبيرة

« المدد ؟ اتظن انك وحدك قد استلبت من هـــذا الوجود حكمة
« وادراكا، ليسا فيه ، وان كل هذه الكائنات التى لانهاية لها بالنسبة
« لك فى العدد والعظم قامت كلها فى هـذا النظام البديع بقوة ليست
« متمتعة بحكمة وعلم . »

قال اريستوديم : « أنا أنكرها والاله لأنى لم أرصناعها كما أرى
« الصناع للأعمال الأرضية . »

قال سقراط : « انك لاترى روحك التى هى سلطانة جسمك
« ومديرته وعلى هذا فيمكنك أن تقول قياساً على قولك السابق بأن
« أفعالك كلها تصدر عنك عن غير حكمة ولاتدبير ، ولكن عن الصدفة
« والاتفاق.

يرى القارىء من هـــذه المحاورة بين أريستوديم وسقراط أن الفيلسوف قد أحال خصمه بقوة حجته للاقرار معه بوجود الصانع الحكيم ، ولكن بقيت لديه شبه أخرى فلم يرد سقراط أن يدعها تجول فى فؤاده فاستأنف معه المحادثة مثبتاً له عناية الخالق بمخلوقاته: فقال :

« كيف تزعم أن الآلهة لا تعتنى بمخلوقاتها مع أنك « تعلم أنها
« قد وهبت الانسان من بين سائر الحيوانات خاصية الوقوف على
« قدميه ، وهى تلك الخاصية التى تسمح له بلقاء نظره الى أبعد ما يصل
« اليه ، والتأمل فى المرئيات التى فوقه ، وهى مع منحها للحيوانات.
« اللاصقة بالأرض تلك الأرجل التى لا تسمح لها الا بالتحرك وتغيير
« أوضاعها فقط ، أعطت الانسان دونها أيديا بواسطتها تحدث أكثر

« الأعمال التي تجعلنا أسعد حالا من الحيوانات . انك ترى أن لجميع
« الحيوانات ألسنة ولكن لسان الانسان من بينها كلها متمتع بخاصية
« اظهار الأصوات المختلفة بانتقاله فى مواضع مختلفة من الفم وبهذه
« الواسطة نستطيع أن نعبر لغيرنا عما يضطرب فى ضمائرنا من الأغراض
« والأحاديث »

الى أن قال :

« لم يحدد الخالق عنايته بأمر الجثمان الانسانى فقط بل « أنه أبدع
« الروح الانسانية ! وهى المقصودة بالذات ، على أكمل الصفات ،
« والا فأرنى أى حيوان من الحيوانات يستطيع أن يدرك وجود
« تلك الألهة التى فطرت هذه الأجسام العلوية العالية على هذا المثال
« البديع والشكل الآسر ؟ قل لى أى حيوان آخر ماعدا الانسان
« سما به عقله الى عبادة الآلهة والاخبات لها ؟ اخبرنى أى روح
« تضارع الروح الانسانية فى اتقاء غوائل الجوع والعطش والبرد
« والحر ، ومداواة نوازل الأمراض والأعراض وملافاة فقد القوى
« بأنواع الرياضات الجسمية ، والكد والكدح لنوال العلم ، وتذكر
« مارأته وماسمعته وما علمته ، أليس من الجلى الواضح بعد هذا البيان
« أن أفراد الانسان مثلهم بين أنواع الحيوانات كمثل الآلهة لعلوهم
« عنها جسما وروحا ، أترى أنه لو وهب الانسان جسم ثور وعقل
« رجل يستطيع أن يحدث من الأعمال ماتحدثه به نفسه ، ومن جهة
« أخرى فأى فائدة تعود على حيوانات متمتعة بأيد كأيدينا ولكن لم

« توهب بازائها عقلا مناسبا لها ، وأنت أيها الكائن الذى وهب
« المنحتين وتمتع بالنعمتين الغاليتين تريد أن تظن أن الآلهة لا تعتنى
« بك ولا تهتم بشأنك . وأى شىء تركته تلك الآلهة من الدلائل
« اللازمة لاقناعك بذلك ؟ »

فأجابه عند ذاك اريستوديم بجواب حمل سقراط على محاولته من طريق آخر وألجأه الى محاربته بشهادة النوع الانسانى فى خلال القرون. قال اريستوديم :

« لترسل لى الآلهة خبرا بما يجب على عمله أو تركه كما تدعى
« أنها أرسلت لك أنت . »

فأجابه سقراط قائلا :

« لما خاطبت الآلهة الآتنيين بواسطة الاستقسام (١) أتظن أنها لم
« تخاطبك فى زمرتهم ؟ أترى أنها لما أظهرت لليونانيين ولجميع العالم
« مكنونات ارادتها بواسطة المعجزات والآيات ، كنت أنت وحدك
« الرجل الذى تركته نسيا منسيا ؛ أتظن أن الآلهة وضعت فى أعماق
« الفطرة الانسانية عقيدة الاقتدار على احداث الخير أو الشر ولم

(١) الاستقسام هو أن يطلب الانسان معرفة ماقسم له فى عالم الغيب بواسطة الالهة وقد ولع بذلك الاقدمون واختلفوا فى كيفياته على حسب عقائدهم وآلهتهم . أما العرب فكانوا يجيئون بثلاث قداح يكتبون على أحدها أمرنى ربى وعلى الآخر نهانى ربى و يتركون الثالث غفلا بدون كتابة ثم يرمونها فان ظهر القدح المكتوب عليه نهانى ربى اقلع عن العمل وان ظهر الذى هو مكتوب عليه أمرنى ربى مضى فيه وان ظهر الخالى من الكتابة أعادوا الالقاء حتى يظهر لهم شىء . هذا كان حال العرب أما اليونانيون فكان الاستقسام عندهم على غير هذه الصفة

« تهبها قوة تمكنها من احداثهما ، وان النوع الانسانى قد انخدع بذلك
« كل هذه القرون ولم يشعر بانخداعه لليوم؟ ألا ترى أن أقدم التأسيسات
« الانسانية وأحكمها ، والممالك القائمة والأمم العظيمة هى أكثرها
« تمسكا بالدين واعتقاداً بالآلهة ، وان أكثر العصور نورا ولألاء
« هو أكثرها وأشدها تعلقا بالتقوى والطاعة . إعلم ياصاح أن
« روحك كما لها السلطة التامة على جسمك تديره وتدبره كما شاءت
« كذلك الحكمة المحيطة بهذا الكون لها التصرف والارادة النافذين
« فيه كله .ماهذا ! أيصح أن يكون مرمى نظرك يصل لجملة مراحل
« ونظر الاله لا يلم بكل المخلوقات جملة واحدة ؟ وهل يتصور أن
« روحك تستطيع أن تشتغل فى آن واحد بما يحصل هنا وفى مصر
« وصقلية ، وان العلم الالهى لايحيط بكل شىء فى لحظة واحدة ؟ نعم
« انك متى أردت أن تصنع معروفا مع الناس لو عرفت من منهم
« يريد أن يكافئك عليه ، ومتى أديت اليهم خدمة من الخدم لو علمت
« من منهم يود أن يقابلك بجزائها ومتى استشرت الناس لو ميزت من
« بينهم أهل البصيرة والتسديد ، وكذلك متى قدمت واجبات العبودية
« للآلهة لو بحثت أن تدرك الى أى درجة تريد تلك الآلهة كشف
« مكنونات العلم لك عند ذاك ، تدرك ماهية صفات الاله العالية
« وعظمته الحقيقية ، ذلك الاله السميع البصير المحيط بكل شىء المهيمن
« على كل شىء »

من هذه المحاورة يتضح لقارئنا مبلغ قوة الفيلسوف (سقراط)

فى اثبات الصانع ومنها يرى أنه لم يستند الا على (البرهان الطبيعى) و (البرهان التاريخى) وهما نوعان من البراهين المستعملة فى اثبات الصانع . أما البرهان الطبيعى فموضوعه بسط حوادث الكون وصنائعه الباهرة امام نظر الخصم ومحاجته بها والاستدلال منها على لزوم وجود واضع لها ، ومهيمن عليها ، وأما البرهان التاريخى فموضوعه الاعتماد على شهادة النوع الانسانى وميله الفطرى الى الاعتقاد منذ خلق للآن ، واستبعاد اجتماع كل فطر النوع الانسانى على غير الحقيقة . كيف لا واجتماعهم على هذه العقيدة مع تخالفهم فى الألسن والصور والألوان والاستعدادات والأزمان ودرجات المعلومات ، يدل تمام الدلالة على أن تلك العقيدة حاجة طبيعية من حاجات الروح الانسانية ، وميل غريزى فطرى منقوش فى أعماق الفؤاد الانسانى مثله فيه كمثل سائر الغرائز والعواطف البشرية .

هذان هما البرهانان التى استند عليهما (سقراط) فى محاورته لاريستوديم وهناك أنواع من براهين أخرى فى إثبات الصانع استعملها فلاسفة اليونانيين سيأتى كثير منها فى أثناء هذا الموضوع ان شاء الله

(مدارك أفلاطون فى المسألة اللاهوتية)

افلاطون تلميذ سقراط الأول وكتابه الناطق الذى نقل عنه جميع مبادئه ونظرياته وهو أحد أراكين الفلسفة فى العالم القديم . وقد سلك مذهباً فى تقرير فلسفته أعلا من المذهب الذى علمه أستاذه .

فان صح ما يقال من أن لسقراط مذهبين مذهبا بينه وبين العامة لا يعلوا به عن مداركهم فى كبير شىء ليجعل لفلسفته خصيصة تنطبق بها على الناس أجمعين ، ومذهبا خاصا بينه وبين خاصته من أصحاب العقول القوية والأفكار البعيدة المرامى . ان صحت هذه الرواية كان فضل (افلاطون) فى مذهبه مشتركة بينه وبين أستاذه وان لم تصح ، وهو الأرجح ، كان لأفلاطون الفضل وحده فى مبلغ الرقى الفلسفى المشاهد فى مذهبه .

رأينا من برهان سقراط أنه سلك بالذهن مسلك المحسوسات والملموسات فلم يشق كلامه على أبسط المدارك واخلاها من العلم وهذا لا ينافى كونها قوية سايمة من العيوب ولكن تلميذه افلاطون لم يقف عند هذا الحد ، بل اكتشف نظرية (الأفكار) كما قررناه فى ترجمته فى بعض الفصول الماضية ، وعالل بهذه النحو وجود المحسوسات بتلك المعقولات ، وجعل محض الادراك الانسانى المجرد تابعاً لعالم قائم بذاته غير متلبس بالمادة . هذه النظرية التجريدية هى أساس فلسفة افلاطون وركنها الركين ، وآثارها فيها لا يحتاج لكثير تأمل فى جميع مبادئه وأقواله . حتى أن براهينه فى اثبات الصانع مصبوغة بتلك الصبغة أيضاً كما سيتضح ان شاء الله للقارىء .

قد تدرج افلاطون فى اثبات الصانع بتحليل درجات العلم . ولأجل ذلك قسم العلم الى قسمين عامين : علم بالمحسوس وعلم بالمعقول . أما العلم بالمعقول فينقسم الى نوعين : الفكر التعقلى (الذى لا يحدث

الا بالتعقل والنظر) والادراك ذاته . فالقسم الادنى أى الفكر التعقلى يذهب فى الادراك مذهب الاستدلال والاستقراء ، ويعرف بتلك الطريقة حقائق ثابتة ، وأحكاماً ضرورية عامة ، ولكنه لا يصل بها الى حقيقتها الأولى ولا يصعد بها الى الله تعالى .

أما القسم الأعلى وهو الادراك ذاته فيسلك مسلك الجدل ويصعد بكل حقيقة الى أصلها الاولى ومصدرها الجوهرى . ومن هذا القسم العلم الذى ينير على الانسان حوالك الامور ويضيء عليه مشكلات المسائل . ولكن هل هذا القسم الأعلى من الجوهر الانسانى هو نهاية كل ما يمكن بلوغه من درجات الادراك البشرى . أم هنالك درجات أخرى يمكن الوصول اليها ؟ ألا يوجد مرمى وراء هذا العلم الذى ينير على الانسان دياجير أموره ، ويكشف له مكنونات المعارف ؟

يقول افلاطون ، بلى ! يوجد وراء ذلك كله الذات نفسها والحقيقة عينها وهما اللذان يعطيان الحقية للأشياء والقوة للعقول . فاذا كان العلم والحقيقة على ما يعهد الناس من جمال وكمال فمصدرهما أجمل وأكمل . وكما يغلط من يظن أن الشمس هى النور والنظر ، كذلك يخطيء من يظن أن العلم والحقيقة هما الخير المطلق بذاته . ولكنهما صور وظلال للخير المطلق . فنهاية الكمال العقلى وأرقى مرمى لعلم الجدل هو أن يصلا بالانسان الى رؤية ظلال العالم الالهى فيريانه بانها صور تقابلها شمس مضيئة

وقد مثل افلاطون العقول التى تعلو عن مداحض الحس الى

التمتع بمجالى عوالم المعانى المجردة بمثال عجيب وضعه فى مقدمة الفصل السابع من كتابه فى (الجمهورية) قال : ان الذى لم يعل به فكره عن عالم الحس بل ارتطم فيه وتورط فى أوحاله ، كمثل رجال بؤساء نشؤوا فى غار مظلم وربطوا فيه بحيث لا يستطيعون فكاكا ووضعت نار من خلفهم فهى تضىء عليهم ضوءا ضئيلا تنعكس بسببه ظلالهم على الجدار المقابل لهم ، فيحسبون أن تلك الظلال كائنات حية متمتعة بعقل وارادة وحركة وكلام ويظلون على ذلك الزعم ماداموا فى الغار ، ولكن أى دهشة تلم بهم وأى حيرة تأخذ بمتنفسهم متى أخرجوا من قاع ذلك الغار المعتم وعرضوا على أنوار الشمس الساطعة ورأوا الحياة بأعلى مظاهرها تحت هذا الجو الباهر ؟ فأى فرح يحل بفؤادهم ويطفح من أفئدتهم متى قارنوا بين الحالة التى كانوا عليها وبين ماصاروا اليه من طيب الحياة ورؤية حقائق الأشياء ؟ قال افلاطون هذا مثل حالة الانسان فى هذا العالم الحسى . فان ذلك الغار المظلم هو العالم الحسى . وتلك النار الضئيلة التى كانت تضىء عليهم هى هذه الشمس ، وان الذى يصعد منهم على سطح الأرض ويتأملها هى الروح الانسانية التى تعلو عن عالم الحس وتتصل بعالم المعانى والمعقولات ، ومتى انتهى الانسان الى قمة ذلك العالم ادرك معنى الخير وهى قمة لا يصل اليها الانسان الا بشق النفس واجهاد القوى ، ولكنه لا يستطيع أن يدرك ذلك المعنى السامى الا اذا أدرك قبل ذلك أنه الأصل الاولى لكل جمال وخير فى الوجود . وأنه هو الذى فى هذا العالم الأرضى يعطينا النور المنبعث

من كوكب الشمس وأنه هو الذى فى العالم المعنوى يمنحنا الحقيقة والادراك

مجرد النظر فى هذه المبادىء الافلاطونية يكفى المطالع فى فهم مرامى هذا الفيلسوف بالنسبة لهذه المسألة الهامة ، المسألة اللاهوتية .

أما براهينه فى اثبات الصانع فقد كتب فى بعض كتبه مامعناه :

« من الواضح الضرورى أن كل مايتولد يجب أن يكون له سبب
« يولده . ومن المعلوم أن الدنيا قدتولدت ونشأت بعد أن لم تكن لأنها
« مرئية ملموسة وجسمية : وكل هذه الأوصاف محسوسة فيها ، إذن
« فكل محسوس يظهر أنه متولد وناتج . . . وبما أن الكون أجمل
« الموجودات وأكملها فلا مناص من التسليم بأن موجدها أكمل
« الأسباب ، وهذا الكون لابد من أن يكون مصنوعا على نموذج
« بديع على مقتضى الحكمة والعلم »

هذا النموذج الذى يقول عنه افلاطون هى المعقولات الأصلية التى يسميها افكارا و يعزوها العالم مستقل قائم بذاته متميز عن هذا العالم .

ولئن سئل افلاطون عن حكمة إيجاد الخالق جل وعز للمخلوقات لأجابك كما كتبه فى بعض كتبه : « لاظهار كماله الالهى ، ومن كان
« كاملا كان منزهاً عن الأغراض والشهوات ، وهو مع تنزهه عن
« النقائص كلها يود أن كل شىء يشبهه فى كماله على قدر الامكان . »

هذا هو (البرهان السببى) فى إثبات الصانع توصل به أفلاطون لتقرير تلك الحقيقة الكلية كما ترى فأداه إلى وجود اله واحد حكيم عليم قادر منزه عن الأغراض والشهوات · مكون الكائنات ومدبرها

أما فى كتابه فى (القوانين) فقد جاء أفلاطون ببرهان جديد فى إثبات الصانع وهو ضرورة وجود محرك أول للوجود متحرك بذاته · وقبل أن يقرر أفلاطون برهانه هذا أصلى الملاحدة حربا عوانا بكلمات خلدت له الذكر ولهم الخزى . قال : أى كدر وغيظ يلم بالنفس متى رأى الانسان أنه قد الجئ لاثبات وجود الآلهة (١) ؟ لا يستطيع الانسان أن يمنع نفسه عن مقت وازدراء هؤلاء الناس الذين هم الباعث اليوم لنا على الجدل فى هذا الموضوع. الى أن قال » ولكن يجب علينا أن نكلمهم ونحن بغاية الهدو والسكينة لكى لا يقال بأنه كما أسكرتهم حميا الشهوات ، قد ضللنا نحن مثلهم سورة الغضب . فلنوجه اذن لمن فسدت عقولهم بمثل هذه الأصول الملحدة معارفنا هادئة ثابتة ، ولنأخذ أحد أولئك الاباحيين على جانب ، ولنقل له بهدو بعد أن نتغلب على سورة الغضب فى نفوسنا : يابنى انك شاب ، وكلما كبرت وطعنت فى السن تغير فكرك على كثير من الأشياء ، وستذهب بفكرك ضدما تذهب اليه الآن. فانتظر نماء عقلك وكمال سنك حتى تستطيع أن تحكم على عقيدة هى أمس شىء بحياتك ، وان ماتعده الآن عديم الجدوى لدى البحث والنظر ، هو أفيد ما تنصرف اليه همتك وتتعلق به عزيمتك ، تلك المسألة الهامة هى أن يكون للانسان عقيدة نقية من البدع فى ذات الله خالية من الخرافات فان

---

(١) رآى القارئ من البرهان الذى قدمه لنا أفلاطون أنه مقر بوحدانية الخالق جل وعز ولا يدهش القارئ من ذكره كلمة آلهة فانما اعتاد فلاسفة اليونان على مجاراة العامة فى بعض الأحيان

عليها مدار السيرة الانسانية وبها يتعلق أمر الصلاح والهدى كما ينبنى على ضدها الفساد والردى. وانى لا أخشى التكذيب لو قلت لك فى هذا الموضوع أمراً جديرا بالنظر وهو أنك لست أنت وحدك ولا أصدقاؤك معك أول من ألحد فى الآلهة ، فان فى كل زمان ومكان يوجد أقوام قليلون أو كثيرون يصابون بهذه العلة . ولا أدرى بأى يمين أقسم لك بأنى قد شاهدت كثيرين أصيبوا بهذه العلة فى شبو بيتهم وظنوا أن لا آلهة فى الوجود ، فلم تثبت معهم تلك العلة فى سن الشيخوخة »

اليك محاورة من محاورات افلاطون تريك كنه المناهج التى نهجها فى اثبات الصانع والى أى مدى بلغ به تصوره من ميدان هذه المسألة الهامة . فى هذه المحاورة الملقب بالآتينى هو أفلاطون .

(الآتينى) الحركة نوعان : احداهما ، مواد فى امكانها اعطاء حركتها لسواها ولكنها هى نفسها لاقبل لها بتحريك نفسها ، والأخرى مواد متحركة على الدوام بنفسها وفى استطاعتها اعطاء حركتها لمواد أخرى بالتركيب أو النقسيم ، وبالزيادة أو التقليل ، وبالتوليد أو الافساد ، فأى هاتين الحركتين يجب علينا وضعها فوق اختها فى الدرجة ، وأيهما أقوى وأنشط من الأخرى بما لا يقدر ؟

(كليناس) لاشك أن النوع الذى حركته حركة ذاتية وغير مستعارة هو النوع الذى يفوق غيره بما لا حد له

(الآتينى) لنسأل سؤالا آخر ولنسع فى الاجابة عنه ، إذا سلمنا جدلا

بما يجسر خصومنا على قوله من أن كل الأشياء الكونية أتى عليها حين من الدهر كانت فى غاية السكون ، فمن أين نشأت فيها الحركة الاولى ؟

(كلينياس) يجب أن تكون الحركة ابتدأت من المواد التى تتحرك بذاتها ، لأنه من الواضح الجلى أن لاداعى للمواد الأخرى يجبرها على أن تغير من أوضاعها قبل تلك اللحظة ، فانه قبل تحرك تلك المواد المتحركة بذاتها لايطرأ أى تغيير فى سائر المواد الأخرى .

(الآتينى) لنفرض ان أصل كل الحركات وكل التغييرات سرى فى كل ماهو ساكن وصار المحرك الراهن لما هو متحرك الآن ، وهذا الأصل متمتع كما قلنا بالحركة الذاتية فمتى رأينا مادة من المواد متحركة فكيف نستطيع أن نقول ان تلك الحركة مستقارة

(كلينياس) أتريد أن تسألنى عما اذا كانت تلك المادة حية متى تحركت بذاتها؟

(الآتينى) نعم ، هل هى حية ؟

(كلينياس) بلا شك

(الآتينى) ولكن متى رأينا مواد حية ، أليس من الضرورى الاعتراف بأن أصل حياتها هى الروح ؟

(كلينياس) لايمكن أن يقال غير هذا

(الآتينى) فما هو تحديد الروح اذن ؟ هل هى شىء غير ماسبق لنا قوله وهو انها جوهر فيه خاصية التحرك من ذاته . اذا تقرر هذا أفلا تكون النتيجة الواضحة بأن الروح هى مبدأ كل توليد وحركة ، وكل

افساد وسكون فى كل الكائنات الماضية والحالية والمستقبلة ؟ومن هنا أفلا يحق لنا أن نقول ان الروح قد وجدت قبل الجسم ؟ . . اولا يجب على خصومنا التسليم أيضاً بأن الروح الساكنة فى كل ما هو متحرك لتدبير حركاته هى أيضاً المحركة والمدبرة للسماء ؟

(كلينياس) نعم

(الآتينى) فالروح اذن فى الحالة والمدبرة لكل ما هو فى السماء وعلى الارض وفى البحر ، كل بالحركات الملائمة له ، وهو مانسميه نحن ارادة ، وامتحان ، وعناية ، وشورى ، وحكم صادق أو كاذب ، وفرح وحزن ، وائتمان ، وخوف ، وكراهة ، وحب ، كما أن الروح تحكم وتدبر بحركات أخرى مشابهة هى الأسباب الاصلية فتولد فى الكائنات بواسطة أسباب ثانوية النمو أو الضمور ، والتركيب أو الانقسام ، والصفات التى تنتج منها : كالحر والبرد والثقل والخفة والجمود والرخاوة والأبيض والأسود والحامض والحلو والمر . ولكن مع هذا يمكن ان يفرض وجود نوعين من الروح : الاولى روح تعتضد بالعقل والحكمة فى ادارة شؤون الحركات وتدبيرها فتحكم بذلك كل شىء على مقتضى العدالة والحكمة وتهيئه لسعادته الحقة . والثانية روح لا تأتمر الا بما يصدرها لها عدم التبصر والجنون من الاحكام الجائرة . فأى روح من هاتين يظهر لنا انها الحاكمة على السماء والارض وجميع هذا الكون ؟ هل الحاكمة فيه هى الروح المتصفة بالحكمة والكمال أو المجردة منهما ؟ لأجل الاجابة على هذا السؤال يجب علينا أولا معرفة

ماأذا كانت كل هذه الحركات الكونية والتغيرات العلوية فى الاجرام السماوية ، منطبقة على حركات العقل وتغيراته وتعقلاته ، فان كانت الروحان متشابهتين فى سيرهما ،كل فى عالمها ، وجب علينا ان نستنتج من ذلك ان الروح التى تحكم هذا الكون هى الروح الكاملة وانها سائرة به فى طريق الكمال .

(كلينياس)هو ذاك

(الآتينى) وبالعكس تكون هى الروح المضادة لها لو كان كل ما على الارض يدل على الخلل والفساد .

(كلينياس)هذاحق

(الآتينى) فما هى اذن طبيعة حركة العقل ؟ . . . من بين كل الحركات المعروفه ، الحركة التى يكون لها محل وحاصلة حول مركز هى الحركة المشابهة كل الشبه لحركة العقل ، لأنها حاصلة على مقتضى قاعدة ثابتة متماثلة ، حافظة دائما علاقات ثابتة بينها وبين مركزها وبين الأجزاء المحيطة بها على مقتضى نسبة وترتيب لا يتغيران .

(كلينياس) انك قلت الصواب

(الآتينى) وبالعكس ، الحركة التى لا تكون منتظمة ولا هى على مقتضى قواعد ثابتة وليس لها مركز ثابت ولا علاقة معلومة بينها وبين الاجزاء المحيطة بها ، وبالاختصار الحركة التى لاقاعدة لها ولا ترتيب ولا نظام تشبه تمام الشبه للحركة المنبعثة من عدم التبصر والجنون

(كلينياس) لا شىء أصدق مما تقول

(الآتيني) الآن لا يصعب علينا أن نجيب على تلك المسألة بغاية الضبط والاحكام ، بقولنا انه لما كانت الروح السائدة على الكون قد طبعته بحركة مستديرة ، وجب بالضرورة أن تكون التغيرات الحاصلة فى الاجرام العلوية ناشئة من قبل الروح الكاملة لامحالة .

(كلينياس) ان ماقدمته كله لايسمح لقائل أن يقول بغير تلك النتيجة ، وهو أن هنالك روحاً أو أرواحاً متصفة بكل صفات الكمال تدير حركات الأجسام العلوية .

(الآتيني) انك قد أدركت صميم ما أريد أن أقوله يا عزيزى كلينياس ، فأرجوك أن تعيرنى التفاتك لما يأتى

(كلينياس) وما هو ؟

(الآتيني) اذا كانت الروح كما قلنا هى المحركة لاجرام السماء ، أفلا تكون هى أصل حركات الشمس والقمر وكل كوكب على حدته

(كلينياس) لاشك فى ذلك

(الآتيني) لنبحث فى كنه الحركة الحاصلة فى أحد هذه الأجرام بحيث ينطبق حكمنا عليه على سائر الاجرام الأخرى

(كلينياس) أيهما تختار

(الآتيني) اختار الشمس فاسمع . كل انسان يشاهد جسم هذا الكوكب ولكن لايرى أحد روحه التى تديره وتدبره ، كما لا يرى روح أى حيوان حى أو ميت . ولكن لنا أن نقول ان هذا الجوهر الروحانى هو من طبيعة لاتدركها مشاعرنا الجسمية ولا تترآى الا

لعين العقل وحده ، فلنجتهد فى ادراكه بالعقل والفكر .

(كليناس) كيف ذلك

(الآتينى) اذا كانت هــــذه الشمس دائرة ومدبرة بروح من الأرواح فلا يخلو الأمر من أن يكون حاصلا بأحد الطرق الثلاث الآتية : فاما أن تكون تلك الروح فى داخل ذلك الجرم الكروى فهى تحمله الى كل جهة كما تحمل الروح الانسانية الجسم ، واما أن تكون مكتسية بجسم آخر من النار أو الهواء كما يدعيه بعضهم فهى تتوصل بقوة ذلك الجسم الى دفع الشمس حيث تريد ، واما أن تكون منزهة عن الجسمية ومنفصلة عن الشمس تمام الانفصال ، وانما تديرها وتحركها بخاصية فيهالا يدريها العقل . ولكن هب أن تلك الروح تحمل الشمس فى عربة وتوزع بتلك الواسطة نورها على العباد ، أو أنها تؤثر عليها بقوة خارجية على صفة وأسلوب لا ندريه ، فكل منا يجب أن يعلم أن تلك الروح لابد من أن تكون من عالم عال ، وأنها تقرب من أن تكون (الهة) أليس ذلك صحيحا ؟

(كليناس) هذا لا يشك فيه أحد

(الآتينى) وماذا نقول بالنسبة للقمر والكواكب ، وبالنسبة لتعاقب السنين والشهور والفصول، أليس كل ذلك مصدره روح واحدة أو أرواح عدة بالغة نهايات الكمال وجميع صفات الجلال ، وان هذه الأرواح هى آلهة تارة تسكن الأجرام وتتشكل بأشكال بعض الحيوانات فتنظم كل مايحصل فى العالم العلوى من حركات وانتقالات،

وتارة أخرى تؤدى أعمالها على غير تلك الصفة ،؟ انى سائلك الآن أيستطيع الانسان أن يقر معنا بهذه الحقائق ولا يعتقد أن العالم مملوء آلهة .

(كلينياس) لاالناس أعقل من ذلك

(الآتيتى) لنتم الآن بحثنا هذا الذى وجهناه الى الذين يزعمون عدم وجود صانع للكون بعد أن نريهم الحدود التى يجب عليهم الوقوف عندها فى الرد علينا

(كلينياس) أى الحدود

(الآتيتى) يجب عليهم أن يثبتوا لنا فساد ما قلناه من أن الروح هى أصل التوليد وأصل كل شىء ،وأن يبرهنوا لنا بتلك الواسطه بطلان كل مااستنتجناه من هذا الاصل ،أو فليقروا بأنهم لا يستطيعون هدم ماقدمناه فيرجعوا الى ما قلناه وليعيشوا معتقدين بوجود (آلهة) .

براهين ارسطو

أرسطو كما يعلم قراؤنا تلميذ (افلاطون) وكان ينتظر مع هذا أن يكونا متحدين فى فلسفتيهما من بعض الوجوه ؟ ولكنهما من العجيب مختلفان كل الاختلاف ؟ لأن كلا منهما رسم لنفسه مبادىء لا تتفق مع مبادىء صاحبه . فان افلاطون جعل مدار نظره العموميات

والكليات ثم تنزل منها على الجزئيات ، ولكن ارسطوا جعل وجهة بحثه الجزئيات والتدرج منها الى الكليات ليأمن من الخطأ فى الحكم ، ومن اللبس فى التصور . من هنا نشأ ذلك الخلاف الجوهرى بين افلاطون وتلميذه ارسطو حتى كأنهما خلقا ليتعارضا ولا يتحدان .

العالم فى مذهب ارسطو قديم أزلى أبدى ضرورى ، موجود من من القدم ولا يزال كذلك على الحالة المنتظمة المدبرة التى يرى عليها الآن حاصلا على جميع قواه ونواميسه ؟ وحاصل بطبعه على القوى التى تحركه وتدبره . ولكن يكون الكون فى حالة خدر وخمود لو لم يكن لتلك القوى المحركة له مدد يعطيها القوة ويهبها الحركة . اذن وجب أن يكون محرك أول للكون ، ويجب أن يكون ذلك المحرك الاول ثابتاً ساكناً ؟ لأنه لو كان متحركا لاحتاج الى قوة تحدث فيه تلك الحركة ، ولاحتاجت تلك الأسباب المحدثة للحركة الى أسباب أخرى، وهكذا الى مالانهاية وهو محال .

من هنا يرى أن أرسطو توصل الى اثبات الصانع بنظرية الحركة ، وهى من المشاهدات العيانية كما لا يخفى ولكنه وضعها فى قالب يعلو عن فكر العامة فقال : لامناص من التسليم بأنه يوجد شىء متحرك حركة»
« دائمة، وتلك الحركة دائرية . هذا ما اثبته الحس لا الدليل العقلى وحده.»
« ينتج من هذا أن السماء الأولى يجب أن تكون أزلية . ثم لامناص »
« من التسليم بانه يوجد شىء آخر يعطى تلك الحركة بطريقة مستمرة »
« وبما أنه لا يوجد الا ثلاثة أنواع من الكائنات وهى : الكائن الذى »

« يحركه محرك ، والكائن الذى يعطى الحركة للمتحرك ، والكائن »
« الوسط بين المتحرك والمحرك ، وهو كائن يجب أن يهب الحركة »
« ولا يتحرك هو ، فهو ابدى أزلى ،أصل لغيره ، منزه ، فعال مؤثر . »
« اليك كيف يهب الحركة للكائنات . لايخفاك أن الشيء »
« المرغوب والمعقول يهبان للراغب والعاقل الحركة بدون أن يتحركا . »
« وأول مرغوب مشابه لأول معقول لأن موضوع الرغبة والحامل »
« عليها هو الشيء الذى يظهر أنه جميل . وأول غرض للارادة والمؤثر »
« عليها هو ما يظهر أنه جميل ايضاً . وعليه فنحن لانطلب الشيء الا »
« إذا ترا آى لنا جميلا ، لا أنه جميل لأننا نطلبه . فأصل الموضوع »
« اذن الفكر . وهذا الفكر يتحرك لما هو معقول كما يتحرك لما »
« هو جميل ، فيكون كلاهما فى صف واحد من حيث أصليهما . ولا يخفى »
« أن أصل الشيء يجب أن يقدم على غيره من العلاقات والخصائص »
« الأخرى الملازمة لذلك الشيء ، كما لايخفى أن اكمل الاصول هو »
« أبسطها وأفعلها . اذن فقد دخل الجميل فى ذاته والمعقول فى ذاته فى »
« دائرة المعقول . ولا يخفى أن ما كان أول كان اكمل سواء كان مطلقاً »
« أو مقيداً . وبناء على هذا وجب أن يكون سبب الأسباب كلها »
« موجوداً ثابتاً لا يتحرك . وهذا هو الفرق بين هذا السبب الأولى »
« والأسباب الأخرى . فان الاسباب نوعان نوع مطلق ونوع غير »
« مطلق . والكائن الثابت يهب الحركة للاشياء بالصفة التى يهبها »
« الشيء المحبوب وما يتحرك يهب الحركة للمجموع كله . من هنا »

« ترى كل كائن متحرك جائز عليه التغير والتحول . فاذا كانت »
« أول حركة هى حركة الانتقال من مكان الى مكان ، فالكائن »
« المتحرك يحصل فيه تغير ان لم يكن فى أصله فنى موضعه . ولكن »
« بما أنه من الضرورى وجود كائن يحرك وهو ثابت ، وثباته لا يمنع »
« كونه فعالا مؤثرا فيكون هذا الكائن غير قابل للتغير ومنزها »
« عن التحول . ودليل ذلك اننا قلنا ان ابسط التحولات وأولها هو »
« الانتقال من مكان الى آخر ؟ وقلنا ان أول الحركات الأولية هى »
« الحركات الدائرية . ينتج من ذلك أن الكائن الذى تصدر منه تلك »
« الحركة الاولى يجب أن يكون ثابتاً ، فالمحرك الثابت اذن ضرورى »
« الوجود . وبما أنه واجب الوجود ، فهو الكمال المحض . وبناء »
« عليه فهو أصل . ولأجل أن تدرك ذلك اليك أنواع الضرورى »
« وهى : ضرورة قاهرة وهى من نوع الضرورات التى تبعث اميالنا »
« الطبيعية نحو مطالبها . وضرورة هى فى الحقيقة سبب لنيل الكمال . »
« ثم هناك ضرورة أخيرة وهى ما كانت ضرورة فى ذاتها ولا يمكن »
« أن تكون الا كذلك . »

(نظرة على ما تقدم)

نقلنا ثلاثة أقوال فى المسألة اللاهوتية عن ثلاثة فلاسفة هم دعائم الفلسفة اليونانية وأركانها ليتضح للقارىء مبلغ مدرك الأقدمين فى تلك المسألة الكبيرة ولا بد أن يكون قارئنا قد لاحظ معنا أن كل واحد من هؤلاء الثلاثة ذهب مذهبا خاصا به فى تقرير تلك الحقيقة . فتأدوا

الى نتائج وان اتحدت فى الايجاب والاثبات الا أنها اختلفت من حيث النعوت والصفات .

أما سقراط فقد سلك فى بحثه مسلك البساطة والوضوح . فاستجلى أمام سامعه مشاهد الطبيعة ، ومعاهد آثارها البديعة ، وجال بفكره فى مناحيها جولة المفكر الباحث ، فرأى أنه لا شك فى وجود واضع لهذا النظام البديع ، موجد لهذا الكون الفخيم ، فآمن به ايمانا فطريا ، يستوى فيه سقراط الفيلسوف وأجهل الجاهلين من هذا النوع الانسانى . ثم انه قوى برهانه الطبيعى هذا بالبرهان التاريخى فاستعرض لذلك أحوال الأمم ، ودرس شيوع تلك العقيدة بينها جيلا بعد جيل ، مع اختلافها فى اللغات والأجناس ، وتفاوتها فى الفكر والعلم ، فاتخذ سقراط هذا الاجماع دليلا قويا على ان العقيدة بوجود الصانع حاجة من حاجات الروح ، وغريزة من غرائز العقل ، لا يمكن الانسان أن يلفت نفسه عنها الا بعارض من النقص ، كما لا يستطيع أن يلفت نفسه عن خاصية من خصائص جسمه الا بعارض من الخلل فيه . هذه الحاجة العامة فى النفوس عالمها أوجاهلها ، متمدنها ومتوحشها ، قديمها وحديثها ، دليل محسوس على أن موضوعها حق اذ لا يعقل ولا يتصور أن تحتاج النفوس الى وهم وترتاح الى خيال مجرد ، وهى مجمعة عليه هذا الاجماع المطبق .

هذان برهانا سقراط وهما من البساطة والوضوح بحيث لا يعز إدراكهما على أى عقل ، ولا يعلو متناولهما عن أقصر فكر . أما

ماورد فى أثناء عبارات مما يشعر بتعدد الآلهة فنعتذر عنه بأنه انما كان يتسامح فى ذلك أحيانا مجاراة للعامة ، واحتراما لأميال الأمة ، وان كان ذلك يعد نقصا فى كماله (ان صح ذلك عنه) ويريك رأى العين ذلك الفرق الشاسع بين النبى والفيلسوف . الفيلسوف كما ترى يساتر فى العقيدة أحيانا ، فيكتم ايمانه ويخفيه ، ثم قد يذيعه ويفشيه ، وقد يكون بينه وبين العامة شأن يخالف شأنه بينه وبين الخاصة الخ من أمثال هذه الأحوال التى سببها ضعف القوة البشرية . أما النبى فيذيع ايمانه لا يخاف لومة لائم ، ولا يخشى صولة ظالم ، يواجه بها الملوك فى أبهتها ، والرؤساء فى سطوتها ويصادم بها الأمم فى عقائدها ، لا يتخيل بطشا ولا هضما ، ولا يخاف بغيا ولا صدما ، ولا يزال كذلك حتى يظهره الله على أعداء أنفسهم أو يجلوا عن الوجود وقد أحدث فيه أكبر الآثار وأعظم الحوادث ولسنا نرى من بين سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام نبيا مرسلا نال مثل ما ناله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من هذه الخصلة الكريمة كما ستراه ان شاء الله .

أما أفلاطون فبرهانه يحتاج الى شيء من العلم والحكمة فهو بعيد عن البرهان الفطرى على قدر بعده عن متناول العقل العادى وهذا كما لا يخفى عيب فى الدليل لا يغيب على بصير . اذ لا يخفى أن الخالق جل وعز أكبر من كل كبير وأظهر من كل ظاهر ، فكيف يليق أن يكون البرهان على وجوده من الخفاء بحيث يدق على كثير من الأفهام ، ولا يهتدى اليه بعض العقول الا بوسائل من العلم غير متيسرة العالم كله ؟

ان قيل ان ذلك البرهان خاص بأهل العلم ، أما العامة فأمرهم سهل وخطبهم هين . قلنا ان خفاء الدليل مهما كانت وسائل العلم المستعملة له لا يليق الا بالشيء الخفي الذى يعوز شيئاً من الجهد فى ادراكه والحس به . أتراك يوماً من الأيام فى حاجة لاستنباط خفايا النظريات الفلسفية من باحات المجالى الفكرية لتقيم البرهان على وجود الشمس تتلألأ فى رابعة النهار ، أم ترى من نفسك الاكتفاء بالاشارة اليها ، واستلفات النظر الى الضوء الذى حواليها ؟

ان قلت انما اكتفى بالاشارة اليها لمن هم واياى فى مستوى واحد من الشعور . أما بالنسبة للمحجوبين الذين لا يستطيعون ادراكها الا من تلك الطريق فالتجيء أمامهم للغوص فى سرائر الفلسفة لاستنباط أدق البراهين ارغاما لهم ، وكبحاً من شرتهم . قلنا ان اغماضك فى الدليل على هؤلاء المحجوبين لايزيدهم الامضياً فى عشوائهم واسترسالا فى ضلتهم ، ويكون اغماضك هذا عليهم مغرياً لهم على مقارعة دليلك بمثله ، وتوهم الظهور عليك فلا تزال بينهم فى أخذ ورد ، ومحاجة وملاجة حتى تجدون أنفسكم قد خرجتم عن الموضوع الأصلى الى متاهات يحار فيها الفكر ، ويضل فيها العقل ، فترجعون من تلك الجولة المتعبة لا يمتاز أحدكم عن الآخر فى الاعياء والعجز ، وتكون النتيجة غالباً تثبيت الضال فى ضلاله ، وفرحه بزخارف أقواله . وهلم جرا .

حياة خاتم المرسلين محمد

(صلى الله عليه وسلم)

تمهيد

نحن اليوم بازاء موضوع يحفى القلم دون توفيته بعض حقه ، وتضيق مجالات التعبير عن تصوير شطر من حقيقته ، وتكل عزمات الروية عن خوض لجج باحاته ، وتنقطع أنفاس التصور عن السبح فى سبحات أنواره .

اذا كانت النفس الانسانية فى ذاتها معضلة العلم ، ومشكلة الفلسفة، وعقدة الحكمة من القدم الى اليوم ؛ واذا كانت المعارف الانسانية بأجمعها ، وقوانين علوم النفس برمتها ، لم تزل قاصرة عن تتبع سير النفس فى حركتها وسكناتها ، والاشراف على سر تطوراتها فى صلاحها وفسادها ، وعاجزة عن الآلام بصفة عروجها فى عالمها على أجنحة الفضائل ، أوهبوطها بدوافع شهوتها الى حضيض النقص والرذائل ، فكيف يطمع باحث أن يقف على حقيقة روح نزلت من حظائر الملأ الأعلى ، وانفصلت من سرادقات العالم الأسمى ، واتصلت بابدع وأكمل صورة من صور المادة لتأخذ فى الأرض بيد أرواح غرقى ،

وتنجى من الغمم نفوسا هلكى ، وتشفى بسبحات جمالها عيونا عميا ، وتخلص من الأدران قلوبا غلفا ، وتفتح لسماع الحقيقة أصمخة جامدة وآذانا صما ، وتنطق بفصاحتها ألسنة أصبحت عن غير المفاسد بكما ، وتنقى بمطهرات حكمتها مدارك غدت بأوضار الوساوس رجسا ، وتفك أصفاد عقول أوسعها رؤساء العقائد ضيقا وضغطا ، وتحل أغلال أفكار قتلها حفظة الأباطل ذلا وأسرا ، وتدحض من حملة الشرائع ضلالا وزيغا ، وتقيم من الفلسفة عوجا وأمتا، وتتمم من مكارم الأخلاق خداجا ونقصا ، وتدك عروش ملوك ساموا الأمم خسفا ، وأحرقوا الضعفاء عسفا ، وتلصق بالأرض جباها ادعت أن بينها وبين السماء صلة وودا ، وأن بيدها من أمور الناس حلا وعقدا، وتلحق بمصاف العامة أقيالا زعموا أن لهم من الربوبية قسطا ، ومن التسلط على رقاب المخلوقين حقا ، وتنسف قصورا شيدت بمهج الأرامل واليتامى جورا ، وترد حقوقاً اغتصبها الرؤساء عدوانا وظلماً، وتضع للعدل فى الأرض ميزانا فصلا،وللقسط قسطاسا عدلا ، وتكشف عن جوهر الانسانية خبثاران عليه فجعله فحما . وتجلو عن أرواحها غمما سودا وعن ضمائرها غياهب سحما ، وتهيء بذلك الأرض لقبول نور يفيض عليها من سماء الرحمة فيضا ، ويعد النفوس لكمال طالما حنت اليه حنينا وبكت عليه الضمائر شوقا ، وتشرح الصدور لدين ترتع فيه الأرواح رتعا وتسبح فى سبحاته القلوب سبحا ؟

درس هذه الروح يستلزم معارف جلى وعلما جما ، ويستدعى من

الباحث بعلم النفس احاطة كبرى ، وبضمائر المساتير معرفة عظمى .

دعنا من قوم يظنون أن للشعريات فى هذه الأقاويل حظا ، وللخيال فى هذه العبارات سهما، وهلم بنا نستجوب الحوادث فان لها بالحقائق ألسنة فصحى وأجوبة مثلى .

من ينكر علينا أن هذه الروح المحمدية الطاهرة الكريمة نشأت بين قوم كانوا من الدين فى وثنية ،ومن الأخلاق فى همجية ، ومن العادات فى وحشية ، ومن الاجتماع فى انقسامات قبلية ، وتحزبات عصبية ، ومن المدارك فى جهالة ، ومن الأفكار فى ضلالة ، ومن الوجود فى عماية ،ومن العقائد فى غواية ، ومن النظامات فى فاقة ، ومن القوانين فى حاجة ، حروب متواصلة ، وأحقاد متوارثة ، ودماء مهدرة ، ومهج مهراقة ، وعادات نشبت فيهم نشوبا ، وغرست فيهم عيوبا . وجرت عليهم خطوبا وطباع خلعتهم عن مقتضى الفطرة ، ونبت بهم عن مطالب الخلقة واصطلاحات بعدت بهم عن قوانين الطبيعة ، وألقت بهم الى مطارح الرذيلة ، وأشربت نفوسهم سموم القطيعة ، صناديد لا يفكرون فى غير الغارات ، ولا يفاخرون الا بطعن الردينيات وضرب المشرفيات، شعراء ولكن فى الدعوة الى القتال ، وتيتيم الأطفال ، وافناء الأهل والمال ، أقوياء ولكن فى نسف المعالم ، واكتساح المغانم ، نجداء ولكن ضد بعضهم ، شجعاء ولكن على أنفسهم . ولكنى مع هذا لا أنكر أنهم كانوا أقل من سائر الأمم عيوبا وأهون منهم فى الرذائل نشوبا ، وأولى بأن يؤدبهم الله بوحيه ويحملهم الى خلقه أنوار دينه.

ومن ينكر علينا أن هذه الروح المحمدية الشريفة قامت فى مبدإ الأمر وحدها بدون مرشد ولا نصير ، وبغير مشير ولا وزير

ومن ينكر علينا أنها لاقت مما يحيط بها من الأرواح مقاومات عنيفة ، ومخاصمات شديدة،وفتنا مظلمة ، وإحناحالكة وصدوراوغرة، وأعداء فجرة ؟

ومن ينكر علينا أنها صبرت تجالد هذه الأرواح سنين متوالية، تأخذها بالنصيحةمرة ، وبالترغيب أخرى ، وبالترهيب حينا . وبالجدال أحيانا ، فكانت بذلك وحدها أمام أمة بأسرها ترمقها عن بكرة أبيها شزرا وتتوعدها شرا ، وتهددها سرا وجهرا ، وتنصب لها الحبائل ، وترصد لها المخاتل ، وتغرى بها اللئام والرعاع ، وتثير عليها الاحن والأحقاد؟

ومن ينكرعلينا أنها فازت فى النهاية على جميع مجاوراتها وأخضعت لسلطانها جميع عدواتها ، وسائر حواسدها ، وأتمت كل وظائفها ، ثم صعدت الى حيث أتت قريرة العين مرتاحة البال ينلهامن تألب أعدائها شيئا، ولم يلحقها فى أداء وظيفتها فتور ولاونى ، ولم تصعد حتى نقشت اسمها فى صفحات الوجود نقشاً لا يمحى ، وأبقت فيه أثرا لا يبلى ، واستخلفت فيه روحا لاتزهق . وحياة لا تضمحل أفاعيلها فى تابعها الى يومنا هذا .

من يرد أن ينكر علينا كل هذه الحوادث فلينكر الشمس طالعة والنجوم ساطعة ، ونفسه الجاحدة .

اذن كيف نشأت هذه الروح على غير سنة الوسط الذى ولدت فيه وكيف احتمت من مؤثرات ما يحيط بها من العادات والأخلاق ، وكيف نجت من مشائن الغرائز التى كان يجب أن تنشأ فيها بطريق الوراثة ، ثم كيف سلكت وحدها هذه المسالك الوعرة ، وذللت كل هذه الصعوبات الهائلة ، واجتازت كل هاتيك العقبات الكئود

ثم كيف نجحت فى مشروعها ، واستطاعت أن تخضع تلك الملايين من الأرواح لسيطرتها ، وتجعل كل تلك الارادات القوية تحت سلطان ارادتها ؟

ألا ترى معى الآن أن هذه الروح أكبر روح ظهرت فى العالم ، وأن ارادتها أقوى ارادة عرفت من بنى آدم . وأن عزمها لما تندك أمامه الجبال الشمخ ، وتهبط منه العرانين البذخ ، وأن علمها لما لا يدخل تحت نطاق فكر ، ولا ينحصر فى دائرة روية .

اذا كنا نحن أمام هذه الروح حيارى لا نستطيع كيف ندركها مع اعتقادنا بأنها روح بنى مكرم ، ورسول معظم ، له من جانب القوة الالهية عون جبروتى ، ومن الملائكة المقربين عضد سماوى ، فكيف تكون حيرة جاحد لا يعتقد بنبوة صاحبها ، ولا يصدق بأن له من جهة العالم العلوى توفيقا يمده ، ونصيراً يدفع عنه الفشل ويرده ؟

كيف يعلل الملحد هذا التأثير الهائل الذى لم يسبق مثله للأنبياء والتاريخ أصدق شاهد ، وحوادث الكون أعدل ناطق ؟

ألا يكون المكذب به أحير من تحت السماء فى تعليل هذه المدهشات ،

وتفسير هذه المعجزات؟

اذا كانت هـذه الأعمال العظمى تتم لغير نبي وتمكن لمن ليس له عون ربانى ، ومدد الهى ، فما هو فضل النبوة على السياسة ، وماهو امتيازها على حيل طلاب التسلط وعشاق السلطة ؟ نعوذ بك اللهم من من الجمود على احقاد الآباء ، والتأثر بوراثة الأسلاف .

نحن لا نكتب السيرة المحمدية الكريمة كتاريخ يقرأ لتمضية الوقت، ولانود أن نجعله تسلية النفوس فى أوقات فراغها . ولكننا نود درسها من وجهة فلسفية حيوية ، نتعلم منها ماهية الانسان ومقدار ماوهب من ملكات ومواهب ، وكيف نسلك بأرواحنا سبل المطالب ، وكيف نأخذ نفوسنا بآداب الدنيا والدين ونجمع بينهما فى مسلك واحد . ومن ذا الذى لا يرضى بأن يكون تابع أشرف روح برهنت على حقيقتها وفضيلتها وسلكت فى الحياة كل السبل الممكنة . وكانت فى كل سبيل منها نورا يعشو إلى ضوئها التائه ، وعلما يهتدى به الخابط ، وبزت فى كل مجاله من مجالات المجهودات الانسانية كل مزاحم ، ونالت من مسالمة الوجود لهـا ، وموافقة مقتضياته لآمالها مالم يبلغه حى قبلها ولا بعدها ألقى بنفسه فى معمعان هذا العالم ؛ ثم عرجت بعد ذلك كله إلى محتدها العلوى نقية الجيب طاهرة الذيل ، لم ترتكب إثمـا ولا شططاً ، ولم تكتسب إلا ما يخلد لهـا حسن الأحدوثة وجمال الأثر

من ذا الذى لا يرضى بأن يكون تابع هذه الروح العالية فى حركاتها وسكناتها . وسلمها وحربها ، ورضائها وغضبها ، وانبساطها وانقباضها؟

لاجرم أن هذه الروح لاتتحرك الالنوال كمال ومحامد خصال ، ولا تسكن الاعن حرام وضلال ، ولا تسالم الا الفضيلة والجمال ، ولاتحارب الاالرذائل وذميم الخلال ولاترضى الاالحق والاعتدال ، ولا تغضب الالله في جميع الأحوال ، ولاتنبسط إلا لمشاهدة سبحات الملك المتعال ولا تنقبض إلا لمن لحظ سواه فى الأقوال والأفعال .

من منا لم يؤلمه التناقض بين احساسه وعقله ، ولم ينغصه التعاكس بين عقيدته وفعله ، ولم يسخط على نفسه التباين بين دينه وميله ؟

يرينا العقل أن وقفنا لأنفسنا على الفانيات غاية الغوايات ، وشر البليات ، فان همت بنا الرغبة الى الاصاخة لصوته ، والعمل بنصحه ، جذبتنا من الاحساسات الشهوية تيارات ، ولعبت بنا من نزغاتها نزوات ، وحالت بين أنفسنا وبيننا حيلولة تدق عن أن يتصورها الفكر بصورة أويقع منها التعبير على كيفية .

ترينا العقيدة انذلك الأمر رجس حرام ، وتبرهن لنا الحوادث على أن فيه الآلام والأسقام ، بل الموت الزؤآم فنرى أنفسنا مسوقين لاتيانه ، مرغمين على غشيانه ، كأننا موجورون على اتلاف أنفسنا وأموالنا ، ومرشون على اهلاك ذواتنا وأشخاصنا !

ليس هذا قاصراً على من كان له دين وعقيدة فان كل الأمم حتى فى هذا العالم المتمدن يرى منها هذه الآثار المحزنة من التناقض والتباين فى كل حيثية . فلقدأرتها معارفها ضرر الخمر وويلاته ، وشروره وموبقاته ، ومع ذلك فهى تعتصره وتنشط العاملين عليه ، وتبيعه

وتستلفت الأنظار بكل الحيل إليه .

دلتها معلوماتها وأرشدتها التجارب أن القمار سبب الدمار والخراب ، ومبيد الأسر العالية الاطناب ، وملصق الجباه الشماء بالتراب ، ومكثر الانتحار بين الشيب والشباب ، والرجال والكعاب ، ومع ذلك فهى تأتيه جهرة ومن وراء حجاب ، وتعلن عنه فى الجرائد اعلانها عن فوائد أعظم كتاب .

دلتها المثلات أن تكشف النساء ودورانهم فى الطرقات ، ورقصهن مع غير أزواجهن فى المنتديات : مجلبة لما لا يعد من المخزيات والمنكرات ، وقد أرشدتها الحوادث المتكررة لتلك السيئات بقوارع تتفتت منها الأكباد وتذوب الأحساسات حسرات ، ومع ذلك فهى سائرة فى سبيلها سيرا حثيثاً . وعاملة على بقاء ذلك واستشرائه بكل الوسائل . الى غير ذلك مما يطول شرحه كما سيراه القراء إن شاء الله فى موضعه من كتاب الانسان والمدنية .

فلم هذا التناقض الهائل بين مطلب احساساتنا واحكام عقولنا ، ولماذا هذا التعارض بين عقائدنا وأفعالنا ؟ هل قضى على الانسان بأن يكون عمره متذبذبا متردداً ، لا يركن الى شيء حتى يزعج عنه ، ولا يعتمد على أمر حتى يطرد منه ، ولا يقف لحظة حتى يساق للامام ، ولا يساق للامام حتى يجذب الى الوراء ، ولا يكون كذلك حتى تتوزعه القوى المختلفة من جميع جهاته ، وهو مع ذلك يزعم أنه حر رشيد ، وأنه مختار مريد ، وأنه بطل صنديد ، وأنه ذو عزيمة تقد الحديد

وتذيب الصياخيد ، وأنه وأنه مما طالت فيه دعاويه ، وكثرت عليه من نفسه شكاويه .

هل للانسان عذر فى الحال المرتبك ، والأمر المشتبك ؟ هل له أن يقول عن نفسه مدافعا : انه ضعيف ألقى به فى وجود قوى العوامل ، قصير مدى الفكر تكتنفه فى الكون ألوف من الفواعل ، محدود العلم قضى عليه أن يسير من حياته فى مراحل ، بغير زاد ولا رواحل . عديم الخبرة بالطبيعة قذف به منها فى مجاهل ، ظامى الفؤاد لكمال مجهول سيق لأن يعرف منه المناهل ، فاتجه اليه من غير دلائل ، ممتع بصفات متباينة حتم عليه أن يختار منها الفضائل ويقاوم الرذائل ، وهو مع ذلك بين أمثاله فى حياة لها قوانين وشرائط ، وعليه منها تكاليف ومغارم ، تشتبك فيها مطالب حياتهم بمطالب حياته ، وأغراض نفوسهم بأغراض نفسه ، فتتجلى له الحياة على صور شتى ، وأشكال عدة ، لابسة من جهله وجهلهم ثيابا تتنوع وتتباين ، وتتلون وتتخالف ، على نسب يلتوى عليه أكثرها ، ولا يدرك منها الاجزءها ، فيرى نفسه مرغما على اتيان ماينكره عقله ، وغشيان مايستهجنه فكره ، إن رغب فى إصلاح نفسه قاومته مما يحيط به عقبات عدة ، وصدمته فى صدره صعوبات وشدة ، فيكره نفسه على أن يعيش ناقصا وهو يرى الكمال بعينيه ويمضى عمره فى تعاسة وهو يرى السعادة بين يديه ، ترنو بنظرها إليه ؟

قلنا هل للأنسان يقول هذا مدافعاً عن نفسه ، وملصقا العار فى

نقصه على بنى جنسه ؟

كان يمكن ان يقول هذا لولم يكن الله تعالى قد أقام سيد المرسلين محمداً صلى الله عليه وسلم مثالا يرسم الطريق للخابطين ، وعلما على سبيل السائرين يتتبع التائه اثر قدمه ، ويسير مسترشداً بعلمه قطعا لعذر المعتذر بوعورة المسالك ، ودحضا لحجة الزاعمين بأن الانسان مكره على تقحم المهالك ، والتردى فى المضائك .

ليس على الذين رعبتهم مفازات الحيات ووعوثتها ، وهالتهم عقباتها ومعاطبها ، الا ان يتبعوا ذلك المثال الكامل فى سيره ويقتدوا بهديه فى جميع أمره ، فانه جاء ليعلم الانسان كيف يسلك بنفسه الحياة بدون أن يدنسها ، وكيف يطير بروحه الى الغايات بدون أن يتعبها ، وكيف يجرى فى باحات المطالب المختلفة بدون أن يلامسه الجور بذلة ، ويركض فى ساحات المجد غير خاش ان يصدمه الغلو فى صدره .

قضى الله على سيدى المرسلين صل الله عايه وسلم ان يطوف جميع أدوار الحياة الممكنة ليكون للناس فى جميعها مرشداً امينا ، ودليلا خبيرا ، فكان (فردا) فى اسرة ، و (واحدا) من قبيلة ، و (نفرا) فى امة ، و (زوجا) و (أبا) و (تاجرا) و (مربيا) و (مرشدا) و (واعظا) و (جنديا) و (قائدا) و (مشرعا) و (قاضيا) و (حكيما) و (اماما) و (سياسيا) و (ملكا) و (مسالما) و (محاربا) و (معاهدا) و (عابدا) و (زاهدا) و (نبيا) و (مرسلا) وهى وظائف حيوية يستحيل ان تتفق كلها لبشر ولكن لايخرج الرجل من أن يكون له

بعض صفات منها فلم لا يقتدى بهذه الروح العالية الكريمة التى برهنت للعالم اجمع انها جازت كل عقبات الحياة نقية طاهرة ، ومرت بين أمواج المصاعب والفتن نقية زاهرة ، ثم صعدت الى عالمها تاركة وراءها من حسن الذكر شذى أعطر من ارج الزهر فى السحر ، وأثرا يكسف بلألائه كل أثر ، ولم تزل قوتها فى الأرض تعمل اعمالا تدهش البشر ونورها بين الأنوار يحسر البصر ،

فهل يصح أن يعد المسلمون هذه السيرة من ضمن السير ، ويجعلوه مجرد فكاهة فى السهر ، ورقائق يوشون بها أطراف السمر ، أم يجب ان يدرسوها من جهة فلسفية حيوية ليتخذوها دستوراً للعمل ، ونبراسا يجلون به عن حياتهم ظلمات الخطل ، ويحتمون به التدهور فى الزلل ، وعلما يعشون الى ضوءه فى كل أمر جلل ؟

فالفرد فى اسرته ، والواحد فى قبيلته ، والنفر فى أمته ، والزوج مع ، زوجته ، والأب بين أهله وصبيته ، والتاجر فى تجارته ، والمربى امام تلامذته ، والمرشد بين زمرته ، والواعظ امام حلقته ، والجندى فى مهنته ، والقائد فى رتبته ، والمشرع فى وظيفته ، والقاضى فى ولايته ، والحكيم لدى طلبته ، والامام حيال حشدته ، والسياسى فى حكومته ، والملك فى رعيته والمسالم امام اوليائه ، والمحارب قدام اعدائه والمعاهد بازاء اهل ذمته والعابد فى محرابه ، والزاهد فى دنياه يجد من سيرته صلى الله عليه وسلم نوراً يهتدى به فى شرعته ، وروحا يقوى بها فى مزاولة صناعته ، ودستورا يسير عليه لتحقيق أمنيته وقانونا يرجع اليه فى حيرته .

كيف لا يجعل المسلمون هذه السيرة المثلى لهذه الروح العظمى ، كحلا لأعينهم ، وشغافاً لقلوبهم ، ودخيلا تحت ضلوعهم ، وشعاراً على جسومهم ، ودثاراً فوق لباسهم ؛

وكيف لا يجعلونها مرجعاً لفخارهم وأصلا لمجدهم وسؤددهم ، ودواء لادوائهم ، ومرهما شافياً لجراحهم ، ومنشطاً لفتورهم ، وسلماً لأوليائهم ، وحرباً لأعدائهم ، وحجة على صحة دينهم ، ودليلا على وضوح طريقهم .

نعم ان تجلية هذه السيرة الكريمة على الصورة الحيوية المؤثرة بالنسبة لأبناء هذا العصر الذين اشتبكت أمور حياتهم وتداخلت حلقاتها ، وامتدت مصالحهم وتشعبت فروعها : حتى يستطيع كل فرد منهم أن يجد منها الهادى المرشد ، والدليل المبين لما يحتاج الى بحث وتنقيب ، وتفصيل وتبويب ، وأبحاث فى أساطير الحياة طولى ، ودروس فى أسرار القوى النفسية جلى .

هذا مما سنتوخاه فى كتابنا هذا والله المعين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وآله وصحبه وتابعيه أجمعين الى يوم الدين .

وجه لزوم السيرة المحمدية لكل انسان

كل مجهودات الانسان ومحاولاته متنازعة بين عاملين عامين يتقاسمان فؤاده ، ويتوزعان سائر قواه المغروزة فى طبيعته عامل مادى جثمانى ، وعامل أدبى روحانى . الاول يدفعه لتأييد مركزه فى هذا

المشهد المحسوس ويبعثه لاداء وظيفته فيه بحيث لا يستطيع الفكاك منه ، وله مما ركب فى الجثمان من الضروريات الكثيرة كالغذاء والمسكن واللباس والتحفظ من عوادى الأمطار والرياح والهوام ، وما غرز فيه من العواطف نحو أهله وولده وبنى نوعه جنود وأعوان تقوى فعله ، وتشد أزره ، وتزيده قوة على قوته ، وكلما تدرج الانسان فى تذليل صعوبات حياته المادية زاد هذا العامل تأثيرا ، وصار أحشد جنوداً وأكثر نفيرا ، وتشكل وتطور على حسب تشكلات الحياة المادية وتطوراتها . ومن يرد الدليل المشاهد فعليه بالتدبر فى حالتى المتوحشين والمتمدنين ، فان المدنية مع ما أحدثته من التسهيلات فى أمور الانسان الجسدانية ، لم تقلل من شدة ذلك العامل بل زادته أيدا على أيده ، فصار أقوى مما هو عند المتوحشين بما فتحت لذويها من باحات المطالب ، وما أيقظته فى نفوسهم من الحاجيات والرغائب .

هذا العامل يجلى للانسان اللذائذ العاجلة ، ويصور له المشتهيات الفاتنة ، ويكسوها من سحر التمويهات والزخرف ثيابا يأخذ بالبصر رواؤها ، ويميل بالاعناق زبرجها ، ويتوجه بمجموع هذا السحر الفاتن الى ما غرز فى طبيعة الانسان من عاطفة العجلة ، ويظل يواجهها بهذه المرائى الفاتنة ، والمظاهر الساحرة ، حتى يستولى على ارادتها ، ويتحقق من اثارة حميتها ، ثم يسلطها على الانسان نفسه فيقيم فؤاده ويقعده ، وينسيه ذاته ويذهله ، فيشمر عن ذيله ، سعيا لنوالها ، وجدا للحصول عليها على الصفة التى تصورها فى خياله فيدأب وينصب ،

ويفتكر ويتخيل ، فاذا لم تنجع هذه الوسائل كلها فى انالته أمله ، وتكليل عمله ، ووجد من مصالح معاشريه ما يقاومه فى سبيل رغباته ، ويصادمه فى محاولاته لعدم اعتداله فيها ، تذرع بالدخائل ، وتوسل بالدسائس ، ومت بالحيل ، وأدرع بالتمويه والكذب ، فنافق ومكر ، وداجى وستر ثم خلب وختل ، وسلب بعد ماقتل ! هذاما يشاهد يوميامن أسرى هذا العامل المادى وهو فى العالم المتمدن أكثر ، وأثره فى تشويه الفطرة الانسانية هنالك أظهر .

أما العامل الروحانى ، فهو عامل قلبي وجدانى ، يناجى الانسان فى ضميره ، ويناغيه فى صميم معناه ، ويناقشه فى سويداء قلبه ، فيبين له علو عنصره وسمو جوهره ، ويكاشفه بجمال ذاته ولألاء روحه ، ويفضح له من سوءات الدنيا قصر مدتها ، وكثرة آلامها وشدة محنتها ، ويستلفته الى الذين وقفوا قواهم فى حبها ، وسروا أنفسهم لفتنتها ، كيف عاجلتهم المنية ودهمهم الفناء ، فتركوا المال والولد ، ونزحوا من الدار والبلد ، ونزلوا بعد سكنى القصور الشامخة ، والعلالى الباذخة ، الى حفرة ضيقة ، ومحلة خشنة ، مثلهم كمثل القذر يؤنف من رؤيته ، ويهرب من ريحته ، ولم يزل به ذلك العامل حتى يوقظه من سكرته ، ويبعثه من غفلته ، ويستولى على كليته ، ثم يفتح له من جانب روحه نافذة تطل به على كنوز معناه من ذخائر الجمال المعنوى ولطائف النعيم الروحانى ، ولذائذ السعادة الأبدية ، وحدائق الكمالات الحقيقية ، مايذيب فؤاده شوقا اليها ، ولهفاً عليها ، ويأخذ بلبه هياما بها وغراما فيها ولكن : دون

ذلك جهاد ونصب ، وسهاد وتعب ، دون ذلك العدل والاستقامة عدل في استعمال المواهب ، عدل في أعمال الحواس الظاهرة ، عدل في وظائف المشاعر الباطنة، عدل في توجيه القوى الخارجة، عدل في اثارة الاحساسات الكامنة ، عدل في مرامي الأفكار ، عدل في خطرات الخواطر؛ واستقامة في معاملات الخلق ، استقامة في منهاج الحق ، استقامة في التوجه لنوال المآرب ، استقامة في النكوص عند فوات الرغائب ، استقامة حين الفتن ، استقامة وقت المحن ، استقامة في كل حركة وسكون ، !

هذان العاملان العامان المادي والمعنوي لهما في صميم فؤاد الانسان مجال واسع يتصاولان فيه ويتجاولان ، ويتدافعان في أرجائه ويتجاذبان ، والانسان بينهما واقف وقفة المستكين ينصاع لاشارة الغالب منهما ، ويرضخ لسلطان الأقوى فيهما، ولكن لا يلبث المغلوب منهما أن يثور على خصمه ، ويعيد الكرة عليه ، فيرتفع بينهما الصخب واللجب ، ويتجدد العداء والشغب ، ويتنازعان الانسان بينهما من كثب ، فيميل مع من غلب ، وهكذا حتى يجيء يومه فيذهب مع من ذهب !

هذان العاملان العامان قد تقاسما الافراد والأمم، وتوزعا العواطف والهمم ، حتى يعز عليك أن ترى رجلا توصل الى ايجاد الصلح بينهما، فعاش حرا من نزاعهما ، وما الناس الا أحد رجلين : رجل يطلب الدنيا قد تكالب على حطامها ، ووقف كل قواه على التمتع بلذائذها ، فاعمل لذلك مااستطاع من حيل ووسائل ، وما أمكنه من حبائل ومخاتل ، ولم يبال عدل أم جار ، أحسن أم أساء ، وكلما أصاب شيئا

مما طلب ، ونال رشحة مما اليه دأب ، زاد نهمه وكلبه ، ونمى لهفه ولهبه ، واستشرى جشعه وطمعه ، وثار ثوران الحصان الجموح يدوس كلما صادفه من حقوق وأعراض ، ولم يزل فى سورة جماحه حتى تقابله سهام المنايا فى صدره ، فيكون قد أنضب الجهاد ماء قوته ، ونكر الجشع والظلم جمال صورته ، ولاحت أمام عينيه أشباح ضحاياه من بنى جنسه ، واشلاء صرعاه من اخوان حياته ، فتكبكبه فى مهاوى عمله فيودع الحياة وفى قلبه مافيه من حسرات لانعرف لها من اللغة وصفاً !

أورجل (وهذا الصنف أقل من أن يعد) تشبع فكره بسوءات الدنيا وشدة محنها ، وتذوق عقله تفاهة أشيائها وقصر مدتها ، وأحست مشاعره الداخلة بماهية اللذات الروحية وجلالتها ، فصدف عن الدنيا نفسه ، وقصر على الآخرة جهده ، فترك الشغل والعمل ، وصرف مجهوده للفكر والأمل ، ولم يبال عضته الفاقة بناب ، أم راشته الحاجة بسهم ، ولم يسأل أنفحه البرد بزمهريره ، أم لفحه الحر بهجيره ، بل غرق فى لجة التأملات الذاتية ، وأشرف على عجائبه القلبية ، وترك مادته تحت تأثير الفواعل وسلطان العوامل ، وقنع بنعيم روحه عن كل نعيم ، وعن لذائذ الجسمانيات بالصفاء المستديم .

دلنا تاريخ الامم كلها أن الانسان لايقوم أمره ولا ينتظم حاله بواحد من هذين العاملين على انفراده ولا بد من أن يكون كلاهما متسلطين عليه . شوهدت أمم قامت بالعامل المادى فنالت من خير الحياة الأرضية مانالت ولكن لم تلبث أن جار بها ذلك العامل عن

قصد السبيل فورطها فى أنواع من الافراطات والتفريطات كانت السبب فى تلاشيها وفنائها وشوهدت أمم قامت بالعامل الروحانى فنالت من رقى الروح المكانات العلى، والمقامات الفضلى، ولكنها لم تأمن عدوان جيرانها، وجور متاخميها من الأمم، بل ولم تطق فطرتها الصبر على تلك الحالة فجاءها الفساد من ذاتها، وعدى عليها عامل جسدها فذهبت الى حيث ذهب السابقون.

فانتظام حياة الانسان واستتبابها متعلق بايجاد الصلح بين ذينك العاملين المسيطرين على كيانه، وهو مجهود أصبح الشغل الشاغل اليوم للعالم الانسانى فى الغرب خصوصا : فقد أرشدتهم المثلات والحوادث الى ذلك كما سيمر بك ان شاء الله تفصيله؛ ولكن كيف نجد تلك الطريقة وانى نبحث عنها وممن نتعلم حدودها وشرائطها؟

يدل تاريخ الانسان من أول نشأته لليوم ان الحقائق الكبرى لا تسرى الى فؤاده ولا تأخذ مكانها اللائق بها منه، الا اذا رأى لها مثالا محسوسا يحس به وينظر اليه، وتنفعل به نفسه وتنتقش فى ذهنه صورته. فما هو ذلك المثال المحسوس الذى يتعلم الانسان منه كيف يوجد الصلح بين عاملى مادته ومعناه؟

لو كانت المسألة تصورية فكرية لكفاه ما هو موجود فى بطون الكتب من الحث على العدل بين مطالب الروح والجسد ولكن المسألة عملية أكثر مما هى علمية ولا يوجد الآن من يشك فى أن التربية الحقة هى ما كانت بالقدوة الحسنة والأسوة الصالحة لأنها هى وحدها

التى تستطيع أن تستولى على مشاعر الفرد فتقوده الى صراطها رغم أنفه وضد ارادته ، بخلاف التربية بالأقوال فانها تذهب على الأكثر ادراج الرياح ، ولولا ذلك لكانت الامة المصرية اليوم ارقى الأمم فى معارج الكمال الخلق لكثرة مايذيع فيها الآن من الفاظ التهذيب والتربية . ذلك لان الانسان حسى بطبعه لايستطيع أن يرضخ الا للحوادث نفسها والمحسوسات بذاتها . يظهر هذا الخلق منه فى كل حركاته وسكناته حتى فى الحين الذى (يعتقد) فيه أنه (يعتقد) مدركاته بدون شك ولا ارتياب . والافالى أى علة تنسب اتيانه للافراطات وهو يدعى أنه (يعتقد) ضررها على جسمه وعقله ، وبماذا تفسر غشيانه للتفريطات وهو يزعم أنه (يعتقد) أنها عادية على كمال مادته ومعناه ؟ لماذا لايمسك النار المحرقة بيديه ؟ لماذا لايلقى بنفسه فى لجة بحر ؟ لماذا لا يرمى بنفسه من مأذنة ؟ اليس لكونه يعتقد أن كل عمل من هذه الأعمال عاد على حياته ، وعائد عليه بالضرر المحقق ، فان كان يعتقد بدون شك ان كل افراط وتفريط له على تركيبه المادى والمعنوى مثل ذلك الضرر لآنس من طبيعته النفرة عنه والهرب منه ، وان غشى شيئا من ذلك يوما أو أياما فلا تزال عقيدته تزاحم عادته حتى تتغلب عليها تماما . كل هذا يثبت ان الانسان مرغم على ان لا يعتقد الا على الأسلوب الحسى العملى حتى فى الحين الذى يدعى ويحلف فيه انه على غير تلك الصفة ، ولولا هذه النظرية للزمنا أن نقول بان أكثر المتدينين مجانين لأنهم يأتون ما(يعتقدون) ضرره الدنيوى والأخروى ،

ويكسلون عما (يعتقدون) نفعه وضرورته فى كليهما ، ولا حيلة لهم بعد ذلك الا أن يجلسو الى بعضهم فيبكون ويولولون على سوء طريقتهم وشر مآلهم ومنقلبهم ألست ترى أن أكثر الذين يدعون أنهم معتقدون يخاتلون طول النهار ويكذبون ويسرقون ويراؤون ويمنعون الماعون ثم لما يخلون ببعضهم يتحسرون ويتأففون ويحوقلون ويسترجعون ويقولون ضاع الدين وعدم الايمان وذهبت كمالاتها الى الأوربيين فعملوا بها وسادوا علينا وتركناها نحن فهبطنا وانحططنا ، ويظلون يظهرون من هذا الأمر غاية العجب ، ولا يدرون ما حقيقة السبب وهو ما نقوله من أن الانسان حسى بطبعه لا يعمل الا ما يعتقد (بالحس) نفعه . فترك المتدينين لفضائل دينهم وتأسفهم على عدم امكانهم العمل بها لا يشعر بأنهم يعتقدونها بقلوبهم ، فان عمل جوارحهم على ضدها يبين أوضح بيان انهم شاكون فى فائدتها ، مرتابون فى حسن نتائجها . كما أن تحلى الأوروبيين بها لا يدل على انهم متدينون وانما يدل كما يقرون بذلك ، على انهم اختبروها فوجدوها أليق الصفات بالانسان وأمسها بتحسين حياته فلصقوا بها لما احسوا بآثارها الجليلة عليهم . هذا بحث مهم لذيذ يفضح كثيرا من تلبيسات الشيطان على الانسان موضعه فى الجزء الأول من كتابنا وانما جئنا به هنا تمهيدا للبحث المهم الذى نحن بصدده .

قلنا أصبح الانسان بدوافع الحوادث المتكررة فى القرون المتوالية يميل ميلا اضطراريا لأن يجمع بين مطالب روحه وجسده فى سلك

واحـد ويؤاخى بينهما مؤاخاة طبيعية ثابتـة ، وقد دل على هـذا الميل الاضطرارى بلسان قادةمعارفه الماديةأنفسهم كما رأيتوسترىأقوالهم ان شاء الله ، فما الذى يمنعه من احداث تلك المؤاخاة المرجوة ؟

لو كانت المسألةمن المسائل التى تتم بالأقوال لرأيت بعينيك اليوم أساطين دنيا ودين ، وأراكين علم ويقين ، قد اتحدت مطالب أرواحهم وأجسادهم ، فاستقاموا على منهاج الذين خلوا من الأنبياء والصديقين والشهداء ، لأن الأقوال فيها قد بلغت الغاية من أصابة جوهرها ، والاشراف على لبابها ، ولـكن المسألة عملية شاقة تحتاج لأستاذ كبير حلل دقائقها ، وعرف طبائعها ، وخبر أجزاءها ، وأدرك نسبها فى ذاته بالاختبار والحس ، لاترديدا من كتاب ولاحكاية من خيال . واذا كان الترديد من الـكتب والحكاية من الخيال لا يفيدان فى أحداث أبسط الامور العملية فهل يفيدان فى احداث أكبر الأعمال التى من بعض نتائجها إقامة الانسان على منهاج الفطرة ، وايجاد الصلح والوئام بين عاملى طبيعتيه الروحيـة والجسدانية ، الذين جعلاه بتنازعهما يحسد الحيوان فى هدوضميره ، ويغبط النباتات فى عدم ادراكها : «اناعرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا . »

اليك مثالا محسوسا : عرف كثير منا أن المـاء مكون من جوهرين بسيطين وهما الاكسيجين والايدروجين فاعتقدوا ذلك قلباً وقالبالمـا عرفوا من أنه صحيح بالاختبار ، ولـكن اذا مست الحاجة إلى إيجـاد

الماء مهما استحال الأمر عليهم وأدركوا عندئذ أن مجرد العلم بالشيء لايكفي في إيجاده وعلموا أنهم يحتاجون لجملة أمور عملية تشق عليهم بل تستحيل على قوتهم : (منها) استخراج كل من هذين العنصرين على حدة من الاجسام التى هما من مركباتها ، وهو يستلزم المعرفة التامة بوجوه استخلاصهما بالطرق الكيماوية وبوسائل الحصول عليهما نقيين غير مشوبين بمركبات أخرى تحول دون نجاح العملية ،ثم يحتاج الأمر لاحداث الحرارة اللازمة لاحداث ذلك الاتحاد لأنهما لا يتحدان على الدرجة العادية ؟ والخلاصة لايمكن إيجاد الماء منهما إلا بتوقيف الأستاذ الكيماوى وارشاده ارشادا عمليا . هذا مايعوزه إحداثك التآخى بين عنصرين بسيطين كثيرى الانتشار فى الكون وميالين لبعضهما كل الميل وقد رأيت أن مجرد العلم بذلك لايغنيك من العمل شيئاً ، فما بالك بايجاد الوحدة بين مطالب الروح والجسد ؟ للروح مطالب لا يستطيع أكبر الفلاسفة إحاطة بعلم النفس سردها سرداً فضلا عن الاحاطة بحدودها ومعرفة نسبها إلى بعضها ، وللجسد أيضاً مطالب عدة وهى وان كانت أيسر عند الباحث من الأولى إلا أنها تستلزم علما جماً بالمسائل الفزيولوجية (علم وظائف الأعضاء) والزولوجية (علم الحيوانات) والتشريحية ، فان كانت عملية إيجاد الاتحاد بين ذينك العنصرين البسيطين الأوكسيجين والايدروجين تعوز العمليات التى سردتها عليك فان المؤخاة بين الروح والجسم تستدعى من العمليات مايتلاشى بجانبه كل مارأيت ولا يعد شيئاً يذكر . ألا ترى معى أنها

تستوجب إحاطة كبرى بقوى الروح وأنواعها ، ونسبها إلى بعضها ، ومامنها مقدمة لتاليه ، وما منها نتيجة لسابقه، وما منها منتقل، ومامنها تابع ، ومامنهامتبوع ، ومامنهامتغير ، ومامنهاثابت ، ومامنهامتعاد ، ومامنها متوافق ؛ ثم إن كل هـذا يستدعى الماما كليا بمجارى سيالات كل منها ومنابعها وغاياتها وتعرجاتها فى سيرها ونكوصها على نفسها ، ثم تستلزم إدرا كا ذريعا بحاجيات الجسد ومسارب تيارتها وما منها جوهرى طبيعى ومامنهاعرضى وهمى ومامنهاصالح ومامنهافاسد ؛ ثم تقتضى وقوفا تاما على وجه نسبة كل قوة روحية بما يقابلهامن حاجيات الجسد، وتحريا مضبوطا فى كيفية توفيق نتائج تلك النسب الجزئيةمع بعضها لتنضم كلها الى نتيجة واحدة يكون من أثرها المؤاخاةالتامةبين مادةالانسان ومعناه وانقطاع تلك المنازعة الشديدة بينهما ، وهى التى حرمته من الغبطة بنفسه والتنعم بجمال روحه

نعم ان هذه العملية الانسانية الجليلة لتحتاج الى استاذ مجرب وموفق ذاقها فى ذاته وصار هو نفسه النموذج الناطق بها ،فما هو ذلك الرجل الذى يصح أن يتخذ مثالا لهـذا الكمال الانسانى المحبوب ؟ هو عبد الله ورسوله خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم . لسنا نقول هذا مجرداعن الدليل ؛ او عاريا عن الحجة فان الوجود ومافيه شهود عدول ودلائل ناطقة وما علينا الا ان نتناول منها بأقلامنا مانشاء فانتظر ترالعجب العجاب ان شاء الله . نحن فى سيرنا فى السيرة المحمدية الكريمة على الأسلوب العلمى لانريد أن نقيم اعدل الحجج

العلمية على نبوة خاتم النبيين فقط ، بل نريد أيضا ان نعرف ان شاء الله السبيل الذى يجب على كل مسلم أن يسلكه لنجاة نفسه واستنزال الرحمة الالهية على قلوبنا التى تسممت بسموم مايحيط بنا من هذا البدع الجديد الساحر . من هذه الحيثية نرى أنفسنا فى حاجة كبرى فى كل خطوة نخطوها فى بحثنا الى مدافعة حجب كثيرة حالت بين النفوس وبين القلوب فغيرت فى نظرنا كل شىء ونكرت فى بصائرنا كل صورة حتى تكاد تلبس الالفاظ غير مدلولاتها . ولئن تعجب متفلسف متعسف من قولنا ان نبينا صلى الله عليه وسلم هو الكمال المجسم والنموذج الذى يجب تعلم كيفية إيجاد الوحدة بين الروح والجسد منه فقد قالت مثل ما نقول أمة باسرها بعد ان كانت من الشك بحيث يقول الله عنها : « ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون .» ثم انتهى أمرها بالخضوع له والاقتداء بهديه وسنته نصارت بعد ان لم تكن أمة عدت خير أمة أخرجت للناس ونالت من بسطى الحياة المادية والروحية مالم تنله أمة قبلها ولا بعدها . هذه الظاهرة الاجتماعية الكبرى كادت الغواشى المدنية والالفاظ العلمية القشرية تنسينا عظمتها بل تعمينا عن جلالتها . لو صحت وأنا فى القرن العشرين باعلى صوتى وبين قادة العلوم الاوربية أنفسهم وقالت روح محمد أكبر روح ظهرت فى بنى آدم منذ نشأتهم لليوم لما استطاع أحد أن يتردد فى صدق قولى ولو تردد لقلت له ارنى رجلا فرداً نجح وحده فى أمر واحد فقط من هذه الأمور (١) توحيد

أمة منقسمة إلى قبائل متعادية (٢) سن قانون كفل لها السلطان على جميع الامم بعد أن كانت لا تعد فى مصافها (٣) ملاشاة رذائلها الوراثية وابدالها بفضائل اتخذت مثالا للكمال الانسانى (٤) نسف عقائدها الباطلة وابدالها بدين لايزال يزيد وينمو بصفة مدهشة الى اليوم وينتظر أن يرث كل الأديان الباقية . فعل كل ذلك ولم يفقد من طهارة نفسه ولا سمو روحه مثقال ذرة أى أنه عاش وسط هذا النجاح الذى يفتن أقوى الأفئدة زاهداً عابدا عادلا كما كان فى أول يوم من دعوته، وكان فى كل أفعاله المثال الكامل والنموذج الناطق والميزان العادل ؟ إذا كانت كل هذه الفتوحات المادية لم تستطع ان تؤثر على الفؤاد المحمدى العظيم ولا أن تفتن نفسه الطاهرة مع علمك بأن عشر معشار هذا النجاح فى شق صغير من مثل عمله قد فتن الملوك والمشرعين والفلاسفة والقواد أفلا يكون هذا أقوى دليل محسوس على ان لديه صلى الله عليه وسلم السر الذى من عرفه آمن على نفسه سلطان الفتن ، والاكسير الذى من تعاطى منه جرعة وقى المحن ، واستقام على اعدل سنن ؟

﴿ كيف كان العالم قبيل بعثة ﴾
(النبى صلى الله عليه وسلم)

قلنا فى فصلنا الثالث من كتاب (الانسان) ان لكل جيل روحا عمومية تنتشر فى أفق العالم فتعم سائر الأمم الداخلة فى نطاق الاتصال بأثر واحد تظهر نتائجه فيها على حسب قابليتها ، وقلنا إن تلك الروح قد تكون سامية شريفة أو سافلة وضيعة ، أو مختلطة من هذه وتلك ،

وقلنا إن وظيفة الأنبياء محصورة فى إيجاد روح جديدة فى الأمم التى يرسلون اليها « يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده . » لتقاوم تلك الروح السائدة وتلاشيها لتحل مكانها فترفع الأمم من معارج التقدم الى الدرجات التى قدرت لها ، وقلنا إن أظهر مثال لنظريتنا هذه أعمال خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم « وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا » .

قلنا ذلك فى الفصل المشار اليه ونريد من هذا الفصل أن نجلى لقرائنا تلك الروح العمومية التى كانت منتشرة فى أفق العالم قبل بعثة النبى صلى الله عليه وسلم لنبين لهم بطريقة محسوسة أن حال الأمم كافة كان يستدعى الاصلاح والتعديل ، ويستلزم قارعة عظمى تقيمهم على نهج السبيل ، وليتجلى لهم بأدل دليل أن رسالته كانت للعالم كافة كما قال الله تعالى « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لايعلمون . »

مما رأيناه بالبحث والاستقراء أن روح رسول الله صلى الله عليه وسلم كما لبثت تقاوم الأرواح المحيطة بها وتجاهدها ثلاثة عشر سنة من عمر الفرد الواحد ثم ظهرت بعدذلك عليها ظهوراً سريعاً مدهشاً ودانت لها أرواح العرب كافة فى عشر سنين أخر ، كذلك بقيت روحه الكريمة تصاول الأرواح العامة المحيطة بأمته من كل جانب ثلاثة عشر قرنا من عمر العالم ثم ابتدأت بعد ذلك فى الظهور والجلاء والتأثير على العواطف والاحساسات بطريقة فى غاية الغرابة . ومن

يتأمل فى الثلاثة عشر قرنا الماضية ويطلع على ما كتبه أعداء الاسلام على الاسلام والمسلمين تحريفاً لتعاليمه ، وتشنيرا على قواعده وأصوله ، ووشاية وإيقاعا بأهله ، ووصمهم بما لا يتصوره العقل من الوصمات الفاضحة ثم يتأمل فى مجموع الحركة الاسلامية المنبعثة من ذات أوربا فى هذا القرن ، ير أن الشبه تام بين تأثير الروح المحمدية العظيمه فى عمر الفرد الواحد ، وبين تأثير الروح العامة التى أودعها فى أمته فى عمر العالم . وبما أن المدة بين بدء انجلاء هذه الروح الكريمة الى تمام ظهورها وكمال سطوعها كانت عشر سنين من عمر جيله فكذلك نظن أن المدة بين بدىء تجلى روحه فى العالم أجمع الى تمام أشراقها سيكون عشرة قرون ، فلا يأتى القرن الثالث والعشرون من الهجرة حتى يكون القرآن دستور الأمم كافة ، يتلوه التالى فى المشرق فيرن صداه فى المغرب ، وليس هذا بعجيب لأنه الحق الصميم والأمم بمجموعها مسيرة سيرا اضطراريا نحو الحق بعامل ناموس الترقى فلا بد من أنها ستنتهى الى القرآن كما قال تعالى « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

وبما أننا وصلنا من بحثنا الى هذه النقطة فسيكون بحثنا على الانسان والانسانية فى الجزء الأول سائرا مع بحثنا فى حياة سيد الأنام صلى الله عليه وسلم ، لأننا رأينا كما سيراه قارئنا معنا أن الروح المحمدية التى أدبت الأمم كافة حين ظهورها ، هى بعينها التى تؤثر عليها لليوم وتجذبها الى نورها شيئاً فشيئاً . وبما أننا تكلمنا اليوم فى فضل الانسان

على الأرواح العمومية فنريد أن نجلى للقارىء الروح العمومية التى كانت قبيل بعثة النبى صلى الله عليه وسلم بشهادة علماء أوربا أنفسهم ليكون الكلام أعجب فنقول :

كتب المسيو (جول لابوم) فى مقدمة فهرسته الذى جمع فيه الآيات القرآنية الشريفة المتماثلة تحت عنوان محمد مايأتى :

« لأجل أن يفهم الانسان تمام الفهم أى دعوة من الدعوات يلزمه أولا الالمام بحال الداعى فى ذاته ، ولأجل أن يقدر قدر دعوته يجب عليه أن يدرس الجهة البشرية التى وجه همته للتأثير عليها . هذا هو الغرض من هذه النبذة الوجيزة التى خصصناها للمشرع العربى مؤسس مايمكن تسميته بالجامعة الاسلامية .

« حوالى ميلاد محمد (صلى الله عليه وسلم) فى القرن السادس الميلادى كان جو العالم متلبداً بغيوم الاضطرابات والفتن . فكان شعب (الويزيجو) الآريين فى اسبانيا وفرنسا الجنوبية يصاولون الملك (كلوفيس) وأولاده الكاثوليكيين فكانوا من أجل ذلك يطلبون مساعدة امبراطور مملكة الرومان الشرقية المدعو (جوستنيان) ثم جبروا بالدخول معه فى حرب جديدة تخلصاً من سلطة القواد الذين جاؤوهم بتلك المساعدة فقد كانوا يزعمون أن لهم حق الفاتحين لامجرد ولاء المساعدين الحامين .

أما فى فرنسا نفسها فكان أولاد (كلوفيس) هذا متغادرين متسافكين وكانت الحروب التى شبت نيرانها بين المملكة الويزيجوتية

(برونهو)والملكةالفرنكية (فيريديجوند) تهيء التاريخأشدالصحائف اثارة للأسى والكمد .

أما فى انجلترة فكان (الانجلو) ينازعون (السكسونيين) الأرض التى احتلوها واستعبدوا فيها ذرية (كيمريس) وهم أقدم المغيرين على تلك الجزيرة التى تتطلع اليوم للوقوف فى مقدمة الأمم علما وصناعة وقوه ، وهى التى كانت فى ذلك الوقت مجالا للقوة الوحشية السائدة فى تلك الغياهب الحالكة .

أما فى إيطاليا فكان اسم (الرومان) وهو ذلك الاسم الشامخ قد فقد أهميته القديمة وكانت رومة وهى الشظية الأخيرة أو رأس ذلك التمثال الكبير المتهشم (يعنى مملكة الرومان) فى حالة تململها من استحالة أمرها الى مركز دينى بسيط . ترتج وتضطرب كلماألم بهاطائف من ذكرى عظمتها القديمة أيام كانتمركزاً دينياً أصلياً . نكانتتهيء نفسها لأن تكه ن . ركز البابوية وهى تلك السلطة الزمنية كما اقتضت سياسة (شرلمانى) أن يجعلها كذلك بعد قرنين منالزمان : ولكنها مع ذلكلم يسعهاحمل نير (الهيرولبين)و (الاستروجوتين) وامبراطرة المملكة الرومانية (واللومبارديين)الذين تداولواالسلطهعليهاتداولا .

أمامملكة اليونان التى كانت قدنسيت مجدها القديم فكانت نابعة لمملكة الرومان الشرقية مثلها منها كمثل الزينة ذات الضوضاء . وكان شرق أوروبا مقلقا جنوبها من أول مصاب نهر (الران) من جهة الغرب نناية مصاب نهر (الدانوب) من جهة الشرق . فكان

(الاسكنديافيون) و(النورفيجيون) و (الدانماركيون) يتزاحمون فى الطريق الذى سلكه(الجوتيون) و (الهونيون) الذين احتلوا(تارس) و (مكدونيا) و (لومبارديا) (وإيطاليا) سواء بالقوة أو بالخديعة .

فى ذلك الوقت بدأ ظهور الأتراك من أعماق آسيا الصغرى، وهى تلك الأمة التى حصرت فيما بعد مملكة اليونان حوالى أسوار القسطنطينية.

« التصوير البديع الذى جادت به قريحة المسيو (رينان) لبيان مركز الامبراطورية الرومانية فى القرن الاول من التاريخ المسيحى لا علاقة له البتة بالتصوير الممكن عمله لتجلية حال أوربا فى القرن السادس : تلك كانت مفاسد قيصرية مختمرة ، أما هذه فوحشية حربية تلعب بالارواح وتتمرغ فى الأوحال (١)

« أما آسيا فلم تكن أهدأ بالا من أوربا فى شىء : فمملكة (تيبت) و (الهند) التى اقتبست منها الأمم السائدة فى أوربا الآن قرائحها وأفكارها العامة ولغاتها ، والصين التى تعد مسألتها أغرب المسائل السياسية والفلسفية . وبالاختصار أغرب المسائل الاجتماعية ، كانت هذه الممالك كلها ممزقة الأحشاء بالحروب الداخلية والخارجية المتضاعفة بالمنازعات الدينية .

أما السفح الشمالى من الهضبة الأسيوية العالية التى هى فى حوزة الروسيا الآن ، فكانت غير معروفة على الاطلاق . « أما مملكة الفرس

(١) كتاب الانبياء الفصل السابع عشر

التى كانت أحوالها مرتبطة بأحوال الغرب خصوصا من لدن تجريدة الاسكندر المقدونى فكانت مشتبكة فى حرب مع اليونان الرومانيين فى القسطنطينية الذين كانوا أصحاب السلطة على آسيا الغربية .

«أما فى افريقيا فكان هؤلاء اليونان الرومانيون أنفسهم وهم أخلاط من عساكر وتجار وحكام مجموعون من آفاق مختلفة ، دائبين على امتصاص دم القطر المصرى وعاملين على جعل مصر العلمية ذات المجد القديم كالجثة المصبرة عديمة الحس والحراك . وكان هذا شأنهم أيضاً فى الأقاليم الخصبة وقتئذ الواقعة فى الجهات الشمالية من افريقيا التى انتزعوها من أيدى (الفنداليين)

« والخلاصة كان جو العالم الارضى متلبدا بسحب الاضطرابات الوحشية فى كل جهة ، وكان اعتماد الناس على وسائل الشر أكثر من اعتمادهم على وسائل الخير ، وكان أجمع الرؤساء للثقة والطاعة أشدهم صيحة فى اصلاء نيران الحروب والمعارك . ولم يكن يأخذ بعواطف القلوب ولا يؤثر عليها تأثيرا حادا وان كان وقتيا الاشىء واحد وهو : الغنيمة وسلب الأمم والشعوب والمدائن والأعيان ورجال الحروب وفقراء الحراثين وبسطاء المتسولين . ولولا شعاع ضئيل من الحكمة كان يتألق فى بعض صوامع الكهنة وبعض الجرائم الفلسفية التى كانت بمعزل عن أعاصير تلك المشاغب وانتقلت من روح الى روح أخرى بواسطة بعض أصحاب الجسارة من رسل الرقى فى المستقبل لكانت البربرية أسرعت فى خطاها مقودة بغطرسة زعماء البهيمية واستحالت

الى وحشية محضة .

«مع هذا كله كان هنالك ركن من أركان الأرض لم يصبه لفحة من هذه الحركة ولكن لم يكن ذلك لحكمة أهله ورجاحة عقولهم ، بل بسبب موقعهم الجغرافى البعيد عن مضطرب الامم التى كان يقال انها متمدنة . ذلك الركن هو شبه جزيرة العرب التى ما كانت تسمع انفجار أعاصير تلك الفتن الهائلة فى أوروبا الاعن بعد وما كان يصلها ذلك اللغط الا فى غاية الضعف والضؤولة . وكانت تجهل وجود الهند والصين فلم تك تتعدى علاقاتها مع آسيا حدود بلاد الفرس ، ولم تعرف لديها الفرس الا بواسطة أخبار الانتصارات أو الهزائم التى كان من ورائها رد بعض الوديان العربية القريبة من سوريا الى تبعية امبراطرة القسطنطينية تبعية اسمية ، أو رفع نير تلك التبعية الاسمية عنها ، على أن ذلك الوادى الأخير كان يهم بلاد العرب جدا لان ابناءها كانوا يذهبون اليه للتجارة وكان لها فيه أبناء استعمروا الشاطىء الغربى من نهر الفرات وصعدوا رويدا رويدا الى بحر قزوين . ومما يشبه المساتير الدينية انها بقيت منفصلة عن القطر المصرى الذى أغار على جنوبه العرب الرعاة ولم ينجلوا عنه تماما الا بعد أن انجلى عنه بعض اخوانهم المتأخرين وهم الاسرائيليون تحت قيادة موسى (عليه السلام) حينما استرد المصريون السلطة وعاملوهم معاملة البهائم .

أما المملكة الوحيدة التى كان بينها وبين العرب صلة وعلاقة فهى بلاد الحبشة . اما الجهة الشمالية من افريقيا التى أغاروا عليها مرتين

والتى كانت بجانبهم نقطة النزاع بين الرومانيين والقرطاجيين وبين يونان القسطنطينية والفند اليين فكانوا لا يحملون بوجودها .

ثم قال : قال المسيو (كوسان دوپرسوفال) فى كتابه تاريخ العرب « ان المتحضرين من عرب البحرين والعراق كانوا خاضعين للفارسين أما المتبدون منهم فكانوا فى الحقيقة احرارا لا سلطة عليهم . وكان عرب سوريا دائنين للرومان . أما قبائل بلاد العرب الوسطى والحجاز الذين ساد عليهم التبابعة وهم ملوك حمير سيادة وقتية فكانت تعتبر انها تحت سيادة ملوك الفرس ولكنها فى الحقيقة كانت متمتعة بالاستقلال التام الذى لا غبار عليه »

ثم قال (جول لا بوم) : « ولم يكن العرب احسن استعدادا من غيرهم لقبول أى دين من الأديان قال المسيو (دوزى) فى كتابه (تاريخ عرب اسبانيا) : كان يوجد على عهد محمد (صلى الله عليه وسلم) فى بلاد العرب ثلاث ديانات : الموسوية والعيسوية والوثنية ، فكان اليهود من بين اتباع هذه الأديان أشد الناس تمسكا بدينهم وأكثرهم حقدا على مخالفى ملتهم . نعم يندر أن تصادف اضطهادات دينية فى تاريخ العرب الاقدمين ولكن ما وجد منه فمنسوب الى اليهود وحدهم . أما النصرانية فلم يكن لها اتباع كثيرون ، وكان المتمذهبون بها لا يعرفونها الا معرفة سطحية . . . وكانت هذه الديانة تحتوى على كثير من الخوارق والاسرار بحيث يعز أن تسود على شعب حسى كثير الاستهزاء . أما الوثنيون الذين كانوا هم السواد

الأعظم من الأمة والذين كان لكل قبيلة بل اسرة منهم آلهة خاصة والذين كانوا يصدقون بوجود الله تعالى ويعتبرون تلك الالهة شفعاءهم لديه فقد كانوا يحترمون كهانهم وأصنامهم بعض الاحترام ولكنهم مع ذلك كانوا يقتلون الكهان متى لم يتحقق أخبارهم بالمغيبات أو لو عولوا على فضحهم الاصنام بأن قربوا لها ظبية بعد أن نذروا لها نعجة . وكانوا يسبون اصنامهم اذا لم تنلهم مطالبهم ولم تسعفهم بآمالهم . قال المسيو (كوسان دوبر سوفال) : « من العرب من كان يعبد الكواكب وخصوصا الشمس ، فكنعان كانت تدين للقمر وللدبران ، وبنو لخم وجرهم كانوا يسجدون للمشترى ، وكان الأطفال من بنى عقد لعطارد ، وكان بنو طى يدعون سهيلا وكان بنو قيس عيلان يتوجهون للشعرى اليمانية » . وكان علمهم بما وراء الطبيعية على نسبة أفكارهم الدينية ، قال (كوسان دوبرسوفال) فى كتابه تاريخ العرب: « كان من العرب من يعتقد بفناء الانسان اذا خلعته المنون من هذا العالم ، ومنهم من كان يعتقد بالنشور فى حياة بعد هذه الحياة ، فكان هؤلاء الأخيرون اذا مات أحد أقربائهم يذبحون على قبره ناقة أو يربطونها ثم يدعونها تموت جوعا معتقدين أن الروح لما تنفصل من الجسد تتشكل بهيئة طير يسمونه الهامة أو الصدى وهى نوع من البوم لا تبرح تطير بجانب قبر الميت نائحة ساجعة تأتيه بأخبار أولاده فاذا كان الفقيد قتيلا تصيح صداه قائلة « اسقونى » ولا تزال تردد هذه اللفظة حتى ينتقم له أهله من قاتله بسفك دمه . »

قال المسيو لابوم بعد ايراده هاتين الجملتين من الاستاذين السابقين :
« كانت طباع العرب وأخلاقهم لاتدل الناظر اليها الا على انهم شعب لم يكادوا يجوزون العقبة الأولى من عقبات الاجتماع لو لم تكن الأسرة عندهم بل القبيلة أيضا — وهى نقطة تستلفت النظر — تهتم اهتماما عظيما بحفظ سلسلة نسبها ولو لم يكن — وهو أمر أغرب من سابقه — ادراكهم للقوانين وسعة لغتهم من جهة أخرى داعيا الى الالتفات بنوع أخص » : ثم قال مباشرة « قال المؤلف المحقق الذى اقتبسنا منه أكثر هذه التفصيلات المتقدمة : كان العرب مغرمين بشرب الراح .

ويوجد من الشعر ما يدل على انهم كانوا يفخرون ويعجبون به وبلعب الميسر . وكان من عوائدهم ان الرجل له أن يتزوج من النساء بقدر ما تسمح له به وسائله المعيشية ، وكان له أن يطلقهن متى شاء هواه ، وكانت الأرملة تعتبر من ضمن ميراث زوجها ، ومن هنا نشأت تلك الارتباطات الزوجية بين أولاد الزوج ونساء الأب وقد حرم ذلك الاسلام وعده زواجا ممقوتا . . . . وكان هنالك عادة أفظع من كل مامر وأشد معارضة للطبيعة وهى وأد الأهل لبناتهم . (أى دفنهن أحياء)

« هذا كله لا يشير الى أن العرب لم يكن فيهم أى جرثومة خلقية صالحة يمكن تقويمها وتهذيبها ، فقد كانوا يحبون الحرية حبا جما ويمارسون فعائل الكرم وبذل القرى .

« الافراد الذين كانوا تابعين لأمم أرقى من الأمة العربية والذين كانوا مبعثرين هنا وهناك من جزيرة العرب كانوا قليلى العدد جداً ولا يظهر أنهم كلفوا أنفسهم بوظيفة الدعوة الى مللهم . فاليهود الذين كانوا متشبعين بالأثرة الشعبية على مثال الصينيين واليابانيين والمصريين لا يرى منهم لليوم خاصية التأثير على غيرهم الا بالخضوع لقوانين الأمة التى يشتغلون تحت ظل حمايتها بالأمور المالية . ولئن شوهد أنهم أدخلوا الى ملتهم بعض العرب ، فلم يكن ذلك الا نتيجة بسيطة لاشتراكهم فى الأساطير التاريخية ، وهو اشتراك يدل على قرابة قريبة بين الأمتين ؛ تلك القرابة يستدل عليها أيضا بتساويهم فى حب الكسب ، وتآزيهم فى الاستعداد لعدم الانفة من سلوك أى طريق من الحيل والمكر لنوال كسب أو حطام . ولا ينتظر أن يكون من نتيجة الاجتماع بهذه الاعتبارات أدنى ترق أدبى . أما المسيحيون فكانوا يفدون شيئاً فشيئاً الى بلاد العرب هربا من الاضطهادات الدينية التى كانت فى مملكة الرومانيين ولكن لم يكن فى حالهم نور يستلفت البصر تألقه ، وفى حالة مسيحي الحبشة اليوم نموذج لذلك ، فانه لا يمكن أن يتحلى الانسان بمدركات العقائد السامية من دين بمجرد التسليم بنص تلك العقائد.

« فى عهد هذه الأحوال الحالكة ، وفى وسط هذا الجيل الشديد الوطأة ولد محمد بن عبدالله (صلى الله عليه وسلم) فى ٢٩ أغسطس سنة ٥٧٠ » انتهى

هذه هى الروح العمومية التى أرسل المصلح الأعظم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لملاشاتها وتخليص العالم من غوائلها ، وقد رأيت بلسان الأجنبى عن الاسلام أنها كانت محاطة بالأمم الداخلة فى نطاق المواصلات العامة احاطة السوار بالمعصم ، وفاعلة فيهم الأفاعيل المحزنة بحيث تدل الرائى لأول وهلة ان بقاء الانسانية على تلك الحالة يؤدى بها الى التلاشى العاجل ، ويريه بطريقة جلية أن لابد من صاخة كبرى تنزل على تلك الأدمغة الجامدة ، والقلوب الصلدة فتردها عن غيها ، وتكبحها عن جماحها ، وهذا ماحصل على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وامام المصلحين ، وفى التفصيل بلال الغلة ، وشفاء النفس فانتظره تر العجب ان شاء الله .

﴿ الاسلام حيال الادوار التى تنتاب العقائد ﴾

قلنا ان كتابنا فى حياة خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم سيكون ان شاء الله تعالى كمرآة تتجلى فيها صورة موجزة من أعمال تلك الروح العظيمة فى العالم واننا سننهج لذلك المناهج التى نستفيد منها فى تعديل عوجنا وتقويم أودنا ومداواة عللنا لهذا نرى أنه لامناص من أن نختط لأنفسنا خطة جديدة لم يقم عليها من سبقنا من كتاب السيرة الشريفة وفاء بمطلوب الروح العلمية الجديدة واستشرافاً لسبحات الأنوار المحمدية من جهتها التى تنطبق على أحوالنا فى العصر الذى نحن فيه .

وبما أننا وصلنا من بحثنا فى كتاب الانسان الى تفصيل حوادث تلك الحرب القائمة بين الاعتقاد والعلم وبسط الادوار المختلفة التى دخل فيها الانسان تدريجا تحت تأثير ناموس الترقى مما لا نشك فى أننا داخلون فيه أيضا فلا بد لنا من التعويل فى حياة المصلح الأعظم صلى الله عليه وسلم على أسلوب ينطبق على تلك الأدوار نفسهالنجد منها الدواء المناسب لنا فنقول :

هل يمكن أن يعيش الانسان بلا دين

الجواب على هذا السؤال يستدعى أولا معرفة كنه الدين . لأنك لو حددته بأنه مجموع العقائد التى يتلقاها الانسانعن أمه وأبيه ، وينقشها فى ذهنه معلمه ومربيه ، ويزيدها الوسط الذى يعيش به نشوباً فيه أو أنه تلك الاساطير التى تفرقت عليها الأمم أحزاباً ، وانشقت بها الشعوب أسراباً ، وكثر فيها الجدال أحقاباً ، وصقلتها القرائح فصارت فصولا وأبواباً ، فلا تعدم قائلا يقول :

« تلك أيام خلت ، وسنين مضت ، وأدوار حدثت وانقضت . وقد استقام الانسان بعد ما تجاذبته الأدوار والأطوار وتنازعته المذاهب والأحزاب ، على طريق العلم الذى لم ينله الا بعد ما بذل مهجة فؤاده وضحى فى سبيله عزيز حياته ، وبهذا قد دخل فى دور نهائى ليس الدين عليه فيه سلطان ، ولا للعقائد فى فؤاده مكان وصارت ، الأديان فى نظره من

ضمن أساطير الماضى يلقى نظره عليها تفكها بسير من غبر ، واستجلاء لوجوه العبر من مقادير البشر . أ لا ترى أن التدين اليوم قاصر على الأمم الشرقية . المتأخرة فى ميادين المدنية . ومن تراها من الامم الغربية ، على شيء من العقيدة الدينيه ، فسهمها من الحضارة أنقص من سهم من تخلصت منه تماما ، وليست فيها تلك البقية الا لتأخرها عن غيرها فى مجال العلوم والفنون، وابطائها فى ترك ما كان عليه الأقدمون ، وليس بينها وبين مساواة غيرها فى عدم الدين الا تعميم العلم فى البنات والبنين، وأنتم معاشر الشرقيين ، لاسبب لتأخركم عن غيركم وجمودكم على حالكم ، الا انكم تريدون أن تعيدوا مثل الاولين ، وترجعوا سنة الماضين ، فى الحياة بتعاليم الدين . وكيف يتأتى ذلك وحياة الامم كحياة الافراد أطوار بعد أطوار ، ورقيها أدوار بعد أدوار ، ولكل طور لوازم ومقتضيات ، ولكل دور حالات ومناسبات ، فما مثلكم فى نشوبكم بالدين وأحكامه ، وتعلقكم بآدابه وأهدابه ، الا كمثل من أراد أن يعيش طفلا وقد دخل فى دور الشبوبية فكما أن للشاب أميالا وعواطف لا يحس بها الطفل ولا يتخيلها حتى يستحيل أن يتصنع أحدهما حالة الآخر : كذلك للامم فى كل دور من أدوار حياتها أميال وعواطف يستحيل معها أن تتصنع انها فى دور غير دورها ولو بذلت فى ذلك غاية وسعها .

هذا هو سر جمودكم وهبوطكم ومادمتم لا تعرفونه ولا يقوم فيكم رجال جسورون يدعونكم إلى تقليد الأوربيين فى ترك الدين بالمرة

أو بالأقل لفصله عن حياتكم الاجتماعية كما فصلوه هم قبلكم ببضعة قرون فلا يرجى لكم إصلاح مطلقاً .
ومما يستغرب من أحوالكم أنكم تريدون أن تجاروا أوربا وتساموها فى حركتها ومدنيتها وأنتم كارهون دورها الذى هى فيه فكأنكم تريدون أن تباروها وتسبقوها وأنتم على ماأنتم عليه من الجمود على دور سابق . مثلكم فى ذلك كمثل شخص جاز دور الطفولية ولكنه عز عليه أن يخلع مناسباته عنه وهو مع ذلك يريد أن يسابق شابا آخر رضخ لأحكام الطبيعة ولم يعارض فعلها عليه فقادته الى طريق الحياة الكاملة ورفعته من الكمال الى الدرجات المقدرة له . لاجرم تذهب أتعاب الاول أدراج الرياح ولا يكون حظه من الحياة الا الأسر والانغلاب ، والرضوخ للأقوى وحمل نيره على عاتقه . »

هذا مايجيش فى صدر بعض من شربوا من دن المعارف الأوربية فى القرن الماضى وهو بعينه مايتغنى به على وتر الفلسفة بعض الكتاب ويحتالون على بثه فى الأذهان بكثير من الوسائل : تارة فى أطواء المقالات العلمية فى المجلات الدورية . وطوراً فى الأبحاث السياسية ، على صفحات الصحف اليومية ، وقد نجحوا بعض الشىء فى إشرابها فى نفوس كثير من الاحداث حتى أخرجوهم عن دائرة الجامعة التى تربطهم بماضيهم . وهى من أقوى الشبه التى لو نشبت فى الاذهان حلت معاقد العقائد منها وأصبح تعب الكتاب الاسلاميين فى إرجاع الدين الى الاذهان كالضرب فى الهواء أو الكتابة على الماء .

لهذالانرى بدامن بسط أمثال هذه المدركات المضرة بغاية الحرية والصراحةلأنها المكاريب الكامنة فى النفوس الناشبة بالأفئدة ، بل الرجزالمنتشرةجراثيمه فىالهواء مما لامناص لكل حى من تنسمه فهى إن صادفت رئتى ناشقهاضعيفتين سممتها وحللتهاتحليلا ،وإنوجدتهما قويتين ساورتهما من مكان قريب وعطلت من حركة صاحبهما بعض التعطيل .

ولما كانت الحكمة فى معالجةالأمراض تقضى بابادة جراثيمها أولا بدل مكافحة أعراضها التى لاتزول حتى تظهر ولا تضمحل حتى تنشط ، فقد رأيناأن تتعقبها فىمكامنها ونفتق دونهاالحجب حتى نصل الى مواطنها ومساقط ويلاتها

﴿ ماهو الدين ﴾

ليجرد الانسان نفسه ولو لحظة من آثار الوراثات المختلفة التى لهـا السلطان الأقوى على فكره وخطرات هواجسه وعلى كل حركة وسكون فيه ، وليمح من لوح ذاكرته كل مانقشته فيها المؤثرات المختلفة فى المكان الذى يعيش به وفىالأسرة التى هوفرد منهـا وفى الجمعية التى هو من آحادها ، وليتناس كلما علمه عن الوجود وكائناته وماأدركه من مخلوقاته ، وليحسب نفسه خلق من ساعته ، ثم لينظر إلى الوجود نظرالذى لايملك من العلم إلا ماتهديه اليهمشاعره الظاهرة ، وإحساساته الباطنة ، وليبدأ بتسريح نظره فى تلك القبة الزرقاء التى تحيط بالكون من كل جانب ، ثم ليمر به على مايحيط به من الخلاء المترامى الأطراف إلى كل جهة يوجه اليها بصره . ثم ليلق نظره على نفسه بعد ذلك ، فماذا

يجيش فى صدره من هذه الجولة السريعة ؟ لامشاحة فى أنه يؤوب وفى نفسه رعدة من الخوف والدهشة ، وألم من الفرق والوحشة ، لما تبين له من عظم الكون وشسوع أكنافه ، وحقارة شخصه وضؤولة جثمانه .

رأى تلك اللانهاية فوق رأسه فوقف عقله منها حيث انتهى بصره وارتد فكره منهزما يرجف من شدة ما أصابه من فخامة هذا المجهول الهائل المسدول عليه من كل جانب !

أراد تصوره بما فطر عليه من حب اكتناه المساتير أن ينفذ إلى صميم ذلك الأمر الجلل فانحلت عزماته انحلالا ، وارتخت معاقد همته إرتخاء . وأخذ الفزع بتنفسه أخذاً كاد يفقده حسه من شدة ماشعر بحقارة ذاته وتفاهة أمره فى وسط هذه اللانهاية الفخيمة !

رنا ببصره الى ماحوله ، وما بين يديه وخلفه ، فرآه محاطاً بفضاء تضيق عنه سعة خياله ، ويحرج دونه متسع وهمه ، فأنزل نفسه منه على قدر ماأخذه جسمه من حيزه غير المتناهى ، فكاد يصعق من الوجل أمام هذا السكون المطلق ! فاذا جن عليه الليل وهو فى تلك الحالة الساذجة ورأى أديم السماء قد تلون بذلك اللون القاتم ، وتلألأت فى ارجائه النجوم والكواكب ، وبرزت تلك القبة السماوية فى ذلك المعرض المرصع . وزادتها مهابة الليل فخامة وعجباً ، ازداد أمرها غموضاً على فكره وتبين له أنه وسط بحر من مجاهيل وأسرار أيسرما يسطيعه أمامها الاقرار بعجزه وضعفه ، والخنوع بحقارته وضؤولة شخصه ، واحتياجه المطلق لملجأ يلجأ اليه ، وموئل يعول فى النجاة عليه ، وفقره لقوى يهبه من

قوته، ورحيم ينشر عليه من افاضات رحمته .

هذا هو مبدأ التدين والباعث الطبيعى على العقيدة، والسائق القاهر للبحث عن خالق الكون جل وعز ، وهو بعينه الدافع الذى دفع الأمم لتكوين الأديان ، والرضوخ للكهان ، وتسليمهم أمرهم فى كل شان ، وهو بذاته أيضاً الداعى لارسال الله تعالى رسله تترى الى الأمم بالهدى ودين الفطرة

ربما يقول قائل : « ان هذا التصوير البديع ان صدق على الأنسان مجرداً عن آثار العلم فلا يصدق عليه وهو كما نراه اليوم ، ثملا من رحيق المعارف ، نشوان من سلافة المعلومات ، مدعياً انه أدرك المعلولات والعلل ، ووقف من أمور الكون على مالم يحلم به الأول ، ولا اضطرب لهم به أمل » نقول لهذا المعترض هون عليك ؟ جرد نفسك من كل ماذكرته لك من آثار الوراثات والعقائد ، وما قرأته فى كتب الملاحدة من الظلمات الكثيفة ، ثم قف ذلك الموقف بما لديك من العلم ، وابدأ بنظر الفضاء المحيط بك من كل جانب ، واستورد الى فكرك النظريات الرياضية التى تثبت لك أن الفضاء ممد الى مالا نهاية . . . . أى انه ليس له حد . . . وانه مشحون بعوالم لا تحصى من نجوم وكواكب وتوابع وذوات أذناب ، وان الارض التى أنت عليها ليست إلا كالذرة بالنسبة لتلك الأجرام الضخمة ، وتذكر ماقرأته فى أبحاث (كبلر) و (كوبرنيك) و (هرشل) و (زولنر) و(فلامريون)من أن الارض كوكب من الكواكب السيارة السابحة

فى الفضاء حول الشمس بسرعة ثلاثين كيلو متراً ونصفاً فى الثانية الواحدة ، وانها ذات شكل كروى محيطها ٤٠٠٠٠ كيلوا متر وانها واحدة من سيارات أخرى أكبر منها حجما دائرة كلها حول تلك الشمس المضيئه التى هى أكبر من الارض مليوناً وأربعمائة الف مرة ، وان المسافة التى تفصلها عن الأرض هى ثمانية وثلاثون مليوناً من الفراسخ ، وان هذه الشمس بهذا الحجم الهائل لا تقارن بالشموس الاخرى التى تسبح مثلها فى هذا الفضاء المدهش ،

واذا أردت أن يكون لك فكر عام على حجومها فاعلم أن أقرب نجم الينا يصل الينا ضوؤه فى ثلاث أو أربع سنين فاذا كان ضوء الشمس يصل الينا فى أقل من أربع دقائق ومع ذلك فهى أكبر من الأرض بمليون واربعمائة الف ضعف فكم يكون حجم نجم لا يصل ضوءه الينا الا فى أربع سنين أى فى (٢٠٧٣٦٠) دقيقة .... ثم ما ذا يكون حجم الشعرى التى يصل الينا ضوءها فى ٢٢ سنه ..... خل هذا جانبا وقل كيف تتصور احجام تلك النجوم التى تكتشف جديداً ويزعم علم الفلك ان ضوءها لم يزل سابحاً فى الفضاء من يوم تكونها الى يوم وصول ضوئها الينا أى فى ملايين من السنين ..... أليس فى هذا التخيل ما يرعد الفرائص ، ويأخذ بمخنق التصور ؟

هذا بالنسبة لما فوق رأسك أما ماهو بين يديك وخلفك من ممالك الطبيعة من جماد ونبات وحيوان وانسان فليس أمرها بهين عليك ، لأنك لو استعرضت شيئاً قليلا من عجائب النباتات ورأيت

أنك تلق الى الأرض بزرة لاتكاد تحس بها بين أصابعك فتراها بعد سنين شجرة ذات جزع غليظ وفروع ممتدة الى أمتار عديدة وأوراق وأثمار ذات ألوان وطعوم وأريج يفغم الأنف من مسافات بعيدة ثم لوطفت على مملكة الحيوانات واستحضرت الى فكرك تلك الكائنات المختلفة فى الصور والاحجام والأشكال والطبائع والغرائز والحيل مما لاتكفى المجلدات لشرح عجائبه ، ثم لو تفكرت فى أن المادة التى هى أصل كل هذه الصور البديعة مجهولة لديك بالمرة ، لرجعت وكلك شعور بضعفك وعجزك ، واحساس بوهن طبيعتك وحقارة شخصك ولوجدت فؤادك ساجداً بفطرته أمام هذه القوة العظمى التى أبدعت هذا الوجود المدهش ، ولتحققت أنك كلما ازددت بالكون علماً ازددت احساساً بجهلك وشعوراً بضعفك ، واحتياجاً لمن يأخذ يدك ، ويسكن جيشان صدرك . « انما يخشى الله من عباده العلماء »

ثم انك كلما رنوت الى أجزاء هذا الكون ورأيتها تتلاشى وتتجدد وتتفرق وتتجمع ، ووقفت على حركة سريان الحياة من النبات الى الحيوان الى الانسان وجدت نفسك مسوقاً لأن تتساءل عن حظك من هذه الحياة وعن مصيرك بعد تلاشى هذا الجسم السريع العطب . ولوخزك حب الحياة المرتكز على أجمل عواطف نفسك ودفعك لأن تجول بفكرك فى مضمرات الأشياء ومستورات المعارف ، لتشق الحجب التى تحول بينك وبين مطلوب روحك حتى تجد ضالتك فتعيش سعيداً ، أولاتجدها فتبق فى هذه الأرض العمر الذى قدرلك بين فزع

وجزع ، ووحشة ووهل ، تعالج من اضطراب نفسك مالا تعبر عنه ، حتى تجيء تلك الساعة المنتظرة على صفة لاأستطيع أن أتخيلها

ألاترى بعد هذا أن الانسان على أى حالة من أحواله سواء كان جاهلا لايعرف شيئاً أوعالماً يعلم شيئاً . . . لوجرد نفسه من آثار الوراثات المختلفة ومحا من ذهنه كلما يربطه بالمكان الذى عاش فيه وبالمذاهب الذى ينتمى اليه ، ثم تفكر بعد ذلك فى الكون وفى نفسه لاندفع بفطرته وطبيعته اندفاعاً اضطرارياً الى القاءنفسه ساجداً أمام خالقه ولولم يستطع أن يتصوره بصوره ،أويقع فكره منه على كيفية .

هذا هو الدين الفطرى الذى خلق الانسان مطبوعاً عليه بطابع الخالق الحكيم الذى أقام الانسان على هذا المركز الوسط وقدر عليه ماقدر . من الكمال الصورى والمعنوى . فالدين على هذه الصورة الطبيعية لا يتصور زواله بوجه لأنه مرمى كل عواطف النفس وغايتها وقد أدرك ذلك أهل البصر من الغربيين فقال غطريف الفلسفة الأوربية (ارنست رينان) فى كتابه تاريخ الأديان : « من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شىء نحبه وكل شىء نعده من ملاذ الحياة ونعيمها ، ومن الممكن أن تبطل حرية استعمال القوة العقلية والعلم والصناعة ، ولكن يستحيل أن ينمحى التدين أو يتلاشى بل سيبقى أبد الآبدين حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى الذى يود أن يحصر الفكر الانسانى فى المضائق الدنيئة للحياة الطينية »

وقال الفيلسوف الشهير (اجوست سباتييه) فى كتابه (فلسفة

الأديان) : « لماذا أنا متدين ؟ انى لم أحرك شفتى بهذا السؤال مرة الاوأرانى مسوقا للاجابة عليه بهذا الجواب وهو : أنا متدين لأنى لاأستطيع خلاف ذلك ، لأن التدين لازم معنوى من لوازم ذاتى . يقولون لى : ذلك أثر من آثار الوراثة أوالتربية أو المزاج . فاقول لهم قد اعترضت على نفسى كثيرا بهذا الاعتراض نفسه ولكنى وجدته يقهقر المسألة ولا يحلها . وأن ضرورة التدين التى أشاهدها فى حياتى الشخصية أشاهدها باكثر قوة فى الحياة الاجتماعية البشرية فهى ليست أقل تشبثا منى باهداب الدين . الى أن قال : « اذن فالدين باق وغير قابل للزوال وهو فضلا عن عدم نضوب ينبوعه بتمادى الزمن ، نرى ذلك الينبوع يتزايد اتساعا وعمقا تحت المؤثر المزدوج من الفكر الفلسفى والتجارب الحيوية المؤلمة » انتهى

وهذا كله نفحة من نفحات هذا الناموس الكبير الذى أوحاه الله لخاتم أنبيائه صلى الله عليه وسلم : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون » .

﴿ الاسلام وهو الدين الفطرى ﴾

الفطرة لغة الخلقة والخلقة فى اللسان العصرى الطبيعة فالدين الفطرى يمكن تعبيره باللسان العصرى بالدين الطبيعى ومعناه أنه لا يكلف الانسان الا بما ينطبق على طبيعته ويناسب حال جبلته وقد سعى فى القرون المتأخرة أرومات العلم الطبيعى فى أوروبا وكونوا لهم

ديناسموه بهذاالاسم ولم يدخلوا الى أصوله الا ما تقضى به الفطرة الانسانية وتقر على حقيته العلوم الطبيعية ، خالصاً من الاختلافات والتأويلات ، منزها عن الرموز والاسرار ، عملا بقول شيخهم الكبير (كانت) الفيلسوف الالمانى حيث قال : « الديانة الحقيقية الوحيدة لاتحتوى الا على قوانين أعنى قواعد صالحة للجرى عليها نشعر من ذاتنا بضرورتها المطلقة وتكون مجردة عن الاساطير والتعالم الكهنوتية » (١)

سلك هؤلاء هذا المسلك فى القرون المتأخرة بعد ماسئموا من تناقض الأديان ، وأنفوا من الرضوخ لكهان ، ولم يعلموا أن الدين الطبيعى قد أوحاه خالق الطبيعة على أشرف عباده قبلهم بأكثر من عشرة قرون . فلندع هؤلاء الآن وشأنهم فسيتبينون الحق بعد حين ، كما وعد بذلك الخالق فى كتابه المبين . ولنثبت لقرائنا أن الاسلام هو الدين الفطرى الذى لا يعتريه الزوال ، ولا يلحقه الاضمحلال فنقول :

تبين لنا أن الانسان على حالة البساطة الأولية ، والسذاجة المبدئية شعر بلزوم الاخبات لخالق ذاته ، وأحس بضرورة الاعتصام به لنجاة حياته ، فلم يحرمه الله من اسعافه بعباد له كان يصطفيهم لحمل أمانته ، والقيام بتبليغ أمره الى خليقته ، فكانوا يجيئون أقوامهم بدين الفطرة ، لأن الله لا يكلف عباده بما لا ينطبق على طبيعتهم (لا يكلف الله نفساً الاوسعها) ولكن الناس فى تلك الأحيان كانوا من سن الحياة العمومية ، فى دور الطفولية ، تؤثر عليهم الخيالات أكثر من

(١) دائرة معارف القرن التاسع عشر

الحقيقة ، فكانوا لاينصاعون لرسولهم الا مادام فيهم ومتى انتقل الى العالم الآخر ارتكسوا الى عقائدهم الأولى مكسوة بثوب جديد ، حتى اذا جاءهم رسول آخر قاوموه ونابذوه ، ومكروا به وصاولوه ، وماروه بكل حجة وجادلوه ، وفيما يحكى الله عن حالهم صورة من أمرهم مع رسلهم قال تعالى : « وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعاً فان الله لغنى حميد . ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود ، والذين من بعدهم ، لايعلمهم الا الله ، جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وانا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب . قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى ، قالوا إن أنتم الابشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد أباؤنا فأتونا بسلطان مبين . قالت لهم رسلهم إن نحن الا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ، وما كان لناأن نأتيكم بسلطان الا باذن الله وعلى اللهفليتوكل المؤمنون »

هكذا كان حال الأمم معرسلهم فى خلال تلك القرون المتوالية حتى جاء القرن السادس وقد درسنا حال الأمم فيه فى الفصل المتقدم وقد رأيت أن حالتهم كانت تدعو الى قارعة كبرى تردهم عن غوايتهم وتوقظهم من سكرتهم ، وقد كان ذاك . فأرسل الله تعالى خاتم أنبيائه بدين الفطرة الذى أرسل الله به رسله من قبل (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحاً) فخاطب الناس قائلا عن ربه (ياأيها الناس قد جاءكم

برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه ويهديهم إليه صراطاً مستقيما) فدخل الناس فى دين الله أفواجاً أفواجاً لأنهم كانوا قد سئموا الخيالات المضلة التى مزقتهم أحزاباً ، وفرقتهم أفذاذاً ، فدخل فيه من غير العرب فى قرن واحد ما يزيد عن مائة مليون ولم يزل ينمو لليوم بصفة مدهشة بتأثير المدنية الأوربية نفسها . وان تعجب من ذلك فاليك التفصيل : قد رأيت أن الفارق بين الدين الفطرى أى الطبيعى والأديان الأخرى هو أن الأول مرتكز على الحقائق المحسوسة والثانى على الخيال ، فيكون الانسان متقرباً للحق على قدر ضعف سلطان الخيال عليه ، والأمم قبل سريان الحركة الأوربية الاستعمارية فى العالم كانت كل أمة منها جامدة على دينها مستنيمة الى أساطيرها لا يزعجها عنها شىء : تؤله ماشاءت من الرجال ، وتعبد ما أرادت من الحكماء والأبطال ، والخلاصة أنها كانت من الدين على خيال ومن المدركات فى ضلال . فلما جاء دور الأوربيين وجاسوا خلال الممالك بالحديد والنار ، والكهرباء والبخار ، أقاموا لتلك الأمم بأفواه المدافع والبنادق ، وبالسنة المشرفيات الصوارم ، أكبر البراهين الحسية على أن عهد الخيالات قد مضى وأن ما كانوا فيه من الاعتماد على معجزة ذلك الاله أو كرامة ذلك الكاهن ، خرافات باطلة ، وترهات فاضحة فانجلى الدين عن أفئدتهم وخوى جنانهم من العقيدة فاستعرضوا الأديان التى وصلت اليهم فلم يرتضوا منها غير الاسلام ديناً لخلوه من الخيالات ، وارتكازه على

المحسوسات، ندخلوا فيه أفواجاً أفواجاً ولم يسمع فى تاريخ الانسان أن القبائل بحذافيرها تدخل الى دين فى زمن ضعف سلطة أهله غير الدين الاسلامى. وبناء على هذا فكلما توغلت مدافع الأوربيين فى أحشاء البلاد الوثنية ازداد انتصار الحقيقة على الخيال، وفتحوا لدين الله أكبر مجال « إن الله ليؤيد هذا الدين برجال ليسوا من أهله »

الاسلام الدين الفطرى أو الدين الطبيعى لأنه لايكاف الانسان الا بما هو مطبوع على البحث فيه واعتقاده، ولا يجيئه من العقائد الا بما لايقف حجر عثرة فى سبيل تقدمه وترقيه لأن غرضه الأول تخليص النفس الانسانية من تلك الكسف الظلمانية التى أسدلها عليها حفظة العقائد، وسدنة المعابد، والزاعمين بأن لهم حق الوساطة بين المخلوق والخالق، وليطهر الأفئدة مما ران عليها من آثار الوراثات والتقليد، وما تراكم على سويداواتها من غلف التعصبات والجمود.

كان الناس من جهة الدين فى غيابة من الوهم، وظلمات من الجهل، يقدسون أساطير جمعت من مدركات الماضين ووساوس المتقدمين مالو أرادت البصيرة أن تتنسم منها روح اليقين لارتدت على عقبها ترسف فى اصفاد اليأس، واغلال اللبس من هول ماوضع أمامها من عقبات وما أحيطت به من غياهب وظلمات، فكانت بين أمرين إما أن تقتنع من الحياة بمجرد البقاء ولوكان العمه لزيمها، والحيرة صفتها، واما أن تحاول أن ترى النور فتعرض نفسها لخطر أيسره أن تضاعف عليها تلك الكسف فلا تعود بعدها تذكر النور ولا توهما.

جاء الاسلام والبصيرة فى هذا الانين، من ثقل نير الدين، وفى لهف شديد، الى نور جديد، فصاح بالناس: « ياأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه ويهديهم اليه صراطا مستقيما ».

كانت النفوس حيرى فى معنى الدين؛ لا تعرف من آثاره غير هذا الضغط المشين والحال المهين فقرر لها الاسلام بأن الدين ضالة الأرواح وأنشودة العواطف، وبلسم جراح الحياة، ونسيم الراحة والطمأنينة، ومهب نفحات الحق، وهو واحد لا تعدد فيه، بعث الله به كافة الأنبياء الى الأمم رفعا لما طرأ عليهم من الخلاف، وحسما لما احتوشهم من روح النزاع: « كان الناس أمة واحدة فاختلفوا »

أما ذلك الدين فهو الاسلام لله أى الاستسلام الى أحكامه بالقيام على صراط الفطرة المجردة عن الأوهام والأفكار البشرية التى هى داعية الخلاف، ومثيرة التنابذ بخلاف الفطرة، فانها واحدة فى عموم النوع الانسانى فلا يعقل نزاع بالاستقامة عليها، ولا يتصور شقاق بالانصياع لمقتضياتها « ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب. فان حاجوك (أى جادلوك) فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن، وقل للذين أوتوا الكتاب والايمان أأسلمتم، فان أسلموا فقد اهتدوا، وان تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » « بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدى من أضل

الله وما لهم من ناصرين . فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون . منيبين اليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، كل حزب بما لديهم فرحون »

التفت الى أولئك الذين استعبدوا أنفسهم للأهواء ، وخضعوا لسلطان الأوهام ، وحصروا عقولهم فى مضائق الخرافات ، فنعى عليهم سذاجتهم قائلا : « ان هى الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى » ثم طالبهم بالدليل على ما حملوه عقولهم من هذه المدارك الفاسدة قائلا : « ائتونى بكتاب من قبل هذا أو اثارة من علم ان كنتم صادقين » « هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون » « هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين »

ثم سجل عليهم انهم أسراء الوهم ، وعبدة الظن فقال : « وما لهم به من علم ان يتبعون الا الظن وان الظن لا يغنى من الحق شيئا »

ثم بين لهم الفرق بين المعتقد بالدليل والبرهان ، وبين المستسلم لزخارف الخيال ، الاسير لكواذب الأوهام فقال « أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم »

ثم توجه للذين قبلوا هذا النور الباهر وخلعوا عن أعناقهم ربقة الذل والاسر ، ونفضوا عن رؤوسهم غبار الصغار والعبودية فقال : « ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى والى

الله عاقبة الأمور . ومن كفر فلا يحزنك كفره الينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور » « ومن أحسن دينا ممن اسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا واتخذ الله ابراهيم خليلا »
ثم أمرهم أن لا يتبعوا دينا من الأديان التي أقيم لها المعابد والكهان وصارت عبئاً ثقيلا على هامة الانسان ، لما سرى اليها من الضلال والبهتان ولكن ألزمهم الاعتراف بان أصل جميعها واحد وهو الناموس الأقوم الذي بعث الله به الرسل الى الامم كافة فلم يحفظوه من التبديل والتحريف والتزييف ، فكلف الاسلام اهله بالايمان بها اجمالا فقال : « وقولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وان تولوا فانما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم . صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون »

هذا هو الدين الفطرى فى بساطة معناه ومتانة مبناه وهو الذى دعا اليه الأنبياء كافة وتمت الدعوة اليه بخاتمهم وامامهم محمد صلى الله عليه وسلم وقد رأيت انه من جهة التدين لا يدعو الا لما يشعر به الانسان فى ذاته شعورا ضروريا طبيعيا . أما تلك الأساطير التى طمت بها الديانات وعدت من أركان الايمان فيها فقد أثبتت العلوم الطبيعية والتاريخية بطلانها بالمرة وصار اعتقادها والتمسك بها من الازراء

بالعقل ، والتغرير بالنفس لأنها ليست الا مبلغ علم الأقدمين بالطبيعيات والتاريخ توارثها اللاحقون عن السابقين واكتسبت لقدمها شكلا مقدسا كما هى سنة الناس فى احترام اسلافهم حتى صارت هى الدين بذاته وقد سبق القرآن العلم والفلسفة فى تقرير أنها أباطيل وأوهام فقال « ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون » ثم انبأنا بأن الاسلام مقدمة عصر العلم ، وطليعة دولة الحق ، ومؤسس سلطان الحكمة فقرر الناموس الطبيعى الكبير الذى اكتشفه (دارون) و (ولاس) بعد القرآن بثلاثة عشر قرنا تقريبا وهو قولها (لا يبقى الا الأصلح) فقال تعالى بافصح عبارة وأكمل بيان « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض »

أما من جهة العلم بالكون وأشيائه فأرانا أننا لم نعلم منه الا قليلا وأمرنا بدوام طلب العلم فقال تعالى « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » « وقل رب زدنى علما » وبهذا فقد هدم صرح تلك العقائد الباطلة التى يزعم أصحابها أنها حوت علم الأولين والآخرين ، على السموات والارضين مما اذن الله به للعالمين ؛ وان ما عداه فرجس باطل ، وخيال حائل ، يستحق معلمه ان يحرق بالنار ، أو ان يصلب كالفجار. أما من جهة سير الماضين ، وأخبار المتقدمين ، مما جعلوها أساس العبادة والايمان ، وعلقوا عليها نجاة الانسان ، مما أثبت التاريخ العصرى ، بالحس والعيان ، انها خرافات اخترعها الخيال ، وسطرها الجهال ، وانها ليست خاصة بدين دون دين ، ولكنها عامة عند الامم

أجمعين ، مما يشعر أنها دأب الأولين ، فقد سد الاسلام هـذا الباب سدا محكما بتقريره و « ان ليس للانسان الا ما سعى وان سعيه سوف يرى » و « كل امرىء بما كسب رهين » و « تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولـكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون »

أما سرد حوادث الماضين فهى وظيفة التاريخ له فيها أسلوب خاص به مثل سائر العلوم الأخرى أما الأديان فوظيفتها أشرف من كل وظيفة وهى اقامة الانسان على سنة الفطرة بتخليصه من كل ماليس طبيعيا فطريا ، وتنزيهه مما يرضخ له تقليديا ، ليعيش حرا متمتعا بعقله وفكره وحكمه ، لاعبدا لأوهام غيره . ألا ترى انه لما سأل فرعون موسى كما قال تعالى : « فما بال القرون الأولى » أجاب موسى عليه السلام كما قال تعالى « قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى » فانظر الى هـذا الجواب النبوى الكريم الذى يشير بغاية الصراحة الى أن التاريخ ليس من وظيفة الانبياء من جهة ، ومن جهة أخرى يشير الى أن سير أهل القرون الاولى ليس مما يمكن التهجم عليه بتلك الجسارة التى تشاهد فى الجهال بالتاريخ بل هى حوادث كبرى تحتاج لمثل ما يحتاجه كل علم من العناية والدقة . انظر الى هذا الجواب النبوى ثم انظر الى أولئك الذين يسردون لك تاريخ العالم من لدن آدم الى اليوم سردا يشعرك بأنهم شهدوا أحوالهم ومن العجب أنهم يعلقون على ذلك عقائدهم وايمانهم

أما من جهة الأخلاق والعوائد فالاسلام لا يطلب من الانسان

فيها غير الاعتدال والتوسط . لأنه لما كان الدين الفطرى (أو الطبيعى بلهجة العصر) فينظر للانسان نظر العلم الطبيعى له أى بصفته أبدع الأنواع الحية وأكمل نموذج للصورة المادية « إنا خلقنا الانسان فى أحسن تقويم » ليس فى تركيبه الخارجي والداخلى ولا فى شكله الصورى والمعنوى زيادة ولا نقص لو اتبع فى نموه قانون الحكمة الالهية، ولكن الخالق الحكيم إذ عده إلى منصات من الكمال يحسر دون إدراكها التصور فقد متعه بخاصيتى الاختيار والارادة وأراه طريق الاعتدال والانحراف بالفطرة وبالوحى وصرح له بأنه إن اعتدل نال غايتى كماله المادى والأدبى وان انحرف ارتطم فى عقبات النقص وارتد الى أسفل من عالم الحيوان كما هى السنة الطبيعية فى هبوط العالى فقال تعالى : « إنا خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون »

﴿ نظرة على الادوار التى تنتاب العقائد ﴾

من أكبر الشبه التى يطعن بها فلاسفة هذا العصر صدور المليين ، ويغض بها الماديون من أعين الاعتقاديين هى قولهم ان الانسان مر ويمر من عقائده على ثلاثة أدوار (أولا) دور الاحترام والاجلال ، والاعتقاد بأنها نهاية الكمال (ثانياً) دور الشك والارتياب ، عند يقظة الأفكار والألباب (ثالثاً) دور العلوم والمعارف حيث يبلغ العقل أشده ، وينال الانسان رشده ، فيعلم أن الأديان أساطير الماضى ،

ووساوس الأقدمين فيتركها ويتجه للعلوم يحتلب درها ، ويستسق ربابها ، ويكون بذلك كالشاب جاز دور الطفولة ، واتسم بصفات الرجولة ، تمر به مدركاته القديمة فيعدها حلماً لذيذاً ، وخيالا مسلياً ، ويضحك منه كما يضحك من كل أفعاله وهو طفل ؛ ثم يأخذ فى شأنه من الجد وراء الحقائق المحسوسة والدأب لاستغلال خير الطبيعة ، وتحسين حال بنى نوعه من كل الوجوه الممكنة

نقول انهذه المقولةإنصدقت فى نسف صروح العقائد التى أنس بها الانسان فى دور طفوليته فلا تصدق على الاسلام الذىأرسله الله عند مابلغ الانسان رشده وسئم الوصاية عليه . واليك التفصيل

المسائل الكبرى التى يطأطىء المسلم أمامها رأسه ويحترمها جهده هى بعينها كبرى المسائل الفلسفية التى ستبقى مادام الانسان نقطابارزة فى حياته يزيدها مر الأيام وضوحا وجلاء ، وتكسوها زيادة العلم كمالا وجلالا وهى :

(أولا) انلهذا الكون الباهر غير المتناهىصانعا حكيما « لاتدركه الأبصار » « ليس كمثله شىء » « يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما » « أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » « خلق كل شىء فقدره تقديرا » ولا ينكر أحد أن هذه كبرى المسائل العالية التى لا يتصورزوالها بوجه من الوجوه . (ثانيا) ان للأنسان روحا غير مادية لها حياة خالدة فى وجود غير هذا الوجود . وهذه أيضا من المسائل العظمى التى أصبحت اليوم الشغل الشاغل لكبار العقول كمانقلهعنهم

فى كتاب ماوراء المادة

(ثالثا) ان لله ملائكة وهم خلق متجردون عن المادة «لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون» وهذه أيضا مسألة اثبتها مسألة استحضار الأرواح اثباتا حسيا كما ستراه ان شاء الله

(رابعا) ان لله رسلا من الناس يمتعهم بخاصية الاشراف على الملأ الأعلى ويستودعهم اسرار وحيه . وقوانين الدين ليبلغوها الى أممهم «وما من أمة الا خلا فيها نذير» «وما أرسلنا قبلك الا رجالا يوحى اليهم» «كانوا يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق» وهذه أيضا مسألة كبيرة زادتها مسألتا التنويم المغناطيسى واستحضار الأرواح جلاء ووضوحا لما أثبتتا من أن الروح الانسانية اذا جردت عن الاشتغال بالماديات أمكنها أن تستقى معلوماتها بدون وساطة المشاعر كما ستفصل ذلك ان شاء الله تفصيلا فى محله من كتابنا

(خامسا) الكتب التى يرسلها الله الى خلقه أى وحيه الى أنبيائه وهى مسألة كبرى أيضا لا يرتاب فيها الا من يجهل مسألة التنويم المغناطيسى العصرى كل الجهل ورضى أن يكون واقفا من العلم حيث وقف ملحدو أوربا قبل قرن من الزمان وزعم أن الكون محصور على ما يعلم . ..

(سادسا) مسألة القضاء والقدر وهى مسألة عظمى توزعت عقول الفلاسفة أجمعين من القدم لليوم ولها انصار وزعماء حتى من الذين لا يعتقدون بغير المادة لأن تشبع الفكر العصرى بوجود نواميس للكون ثابتة لا تتغير تجعل مسألة القضاء والقدر من نتائج العلم الطبيعى نفسه كما

سنفصل ذلك إن شاء الله تفصيلا .

هذه هى مسائل الاسلام التى نحترمها وأمرنا بالتفكر فيها للوصول الى المدركات العالية منها وقد رأيت أنها مسائل الانسانية كلها لا المسلمين وحدهم وانها مما لا يتصور فى العقل عدم احترامها واعتبارها من المسائل الكبرى فى أى دور من أدوار الرقى العقلى لارتباطها بحياة الانسان مباشرة ووقوفها فى مهب فكره ومضطرب ذهنه .

أما دور الشك فان صح على العقائد الأخرى فلا يصح على الاسلام بوجه من الوجوه . الشك هو التردد فى صحة شيء ودواؤه العلم . وقد رأيت أن المسلم ليس له من العقائد الا ماهو مغروز فى طبيعة البشر حب الاهتمام به واعتقاده وهى تلك المسائل الست ؛ وبما أنه قد يطرأ الشك للانسان فيها لقلة علمه فالاسلام لا يعاقب الشاك أو المستشكل بالحرق بالنار أو بالصلب بل بدوائه الحقيق وهو العلم واستنزال روح الرحمة الالهية من قبله ، وقد وعده الله بحسن النتيجة فقال تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين » بل أنذر الضارب عن العلم صفحا بالطبع على قلبه فقال عز وجل : « كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون »

قلنا ان الاسلام جاء بعد أن بلغ العقل الانسانى أشده ولذلك فهو لا ينزل الانسان منزلة القاصر بل الراشد الذى له حق التصرف بفكره وارادته بخلاف الأديان الأخرى التى ادعى قادتها أنهم أوصياء على الانسان وانه لا حق له فى استعمال عقله وفكره فى شؤون حياته

إلا طبقا لما يوحونه اليه من التعاليم والقواعد وقد أساؤوا استعمال هذه الوصاية لحد أن الناس تركوا الدين من أجلها وتخلصوا من تلك السلطة بعد جدال وجلاد دام قرونا متوالية وعدى على حياة ملايين كثيرة من الأبرياء، أما الاسلام فلم يجعل لأحد من بنيه حق الوصاية على غيره بل أسبغ على الكل نعمة المساواة الحقة وآخى بينهم اخاء ملكوتيا لم يسبق له مثال فى تاريخ العالم ، وجاء الخطاب عن لسان العزة الالهية بهذا القسطاس العادل : « الجنة لمن أطاعنى ولو كان عبدا حبشياً والنار لمن عصانى ولو كان شريفاً قرشيا » ولذلك تراه يخاطب أبناءه عموما بلسان واحد لا يخص بالخطاب طائفة دون طائفة ولا قبيلا دون قبيل ، ولم يعلق نجاة روح على روح أخرى وفى هذا الحديث الشريف أكبر عبرة لمن يعتبر : « اعملى يافاطمه فانى لا أغنى عنك من الله شيئاً » وهذا غاية ما يتوق اليه أنصار حرية النفس ، ومحبو رفع القوة الاستبدادية .

أنظر الى هذا المثال الباهر من الحرية وقارنه بذلك الاستعباد الهائل الذى طوق به قادة الأديان الأخرى أعناق أتباعهم حيث عقلوا نجاة السواد الأعظم منهم بشفاعة رجال قلائل أو رجل واحد . ولا غرو فانهم يتصورون الخالق تعالى على صورة الملوك الارضيين الذين لا يمكن التقرب اليهم الا بالتوسل بحاشيتهم وذوى الزلفى منهم ، أما المسلم الذى ينزه خالقه عن مشابهة المخلوقين ، ولا يجرى عليه صفاة الملوك الأرضيين ، ويعلم أنه أرحم الراحمين ، وأكرم الأكرمين ، وأنه

ليس بينه وبين عبيده حجاب ، ولا جلاوزة ولا حجاب ، وأنه سميع مجيب « وهو أقرب اليه من حبل الوريد » فانه لا يحتاج لمن يقربه اليه زلفى غير صالح أعماله ، وعقائل صفاته. أما التعلق بشفاعة الشافعين ووسيلة الوسطاء والمقربين ، فليس من عقيدة المسلمين ، ولا صفة لها عندهم فى الدين ، وما ورد من ذلك عندنا فقيد بأذن الله ومعلق على أمره بالنسبة لبعض مستحقى المغفرة قال تعالى : « من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه » « وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى . » أما أولئك الذين ليس فى أعمالهم ما يؤهلهم للحظوة بمغفرة الله فلا يستطيع أحد أن يشفع عنهم قال تعالى : « فما لهم من شافعين » « فما تنفعهم شفاعة الشافعين »

هذا الأصل وحده هو أهدى قائد لنفوس الآخذين بالدين الى باحات الحرية ، وأقوى باعث لهم الى ساحات المساواة الأخوية ومن يعلم أن الحرية أصل كل الأصول المهذبة للأمم الرافعة لها الى منصات العظم ، الباعثة الى نفوسها روح الهمم ، يتحقق معنا أن هذا الأصل كان من أقوى الأسباب التى نهضت بأسلافنا الأولين ، الى أعلا عليين بينما كان غيرهم فى أسفل سافلين ، مأسورين لرؤساء الدين ، ويتأكد معنا أنه كما كان سبب اسلام عشرات الملايين ، من الأقوام البعيدين عند ظهور هذا الدين هرباً من الضغط المهين ، كذلك سيكون هو نفسه الجاذب للعواطف ، المالك للأميال فى هذه القرون ومابعدها حتى يخلص السلطان للاسلام ويكون الدين كله لله . فان روح هذه العصور المتأخرة

قد بعثت الى قلب الانسان حب الحرية والمساواة وسينمو هذا الشعور فى الانسان بتوالى الحوادث حتى لا يكون عليه سلطان غير شعوره الخاص وعواطفه الذاتية ، وأين يوجد مايلائم هذا التطور غير الاسلام الذى يخلى بين الانسان وربه ، ويرفع الحجب بينه وبين مالك حياته « قل اننى هدانى ربى الى صراط مستقيم ، ديناً قيما ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين . قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . قل أغير الله أبغى رباً وهو رب كل شىء ولا تكسب كل نفس الا عليها ولاتزر وازرة وزر أخرى ثم الى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » .

والباحث فى أسباب خلع أوروبا لطوق العقائد يرى من أهمها مسألة الشفاعة والوساطة . قال الفيلسوف (لوسيان اريا) فى كتابه (عقائد الغد) : « ان كراهة الناس لرؤساء الدين هى التى ولدت فى أكثرهم كما يظهر لى المجافاة للدين . فان الخطر جاء من تسخير الناس بسبب الدين نفسه . ومع هذا فلم تكن وظيفة الكاهن من مواضيع المناقشة فى مؤتمر الأديان ولكنها فيما أرى من المسائل الأولية التى يجب حلها فى مستقبل قريب » انتهى . وانك ترى علماءهم وفلاسفتهم يعدون عدم وجود الوساطة من ضمن المزايا الكثيرة التى للاسلام على سائر الأديان وأقرب شاهد على ذلك ماورد فى (المجلة) الفرنساوية فى جزء ١٥ مايو وهو : « ليس فى الاسلام البتة لاطقوس

دينيه ولا أسرار كهنوتية ولا كهان ولا هياكل ولا شيء مما يعتبر شرطاً أصلياً فى اداء العبادة . بل فيه أن الانسان شفيع نفسه امام خالقه فتراه يرجو بذاته رحمة ربه وغفرانه . وبعبارة الاصطلاحات الدينية الاسلام بعد وجود الجمعيات الكهنوتية والسلطة الروحية من البدع المضادة لنص العقيدة » .

قلنا الاسلام ينزل الانسان منزلة الراشد لا القاصر ولم يكلفه من العقائد الا مالو خلىء نفسه لاهتم بها لأنها نتيجة عواطفة المغروزة فى طبيعته ، وقلنا انه لو شك فيها يعالجه بعلاج الشك وهو العلم لا بالضغط على فكره أو حرق جسده كما فعل غيره . لهذا جعل العلم قوام الدين وملاك اليقين حتى فرضه على عموم أتباعه من ذكر أو أنثى ، وسن لهم كل مامن شأنه زيادة العلم ونموه مادته ، كالسياحة واستشراف أحوال الأمم وتعرف نواميس الخليقة والعمران . وكالنظر فى الكون وتنور أسرار الكائنات . حتى قال عن السياحة « أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا . الخ الآية » « قل سيروا فى الأرض فانظروا الخ الآية » وقال عن النظر فى الكون « وفى الارض آيات للموقنين وفى أنفسكم ، أفلا تبصرن » فانظر كيف أن السياحة واستطلاع أحوال الأمم والكون التى شككت اليونانيين فى عقائدهم قبل الميلاد بأربعمائة سنة ، وحلت معاقد عقائد الأوربيين فى ابان اختلاطهم بالمسلمين واشرافهم عن مدنيتهم كما أثبتنا لك ذلك فى كتاب الانسان ، قد ندب اليها الاسلام بصفاتها مقوية للعقيدة ، مثيرة لروح الدين ، مثبتة

لأراكين اليقين حتى قال الله عن السياحة « أفلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » وقال مبكتاً الذين لاينظرون فى مساتير الطبيعة « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » فأى فرق هائل بين دينين يقوى أحدهما بما يهدم الآخر ، ويحى بما يلاشى ضده ؟

السياحة تزيد فى سعة المدارك وتشرف بالانسان على أسرار العالم وعلى نواميس العمران والخراب فى الأمم ، وعلى أسباب المدنية والوحشية فى الشعوب وتجعل للانسان فكرة عامة على معنى الحياة الانسانية الصحيحة . والنظر فى الكون نتيجته توسيع نطاق سلطة العقل الانسانى على الادراك والسريان فى ضمائر الكون ، والوقوف بالتصور والفكر المواقف التى هما جديران بها من هذا العالم البديع ، وتخويل القوة البشرية خاصية استخدام قوى الكائنات فى تحسين الحياة الانسانية وتهذيبها بما يفتح للعقل من مغلق المساتير ومؤصد الأسرار . وهذا كله كما لا يخفى يعلو بالعقل والفكر ويسمو بهما درجات متوالية على نسب محسوسة فيحصل مايسمونه الترقى فى الهيئة الاجتماعية ، وهذا الترقى كما يحصل فى الصنائع والفنون كذلك يحصل فى المدركات والعقائد ، والدليل على ذلك أن كل أمة ترتقى تترك عقائدها وتهجرها لتطلب عقائد أرقى منها . وقد شعر بذلك رؤساء العقائد فحرموا النظر على أتباعهم ، وقرروا أن كل علم لايوافق العقائد

فهو مردود باطل يستحق صاحبه سوء العذاب . فكيف يخالف الاسلام هــذه السنة التى جرى عليها حفظة العقائد ويعلق كمال الايمان وتمام اليقين على ما أحدث الشكوك فى أذهان الأديان الأخرى وانتزع العقائد من أفئدتهم ؟

ذلك لأن الاسلام كما قلنا لم يكلف الانسان من العقائد الا بما لو ترك الانسان وشأنه لتعلق به من نفسه لانه نتيجة قوى عواطفه واحساساته ، وهى تلك العقائد الست التى ذكرناها آنفا ، ثم انه بعد ذلك لا يكلف الانسان الا خلع نير التقاليد والوراثات والعقائد الباطلة عن عاتقه خلعا كلياً ليستوى بشراً سويا خالصاً لله ، لا تمثالا محشوا باقذار آبائه وأجداده ، ضلالات أسلافه وأواليه ، عقله أسير رئيس دينه ، وفكره مغلول عن البحث خوف الكفر ، كأنه مصاب بشلل فى قواه ومواهبه ، أو مسلوب التصرف فى نفسه . فما الذى يخشى على المسلم بعد ذلك من وراء العلم ؟ وهل للروح المسلمة غذاء غير العلم ، ونور غير الحكمة « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون » « انما يخشى الله من عباده العلماء »

اذا تقرر هذا فهل يسرى قانون الأدوار التى تنتاب العقائد على الاسلام وهل يخشى على المسلم من تشبع فكره بأحوال الأمم وعظمة الكون وهل يليق بعد هذا أن يقال لمسلم انك لا ترتقى الا اذا خلعت طوق الدين من عنقك كما فعله غيرك من الأمم الراقية ؟ وهل يقال له انه من الحياة الانسانية فى دور الطفولية أو أنه يود أن

يبقى فى ذلك الدور و يسابق الأمم الأخرى التى تجاوزته ؟

ان الذى حرم المسلمين من التمتع بمزايا دينهم هو اضرابهم عن السياحات وعن تعرف الاحوال والنظر فى الكون ومتى جاء ذلك اليوم الذى يأذن الله فيه للحقيقة الاسلامية ان تنفذ الى أوروبا من خلال هذه التعصبات القديمة المتكاثفة لما ترتقى روحها السائدة فى هذا الجيل عما هى عليه درجات أخرى ، فسترى فى ذلك اليوم كيف يكون رجوع الحق الى نصابه بل كيف يكون الدين كله لله « ولتعلمن نبأه بعد حين » .

﴿ سحر المدنية المادية ﴾

أطلنا التساؤل فى فصل الانسان عن أثر المدنية المادية على المتدينين وطفنا بالقارىء على كثير من صور الشبه الرائجة فى جيلنا هذا وهى الشبه التى تسلطت على مكان الشعور من أفئدة أكثر النشأة الحالية من جراء احتكاكها بزخارف الصناعات التى تجرفها الينا سيول الترف الأوربى وصارت فتنة للأعين والعقول معا ، وبلغت منا مالم تبلغه الظبا من الهوادى ولا الرماح من الأفئدة فلم نر بدا من مناقشة هذه الأفئدة المفتونة الحساب فى كتاب حكيم القلوب الأعظم خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم لنستطيع بعون الله وقوته أن نوجه اليها شعاعا ساطعا من روحه الكريمة يمزق غياهبها ويكشف كسفها ونهتدى به الى كنه المدنية الفاضلة التى جاء صلى الله عليه وسلم يدعو

العالمين اليها بذلك الكتاب الكريم الذى يهدى للتى هى أقوم .

قال الله تعالى : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » وقدحقق وعده وأرى العالم آيةهى أكبر آياته فى خليقته . وذلك بأنه بعث فى الأميين رسولا منهم فى الحين الذى أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، وناهيك بمدينتى الرومان والفارسيين وقد رأيت فى فصل الانسان لمعة صغيرة من وصف مدينة الفرس حين ملكها الاسكندر وأمامدنية الرومان فكانت لا تقل عنها فى شىء بل تزيد عليها فى كثير من الشؤون ، ولكى يبرهن الخالق الحكيم لعموم النوع الانسانى على أن الفضائل روح إلهية اذا حلت فى الأمة رفعتها الى أعلا عليين ولولم يكن فى وسائلها الطبيعية ما يؤهلها لذلك الرقى المبين ، وسادت على سواها وإن كانت أصغر من ذلك فى أعين الناظرين ، اختار الأمة العربية على أنها كانت من عدم الوسائل الطبيعية بحيث دامت آلافا من السنين حافظة شكلها ، وواقفة مكانها ، أعرض عنها سائر الفاتحين يأسا من استصلاحها وتفاديا من العناء الذى يأتى من قبلها ، فلما أرسل الخالق رسوله اليها حاملا روحا كريمة ، مكث بين أظهرها ثلاثا وعشرين سنة سقاها فى خلالها من ذلك الحوض الملكوتى جرعاً بعثت اليها حياة جديدة وصبغتها بصبغة إلهية ، فاصبح العرب وبين جوانحهم قلوب كأنها انفصلت من الملأ الأعلى قدملئت بأنوار الحق وتشبعت من روح الفضيلة ، فهبوا يحققون وعد الله من أحقاق الحق وازهاق الباطل وتأسيس خلافة يطأطىء أمامها كل جبار

عنيد ، وتعنو لها جبهة كل عات صنديد . كان يلزم أن يكون هؤلاء القوم الذين كانوا بالأمس يسكنون فى الصحارى ويجولون فى الفيافى أكثر الأمم تأثرا بسحر المدنية وانسحارا بالموهات الصناعية . كما يشاهد من البدو اذاجاؤا الى المدائن العامرة ولكن سبحان ربى الذى جعل فى كل شأن من شؤون خاتم أنبيائه معجزة باهرة فان أصحابه قد خالفوا كل السنن النفسية المعروفه ، وبدل أن تنبهر أبصارهم وتندهش بصائرهم عند رؤيتهم تلك المعاهد الفاتنة فى مدنيتى الفرس والرومان قابلوها بفتور الآنف منها ، المحتقر لها ، ترفعا عما فيها من الجراثيم السامة للفضائل ، القاتلة للعواطف ، فلم تلفتهم عن شأنهم بل قابلوها بأفئدة عرفت حقيقة الحياة الصالحة واطمأنت الى ما وعدها الله به من السعادة الحقة ، والكمال الخالص ، فلم يقم منهم داع الى تقليد فى بدعة ، ولا محاكاة فى ضلالة ، ولم تمت من احتكاكهم بها غيرتهم ، ولم تنحل بسحرها الفاتن هممهم ، بل استقاموا على صراطهم وهو الصراط القويم ، ووزنوا الأمور بقسطاسهم وهو قسطاس العدل المستقيم .

ان هجس بهم هاجس وصور لهم أنهم قليلون مستضعفون ، وان أضدادهم كثيرون قويون « تذكروا فاذا هم مبصرون » وقالوا « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين » « انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون »

وان نزغ بينهم الشيطان وقال لهم أين أنتم من لحاق هذا الشأو

الباذخ ، ونوال مثل هذا الشأن الفخم ؛ قالوا كما كانوا يقولون قبل ذلك « هذا ماوعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم الا إيمانا وتسليما » وتلوا على أنفسهم : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم الخ الآية » .

وان همس لهم هامس وأراد ان يفتنهم بتلك الزخارف التى كانت تقع تحت أنظارهم قالوا هذه سعادة الدنيا ونحن لا نريد الا السعادتين معا وقرأوا : « ومن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وماله فى الآخرة من خلاق ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » وان أراد الشيطان أن يوهمهم باستحالة الجمع بين سعادتى الحياتين ويريهم أن الدين ليس بشرط فى سعادة البشر بدليل قيام أضدادهم بدونه قالوا : « واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا . كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيأ وفجرنا خلالهما نهرا وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره ، أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا ، ودخل جنته وهو ظالم لنفسه ، قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت الى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا ، قال له صاحبه أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا . لكن هو الله ربى ولا أشرك بربى أحدا . ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة الا بالله ، ان ترن أنا أقل منك مالا وولدا فعسى ربى أن يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء

فتصبح صعيدا زلقا أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا ، وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحدا . ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبى) « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » « سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

لم يأتهم الشيطان من جانب إلا سدوه فى وجهه بآية من كتاب الله وسنة رسوله فلم يمر عليهم قرن من الزمان حتى أصبحت الدنيا دنياهم والخلافة فيها خلافتهم ، ترتعد الملوك عند ذكر سلطانهم ، وتهتز العروش خوفا من نفوذهم ، وصارت لهم مدنية كسفت بنورها كل مدنية ، وبلغوا بها مالم تبلغه أمة قبلهم ولم تزل آثارهم تدل العموم على عظم مكانتهم وسمو أرواحهم .

قال (دروى) المؤرخ احد وزراء معارف فرنسا السابقين : « بينما أهل أوروبا تائهون فى دجى الجهالة لا يرون الضوء الا من سم الخياط اذ سطع نور قوى جانب الأمة الاسلامية من علوم أدب وفلسفة وصناعات وأعمال يد وغير ذلك حيث كانت مدنية بغداد والبصرة وسمرقند ودمشق والقيروان وبصرة وفاس وغرناطة وقرطبة مراكز عظيمة لدائرة المعارف ومنها انتشرت فى الأمم واغتنم منها أهل أوروبا فى القرون المتوسطة صناعات وفنونا « يأتى بيانها » نقل المؤرخ (سديو) عن (هومبلد) « ان العرب خلقهم الله ليكونوا

واسطة بين الأمم المنتشرة من شواطىء الفرات الى الوادى الكبير باسبانيا وبين العلوم وأسباب التمدن فتناولتها تلك الأمم على أيديهم لأن لهم بمقتضى طبيعتهم حركة تخصهم أثرت فى الدنيا تأثيرا لا يشبه بغيره » ثم قال : « وهذا حجة على أنهم كما قال غيرنا ونحن نعترف به أساتيذنا ومعلمونا »

وقال (درابر) أستاذ بكلية نيويورك بأمريكا : « ان أقوى وأكبر الممالك الدينية التى لم ير العالم مثلها قد ولدت فجأة وامتدت من المحيط الاتلانتيكى الى أسوار الصين ومع ذلك فلم تك قد بلغت نهاية ماقدر لها من الامتداد والنفوذ فلقد أتى عليها بعد ذلك حين من الدهر طردت فيه خلفاء القياصرة وملكت بلاد اليونان ونازعت النصرانية السلطة على أوربا ونشرت نفوذ عقائدها خلال الصحارى الوحشية والغابات الموبوءة من أول شواطىء البحر الأبيض الى خط الاستواء » « لقد طافوا (العرب) معاهد الفلسفة والعلم بسرعة تشبه السرعة التى طافوا بها مملكة الرومان » « انا لتأخذنا الدهشة أحيانا لما نصادف فى كتبهم آراء علمية كنا نظنها نشأت فى هذا القرن . من هذا القبيل مذهب النشوء والترقى للكائنات العضوية فقد كان يدرس فى مدارسهم . »

وقال عن مدنيتهم : « ان خلفاء الاندلس كانوا محاطين بأنواع الأبهة التى هى من لوازم الحياة الشرقية ، وكان لهم قصور عامرة ، وحدائق زاهرة (وسرايات) يعمرها الجلالة والجمال وان أوربا الحالية (تأمل)

لاتعلو فى حسن الذوق والرقة والظرف فى شيء من أشيائها عما كان فى العواصم العربية الأندلسية فى الزمن الذى تتكلم عنه . كانت شوارع هذه العواصم مضاءة بالليل ومبلطة تبليطا متقنا . وكانت البيوت مفروشة بالبسط ومزينة حوائطها بالنقوش وكانت تسخن فى الشتاء بالمدافىء وترطب فى الصيف بتيارات من النسمات المعطرة تصل اليها من سراديب تحت الارض مغطاة فوهتها بالأزاهر الزكية ، وكان لهم حمامات ومكاتب ومحلات للغذاء وفوارات للمياه والزئبق . وكانت المدائن والأرياف حافلة بالاحتفالات والرقص الذى كانوا يأتونه على نغمة (العود) و (المزهر) وكان شعار العرب فى ملاعبهم القناعة وطلاقة النفس ، بخلاف جيرانهم الغربيين فقد كان ديدنهم النهم فى الاكل والادمان للسكر . وكان الخمر حرام عليهم لايقربونه وكانوا يتمشون فى حدائقهم فى الليالى القمرية وفى غياضهم المنعزلة المزروعة برتقالا وهم يصغون الى قصة أدبية أو يتحاورون فى بعض المواضيع الفلسفية مسلين أنفسهم عن أحزان الدنيا بقولهم : انها لو كانت خالصة من شوب الآلام لأنستنا الحياة الآخرة ، وراضين بالكد والتعب فى المعيشة الأرضية أملا فى نوال الراحة الأخروية الدائمة» . انتهى

هذه مدنية سامية لاتقل فى نظر (درابر) وغيره فى حسن الذوق والرقة والظرف عما عليه أوربا اليوم ولقد نالها آباؤنا فى أقل من قرن واحد بمحض سيرهم على صراط العدل المستقيم المبين فى القرآن الكريم .

كونوا هذه المدينة وطبعوها بطابع اسلامى محض وأثروا بها على سائر الأمم ولم يتأثروا هم بشىء منها .

وإن تعجب من هذا فاعجب منه انه كانت مساجدهم بجوار هذه المعاهد الفتانة عامرة بالمصلين والشعائر الدينية خافقة الاعلام على الرءوس أجمعين يقول المؤذن حى على الفلاح فتجيبه الارواح قبل الاشباح ، وتسجدلندائه الأفئدة قبل الجوارح ، لا كما نحن اليوم يلفتنا ملهى قذر عن أكبر مطلب من مطالب أرواحنا ، ويأخذ بعقولنا مرقص مخجل عن أسمى رغبة لنفوسنا ، حتى أن ماأقيم فى بلادنا من تلك المعاهد التافهة التى لاتساوى جزأ مما كان لآبائنا قد أنسانا الدين والدنيا والشرف والحياء والحياة .

السبب الاكبر لما ألم بنا من السحر بهذا البدع الجديد ، واغتال من نفوسنا أشرف عواطفنا ، هو ولا شك العماية المطلقة عن قوانين الحياة ، ولقد بلينا بكتاب فقدوا رشدهم من سحر هذه المدنية الجديدة فقابلوا الأمة وهى فى غفلة عن ذاتها فصوروا لها المدنية الحالية فى صورة خيالية محضة ، وانتهزوا فرصة فتور حركتها فملؤا افؤادها يأسا من لحاق شأو الأمم الأخرى ، ونفثوا فى روعها القنوط المطلق وسموم الاستخذاء للأقوياء ، وقتلوا كل عاطفة شريفة فيها فنشأ تحت هذه النغمة نشء من الناس مستعدين للتقليد والمحاكاة فسلكوا المسالك التى نسعى جهدنا اليوم لردهم عنها ولولا أن اليأس كفر فى مذهبنا لقلنا قد استعصى الداء وعز الدواء ولكن الله غالب على أمره والافراد

كالأمم فى قبضة الله يميتها و ينشرها ولا معقب لحكمه . « قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله »

أى شىء يكسر من شرة اولئك المترنمين بمدنية هذا الجيل أكبر من نقل أقاويل أصحابها فى بيان نقصانها وانها ساعية بالأمم الى حتفها ان لم يقوموا بها على صراط الدين الحق ؟

قال الفيلسوف (فيرنس جيافرت) « ان العلم قد غلا فى الاستفادة من سرعة تصديق العامة أكثر مما غلا رؤساء الدين ، فلقد أثبت لها عدم صحة رموزها الدينية القديمة ووعدها بتعويضها لها بأصول ثابتة أبدية لدين حسى جديد ، فلم يف بوعده لها . ولما آب للانسانية رشدها ، وقد فقدت شعرياتها السابقة ، وجدت نفسها حيال فراغ أوسع مما كانت فيه قبلا . وفى الواقع ماذا يفيد الانسان علمه ببعض الحوادث الطبيعية بجانب ذلك الالحاد المتجدد المؤلم الذى يجرنا اليه ضميرنا الفاقد لحرارة الحياة »

« انهم ينصحون كل انسان بأن يكون لنفسه دينه الخاص ، ولم يفطنوا الى أن هذه النصيحة المزدوجة تحتوى على تناقض بين حيث ان المذهب الحسى لم يترك للانسان مجالا فى غير المسائل المادية المحضه .

« ان الحقد والعداء يزدادان يوما فيوما فى نفوس أهل البأساء المحكوم عليهم بالفاقة الى الأبد ، وان جنون البذخ والجبروت ينمو على قدر ذلك لدى أهل اليسار والبذخ . وهذا الالحاد الآخذ فى النمو

يسوق جمعياتنا بعاطفة المساواة الى حالة ثورية دائمة . وأصبحت ترى الملوك العظام يتعاقبون على عروش الملك بسرعة لم تكن تشاهد فى وزراء الأزمنة الماضية . والحكم الاستبدادى بدل أن يتشبح فى بعض الافراد أضحى منتشراً بين الملايين فكل ديموقراطى يتمنى أن يبلغ الرتب العلية وترى الشعب لما أحس أنه خلص من أسر الواجبات الروحية التى تفرضها الكنيسة وازدرى بذلك الدستور السياسى الذى يراه يتغير بسرعة جنونية أعطى لعاطفة الاثرة فيه كل الحرية وصار يعتبر أن ماله من حق المساعدة فى ادارة شؤون حكومته وسيلة لنوال مآربه الحيوانية بأسرع ما يمكن ولقد رجونا أن نداوى مصائب النوع الانسانى بالكنوز المادية التى ألقيت بين أيدينا من منذ قرن من الزمان . ولقد تكاتف العلماء والمهندسون والصناع والميكانيكيون على زيادة متاع الحياة الدنيا زيادة عظمى ، ولكن لم يكن من نتيجة كل تلك المكتشفات الا نشر حمى حب المال فى الطبقات السحيقة جدا .

« فأى قانون أخلاقى يكفى لكبح جماح أهوائنا وادخالها الى مجاريها الطبيعية المعتدلة » لقد ذهب عنا الكمال المعنوى ولم يبق فينا الا خوف مبهم من شىء غير مدرك . لأن العيقدة بالله لا يمكن زوالها من النفس فترى الذين لا احساس لهم يستفيدون من وراء ما وقعنا فيه من الظلمات ، وترى العقول المستنيرة بالعلم ، المحرومة من الدين تعذرهم فى ارتكابهم الجرائم ، وبهذا فقد أصبحت الشهوات غير واقفة عند حد »

وان تحت هذا السلم الذى اقتضاه الخوف العام لأحقاداً تختمر

اختماراً بأشدمما كانت فى أى زمن من الأزمان . فان جرائم الفوضويين وافلاس الماليين وانتحار الأسر بأجمعها والوساوس الخرافية الآخذة فى الانتشار بين الناس والجنون الذى لا ينتظر الا سنوح الفرص ، وأصحاب الاثرة البائسين ، وكل هذا الفساد الخلقى الشديد الوطأة البعيد القرار الذى عم اجناسنا ناشىء من عدم وجود قاعدة دينية تصلح لاحداث الوحدة والاخاء بين احتياجنا الدائم للعمل وبين عاطفتنا للحب .

« لذلك ترى ظلمات من الحزن والكمد آخذة فى الاسوداد كل يوم ملقية أطنابها على عالمنا . ويزعم الانسان فى غروره ان حرية الاثرة ستحصل له كل مايتمناه من سرور وانشراح حتى صرنا وكل يوم لنا مطلب جديد وكل طائفة تسعى لنوال امتيازات جديدة ، وكل فرد يدعى لنفسه حقوقا ليس لها حد تنتهى إليه وبذلك فقد أصبح الانسان بين هذا العذاب المنصب عليه من الكبر والتمرد معترفا بأنه أمام الحياة أضعف مما كان فى أى زمن من الازمان »

وقال العلامة (كاميل فلامريون) ونظن أنه غير مجهول لدى المسلمين : « لايجوز لنا أن نخجل من الاعتراف بما وقعنا فيه من الانحطاط لانا رضينابه وأصبحت عقولنا المتشبعة بالأثرة لاهم لها إلا أغراضها الذاتية أليس حظنا اليوم من الحياة قد استحال لجمع الثروة بلامبالاة بوجوه جمعها ، والحصول على المجد بطريق الاغتيال لا الكسب والجمود وعدم الاهتمام بالدستور والواجبات ؟ » « وإن من التناقض

البين المؤلم أن ترى أن الرقى الباهر الذى حصل فى العلوم مما لامثيل له فى التاريخ ، وأن هذه الفتوحات المتوالية التى تمت للانسان فى الطبيعة بينما رفع عقولنا إلى المدركات العالية أهبط انسانيتنا إلى أخس الدركات. ومن المحزن أن نحس بأنه بينما نشعر بنماء قوتنا يوما بعد يوم ، تنطفى حرارة قلوبنا وتتصوح زهرة حياتنا القلبية بتأثير غلبة المطامع المادية والشهوات الجسدية » انتهى .

هذا تمهيد بسيط سقناه أمام الكلام فى حل الشبهة الماضية ليعلم أولئك المتفيهقون بزوال الدين وبقيام العلوم الطبيعية مقامه أن سنة الله لا تتبدل ، وأنه سيجىء يوم يرى الانسان فيه أن الدين دواءه الوحيد ، وأن ماكان فيه من تلك العجرفة والكبرياء لفحة من لفحات الشيطان ، ولكنه فى ظننا لا يعود حتى تصهره الحوادث صهرا وتؤدبه بعصاها أدبا ينتقش فى كل ذرة من ذرات جسمه « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز »

هذه الفتنة العمياء التى يموج فى دياجيرها الأوربيون الآن بشهادة من نقل عنهم من كبار علمائهم أتتهم من الرقى الصناعى المدهش الذى حصل لهم لما تركوا عقائدهم التى كانت تحول بين عقولهم وبين مشتهياتها من العلم ، فبدل أن يقفوا عند حدود الدين الفطرى جازوه إلى متاهات الالحاد وقالوا إذا كان كل مانلناه من سعادة هو من العلم فلا نعترف بناموس غيره وقد أريناك بعضا من أقوال عرفائهم فى هذه الفتنة العلمية الخطيرة وهو دور من أدوار حياة الأمم أشار الله اليه فى كتابه

الكريم بقوله تعالى : « فاذا مس الانسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم (تأمل) بل هى فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون . قدقالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون . والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وماهم بمعجزين » .

(الشبه العلمية والعقائد)

استعرضنا أمام القارىء فى فصل الانسان تحت عنوان « نشأة الروح العلمية التى يسيطر بها الغرب على الشرق » كثيرا من الشبه العلمية التى تلوكها اليوم بعض الألسن وتجيش فى كثير من الضمائر ، واستدركناها فى كتاب خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم بفصل تمهيدى اجمالى ووعدنا قارئنا بالتفصيل الشافى فننجز اليوم وعدنا فنقول والله ولى المؤمنين :

قلنا فى ذلك الفصل : « فهل فى هذا دليل على قول بعضهم من الملاحدة ان الدين باعثه الجهل ومادته العماية عن حقائق الكون؟ وهل فيه حجة للقائلين بأن الأديان الموجودة هى حوادث تاريخية استلزمتها أدوار خاصة ، وقد أدت وظيفتها وأخذت فى الانحلال ولن يقوم لها فى عصر العلم قائمة ؟ »

وقلنا : « فهل فى الرقى المادى شيء من السحر يعترى النفوس فيلفتها عن مطالب أرواحها ويعميها عن رؤية كمالاتها ؟ ان كان كذلك فما هو ذلك السحر فى نفسه وما منشؤه وكيف يؤثر على العقول هذا

التأثير المدهش ؟ وهل لا يمكن أن يوجد على سطح الأرض مدنية مادية متحدة بكمالات روحانية ويكون الانسان بينهما مغمورا فى نعيم روحه وجسده متمتعا بلذائذ مادته ومعناه ؟ ان كان لا يمكن ذلك فهل شرع الدين ليكون مقصورا على الفقراء والمساكين ، وموقوفا على المحرومين والمستضعفين ؟ وان كان من الممكن جمع مدنية مادية وكمالات روحية فما بال بعض المسلمين الذين قضى عليهم بالاحتكاك فى قشور هذه المدنية الأوربية قد خلعوا أعنة الدين وأملسوا امن وشيجة العقيدة ؟ »

ثم قلنا : « ماهى المدنية وما تأثيرها على الروح الانسانية ؟ ماهى الشهوات الجثمانية وما هى الكمالات النفسانية ؟ لماذا يفضل الانسان الشهوات الفانية على الكمالات الباقية ؟ هل السبب فى ذلك عدم الايمان ؟ فما هو الايمان ؟ كيف يقوى وكيف يضعف ؟ هل فى العلوم المادية مايقوم مقام الدين فى إيتاء الروح حاجتها وتهدئة النفس فى جيشانها ؟ هل فيها ما يغذى عواطف الروح ويجعلها تقنع بنعيم الحياة الأرضية وتكتفى بملاذها الجسدية ؟ هل نمو القوة العقلية ينتهى بالانسان الى اعتقاد بطلان الأديان ، وادراك فساد مابنيت عليه من الأركان ، فيكون الشأن تأخر الدين كلما تقدم العقل حتى يتم الأمر بزوال الدين وانتهاء سلطته وقيام العقل مقامه فى أداء وظيفته ؟ . » ان قيل نعم فما هو العقل وماهو الدين وما حدود سلطانهما على النفوس » « وان قيل لا نقول : اذن ماهذا الأثر الذى نشاهده ؟ » « ان قيل : ذلك لما تسهله المدنية

لهم من أسباب اللهو والترف ، وما تجلبه لهم من المغريات على الخلاعة والسرف ، نقول : وكيف يقوم الأمثال هذه الأمم قائمة وكل ماذكر من صنوف اللهو محلل لروابط الهيئة الاجتماعية ، عادعلى كيان حوافظها الأصلية ؟ هل ذلك لأنا واهمون فى تحديد ماهية الفضيلة وماهية الرذيلة؟»

ثم أوردنا على أنفسنا قول معترض يقول : « انكم تتعجبون من كونكم مسحوبين من أنوفكم الى تقليد الأوربيين والأخذ بعاداتهم ، وتذهبون فى تعليل هذا الأمر مذاهب الخيال والشعر فتسمونه سحرا أو تسمونه روحا وقد جعلتم التفيهق بأمثال هذه الكلمات مادة لكم فى أبحاثكم وكتاباتكم . أتدرون ماتجدونه فى أنفسكم من الاندفاع للتقليد أثر أى قوة هو ؟ هو أثر قوة الفضيلة فى الأمم التى تحتكون بها لأن الفضيلة جذابة خلابة تؤثر تأثير السحر على العواطف والأميال فهى تجذبكم كل يوم اليها بقوتها الذاتية فترضخون لأحكامها بالفعل بينما تكون ألسنتكم وأقلامكم لائكة تلك العبارات الاستفهامية ، والجمل التعجبية اندهاشا من كونكم مسحورين بالرذائل ، ومجبرين على ترك الفضائل . »

هذا ما قلناه فى الفصل المذكور آنفا وآتينا به ههنا لمناقشته الحساب من قريب خشية أن يكون الرد فى مجال والشبهة فى مجال آخر فيعضل الموضوع على المطالع فلا يهبه من العناية ما يستحقه فلنبدأ الكلام والله المستعان :

تمهيد

لو أردنا أن نعالج كل هذه الشبه التى سردناها واحدة بعد أخرى لطال بنا الكلام وتشعبت بنا فنون التعبير وذهب فكر القارىء مع قلمنا مذاهب بعيدة يصعب معها اشرافه على مجموع المقال ، ويتعذر عليه الاحاطة بأطرافه من أول جولة فتضيع الثمرة التى نقصدها بالذات من اشباع القول فى هذا البحث . لهذا رأينا أن نحدد ميدان المناقشة فى دائرة محصورة يستطيع القارىء أن يلم بمحيطها من أول نظرة و يدرك لها مركزا معلوما ؛ ولا حرج علينا بعد ذلك ان مددنا انصاف اقطارها الى حيث يقتضيه منا خطر الموضوع ، فانه مادام واقفا فى مركز الدائرة يمكنه أن يتتبع خطوات القلم الى حيث يشطح ثم يعود بنفسه الى النقطه التى خرج منها ليتجه حيث أراد بدون أن يخشى الشرود عن جوهر الموضوع .

هذه الدائرة التى نقول عنها هى عبارة عن بسط مقدمات أولية أساسية صالحة لأن تكون لهذه المباحث كالحدود المرسومة للبناء ، لانرى بدأ من اقامتها ومن الله نستمد القوة والحول :

﴿ دستور الكائنات ودستور الانسان ﴾

لكل كائن فى عالم الكون دستور يسير على موجبه فى حياته ،

وتريد اليه سائر محاولاته ، حتى ان الجمادات والنباتات ليست محرومة من دستور خاص بها ملائم لأحوالها وان كانت لم تتمتع من خصائص الادراك والتمييز بما يشعرها به ويهديها اليه ، وليس دستوراهما الا النواميس الطبيعية المسلطة على كيانهما حتى انك لو كلفت شخصا من أشخاص الجمادات أو النباتات بمالا ينطبق على تلك النواميس أى على دستوره الخاص لقاومك وأعياك ، فاما ان تقلع عنه وإما أن يذهب فقيد هواك . فأما الحيوانات الحاصلة من الحياة على قسط أكبر من هذين العالمين السابقين فدستورها أوسع مجالا ، وأبعد اختصاصاً وأنأى مرامى وأغراضا ، ولكنه مهما اتسعت مجالاته ، وتشعبت اختصاصاته ، فلا تتعدى مراميه الحاجيات المادية ، والمطالب الجسدانية ، وليس فيها من القابلية والاستعداد مهما ارتقى وتهذب لأن ترمى لما وراء حسها بأى وجه من الوجوه

أما الانسان فقد دل حاله بالاستقراء على أن عوامل دستوره لا تقف به عند المطالب الطينية ، بل تتعداها الى باحات أخرى معنوية لا يحددها له الوهم بحد ، ولا ينتهى منها تصوره الى غاية . وكلما ارتقى فى الفكر والشعور درجة اتسعت أمامه تلك الباحات المعنوية درجات كثيرة ، وزادت شدة العوامل الدافعة اليها حتى أنه قد يصل من الالتذاذ بالمعانى لدرجة يضحى معها الماديات فى سبيلها ويكتفى من بواعث الحاجات الجسدية بما يسد الرمق تفرغا لتلك المطالب العالية ، وجريا وراء أمانيه منها . وقد شوهد من أحوال الانبياء أنهم مع

سمو مناصبهم ، واستطاعتهم للتنعم بالماديات فوق مايستطيعه الملوك والقادة لتسلطم على أرواح الناس وأجسادهم ، كانوا يكتفون من الخبز بلقيمات تقيم صلبهم ، ويلتفتون من عالم القدس وأنوار الجمال الالهى لما هو أكبر من الدنيا وما فيها فى نظرهم . وأعظم مثال نقدمه لقرائنا حال سيد الانام محمد صلى الله عليه وسلم فقد كان من السلطان على رعيته فى درجة لم ينلها عشاق الملك ومؤسسو الممالك بحيث أن كل واحد من أتباعه كان يهون عليه أن يفديه بنفسه وأهله وماله ، ومع ذلك فقد أبت نفسه الشريفة كل ذلك النعيم الفانى ولم يصب من حاجيات بدنه الا مايقيم شخصه اكتفاء بذلك الصفاء الروحانى الذى كان يشعر به مما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر ، وتدلنا سيرة كبار أصحابه وعظماء تابعيه فى كل الأجيال أن منهم من تبعه فى هـذه الخطة الشريفة فانغمر مما يتوق اليه فى بحر من الفيض الالهى لو وضعت الدنيا بلذائذها فى صدفة من أصدافه لما وازنت أصغر درة من درره المعنوية الكريمة .

نعم ان تاريخ النوع البشرى ليدل دلالة صريحة لاسيما لو استقرينا أحوال الأمم المرتقية منه على أن دستور الانسان فى حياته ، الذى يسيطر على سائر حركاته وسكناته هو غير دستور العالم الحيوانى ولا هو ترق منه

الحيوان لاهم له إلا خدمة الجسد ، واداء مطالب البدن ، يعيش ويموت أسيره وخادمه ، والانسان على الضد منه : له مرام أبعد مدى ، وأغراض أشرف مقصداً ، وهو طلب كمال يشعر به فى صميم ذاته ،

ويتضرم لأجله فى لباب كيانه ، وان لم يستطع ان يصوره بصورة ، أو يقف منه وهمه على كيفية

نعم خلق الانسان مغرما بالكمال ، ولهان به فى كل حال . . . . فهو لا يأكل ولا يشرب ، ولا يسكن ولا يلبس ، ولا يحارب ولا يسالم ، ولا ينقض ولا يبرم ، بل ولا يماكر ولا يداجى ، ولا يدلس ولا يحاجى ، وان شئت قلت ولا يسرق ولا يقتل إلا وفى قلبه نار تدفعه لطلب الكمال ، وتزعه عن الوقوف فى الأوحاول ان غلط فى اختيار الوسائل ، وارتكس بجهله الى أخس المنازل

طلب الكمال صفة من صفات الروح الانسانى ، ولازم من لوازم تركيبه الروحانى بل هو النتيجة اللازمة لكل هذه العواطف والأميال والقوى التى ركبت فى هذا الفؤاد الخفاق الساكن بين الجوانح !

دع عنك لحظة ما تعرفه من حال الانسان فى جهله وعمايته ، وما تسمعه من غيه وضلته ، وما أكسبته له التربية الرديئة من الصفات الحيوانية ، والأميال السفلية ، كالايغال فى المآثم ، والانغماس فى أقذار الجرائم ، وأرجاس الذمائم ، وانظر اليه بشرا سويا خالصا من مؤثرات التربية المعوجة والوسط المفسد ، طاهرا من شوب التقليد والوراثات. تركائنا أعطى من القوى والمواهب ، ومنح من الملكات والبواعث ، مالا يدخل فى حسبان حاسب ، ولا ينحصر فى أبحاث باحث . ماذا ترى ؟ ترى ادرا كالا تعجزه حقيقة ، وعقلا لا تعمى عليه معضلة ، وفكرا لا ترتد تموجاته دون غاية ، وتصوراً لا تنتهى قواه عند نهاية ، وخيالا

ليس لمراميه دائرة تنحصر فيها ، وأميالا لا تنتهى لها مطالب ، وقوى لا تعييها الرغائب ، وهو مع كل هذه العطايا فى عالم لا تنتهى عجائبه ولا تفنى غرائبه ، ولا تنضب مادة آياته ،ولا تغيض أسرار مدهشاته .

تأمل فى هذا الكائن المتمتع بهذه المواهب ثم قل لى أى مطلب يليق أن يتخذه له غاية فى حياته ، وأى مرمى يصح أن يجعله غرض محاولاته ، وأنشودة ملكاته ؟ قلنا دع ماتعلمه من حالة الانسان فى الفساد والدنايا جانبا وقل لى بعدها أى طلبة تليق أن تكون مرمى هذه الخلقة الشريفة ، ومطمح نظر هذا التركيب البديع غير كمال مناسب لهذه الغرائز ، ولائق بهذه المنح والنحائز ؟

نعم خلق الانسان وكل مافيه يسوقه ويحزه لطلب الكمال والجمال ، بل ويهيئه ويدفعه فى سبيله دفع الجوع الجوعان ، ويسوقه سوق الظمأ للظمآن ! ولكن :

فيادارها بالخيف ان مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال

أى قلب لا يتفتت كمدا وحسرة ، وأى حشاشة لا تذوب أسفاً وحزنا ، اذا علم الانسان من حال بنى نوعه واستعدادهم لأسمى منصات الكمال ، ماأتينا على طرف منه ، وانهم قد وهبوا من الملكات والقوى مايدفعهم اليه دفعاً ، ويهيئهم له تهيئا ، ثم يرى أن أكثر هذا النوع المكرم قد شاكل البهائم فى شرهها ونهمها ، وضارع الوحوش فى ضلالها وجهلها ، وأشبه الضياغم فى ضراوتها وقسوتها ، وحاكى الشياطين فى حيلها وخدعها ؛ وقد عكسوا كرائم تلك القوى والملكات عكسا

سقط بهم دون عالم الحيوان ، فروجوا بينهم رمائم الصفات، وخسائس الأخلاق ، وقاسوا على مقتضاها معاملاتهم وأحوالهم ، ورتبوا على أصولها قوانينهم وشرائعهم ، وحبسوا أنفسهم بذلك فى مضيق لا يليق بكمالهم ، ولا يناسب سمو حالهم !

هذا هو الذى كان يلم بفكر المصلح الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم فيجعله دائم الحسرة طويل الفكرة ، أسفاً على ما آل اليه أمر هذا النوع الكريم وقد كاد هذا الأسف يؤثر على مزاجه الشريف حتى أن مبدعه جل وعز خاطبه على لسان الروح الأمين قائلا : « فلعلك باخع نفسك (أى مهلكها) على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً » وقال تعالى : « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات . » فرجع عليه الصلاة والسلام الى هذا الأدب الالهى وعلم أن تلك حكمة بالغة وابداع لا يعلمه إلا هو ، فهو وحده المصرف للأمور ، العليم بصيور الشئون ، واعقاب الأحوال سبحانه لا معقب لحكمه .

انظر الى هذه الفطرة الانسانية الكريمة والى ما متعت به من قوى ومواهب ، والى ما تليق له من عاليات المراتب ، وساميات المناصب ، لو أسلمت وجهها الى الله أى لو تخلصت من شائبات التربية الفاسدة ، وحرت من مؤثرات العادات القبيحة ، والتقليدات المردية ، والوراثات المائلة بالملكات الى غير ما خلقت له من الكمال والاعتدال ، ثم قدر تلك الحجب الطينية الغليظة التى تحجب عن هذه الفطرة الكريمة نورها الزاهر وجمالها الباهر ، وتأمل كما ينبغى ان تتأمل فى تلك الغياهب

الشيطانية التى تحول بين المرء وقلبه ، وتهبط به عن أوج مجده ، واشكر الله على أن هداك للاسلام ، وأقامك على منهاجه ، وهل الاسلام الا اسلام الوجه الى الله وخلع كل الوراثات والعقائد والمدركات التى ما أنزل الله بها من سلطان ، والقيام على صراط الاحسان فى القول والعمل على ما يقتضيه قانون الخلقة وناموس الحياة « ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن »

اذا تأملت فيما قلناه ورأيت انك بينما ترى الانسان نورا صرفا وجمالا خالصا وكمالا بحتا اذا هو بعدم اسلامه أى بعدم اسلام وجهه لله ظلمة متكاثفة وقذرا محضا ونقصا يسفل فيه عن أخس الحيوان ، اذا تأملت فى هذا وتعجبت منه ، فان أعجب منه بما لا يقدر ان الحد الفاصل بين هاتين الحالتين المتناقضتين عقيدة واحدة قد تحل بصميم فؤاده فتمتلك سائر قواه فتوجهها الى مصاعد الكرامة ، ومعارج الجلالة فيعرج على أجنحتها الى الغايات القدسية ، ويتصل بالعوالم النورانية ، وقد تتخلى عنه هذه العقيدة فتدعه لهواه فيهوى به الى أسفل من دركات الحيوانية ، ويغمره من عالم النقص الى أخس المنازل ، ويتركه من مداحض الأهواء فى هوة ليس لها آخر .

هذه العقيدة هى الايمان بالعالم الروحانى واليك البيان :

(الناس أمام هذه العقيدة)

الناس بازاء الاعتقاد بالعالم الروحانى ثلاثة أصناف : صنف

يعتقدها اعتقادا ذوقيا فوق اقراره بها اقرارا برهانيا ، بمعنى أنه لم يكتف باقامة الأدلة على حقيقتها وجعل دينه مجرد حفظ تلك البراهين والثرثرة بها كتابة وقولا فقط ، بل صدقها بالحجة والبرهان ، وعمل بما تقتضيه من الأركان ، فذاقها ذوقا ذاتيا فأنتجت فيه ثمراتها النورانية فسطعت فى أعماق ضميره ، وأقصى ثنيات فؤاده . ورجل لم يعتقدها ولم يصح لديه برهان على حقيقتها فكشطها من ذاكرته ، ولم يعد يخطرها بباله ، فلم يعمل بموجبها ولم يبن أموره على أصولها .

ورجل ثالث يعتقدها بالوراثة عن آبائه وأجداده فاكتفى منها بمجرد وهمه بأنه واحد من حملة أماناتها ، وفرد من الأمة التى كانت تحمل علمها ، وتستضىء بمصباحها .

لا جرم أن لكل رجل من هؤلاء الثلاثة دستورا خاصا فى الحياة يلائم مكانه من هذه العقيدة لابد لنا من الالماع الى طرف منه تمهيدا لحل كل تلك الشبه المتقدمة لارتباطها بهذا الموضوع تمام الارتباط .

﴿ حال المعتقد بالعالم الروحانى ﴾

هو رجل لم يقف من هذا الوجود المحيط به فى الدائرة التى تحددها له حواسه ، أى لم يقصر عوالم الكون على محض ما تبصره عينه الكليلة وما تلمسه يده الغليظة وما يتأثر به شمه وسمعه وذوقه ؛ وعز عليه أن يكون من الجمود والغلظ بحيث يجزم بأن هذا الوجود الذى لا نهاية له لا يشتمل إلا عليه وعلى ما يمكن أن يحسه فقط ؛ وأنف تصوره

أن يحكم على نفسه بأنه والحيوانات فى مستوى واحد لا يمتاز عنهم فى شىء مطلقا كما يدعيه غلاة التاريخ الطبيعى ، وأبى فكره الطموح الجوال أن يزعم أن هذه الطبيعة المدهشة لا يصرفها ويحركها الا نواميس طبيعية محدودة لا علم لها ولا اختيار ولا ارادة ، وان كل هذه البدائع المحيطة بها من كل جانب ليست الا مقتضيات تلك النواميس ونتائجها ، وتعاصى عقله أن يقبل تلك التعليلات الطبيعية التى جاء بها أولئك الذين ذهبت بصائرهم ، وطمست أفئدتهم لعلمه بأنها ثمرة الفكر ولا يخفاه كلالة حده ، وعجزه عن ادراك كنه الذرة البسيطة فضلا عن الاحاطة بالكون والحكم عليه هذا الحكم الجائر .

علم صاحبنا كل هذا ثم نظر الى تاريخ النوع الانسانى نظرة فرأى أن العقيدة بالعالم الروحانى قديمة وعامة فى سائر الأمم فصعب عليه أن يزعم أن النوع الانسانى عاش كل هذه القرون الكثيرة مغموسا فى بحار الخيال ، وواهما فى أكبر مسئلة تعنيه وتهمه . ثم ألقى بنظرة أخرى على تاريخ الانسان ومر على أحوال أولئك الرجال العظام ، الذين ملكوا قياد الشعوب والقلوب فى سائر الأجيال من لدن القدم لليوم ، وأحدثوا أكبر الحوادث الاجتماعية وهم الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام فرآهم كلهم مجمعين على وجود عالم روحانى فوق هذا العالم الجسدانى ، ودعوا الى الاعتقاد به كافة الناس فأحدثوا بهذه العقيدة أعظم القوارع الأدبية التى كان ولم يزل لها أكبر أثر فى حال الانسان وأخلاقه . فرأى أن مجرد حال أولئك الأنبياء والرسل إن لم

يكن هو وحده أدل الأدلة على وجود ذلك العالم ، فلا أقل من أنه يستلفت اليه النظر ، ويوجه عليه الفكر ، ويميل بالعقل الى ترجيح وجوده ، ويحبب اليه المتاع بشهوده .

جال صاحبنا هذه الجولات الطبيعية والتاريخية ثم عاد الى نفسه فرأى أن الحياة الارضية دار آلام وأحزان ، وقرارة أكدار وأشجان ، ومحلة بلايا وأرزاء ، تارة في النفس والمال ، وأخرى في الاخوان والآل ، وأن حوادثها سلسلة من أدوار وأطوار ، لا تنتهي حلقة منها حتى تبتدي حلقة أخرى والانسان بين تلك الحلقات في حرب عوان ، وضراب وطعان ضد نفسه وأهله وبنى بلده واخوان وطنه وعموم نوعه وفوق ذلك كله ضد الطبيعة وعوارضها ، وهو من معمعان هذه المعركة الدائمة في تيار يجرى به الى حيث يجهل . ويجول به في كل جدول . يجتهد ليقف لحظة أو يرتاح هنيهة فيرى أن في وقوفه الهلاك المعجل ، والشقاء المسجل ، فلا يسعه إلا الاستسلام لدفع ذلك التيار فلا يزال يقذف به من جانب الى جانب حتى ينتهي به الى غاية حياته ، أو يصدمه في إحدى جهاته ، صدمة توقف حركاته . ربما يكون هذا الرجل في أثناء دورانه هذا قد جاء بأولاد اندفعوا معه بهذا التيار نفسه ، وصار حظهم من الحياة لا يفترق عن حظه ، وكثيراً ما تمزقوا أمام عينيه فيكون ألمه مضاعفاً ، وحزنه وأساه ليس يسهل على الواصف .

رأى صاحبنا نفسه في هذه الحال فتحقق أن الحياة على هذه الصفة عبئاً ثقيلا ، بل بلاء وبيلا وشراً مهولا يجدر بالانسان معها أن يحسد

الفأرة فى وكرها ، والنملة فى مسكنها ، والحمامة فى عشها ، بل والحجارة فى جبلها ، والرمال فى سهلها . وبينما هو يفكر فى هذا الشأن ويبتئس من حالته ويجأر إلى قيوم الوجود ليهديه فى حيرته ، وينعشه من وهدته ، وإذا بصوت جهورى يرن له من أعماق قلبه ، ويصعد اليه من لباب معناه تاليا عليه قوله تعالى : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا » فعلم عندها أنه مستودع أمانة جليلة ، وحامل سر عظيم ، فهم يتعرف تلك الأمانة ، ويدرك معنى ذلك السر ، ولكن أين العرفاء ، أين الأدلاء ، أين المرشدون ، أين الهادون الخبيرون ، أين الحكماء الروحانيون ؟ فبينما هو يجأر الى الله بهذا القلب المنكسر ، واللب المنذعر ، وإذا بصوت كالأول صعد اليه من غيابة سره تاليا عليه قوله عز وجل : « الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس » فرمى بنفسه بين يدى أولئك الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام رجاء أن يأخذوا بيده ليوقفوه من هذا الدوران الهائل ، وينقذوه من أسر هذه الحلقات الموبقة ، ولكن من الذى يقصد منهم وهم كثيرون ، ومن الذى يستمد من روحه وأكثر تعاليمهم قد حرفها المحرفون ، وبدلها المبدلون ، فانه ليموج فى متائه هذه الحيرة واذا بالهام يذكره بهذه الآيات : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » « وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين » فلم يسعه بعد أن ظهر له وجه الخلاص، وتراءت

له سفينة النجاة إلا أن يعتصم بها من هول ذلك التيار الجارف ، ولـكن هيهات كيف الوصول الى سلم السفينة وهو من موج أحواله فى هبوط وصعود ، ومن ثورتها فى اضطراب يضيع الرشد والحيل ، ويغرى باليأس عن بلوغ الأمل ، فبينما هو على مهواة القنوط واذا بذاكرته مرت به على هذه الآية : « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله » « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » فعلم أنه لن يحرم من معونة مبدعه الذى خلقه ووعده بالهداية ، وصوره على هذا الابداع وحاطه بحسن الرعاية ، فلم يزل يأخذ نفسه بأدب القرآن، ويستمد نورطه عليه الصلاة والسلام حتى هدأت تلك الزعازع ، وركدت هاتيك الزماجر ، وقدكان يظنها لا تهدأ ، ثم منحه الله كرامة السكينة فى فؤاده بعد ذلك الجيشان الابليسى ، والسكينة مشرق النور الالهى ، ومهبط السر القدسى ، ومهب نسمات الطمأنينة والراحة « هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم » فازداد حبا فى التأدب بآداب النبى الأعظم وتشبثا بتعاليمه صلى الله عليه وسلم فنال على قدر ذلك قربا من الحق الأقدم ، وتمتعا بشهود الجمال الأقدس ، وبصراً بنور الخالق ، وشعوراً بلذة الرضا والاستسلام ، والتذاذا بذلة العبودية ، وهياما بما ينتظره فى العوالم التى تلى هذا العالم « يهدى الله لنوره من يشاء » واكتسب ثباتا فى قوله وفعله ، ورزانة فى فكره ونظره ، وزايلته تلك الحمى الشيطانية التى كانت تدفعه وراء المطالب الـكاذبة ، وتستبعده للـكمالات الوهمية الـكاسدة ، وارتفع عنه ذلك الطيش

الحيوانى ، والنزق الجنونى ، والخرق الشهوانى الذى كان يلعب به لعب الطفل بالكرة ، ويستطيره استطارة الريح للريشة ، فكان من الذين قال خالقهم فيهم : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ، والذين يبيتون لربهم سجداً وقياما . الآية » ثم كان من أثر تلك الحالة الكاملة عليه ان انفتح له من قبل عالم الجلال والجمال نافذة علية يصل اليه منها نور يغمر فؤاده ، ويحميه من غاشيات الفتن المادية ، ومفسدات المطالب الجسدية ، ويحجب عنه أفاعيل الشياطين التى لا تفتأ تناصب الانسان العداوة والجفاء ، وتنصب له اشراك المكر والخداع ، فيكون من هذا النعيم فى حالة تغبطه عليها الاملاك ، وتخدمه فيها القوى الروحانية العلوية والسفلية ، وتخضع له نواميس العوالم المعنوية والمادية مما لها نسبة بحالته البشرية .

هذا هو الرجل الذى يعتقد بالعالم الروحانى اعتقادا ذاتيا ، وعمل بمقتضياته عملا حقيقيا ، ولم يكتف بالثرثرة به لفظيا ، فهو يعيش عيشة مباركة طيبة حاصلا على سعادتيه ، وفرحا بكمال حالتيه « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »

(أثره فى الوجود)

يظن الذين لم يذوقوا طعم العقائد ، ولم ينتعش فؤادهم بسبحات نورها سواء كانوا من المنتسبين اليها أو من أضدادها بأنها تغض من

طرف الانسان عن الاحتفال بالعالم الفانى وتثبط من حركته عن الرقى فى مجال الكمال الصورى الجسدانى وهو زعم لاأساس له من الواقع ، ومايرى من ذلك عن بعض الأنبياء فان صح كان ذلك خاصا بزمانهم لحكمة يعلمها الله تعالى وهو أمر لايبنى عليه حكم فان تاريخ الرسل عليهم الصلاة والسلام عامة وتاريخ امامهم وخاتمهم محمد خاصة يدل على أن أكبر الحوادث الاجتماعية التى بعثت الى الكمالات الصورية والمعنوية تمت على أيديهم وبواسطتهم . على انى لا أعنى بالكمالات الصورية والترقيات المادية تلوين الأوانى وتزويق الألبسة والتفنن فى صنوف المآكل والمشارب واقامة معالم المراقص والملاعب وتهتك النساء وذهابهن فى الزينة والخلاعة كل مذهب . كل هذه الافراطات يجدر أن تسمى نفثات شيطانية ونزعات حيوانية لا كمالات انسانية ، وانما أعنى بالرقى المادى المتاع بالمزايا العظيمة التى خلقها الله لنا فى الطبيعة وصرف القدر الواجب من قوانا فى تحسين حياتنا الجسدية تحسيناً لا يفتن النفس والعقل، ولا يعدو على الشرف والعرض ولا يصرف الانسان عن الجمال الباقى الى الوهم الفانى « قل من حرم زينة الله التى أخرجِ لعباده والطيبات من الرزق »

اذا عجبت من هذا وقلت كيف يجتمع الزهد فى الدنيا مع هذا السعى فيها ، قلنا :

الرجل الذى يعتقد بالعالم الروحانى يعلم تبعاً لذلك أنه النسخة الصغرى لهذا الوجود كله ، وخليفة الله عز وجل فى أرضه ، وانه قد

منح من القــوى المختلفة ذات القابليات العجيبة ، مالايحصره وصفــ الواصف ، أريد من هذا أنه كلما ازدادا تنوراً بعالم الروح،واستشراقا لأنواره الباهرة ، ظهرت فيه قوى جديدة ، ومواهب لم يكن يحلم بها ؛ ويرى بالحس أن تلك القوى لم تخلق فيه عبثا ، ولم توضع فيه ثنيات فؤاده جزافا ، بل خلقت لأغراض يجب أن تسعى اليها ومرام لا تنفك تتطلع لهــا ؛ فيكون الذى يعتقد بالعالم الروحانى والحالة هذه مجبرا على أعمالهــا فيما خلقت له ، مسوقا الى توجيهها الى مراميها التى طبعت عليها ، عملا بشروط خلافة الله فى أرضه ، وقياما على صراط العــدل الذى هو طريق حياته ونجاته . وبناء على هذا فيكون دأبه على أعمال قواه واستخدام مواهبه على النحو الذى صوره عليه مبدعه بقدر شغفه بكمال ذاته ، وكلفه بالصعود بها الى العوالم التى يتوق اليها ، لأنه يعلم أنه لا كمال إلا بأدائها ، ولا صعود إلا بالنهوض بأعبائها .

هذا سر تلك الهمم العلية ، والعزمات القوية ،التى تسوق أصحاب العقائد الحقة الى جلائل الأعمال فى هذا العالم الأرضى مع زهدهم ، وتفاهة الطينيات فى نظرهم

الرجل من هؤلاء لا يستثمر الطبيعة لينال منها لذة ، أو يصيب منها وطرا ، فان مايشعر به من اللذة الروحانية تكفيه النظر للدنيا وما فيها ، ولــكنه يستثمر الطبيعة لــكونه يعتقد أنه آلة من آلات الحياة . ينشرها حيث يصــل اليــه امكانه، وأنه شعاع من نور الــكمال خلق ليكشف الغمم ، ويقشع الغياهب ، وأنه عامل من عوامل الحق أرسل

ليقارع الباطل حيث كان وأنى وجد .

أنا لا أدعى أن جميع أفراد الأمم ذوات العقائد الحقةهم على هذا النمط من الكمال وإنما هذه الحال مخصوصة بأفراد من تلك الأمم يعدل الواحد منهم الالوف المؤلفة ممن ليسوا على شاكلته . فاذا كان منهممائة فى أمة عظيمة فان إراداتهم القوية تستولى على مجموع إرادات الملايين من أبناء جلدتهم فيسوقونهم الى حيث يريدون ويصبغونهم بنفس صبغتهم ولو تقليديا ، وليس هذا بعجيب بلهو أثر من آثار قانون الموازنة ألا ترى أن من كان جسمه أقوى كان جذبه لمن هو دونه مناسبا لتلك القوة ؟ كذلك منكانت روحه أقوى جذب من هو أضعف منه لامحالة وحركه بحركته . ومنهنا ساغ لنا أننقول ان روح خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم أقوى الأرواح التى ظهرت فى العالم لتأثيرها فى الأرواح المحيطة بها تأثيرا لم يعهد له مثيل فى تاريخ الانسان

﴿ حال الذى لا يعتقد بالعالم الروحانى ﴾

حاله على الضد من سابقه بمعنى أنه وقف من وجوده فى الدائرة التى حددتها له حواسه ، وقصر الكون كله على ماتبصره عينه وتلمسه يده ويتأثر به ذوقه وسمعه وشمه .

بحث عن روحه وعن عالم الغيب فلم يحس بهما بواحدة من تلك الحواس فأنكر وجودهما ، وأراد أنيعلل وجوده ووجود الكائنات

على غير الطريقة الاعتقادية ، فاخترع أسماء انتزعها من حال الموجودات وعلائقها ببعضها وسماها نواميس طبيعية وزعم أنها قديمة كقدم جوهرها وهي المادة ، فزعم أنها هي التي أبدعت كل هذا الابداع الباهر في ملايين لاتحصى من السنين . وأن ليس الكون ومافيه إلاسلسلة غير متناهية . تولد الدنيا من الدنياوات فتعمل فيها النواميس المتسلطة عليها فتظهر عليها الكائنات الجامدة والحية ، ثم تلبث ماقدر لها أن تلبث ثم تتلاشى وتتحطم بمصادمة كوكب آخر لها أو بسبب آخر وهكذا الحال أبد الآبدين ودهر الداهرين . . .

ولكن كيف العمل وهو من أدوار الحياة مسوقاً بنفس التيار الذي كان يسوق صاحبنا المعتقد ، ومن هم العيش ومنغصاته على ذات الحال التي وصفناها هنالك ! ويزيد عليها أمر أفظع عليه من كل ماسبق وهو اليأس من الخلاص !

يرى هذا الرجل نفسه من مضاضة العيش ولواعج الحياة على أحر من الجمر وأمضى من المهند المصقول ، ويرى المصائب تترى من بين يديه ومن خلفه عليه وعلى أهله وإخوانه وبني نوعه ، ثم لايرى له من ذلك مخلصاً ، ولا يتخيل أن له منه معزياً ، ولا يتوهم أن وراء هذا الطور المضطرب طوراً من الحياة يرتاح فيه ، ويلتذ بانتظاره وتمنيه !

ينظر الى مناجل الموت تحصد حوله الرقاب ، وتهدم القصور والقباب ، ويرنو الى مقذوفات البلايا تهوى بالأرائك والعروش ، وتحطم الملوك والجيوش ، ويلتفت الى مابين يديه وخلفه فيرى صرعى

هذا العالم الفانى يستثيرون الذعر من أعماق الصدور ويستجيشون الخوف من الفؤاد الصخر ! ثم يلتفت الى نفسه فيراها فضلا عماهى عليه من الحال المقيم المقعد ، هدفاً لقارعة تذهب بأنفاسه ، وتزجه الى شق من الأرض لايقيم بعده رأساً ، ولايحير جواباً ، تتسلط عليه فيه الهوام والحشرات تستأصل عناصره وتمتص نخاع عظامه ، ثم يلحظ فلا يرى له من ذلك الأمر محيصاً ولامفرا ، ولايتصور دونه منجاة ولا مستقرا ، فكيف تكون الظلمة التى تلم بفؤاده والألم الذى يحل بمعناه ، والكمد الذى يستولى على لبه ، والنكد التى يخيم على كيانه ؟

لاجرم أن كل هـذه الأمور المزعجة تدفعه رغم أنفه لطلب المخلص فى العالم المادى وتدفعه فى ذلك السبيل دفعا قهريا فيتجه بمجموع قواه الى الماديات لتحسين حياته اتجاها جنونيا ، لا التفاتا كاليا ، فينال منها شأوا لايستهان به « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون » ذلك لأن الله سبحانه خلق الانسان وقذف به الى الأرض وركب فيه من القوى والمواهب مايسيطر على قوى الطبيعة وتصلح لما فوق ذلك من تسخير القوى الروحانية أيضا أو بالأقل لاستثمارها والاستفادة منها . فهو ان طلب الدين وحده ناله وان طلب الدين والدنيا معا حصلهما ووجد من قواه مايساعده على ذلك ، وان لم يرد الا الدنيا وحدها بلغ مناه منها فان منح الله معروضة لكل من طلب كما قال سبحانه : « كلا نمـد هؤلاء

وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا . »

﴿ أثره فى الحياة ﴾

تصنع ساعة من الساعات حال الذى يئس من وجود الآخرة ، وهب أنك ممن لايرى فى الوجود الا مايحسه بمشاعره القاصرة ،وادفع بنفسك فى معمعان الحياة وويلاتها واستورد على فكرك اليوم الذى يلتف فيه الساق بالساق ، وتبلغ النفس التراق ، وتخيل مضاضة تلك اللحظة التى يخمد فيها الحس والشعور ، ويدس فيها الانسان الى أعماق القبور ،بعد سكنى القصور ، تاركا مالا جمعه بعد طول التعب ، وأفلاذ كبد رباهم بالجهد والنصب ، واخوانا شاطرهم الحزن والطرب ، ومعاهد أوطار نال فيها الأرب ، قلنا تصنع أن تكون فى هذه الحالة الحرجة ساعة من الساعات ثم انظر مايلم بفؤادك من ألم ووجع ، وما يحيط بمعناك من ظلمة وكرب ، ولكن لاتعجل بالخلاص مما أوقعت نفسك فيه بل انتظر قليلا ، وتأمل فى ثورة عواطفك تأملا طويلا ، تر أن اليأس الذى خيم بفؤادك استحال الى حمى تدفعك لتتلمس عن الآخرة عوضا ، وتزعجك لترتاد عن الخلود بدلا ، وتراك اندفعت اندفاعا قهريا لأن تحصل من لذائذ هذا العالم أقصى مايصل اليه الامكان ،وأبعد ماينـاله الجهد والعرفان . تراك تستهل خوض الصعاب والعقاب ، وتستهون اقتحام المخاوف والأخطار ، جريا وراء المطالب الكبار ، والرغائب الجسام ، ولسان حالك يقول :

(وإذا لم يكن من الموت بد * فمن العجز أن تكون جبانا)

وترى أن هذا اليأس نفسه قد ألبسك نفس الصفات التى تكسبها العقيدة للمعتقد من حيث الجد لاستثمار الطبيعة ولكن مع هذا الفارق الجسيم : وهو أن صفات المعتقد يكون سائقها أداء واجبات خلافة الله ، وتتميم نظام الوجود فى أكمل معناه ، وتجليته فى عالم الامكان بأجمل مجلاه ، والجرى وراء الكمال الروحى باستعمال سائر قواه فيما خلقت له ، فيكون بذلك ساكن الفؤاد ، مطمئن الجأش ، هادىء الضمير ، غير مصاب بحمى الطلب ولا رعونة الحاجة ، خالصا من نهم الحس وثورة المشاعر ، ناجيا من وخزات الشهوات وطعنات الأهواء . وأما غير المعتقد فيكون مسوقا إلى العمل والاقدام باغراض سافلة ، ومحفوزا إلى الهمة ولكن بعوامل هائلة ، لا يفكر إلا فى إيتاء جسده غاية لذاته ، وأقصى امنياته ، فيلازمه الشره أينما سار ، وينغصه النهم حيثما دار ، يطلب فلا يهجع ، ويأخذ فلا يشبع ، له فى كل نظرة وخزة من شهوة ، وفى كل لمحة طعنة من رغبة ، يريد أن يحصل ما يؤمله ، فان ناله كان نيله سببا لزيادة همه وتفاقم غمه

من هنا ترى أنه ليس بعجيب أن ينال غير المعتقدين مدنية زاهرة . وحضارة باهرة ، ولكن لا تنس أن بواعثها هو ما أصف لك . ولذلك لا ترى فيها نصيبا للروح ، ولا قسطا لكرائم العواطف . ترى أن الحق فيها مع القوة . ، والحكم للسيف والفتوة ؛ الضعفاء فيها أسرى الاغنياء ، وعبيد الأقوياء ، يستغيثون فلا يغاثون ، ويجأرون فلا يجابون ،

ويتعصبون فينهزمون ، ويضربون عن العمل ثم يرغمون ، فلا يكون لهم من حيلة بعد ذلك إلا العمل بمبادىء الفوضى ، يترصدون لقتل الملوك ، ويعملون على ثل العروش ، وينابذون الأديان ، ويهزؤون بالمعابد والكهان ، وينتظرون بالأمم الدوائر الجسام ، والخطوب العظام

يشكو عقلاء هذه الأمم من سوء الأحوال ، ومن ضياع العواطف الغوال ، ويذكرونهم بواجبات الكمال والاعتدال ، وينذرونهم بسوء المآل ، ولكن من يسمع ومن يجيب ! القوم سكرى من حمى الشره والنهم ، وصرعى من دن الشهوات والفتن ، فلا يفيقون حتى تنزل بهم القوارع تتلوها القوارع ؛ وتوقظهم الحوادث تتبعها الحوادث : « لنذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون » والا فقد عرضوا أنفسهم لما حاق بالأولين من المكذبين : « فهل ينتظرون الا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم »

« المعتقد بالوراثة »

هو رجل وجد أبويه على ملة من الملل فدرج عليها ثم كبر ولم يحكم فيها نظراً ، ولم يعمل فيها فكراً ، بل قنع من الحياة ونعيم الوجود بما حصله له آباؤه من الرقى المادى فجعل هذا الميراث حظه من الدنيا ، ورام أن يبقى فى يديه كما ورثه ثم ينتقل الى أولاده وأحفاده لا ينقص شيئاً فأشبه فى ذلك من يرث عن أبويه مالا فيجتزىء به غير طامع فى سواه ولم يدر أن حفظ المال يحتاج لعلم وعمل ، ويلزم لاستبقائه

أو إعطائه حالة من الحالتين : إما عقيدة تعرفه أنه هو وماله لله ، وأن كليهما مخلوق لتنظيم ملك الله ، فيسعى له إقامة لأمر الله ، وردعا عن مناهى الله ، فيكون كالمسلمين الأولين حيث انصبت إلى خزائنهم ماليات الأمم بمحض قيامهم بخلافة الله . واما أن يكون بلا عقيدة فيظن أن المال قوام الحياة ، وقيمة الانسان فى الوجود ، ودستور الأمم والشعوب ، ومفتاح السعادة والنعيم . . فيسعى اطلبه بكل الوسائل والحيل كما هو حال أكثر أمم هذا العصر . هذان هما السبيلان لاستغلال المال واستبقائه ، كما أنهما السبيلان لايجاد كل مدنية واستمرارها . أما الذى هو لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء فلا يصلح أن يكون مستقلا فى نفسه لأن الأرض لأحد رجلين : اما لرجل يعتقد أن الأرض لله فيأخذها صيانة لأمانة الله وأداء لخلافته ، واما هى لرجل يعتقد أنها جنته ومأواه ، وليس له غيرها اله فيتكالب عليها تكالب الضوارى على فرائسها ، و يبذل فى سبيلها كل مايملك من حول ومن حيلة

أما صاحبنا الذى يعتقد بالوراثة فليس واحداً من هذين الرجلين انه ليس بمعتقد لأنه غير عامل بعقيدته ، ولا جاحد لانه مقر بقبح الجحود و بشاعته . فهو وسط بين الاثنين وليس له إلا تحمل أحد الشرين : فاما أن يرضخ لسلطان صاحب العقيدة فيحييه بحياته ، ويصرفه بحركته ، وإما أن يقع تحت ضرس غير المعتقد فيمزقه ثم يزدرده مع مايزدرد .

نعم العقيدة بالوراثة مالم يعززها الذوق الذاتى لاتفيد صاحبها

فى الدنيا شيئاً ، ولا أدرى ماذا يكون نصيبه فى الآخرة . لاتفيده فى الدنيا لأنه محروم من دافع العقيدة ودافع الجحود معاً . لأن المعتقد له من شعوره بأنه خليفة الله فى الأرض أكبر باعث على استغلال الطبيعة وإحياء مواتها والذهاب فى الابداع فيها كل مذهب ، وتاريخ آبائنا الأولين أكبر شاهد ، وغير المعتقد له من يأسه من الآخرة أكبر سائق على التكالب على الدنيا والتنعم فيها بكل الوسائل الممكنة ، أما الذى اكتفى من العقيدة بمحض تذكره أن أبويه كانا مؤمنين ، فلا يحس بأثر دافع من ذينك الدافعين ، فلا جرم لايجد فى نفسه لذة العقيدة ونورها الذى يضىء عليه مسالك الحياة ، ولا حمى الجحود ويأسه الذى يسوقه لكل ماينعمه فى دنياه ، وبناء عليه فلا يكون نصيبه من الحياة إلا التمتع المؤقت بميراث آبائه فلا يلبث أن تغشاه غاشية من صولة الأمم الطامحة فتجعله لقمة سائغة وتذهب به إلى حيث ذهب الغافلون من كل الأمم .

﴿ الفضائل والرذائل ﴾

قد أكثر الناس فى هذا العصر خصوصاً من ذكر هاتين اللفظتين وجالوا بهما فى كل مجال فنشأت بإزائهما شبهة قوية فى الدين يكثر ترددها على ألسنة المشككين ، فيقولون مثلا : « انكم تدعون ان الفضائل قوام الأمم وملاك الحياة ، وان عدمها نذير التلاشى ومقدمة الدمار ، فما بالكم ترون الأمم التى تزعمون أنهم أحط منكم فى الفضائل أو أنهم

مغمورون فى الرذائل قدسبقوكم الى باحات الرفعة والعظمة وأخضعوكم لنيرهم ؟ » ليس حل هذه الشبهة بالأمر الهين الا إذا أسسناها على قاعدتها الطبيعية ، وذلك لا يتأتى إلا بما قررناه آنفاً من أن الناس ثلاثة أقسام : قسم يعتقد بالعالم الروحانى ، وقسم لا يعتقد به ، وقسم يعتقده بالوراثة فهو وسط بينهما . وقد قررنا بواسطة التحليلات الفلسفية ان لكل من المعتقد وغير المعتقد دافعاً يدفعه الى الرقى والتقدم ، وان رقى الأول يشمل الرقى الروحى والجسدى ، واما الثانى فرقيه محدود فى عالم المادة فقط ، وقلنا ان المعتقد بالوراثة لا حظ له من أحد هذين الدافعين ، وانه لا يليق الا أن يكون تبعاً لأحد هذين الصنفين . والآن نقول : ان ذلك الدافع الظاهر الذى يدفع المعتقد للتقدم للأمام هو (طلب الكمال) بمعناه الحقيق . هذا الدافع هو مبدأه الذى يسير على مقتضاه ، ويجعله دستوره فى كل أمر من أمور دنياه . وأما غير المعتقد الذى يرى نفسه مدفوعاً لتكميل بدنه واشباع حواسه فمبدأه (تنازع الحياة) لأنه لا يرى سعادته الا فى نيل أقصى مايستطيعه من المال والجاه فتراه ينازع الناس فيهما منازعة اليائس المستميت بما يراه أحسن الوسائل .

هذان الدافعان دافع طلب الكمال ، ودافع تنازع الحياة دافعان عظيمان للحياة ، ودستوران كبيران للبقاء فهما من هذه الجهة فضيلتان طبيعيتان ، ولكنهما لعالمين مختلفين . أما فضيلة طلب الكمال فهى فضيلة العالم الانسانى لأنها تلائم سمو فطرته وتوافق جوهر عنصره كما أريناك ذلك فى الفصول السابقة ، وأما فضيلة تنازع الحياة فهى فضيلة

العالم الحيوانى بأسره لأنهم عائشون بهذا الدستور وهى بالنسبة لهم فضيلة طبيعية مقيمة لحياتهم ولا يصح أن نعبر عنها برذيلة الا باضافتها للنوع الانسانى لأنها لاتليق به ولا تؤديه الى غايته التى خلق لأجلها . ومن هنا ترى أن للأمم الخيار فى القيام على أحد هذين الدستورين لأنها تحيا بكل منهما حياة طبيعية ولكن مع هذا الفارق الجسيم وهو أن الأمة التى يكون مبدأها (طلب الكمال) تنال كمال الروح وكمال الجسد معاً كما حصل لأتباع الرسل الذين يقول الله تعالى فيهم : « فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة » . وأما الأمة التى يكون مبدأها تنازع الحياة فلا تنال إلا كمال الجسد وحده كما قال تعالى « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون »

﴿ بيان لطبيعة هذين المبدأين ﴾

مبدأ (طلب الكمال) الذى هو دستور المؤمن مرتكز مباشرة على الاعتقاد بأن الانسان جسد وروح ، وأن روحه هذه هبطت اليه من عالم التقديس والجمال لتبتلى فى الدنيا الى حين ، ولتتمم بهذا التدلى ابداعا قدره الخالق لا يعلم سره إلا هو ، وأنها بعد أداء وظيفتها فى هذا العالم تعرج الى عالمها على جناح جهادها الحيوى إلى حظائر النور الأقدس فى عالم فيه مالاعين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وتنضم هناك إلى أرواح عالية سبقتها بالكمال والايمان فتبقى معها بقاء أبدياً سرمدياً فى نعيم مقيم ، وراحة لا يشوبها ألم . ولا يخفى على الناظر أن

هذا ارتقـاء فى الشعور ارتفع به الانسان عن عالم الحيوان الذى لاحظ له من الوجود الا التكالب على إشباع كرشه وإيفاء حاجة حواسه .

أمامبدأ الذى لايعتقد بعـالم الروح فهو (تنازع الحياة) لاطلب الـكمال . وهو مبدأ مؤسس على الزعم بأن الانسان لم يخرج عن كونه أرقى الحيوانات ولافرق بينه وبينها فى شىء على الاطلاق إلافى كونه أرقى منها عقلا وأوسع إدراكا وأقدر على استثمار الطبيعة بمـا وهب من الآلات الجسمانية ؛ وأنه ليس له من الحيـاة إلا ماقدر لجسمه من البقاء سنوات معدودة ، ثم إذا مات تحللت عناصره فى الأرض وذهب كل عنصر إلى مايشبهه من عناصرها ، وفنى عقله وادراكه وذهب إلى هوة العدم كما تذهب الدجاجة والهرة سواء بسواء ؛ وان الانسان لامناص له من أن يكون مع معاشريه فى حرب مستمرة ينازعهم الحياة وينازعونه اياها والغلبة فى هذه الحرب تابعة للقوة العضلية والفكرية ، فمن كان أقوى يداً وعقلا كان أحق بثمرة الحياة دون غيره أماالضعيف فى الجسم والفكر فلا يكون نصيبه من المعيشة إلا النكد الواصب والهم الناصب ، ولا بأس عليه بعدذلك ان سئم الحياة وأرسل نفسه إلى عالم العدم . أما الصفات المحمودة والخصال الشريفة فليست مطلوبة إلا لمـا تجر اليه من المنافع المادية والأدبية فى دائرة هذه الحياة وحدها .

أصحاب هذا المبدأ لا يوجبون البشاشة مثلا لكونها خلة من خلال الـكمال التى يشاكل بهـا الانسان سكان عالم التقديس وتهيئه

لجوارهم متى فارقت روحه الجسد ، ولكنهم يوجبوها استجلاباً لرضى المعاشرين الذين يتعاملون معهم واستدراراً للربح منهم ومزاحمة لمن يؤدى مثل وظائفهم .

وبناء على هذا فالفضائل والرذائل لدى أصحاب هذا المبدأ دائرة حول حطام الدنيا ونعيمها ، وهو بعينه مبدأ العالم الحيوانى تقوم عليه طوائفه برمتها ، ولها العذر فى ذلك فانها محدودة القوى والمواهب محصورة العقول والملكات ، لاتشعر بغير ماتحس به ولا تتخيل مرمى وراء ماتنظره . أما الانسان الذى لا يقف عقله عند حد ، ولا ينتهى تصوره عند غاية ، فأشد مايظلم به نفسه أن يحشرها إلى أدنى من عالمها ، ويسلبها أشرف خصائصها .

هـذا المبدأ الحيوانى أى مبدأ (تنازع البقاء) يصلح لاقامة أمر الطوائف الانسانية ، بل ويبعثها للرقى والفلاح فى السعادة الجسدية ، لأنه لم يخرج عن كونه مبدأ طبيعيا تقوم به أشخاص لايحصى لهم عدد من الكائنات الحيوانية ؛ ولكن فيه غبن فاحش على الانسان ، لأنه بقيامه على هـذا المبدأ لايحصل الا الحياة الدنيا ثم لا يزايله الهم والكدر طرفة عين ، ولا يدعه الكمد والوحشة يطمئن الى شيء ، وكثرة المنتحرين فى الأمم القائمة بهذا المبدأ دليل محسوس على مانقول .

أما مبدأ (طلب الكمال) فهو المبدأ الكامل الذى يليق بالانسان ويجدر به لأنه يكسبه الحياتين معا كسبا طبيعيا لأن الكمال فى ذاته

الغاية القصوى التى ينتهى اليها كل شيء ويخضع لها كل شيء . فما من شيء الا وله كال خاص خلق مسوقا اليه فاما أن يحصله فيعيش على أكمل صفة من وجوده الخاص ، واما أن تصرفه عنه الصوارف فلا يزال يتخبط فى كيانه حتى يلفظه الوجود الى يتهور العدم . ولما كان الانسان أكمل الكائنات وجب أن يكون كاله أكمل الكمالات ؛ فلا جرم أنه متى تكمل امتلك سر نواميس الكائنات التى فى عالمه فتخضع له خضوعا اضطراريا ، فتأتيه الدنيا بحذا فيرها صاغرة تقبل قدميه وتقف بين يديه ، ألم تر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نهض هو وأصحابه يؤدون واجب الطاعة لله فى طلب الكمال خضع لهم كل شيء وخافهم كل شيء ، وانحدرت اليهم سائر خيرات الأرض انحدارا لم ير مثله فى تاريخ الفاتحين . فانظر كيف أنهم قاموا لمحض طلب الآخرة ، فجاءتهم الدنيا صاغرة ، والأعجب من ذلك أنها هربت اليهم من أولئك الشعوب الدين كانوا يعبدونها ويسجدون لها ، ولا يعرفون لهم كالا سواها ، ورضيت أن تكون الخادمة الخاضعة لأولئك الفضلاء الذين كانوا يمجونها وينكرونها ، ولا يحفلون بالنظر اليها فى حسنها وبهائها.

أما تلك الأمم التى تجعل مباديها فى الحياة كمبادى الحيوانات العجماء فلا يكون لها حظ الا فى الحياة الدنيا ولا تكاد تنالها الا باتخاذها الها من دون الله ، وصنما لا ترى لها ملجأ سواه ، وناهيك بما فى هذا من الاذلال لتلك الجبهة الانسانيه الشماء ، التى لم تخلق إلا لتحاذى السماء .

أما لو علم الانسان ان مفتاح السعادة الحقة هو طلب الكمال وأن

سبيله سبيل الله لما اذلوا أنفسهم هذا الذل الفاضح ولطلبوه من صميم افئدتهم فنالوا سعادتى الحياتين معا ، والى هذا السر العمرانى الكبير يشير الله تعالى بقوله : « من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة . »

﴿ المدنية الاسلامية والمدنية الحديثة ﴾

الاسلام دين الله وهو الحقيقة المطلقة التى استودعها من عهد نشأة الانسان قلوب سائر الانبياء والرسل الكرام « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا الخ الآية » ولكن كانت أيدى تلك الأمم الجائرة تمتد الى تلك التعاليم بالتحريف والتبديل رجاء أن يطبقوها على ما يناسب مقتضيات النقص الذى هم فيه ، ودام هذا الحال آمادا حتى اقتضت الحكمة الالهية ايداع هذا السر الأقدس لخاتم أنبيائه ونخبة أصفيائه محمد صلى الله عليه وسلم فى كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وقد حماه الله من امتداد الأيدى المحرفة اليه ، وصانه من عدوان العادين عليه ، وهو الى اليوم كما أنزل يقيم الحجة على الغالى والمقصر ، ويبشر المعتدل وينذر المعذر ، ويشير الى الطريق الذى لا يضل سالكه ولا يخاف طارقه ، وهو طريق العدل المستقيم « وان هذا صراطى مستقيم فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون »

الغرض الأصلى من الاسلام تخليص الانسان من قذر التربية

الفاسدة ، وأثر الوسط الردىء ، ووضر الوراثات الساقطة التى تلم بمجموعها بفؤاد الانسان فتحرمه من سبحات نور مبدعه ، وتعميه عن رؤية الطريق الذى دفعه فيه مولاه وهو الطريق الذى يقول عنه عز وجل : « انا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا . » هذا السبيل هو سبيل الكمال ، هو سبيل الجمال هو سبيل الرحمة ، هو سبيل الهدى ، وان شئت التعبير باللهجة الجديدة فقل هو سبيل التقدم ، هو سبيل التمدن . وهو السبيل الذى ساره خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم بوحى من مولاه فكان من شأنه ما كان ، وساره أصحابه من بعده فأصبحوا ملوك الأرض وملوك السماء .

أنا لا أريد بالمدنية الاسلامية والمدنية الحديثة مبلغ الرقى الصناعى فى كليهما ، لا ولكنى أريد الروح التى ساقت اليهما وأقامتهما على قطبيهما والسبب الذى يجعلنى أفضل روح الأولى على روح الثانية ، هو لكون تلك مبدأها طلب الكمال بأخص معانيه وهو المبدأ الجدير بالانسان المناسب لما وهب من المنح الجسام ، لدفعه الانسان الى طريق الحق والعدل واكسابه حظ الحياتين معا ، أما هذه (أى المدنية الحديثة) فمبدأها تنازع الحياة وهو المبدأ الذى سطنا أثره فى الفصول المتقدمة وقلنا انه لا يناسب الكمال الفطرى للانسان ، وان فيه غبنا عليه لعدم صلاحيته الا لنوال الحياة الفانية دون الباقية . على أننا لسنا أول الناعين على هذه المدنية نقص مبدئها فان عقلاءها أنفسهم يشاركوننا فى هذا النظر وقد نقلنا كثيرا من أقوالهم فى ذلك فى الأجزاء السابقة

ربما يقول قائل : « ان كنت تنقم على من يدعو الى الأخذ بأسباب المدنية الجديدة والسير على قوانينها فهل أنت ممن يسهل عليه أن نبقى كما نحن تتناولنا الحوادث وتتقاذفنا المثلات ، ونحن بين ذلك فى حال لايرضى به من له مسكة من شعور ؟ ألا ترضخ لقول القائل من أننا فى عصر لامناص لنا فيه من تقليد المتمدنين فى جميع شؤونهم بدون شرط لنستطيع مجاراتهم فى الحياة وحفظ شخصيتنا بازائهم؟»
نقول اننا ممن يرى ان دون التمسك بأصول المدنية الحديثة على علاتها وبمحض الدعوة الاجمالية اليها عقبات اجتماعية وحوائل أدبية ومادية شديدة المراس ، بحيث اننا لو أضعنا وقتنا فى محاولتها ومعالجتها لذهب تعبنا أدراج ولم نجن من وراء ذلك الا تجرىء أصحاب الأهواء الى الجرى وراء شهواتهم بغير مبالاة تحت ستار الفكر الجديدة وحجاب الأخذ بأسباب الحضارة . ألم تر أنه من يوم ظهور الدعوة فينا الى لزوم التمسك بآداب المدنية الجديدة لم نحصل من ورائها غير الخسران والبوار ولم تفعل فينا الا تشجيع الشبان والكهول على الانطلاق فى ميدان الاباحة والحرية البهيمية ، بحجة أنهم طليقة النشأة الشرقية . والسابقون الغيورون فى طريق المدنية ، وماذا تنتظر لنا من النجاح والفلاح لو تبعتهم البقية الباقية ؟

اذا تقرر هذا فعندى أن تداعينا الى الرجوع الى مبادئنا الأصلية القويمة أضمن لحياتنا وأقرب لاصلاح أحوالنا من تلك الثرثرة باسم المدنية الحديثة التى رأيت من أثرها ما رأيت .

فان قيل : « هب انك غير واهم فى قضيتك من امكان الرجوع الى الفضائل الاسلامية الطاهرة وهب اننا أصبحنا كلنا فضلاء أتقياء ، فماذا يفيدنا ذلك امام قوة هذه المدنية الجديدة من حيث الصناعة وأساليب الاستعمار . »

نقول أما كوننا غير واهمين فى أن الدعوة الى الفضائل الاسلامية تفيد فائدة عظمى فى الرجوع اليها مهما قاومتها الأحوال السافلة التى وقعنا فيها ، فذلك أمر ليس بعجيب ولا هو بدع فى تاريخ الطوائف الانسانية . فاننا من المضانك الاجتماعية والارتباكات المادية والأدبية فى الحال التى تصلح لتدفعنا رغماً عنا الى طلب المخلص وارتياد الملجأ بكل الوسائل . ولو درس الناس سر التفاف الشعوب بحذافيرها حول المصلحين لرأى أن من أكبر أسبابها ماهم فيه من الأخطار التى تهددهم بالزوال والتلاشى . فان الطبيعة الانسانية مجبولة على عدم الاستسلام للفناء الا بعد نضوب مادة ماأودع فيها من المقاواة والمقاومة . ونحن بما نرانا فيه اليوم من الشعور بلزوم المخلص ، لا نظن أن بيننا و بين الأخذ بالفضائل الحقة الا دعوة داع متعظ ، وارشاد هاد مهتد . وليس بعزيز على الله ان يتلافانا بنبوغ أرواح كبيرة تنشر الحياة حولها وتكشف عن الأعين والعقول تلك الغمم التى انسدلت عليها من غاشيات الغرور والغفلة . أما الشك فى أثر الفضائل امام قوة هذه المدنية فهو غمط لحق الفضيلة ، وجهل لأثرها على نفوس الآخذين بها . أنا لا أعنى بالفضيلة تلك الظواهر التى تبدو على بعض ضعفاء النفوس

كاللين والبشاشة والانعطاف والخ الخ من الأخلاق التى يظنها الناس فضائل ويقيسون الفضلاء على أصحابها فيشكون فى آثارهم فى بناء صروح مجد الأمة واعادة شرفها . وأن لهم العـــذر فى هذا الشك ماداموا لايميزون بين الضعف الذى يؤدى للحشمة والوقار واللين والهشاشة والسماحةوبين الفضيلة التى لاحد لسلطانها على النفوس .

انا ان قلت فضيلة فانما أعنى بها تلك الروح السامية التى تهبط على النفوس فتزعج أصحابها عن الوقوف فى قذر النقص ، والخوض فى حمأة الدنايا ، وتهيب بهم الى مسابقة الأمم فى مزايا الحياة ، ونعمة البقاء ، وليس بعظيم على أمة تهبط عليها هذه الروح أن ترقى فى السنة الواحدة مالا يرقاه غيرها فى قرن من الزمان .

ليس ما أقوله بالشعر ولابالخيال فقد هبطتهذه الروح العاليةعلى أصحاب المصلح الأعظم بواسطته صلى الله عليه وسلم وهم من القلة بحيث لا يتجاوزون عقود العشرات وحواليهم من الأعداء الألداء والصناديد الأقوياءوالأضداد العتاة ما كان يكفى أن يزرع اليأس فى قلوب أضعاف أضعافهم ممن ليسوا على منهاجهمفلا يعودونيذكرون النهوض ولاتمنيا ، ولكن روح الفضيلةقوة الهيةلا يعرفها الا الفضلاء فلم تزل تفعل فيهم فعلها حتى رأينا تلك الشرذمة القليلة جذبت اليها العواطف والقلوب وانضمت الى أمثالها بسرعة مدهشة ثم تحركت حركة صارت بها صاحبة السلطان الأقوى على أكثر المعمور .

ان تعجب من هذا فأعجب منه رجل يرى هذا الأثر المدهش

وينكر معه أثر الفضيلة أويشك فى أنها قوة لاتقف أمامها القوى ولا تمنع انتشارها الحوائل «أولئك حزب الله ألا ان حزب الله هم الغالبون »

﴿ رجوع للمقصد الأصلى ﴾

يقول قائل لقدطفت بنا من شعب المباحث فى مناح شتى ومطارح بعيدة وجعلتنا بذلك كما قلت فى دائرة محدودة يحيط بها البصر من أول نظرة ويستطيع قارئك أن يشطح معك الى حيث أردت ثم يعود الى مركزه على طريق مستقيم لا يتعداه ، الا أنك قسمت الناس الى ثلاث رجال وقلت ان أحدهم رجل يعتقد بوجود العالم الروحانى وعامل بما يقتضيه اعتقاده ، والثانى جاحد به ، والثالث يعتقده وراثة عن آبائه وقومه فهو لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ، ثم فصلت المبادىء الحيوية التى تنتج من عقيدة كل رجل من هؤلاء الرجال الثلاثة فقلت : ان مبدأ الأول (طلب الكمال) ومبدأ الثانى (تنازع البقاء) والثالث لامبدأ له بالكلية ، ثم سرت فى تفصيل هذه التقسيمات ماشاء الله أن تسير ولكن بقى عليك أمر أعظم خطراً وأشد مراساً من كل ماسبق وهو اقامة الحجة البينة على وجود ذلك العالم الروحانى ، ونصب الدليل الواضح المحسوس على ان الذى يعتقد به ليس يضرب فى بيداء الخيال ولا يسبح فى آل الوهم خلافاً لما يزعم أعداء العقائد ، وسماسرة الالحاد ،

نقول نعم بقى علينا ذلك وهو المفتاح الوحيد لمغالق كل الشبه المتقدمة ولكن سلوكنا ذلك السبيل يستدعى توجيه نظر قارئنا الى

حقيقة رئيسية وهى ان نكران عالم الروح ليس بنتيجة علم من العلوم ، أو زبدة فلسفة من الفلسفات نشأت فى قرن من القرون ووقفت حيث هى بحيث أن من قرأ ذلك العلم أوشارف تلك الفلسفة أنكر الروح والخلود . كلا وانما ذلك الانكار حال يعترى النفوس المستعدة له فيسلب عنها أجمل صفاتها وهى الطمأنينة للحق ويجعلها مسرحا لشياطين الشكوك والريب حتى ان الواحد من المصابين بهذا المرض ليشك فى وجود ذاته ووجود الكون المحيط به من كل مكان وقد حكى الله لنا الوصف المميز لهذا المرض فقال تعالى « : ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا انما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون »

ذلك الحال الذى يحل بالنفوس وينشب فيها ، فيلفتها عن ذاتها ويطوح بها فى متاهات الشك ، ومحارات الشبه ، ويحول بينها وبين أنوار الحق الواضحة ، لا يحصل من قراءة علم مخصوص كما قدمنا وانما يحصل كما تحصل كل حال من الأحوال الانسانية بواسطة أسباب كثيرة منشأها التربية والمعاشرون وروح المدنية التى فيها الأمة ، ومقام دينها السابق من الضغط على العقول والأفكار . أومن الحرية والاطلاق الخ الخ من الأسباب التى تشكل الطباع والأميال ، وتصبها فى قالب لا يقدر على بعضها أى علم من العلوم .

ومن ينتقد حال الأوربيين فى القرن الماضى والقرن الحالى كان ولم يزل يرى أن الالحاد فى بعض طبقات العامة أكثر منه لدى العلماء أنفسهم مما يدل تمام الدلاله على أن الانكار لا يأتى من صفة العلوم

وحدهـا بل من الأسباب الاجتماعـية والأدبية التى تعيش الأمة فى وسطها أيضاً .

وربما يظهر لنا بواسطة الاستقراء والتحليل أن تلك الأسباب الاجتماعيةوالأدبيةأشد فعلا فى احداث تلك الحال الالحادية من العلوم التى يقصد بها بث الالحاد والجمود بغاية الصراحة .

ذلك لأن سلطان العلم تابع لدرجة الاقناع ، والاقتناع كما لايخفى ليس فيه الناس سواء بخلاف تلك الأسباب الاجتماعية والأدبية فانها متسلطة على الكل على حد سواء ، بل هى العوامل التى تتلقى الانسان وهو على حالة السذاجة الطفلية فتنشئه على قالبها ، وتخرجه على مقتضى أسلوبها ، فيشب متشبعاً بدرياقها وسمها ، ريان من صفوها وكدرها ، ولسان حاله يقول

(أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى

فصادف قلباً خالياً فتمكنا)

اذا تقرر هذا ربما علم قارئنا أن سيرنا فى اثبات العالم الروحانى سيدفعنا رغماً عنا الى درس تلك الأسباب العديدة التى تهىء النفوس لقبول مرض الالحاد ، ولما كان عش الالحاد الحاضر هو الغرب فسيكون كلا منا فى تلك الأسباب موجهاً اليه ان شاء الله تعالى سواء فيما يختص بالاسباب العلمية التى هيأنه كمذهب لامارك وداروين اللذين يزعمان أن الانسان مترق من القرد ، ومذهب اجوست كونت وليترية وغيرهما الذين قصروا العلم على الحواس الخمس وسدوا فى

وجه الانسان نافذة النور السماوى، أو فيما يختص بعاداتهم وأميالهم وبواعث مدنيتهم التى أصبحت فتنة العالم الأرضى اليوم .

نسلك هذا المسلك الشاق وكان فى وسعنا أن نقتصر على اثبات العالم الروحانى بواسطة التحليلات العلميـة والمقررات الفلسفية ، ولـكن ماالفائدة من ذلك بعد ماعلمنا أن الالحاد اولى به أن يسمى حالا تنتجه أسباب كثيرة من أن يسمى علماً تثمره المطالعة فى كتب مخصوصة .

هب أن النـاس كلهم أصبحوا يعتقدون بوجود العالم الروحانى فماذا يكون من أثر هذه العقيدة على أفعالهم ماداموا فى هيئة من الحياة تبعثهم لضـد مايعتقدونه رغماً عن أنوفهم؟ ألسنا نرى فى أنفسنا اننا قد نعتقد فى أمر من الأمور انه حق وصواب وضده باطـل وخطأ فنجد أنفسنا مسوقين لاتيان الباطل ، محفوزين لغشيان الخطأ ، بينما يكون قلبنا يتضرم أسـفا وندما ، واحساساتنا تحـترق اسى وسدما ؟ أليس ذلك نتيجة أسباب وعوامل تنشأ من طبيعة الحالة الحيوية التى فيها الأمة ؟

أما نحن فبدرسنا للأسباب التى تولد ذلك الحال السىء نؤمل أن نجعل أمتنا على بصيرة من الأمر قبل أن تتوغل فى مظاهر هذه المدنية المنصبة عليها من كل مكان والله ولى المؤمنين

﴿ محاكمة مدارك الفلاسفة الأقدمين ﴾

(فى مسألة اللاهوت)

أتينا فى مبحث الانسان على أكبر مدارك الفلاسفة اليونانيـين

فى المسألة اللاهوتية واستعرضنا أمام قارئنا المناهج التى نهجوها فى تمرير عقيدة وجود الصانع جل وعز ، فرأينا أن سقراط استند على البرهان الطبيعى والتاريخى · عرض بالأول على انظار خصومه بدائع الصنائع فى هذا الوجود ، واختار منها ماوسعه علمه فبسطه بسطاً جدلياً وألزم خصمه من تلك الجهة بلزوم الاعتقاد بوجود موجد لهذه الأشياء يمسكها بقوته ويمدها بحوله ورحمته . وحاول ببرهانه التاريخى أن يقنع مناظره الى أن العقيدة مساك الأمم ونظام الأمور ، وأنها عامة فى سائر النوع الانسانى ، شائعة فى كل أجياله ، واستبعد بذلك أن يكون النوع الانسانى كله مجمعاً على غير حقيقة .

ورأينا من براهين أفلاطون وارسطوأنهما خرجا عن حدود البراهين الطبيعية ودخلا الى متاهات الفلسفة الكلامية فتكلما عن لزوم وجود سبب أولى للأسباب الثانوية ومحرك أصلى يهب الحركة للحركات العلوية والسفلية ، ونهجا لبراهينهما مناهج تقتضيهافلسفتهما . وتستدعيها مداركهما الخصوصية .

كل هذا أشرف عليه قارئنا تفصيلا ولعله قد اتضح له مثلنا ان أحسن تلك البراهين كلها اسلوبا ، وأقواها على ذهن السامع تأثيراً ، وأشدها لمقاتل الخصم المعاند اصابة ، هو البرهان الطبيعى الذى بسطه (سقراط) . وإن براهين ارسطو وافلاطون رغماً عن علوها عن متناول العقول الوسطى فيها من التعسف والافتيات والحكم على

المجاهيـل مالا يخفى على ذى فطنة . ولا غرو بعد ذلك إن قلنا لقرائنا إن أحسن تلك البراهـين أثراً فى الأمـة التى نشأت فيهـا هى براهـين (سقراط) فقد أصلى الملاحدة بها ناراً حامية نثرت نظامهم ، وحلت معاقدهم ، وأخذت بمتنفسهم ، ولم يأمنوا شره الا بوسيلة لا يستعملها الا الجبناء السفلة . وذلك بالوشاية فى حقـه لدى حكـومة تلك العصور ، واتهامه بالألحاد فى آلهتهم ، فانصاعت تلك الحكومة الجاهلة لمزاعمهـم وحكمت عليه بالقتل سما ، فتجرعه بصبر الحكماء ، وثبات أصحاب الاعتقاد وهو يدرس كما قلنا لتلامذته فى السجن خلود النفس بعد الموت .

ذلك لأن سلوك مسالك الخفاء ومناهج الاغماض فى البرهان على مسألة كالمسألة اللاهوتية هى أجلى المسائل وأوضحها ينقل تلك المسألة من حيز الوضوح والجلاء ، ويحشرها الى عالم النظريات والظنون وهناك يتسع فيها المجال للأخذ والرد ، ويشتد فيها الحجاج بين قبول وصد ؟ ويظن كلا الحزبين أنهما فى موضوعها الأصلى وهما فى الحقيقة قد خرجا الى غيره مما ليس بينه وبين ما كانا فيه أدنى علاقة ولا نسبة . ثم لا يكون من وراء كل هذه الجلبة والصياح الا تثبيت الملحد فى الحاده ، وابقاء الجامد على جموده ، وخروج المؤمن منه وقد أضاع وقته ، ورضى من الغنيمة بالا ياب .

ذلك لأن النفوس من جهة الاستعداد للعيقدة وعدم الاستعداد

لها تنقسم الى ثلاثة أقسام : قسم مستعد للأيمان بالفطرة . وقسم غير مستعد له بالفطرة ، وقسم جامد ساذج .

﴿ النفس المستعدة للأيمان بالفطرة ﴾

هـــذه نفس كريمة رقيقة الاحساسات ، دقيقة الشعور ، حية العواطف ، كثيرة الانفعالات بالفواعل ، جوالة لا تقف عند حد ، تواقة لا يقنعها غاية تصل اليها ، عالية لا ترضى بشيء ولو سمت على السماك الأعزل ، وحلت بين الملوك فى المحل الأول ، بعيدة الآمال لا يسع هذا العالم المادى بعض ماتتوق اليه وتتمناه من صنوف الكمال والجمال ، واسعة الخيال يضيق هـذا الوجود المحسوس عن مضطرب خيالها ، ومختلف أحلامها ، شديدة الحرص على الحقيقة فلا تقنعها قشور الأمور ، ولا ظواهر الشؤون ، فهى تميل دائماً لنقب الأغلاف . وهتك الحجب توصلا للباب ماتبصره ، وكنه ماترمى اليه ؛ رحيمة الفؤاد تكاد تذوب أسى على نقصان الناقص ، وأسفا على عيب المعيب ، ولولا شيء من العلم يريها أن الله أرحم الراحمين ، وأكرم الأكرمين ، لقضت أيامها حزنا وكمدا على جهل الجاهل وغرور الغافل ، وميل المائل .

هذه النفس تعشق الكمال وتتحرق لنيله ، وتهوى الجمال وتفنى شوقا لاستشراقه ، وتحس بالفضيلة وتتلهف للوصول الى غايتها ، وتشعر

بجلالة العلوم وتتضرم للسبح فى لجتها .

تنظر الى أديم السماء الناصع والشمس فى أبهة لألائها ، تختال فى غلائل أشعتها ، فتود أن تنفذ الى سر هذا الفضاء الفخم فتردها أنوار الشمس حسرى ، تذرف دموع الهزيمة وتسكب عبرة الخيبة ، ألا انها بجرد من ذاتها قوة أقوى من قوة البصر بما لا يقدر وهى قوة البصيرة ، فتصعد بها على أجنحة التأمل والاعتبار ؛ تطير من أفق الى أفق ومن سماء الى سماء ، والى أين ؟ عند ذاك تصيح هل من نهاية ؟ هل من غاية ؟ هل من حد يقف التصور عنده ؟ هل من تخم يرتد الفكر بعده ؟

تنهزم هذه النفس من عالم الحس فتعتريها دهشة القصور ، ووحشة التقصير ، فتميل لتعويض مافقدته من شممها بادراك سرها ، فتنزل الى عالمها فى سويداء فؤادها ، وتقطع دونها علاقات المحسوسات وشواغلها فتغوص فى بحار معانيها على قدر ماتسمح لها به قواها فلا تجد نهاية ترتد دونها ، ولا غاية تقف أمامها ، فتقف حيرى لاتحير جوابا ، ولا تستطيع خطابا ، ثم ترتد الى حالها الأولى حائرة بين عالمين لانهائيين ، عالم محيط بها ، وعالم فى داخلها هى محيطة به ، لاتدرى أيهما أصل لصاحبه ، فلا تسل بعد ذلك عما يساورها من أرق وضجر ، وما يلابسها من ألم وسهر . لفوات مطلوبها ، وعجزها عن نيل بغيتها .

هذه النفس لاتقنع بعدهاتين الخيبتين التى صادفتاها بلزوم السكينة ، والمعيشة كما يجىء ولو على غير طمأنينة . هيهات ! بل لاتزال تترامى طوراً

فى مهايع هـذه اللانهاية السماوية ، وآخر فى مضارب هـذه اللانهاية الفؤادية ، وكلما تخيب تئن ولـكن لاأنين اليائس ، وتحن الى مطلوب ولو لم يكن متميزا .

هـذه النفس الحية المضطربة لاتطمئن الا اذا وجـدت العقيدة ، ولا ترتاح الا اذا سلـكت مناهجا الرشيدة .

هذه النفس فى كمال خلقها أو استعدادها للـكمال تحتاج لغاية كاملة تركز فيها نهايات أخلاقها ، وتجعلهاقبلة لصاعدات عواطفهاواحساساتها ، وهذه الغايةلاتقنعها ، لمااتصفت به من العلو عن المحسوسات والماديات ، الا اذا كانت أعلى من كل خيال يضطرب فى ذهنها ، وأسمى من كل كمال يجيش فى صدرها ، وليس كذلك الا الله وحـده فهو كل الكمال ، وغاية الجمال ، سبحانه وتعالى .

هـذه النفس فى لطافتها ورحمتها ورقة عواطفها وجـال جوهرها تنظر الى الـكون فيشق عليها أن تعتقده خاليا من اله رحيم ينشر على المخلوقات أشعة رحمتـه ، ويقيم أمورها بحوله وقـدرته ، ويفيض على أصنافها من افاضات عنايته ورأفته .

هذه النفس الطاهرة لو اتفق وأقنعهامقنع جدلا بعدم العقيدة، اضطربت وتألمت ، وتخبطت وتوجعت ، ولاتزال كذلك حتى تجد سلام العقيدة على صـدرها ، وتحس بريحانتها فى روحها ، والاعاشت منغصة متألمـة لايرتاح لهـا بال ، ولايقر لهـا قرار .

هذه النفس الـكريمة هى النفس الانسانية السليمة من آفات النقص،

وعوارض الخداج ، فهى بطلب العقيدة انما تؤدى وظيفتها التى خلقت لها ، كما تؤدى العين وظيفتها الطبيعية بابصار المبصرات وادراك الألوان والأشكال .

اذا تقرر هذا فما فائدة البرهان الفلسفى لمثل هذه النفس المؤمنة بالفطرة وليست فى حاجة اليه بوجه من الوجوه ؟

هذه النفس لا تنتظر البرهان لتؤمن بخالقها فهى مؤمنة به بذاتها كما قررنا ذلك ، بل هى ذاتها اصرح البراهين على وجود مبدعها فلا ترى فى البراهين الفلسفية الا اضاعة الوقت فيما لا يجدى ولا ينفع ، بل ربما عدتها ضرراً على العقيدة لاغماضها فى طرق الاستدلال ، وسلوكها مخالج الخفاء فى أمر هو من الوضوح بحيث لا يحتاج الا الى محض استلفات كقوله تعالى : « أفى الله شك فاطر السموات والأرض » « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم »

﴿ النفس الكافرة بالفطرة ﴾

هذه نفس مظلمة خشنة الاحساسات ، غليظة الشعور بكل مالا يؤديها الى لذة جسدية ، أو شهوة حيوانية ، قليلة الانفعالات بالفواعل الامايدفعها لغشيان قبيح أو اتيان أمر منكر ، جوالة لا تقف عند حد ، ولكن فى الأميال السفلية ، والمطالب البهيمية ، تواقة لا يقنعها غاية ، ولكن من غايات هذا الجسد المظلم ولذائذه ، سافلة ترضى بالهون متى لم تجد فيها القوة الحيوانية لبلوغ مآربها ، فاذا آنست من نفسها شيئا من

الحول والحيلة نهضت نهضة البهيمة المفترسة تعدو على الأموال والأعراض والأنفس ، لاترتدع بزاجر قلبى ولاتنتهى بناه وجدانى ، شديدة الحرص ولكن على مافيه لها منفعة عاجلة ، أوطلبة سائغة : وقافةمع الحس ، مرتطمة فى أوحال المادة ، يكفيها من معانى الأشياء الغلف الظاهرة والحجب الساترة ، الا فيما يختص بلذات الجسد ، وشهوات البدن فتراها ثقابةللحجب ، هتاكةللأستار ، سبارة للأغوار غليظةالكبد تنظر للبؤساء نظرةالمتشفى الشامت،وتلحظ الزمنى والهلكى لحظة المنتقم الأشر ، ولولا شيء من الخجل من الناس لأعلنت على رءوس الأشهاد انها ترتاح لرؤيا المصائب السود ، وتطرب لذوب المهج والكبود ، وتود لوجاء طاعون قتال فاجتاح الناس أجمعين لكيلا تبقى إلاوحدها ومن يكون وسيلة لتكميل لهوها ومرحها .

هذه النفس لاتدرك الكمال الخلقى فلا تحبه ، ولا تعرف الجمال المعنوى فلا تهواه ، ولاتشعر بالفضيلة فلا تتمناها ، ولاتحس بجلالة العلوم من الجهات الروحية فلا تريدها لتلك الفائدة بل تريد العلوم لتسهل لها نيل وطر مادى ، أوتكميل حظ دنيوى ، تنظر الى استبرق السماء ، وتلحظ مجالى الغزالة فى تنقلها فى ذلك الدست الماسى المشرق، فتود أن لاتشرق إلا عليها ، ولاتنير إلاحواليها ، وتقف مع حسها لاتود النفوذ الى ورائه لابالبصيرة ولابالبصر . فهى اذن لاترى اللانهاية الحسية والمعنوية ولاتريد أن تراها .

هذه النفس الحرجة الضيقة الظلمانية لاتحب أن ترى الوجود الا

على قدر عقلها فهى لاتحس بهزيمة أمام لانهاية ، ولا تعتريها وحشة القصور الذاتى الذى يدفع صاحبه الى التكمل ، ولا تلتجىءالى سويداء فؤادها لتبحث عن سر ذاتها ، كل ذلك لافائدة منه لها ولا ترى له وجهاً فى تتميم نظام شؤونها . فهى إذن لاتعرف تلك الحيرة التى تلم بالنفوس العالية طلباً للسكون الى نقطة ؛ والركون الى حقيقة .نعم انها تحس بنوع من الحيرة ولكن فيما يختص بأمور ذاتها المادية ؛ وأحوال حياتها الدنيوية .

هذه النفس الحامدة الراكدة ، الخشنة الخامدة ، لاتبحث عن العقيدة ، ولا تسمع لمن يدلها عليها لفقدانها معنى الكمال الذاتى ، ومغزى الجمال الأدبى . قلناان العقيدة ضرورية للنفس الطاهرة الكاملة لتكون كقبلة تتوجه النفس اليها فى توقها للكمال الأقدس ، واشرئبابها للجمال الأقدم ؛ أما النفس الكافرة فهى من النقص والقبح فى الحضيض التى وصفته لك ، فكيف تتطاب العقيدة . وهى غاية الكمال ونهاية الجمال .

هذه النفس كافرة بالفطرة ، فهى مظلمة معتمة ، لاتدرك النور ولا تبحث عنه ، وان حملة اليها فلا تدركه ولا تحس به وأصحاب هذه النفس معنيون بقوله تعالى : « إن تدعوهم لايسمعوا دعاءكم ولو سمعوا مااستجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير »

هذه النفس لا تفيدها البراهين الفلسفية بل تزيدها مرضاً على

مرض ، وتكسبها ظلمة على ظلمة ، ولا يرغم من معاطس أصحابها ، ويكسر من خراطيمهم الا البرهان الطبيعي المحسوس ، حتى أنك لو برهنت لأحد هؤلاء الملاحدة وجود الصانع بالبراهين الفلسفية وسلكت معه مسالك المنطق ، لوجدته يطير فرحا لعلمه بأنك أفسحت له مجال القيل والقال ، وساويته فى الاقرار بأن حقيقتك تحتاج الى جدال ، ثم لرأيته رفع عقيرته وزمجر ، وهز رأسه وتجبر ، وأخذ يرد عليك رداً ، ويوسعك تأنيباً ونقداً . ولكنك لو تركت له مجال التعسف فى التفاسف ، وحاكمته للحس والعيان ، وخاطبته مخاطبة الانسان للانسان ، وناجيت منه الوجدان ، بلسان الوجدان ، لرأيته نكص على عقبيه وانهزم ، ونكل عنك وانصدم ، وغاب عنك وله رسيس فى الصدر يذيب الحجر ويهد الجبل .

النفس الجامدة بالفطرة

بقى نوع ثالث من النفوس هى النفوس الجامدة بالفطرة . الجامدة من أصل طبيعتها . وهى بين النفس الكافرة والنفس المؤمنة فى مركز لا تغبط عليه ولا تهنأ من أجله .

النفس المؤمنة نفس عالية كريمة لها لذات روحانية لا تعبر بلسان ولا تعرف الا بذوقها بالوجدان ، ولها اشراف على علم كل ما فيه جمال وكمال ، وعظمة وجلال ، وهى بين جسمها وبينه طورا فى شقاء وآخر فى صفاء . آونة فى نصب وأخرى راحة ، وذلك تبعاً لأحوال الجهاد الذى هى فيه . وشؤون العالم الذى تعمره وتحييه . والنفس الكافرة وان لم تكن نفسا

شريفة ولا عالية انما لها عالم ظلمانى خاص بها . فيه صور من لذات لها وهمية ، واشكال من مموهات طينية وقتية ، فهى توهم نفسها بالسعادة وان لم تذقها ، ويخيل اليها أنها على مقربة منها وان كانت تدابرها وتبتعد عنها ، فهى تعيش عيشة مصطنعة وهمية ، وتحيا حياة ملفقة سرابية . ان فاتها لذة المعانى الروحانية ، ولألاء المرائى السماوية ، اعتاضت عنها بأنوار الكهرباء وأضواء الثريات ، والملاعب التياترية ، والمظاهرات العيدية ، وحسو السلافة العقيقية . وغير ذلك من الملاهى الوهمية . وهذه الظواهر الفاتنة الساحرة وإن لم تكن ذات فائدة حقيقية للروح الانسانية ، لكنها لاتخرج عن كونها لذات وملهيات ، فيها للنفس مسرح ومجال. أما النفس الجامدة فأمرها على غير تلك الشاكلة . ليس لها استقلال فى ذاتها فيقال انها من عالم قائم بذاته له شؤون وأحوال مثل كل العوالم الأخرى ، ولا هى تابعة لطبقة من النفوس خاصة حتى يقال انها محكومة بسننها ، مقودة بقوانينها ، وإنما هى نفس لاصفة فيها ولا خاصية ، كأنها لم تستكمل شروط النفس الانسانية فيكون صاحبها إنسانا ، ولم تهبط إلى الدركات السفلية فيكون صاحبها حيوانا . وإنما هو شىء يشبه الانسان ، و يسفل عن الحيوان فى كثير من الأحوال .

هذه النفس الناقصة لاتحس بحاجة روحية مطلقا فتتوق اليها . ولا تهوى معنى من المعانى فتهفو عليها . وكيف يتوق الانسان لما لايحس بلذاته ، أو يهوى مالا يخطر بخيلته ؟

هذه النفس لاتهمها أى مسألة من المسائل الانسانية الكبرى ،

فلا تتبصر فى الوجود ولا تتأمل الكائنات ، ولا ترفع طرفها الى السماء ، ولا تلقى يبصرها إلى الأرض ، بقصد استكشاف سر أو وقوف على أمر . وان نبهها إلى ذلك منبه له سلطة عليها من وجهة من الوجهات ، لبت طلبه بتثاقل ، فان همت بالفعل أحست بكابوس على نفسها وثقل فى أعضائها ، وخمود يدب إلى سائر جثمانها ، حتى لو أدمنت النظر ، وأعملت الفكر يخشى أن تسقط مغشياً عليها ، أو تخر نائمة لا تستطيع حراكا . ذلك من تكلفها ماليس فى طبعها ، وتعملها مالا يوجد فى كيانها .

هذه النفس تعيش ما تعيشه وهى فى يقظة تشبه النوم من أكثر الوجوه ولا تعلو فى ادراك الأشياء وتعقلها عن حلم النفس المؤمنة أو الكافرة ، فهى فى نوم مؤبد تمر بها الأشياء مرور الأشباح على بصيرة المضطجع وقت القيلولة وهو بين اليقظة والاغفاء وهكذا تمر حياتنا سنة بعد سنة وعاماً بعد عام وهى فى مركز طفوليتها الأولى لم تتحول عنه إلا فى مقتضيات نمو أعضائها الطبيعية ليس الا .

هذه النفس تسمع بالدين وقد تنسب الى مذهب من المذاهب الاعتقادية المنتشرة بين البشر ولكن ذلك منها تقليد اضطرارى ، وعمل آلى لا تعقل معه ولا فهم . وتراها تصلى مع المصلين وربما سبحت مع المسبحين ولكنها انما تفعل ذلك مسوقة بعوامل الوراثة القاهره ، مدفوعة بفواعل المحاكاة الطفلية ليس الا

هذه النفس ليست مستعدة لشىء من الأشياء المعنوية سواء كانت

اعتقادية أو الحادية ، فهى لاتنبغ فى علم من العلوم ، ولا تبرز فى فن من الفنون ، ولا تفيد الأمة التى هى منها الا بأمور مادية محضة تعملها عملا حيوانيا مسخرة لا مختارة . هذه النفس هى المعنية بقوله تعالى : « أم تحسب أن اكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم الا كالأنعام بل هم أضل سبيلا »

هذه النفس ان تفضلت علها بدعوة الى الايمان فلا تحدث نفسك بدعوتها اليه بالفلسفة والمنطق فربما نامت قبل أن تكمل حديثك ، واعمد الى البرهان الطبيعى فاسرده عليها سردا خروجا من الاثم ليس الا .

﴿ نظرة على ماسبق ﴾

رأيت من التقسيم الذى مر لك ان النفس على أى حالة من أحوالها لا تود البرهان على عقيدتها الا طبيعيا محسوسا ، لا فلسفيا غامضا . وكلما ابتعد أصحاب الاعتقاد فى حفظ حقائقهم عن الفلسفة ، وقضايا الجدل ، سلموا من آفات الافتراقات فى الدين ، والتحزبات فى المذاهب

هذه هى الخطة الاسلامية التى بعث الله بها سائر الأنبياء فأضاعها أتباعهم فبعث الله بها أخيرا خاتمهم وامامهم سيدنا محمدا صلى الله عايه وسلم ؛ فأدى امانتها أحسن أداء وجلب بها للنوع الانسانى خيرا فى العقيدة والأخلاق والشريعة ما كان يحلم به فلاسفة العالم ولا يضطرب لهم به أمل .

جاء النبى صلى الله عليه وسلم والناس من أمر الدين وطرق الوصول

اليه فى حنادس حالكة وظلمات متكاثفة . هذا يعدد فى الآلهة ، وذاك يشبه الله بمخلوقاته ؛ ويعطيه صفات عباده ؛ وذلك يتخيله على مايحدده له وهمه ، وتتردد به أخلاقه والكل مطيعون منصاعون لرؤساء اتخذوا الدين وسيلة للسلب والسطوة وجعلوا العقائد أحابيل للقهر والسلطة، فعلوا عن مستوى العامة حتى صاروا كأنهم من نوع أرقى من نوعهم، حتى ادعوا أنهم وسطاء بين الله ومخلوقاته وأنهم مهيمنون على مقادير عباده . فان جال فى صدر أحد مرءوسيهم شك أو دبت الى نفسه شبهة كان السيف الى عنقه أسرع من سماع الاجابة عنها بأذنه . فان تفضلوا بشيء من ذلك فى كتبهم صونا للعقائد ، وحفظا للتقاليد ، أتوا بكسف من الغياهب يتلوها كسف ، وقطع من الدياجير الحالكة يتلوها دياجير أشد منها سواداً ، بحث لو ألقى الانسان عليها بصره غار فى ظلمات فاذاهم عقله بانقاذه منها غرق فيها معه وسبحا معا فى عيلم لا قاع له ولا ساحل ؛ وصار بين أمرين : فاما أن يبقيا فى تلك العماية طول حياتهما يقاسيان لواعج تلك الغيابة الحالكة واما أن يعودا فلا يذكرا الدين بعدها لما قاسوه أول مرة ؛ فيكتمان ما يلم بصدرهما حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا.

جاء النبى صلى الله عليه وسلم الى الأمم وهم بهذه الحالة السيئة من جهة اشرف الأشياء على أنفسهم وأعزها على قلوبهم فقال عن لسان ربه : « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا ، فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم

اليه صراطا مستقيما » « هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين » ثم جرى صلى الله عليه وسلم على طريق الاسلام متبعا وحى ربه فى الدعوة ، مؤتمرا بهذه الآية « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين »

التفت الناس اليه صلى الله عليه وسلم بعد ماأظهره الله على أعدائه وجعل كلمته هى العليا فاذا معه أنشودة الروح ، ومطلوب الفؤاد ، وضالة العواطف ، ومفقود الفطرة الانسانية . وما هو ؟ دين واضح ، وشرع حكيم ، وعقائد مثبتة بالحس ، وأوامر لاتيجنبها الا المجنون لوضوح حكمتها . وجلالة أثرها ، ونواه لايغشاها الا المصاب بعقله لظهور ضررها ، وشيوع قذرها .

دين يدعو الى الله الواحد المنزه عن كل مايجيش بالفؤاد من صور وأشكال ومقتضيات وشؤون لاتليق بمقامه . ولم يكلف النفوس بما ليس فى طبيعتها ادراكه من العوالم التى تعلو عن مداركها ، فما الذى يمنع النفوس من الترامى عليه خفافا ، والهرع اليه بكل ماتمتلك من حول وقوة ؟

هذا هو الذى حصل فى العالم فان النبى عليه الصلاة والسلام لبث فى أمته ثلاثا وعشرين سنة داعيا الى الله باذنه وسراجا منيراً لهم فلم يدعه الله اليه حتى كانت الأمة العربية باسرها تعبدالله لاتشرك به شيئا وهذا أمر لم يحصل فى أية أمة من أمم الأرض . لا على يد فيلسوف

ولا على يد رسول من الرسل عليهم الصلاة والسلام .ولم ينتقل النبي صلى الله عليه وسلم الى الدار الأخرى حتى قام بعده خلفاؤه بالأمر ولم تمض مائة سنة حتى دخل فى الاسلام طوعا لا كرها مائة مليون من النفوس ولا يزال لليوم متبعاً سيره فى الرقى والنماء حتى ينتظر أن يكون دين أوروبا بعد قرون قليلة ان شاء الله تعالى .

إنالسنا هنا بصدد سرعة انتشار دين الاسلام وانما نحن بصدد الأدلة على أن البرهان الطبيعى فى العقيدة هو البرهان الحق الذى قرره الاسلام ودعا به النبي عليه الصلاة والسلام ، فانظر الآن الى الفرق بين دعوة النبي ودعوة الفيلسوف . دعا به سقرات وقاوم به أضداده حيناونال منهم شيئا ولكنهم رموه بعد ذلك بالالحاد فى آلهتهم وفعلوا مافعلوه من صفات الجبناء وهذا جهد الفلسفة والحكمة . أما النبي عليه الصلاة والسلام فأحال به أمة باسرها الى ارقى درجات الايمان ، فى سنين تعد على الأصابع . فهل بعد هذا يهم واهم بأن الفلسفة والنبوة متقاربان ، أوهما معا فى ميدان ؟

ان الذى أثر على الأمة باسرها فجعلها مؤمنة بعد أن لم تكن هى روح المصلح الأعظم صلى الله عليه وسلم وهى تلك الروح التى سادت على أرواح معاصريها كلهم وبسطت نفوذها على قومها عن بكرة أبيهم ، لم تترك فارسا ولا حكيما ، ولا شابا ولا هرما ولا غنيا ولا فقيراً ، الا وأدخلتهم تحت سلطانها ، وأظلتهم بظلالها ، فأين الفلسفة بعد هذا ، وأين الفلاسفة من ذلك ؟ أما ترى معى من هذه النظرة البسيطة

أن مجرد التأمل فى هذه المسألة يهب الانسان أقوى البراهين الحسية على رسالة النبى صلى الله عليه وسلم وعلى أفضليته على سائر الرسل الكرام عليه وعليهم التحية والسلام .

﴿ ماوراء المـادة ﴾

﴿ على حسب الأسلوب العملى ﴾

﴿ أهميته عند علماء أوروبا ﴾

إنا لم نربدا لتتميم بناء هذا الصرح الفخيم الذى ندبنا أنفسنا لاقامته لديننا الاسلامى الحنيف فى مقدمة هـذا القرن الجديد من الخوض فى علم (ماوراء المـادة) لا على طريقة من سبقنا من رجالات العلم فى القرون الماضية ، أيام كان القضايا المنطقية والأفـكار المجردة السلطة الـكلية على العقول ، والسطوة العظمى على الوجدان ، بل سنخوض بحره إن شاء الله على القاعدة العملية التجريبية كما هى مطالب الروح العلمية العصرية .

ربمـا تعجب قارىء من عزمنا على خوض عـلم ماوراء المـادة على الأسلوب التجريبى العملى ، مبعـداً أن تدخل الأشياء المعنوية غير المحسوسة تحت سلطان الاختبار والامتحان ، وله العذر فى تعجبه مادام لم يقف على خبر من تلك القوارع الالهية العظمى التى انصبت

على هامة طواغى العلوم المادية فى الغرب فقلبت شكل نظرياتهم رأساً على عقب ، ولم تزل لليوم تفعل بهم وبمدركاتهم المؤيسة الأفاعيل . « كتب الله لأغلبن أناورسلى إن الله قوى عزيز »

ليست أعاصير الشكوك والريب التى تهب فى رؤوس بعض المتعلمين والمتفلسفين منا بشىء يذكر بجانب تلك الأعاصير المجتاحة من شكوك قادة العلم الأوروباوى الذين بسيطرتهم على موارد السعادة المادية ، والزخارف الصناعية ، كادوا يحرمون على الشفاه ذكر الدين فضلا عن ملاشاتهم لأصوله ؛ ولقد كتبوا فى ذلك من المؤلفات والأسفار وسلكوا فيها مسالك من العلم مايمحو كل أثر من عقيدة ، ويعفى على كل صورة منه فى الوجدان ! فالى ماذا آل أمرهم اليوم ؟ هذا سؤال تحتاج الاجابة عليه إلى ماتصدينا له من كتابة ألوف من الصفحات ، وسترى ذلك بعينيك إن شاء الله . إنما نقول باختصار تعجلا بالنتيجة : اداهم إلى خلل فى الضمائر ، خلل فى العواطف - خلل فى مرامى الأفكار ، خلل فى شكل الاجتماع ، خلل فى الاخلاق ، خلل فى الأموال والأنفس والثمرات ! أدى بهم الأمر لأن يقوم أحد رؤساء النشأة الجديدة فى فرنسا وهو (هنرى بيرنجيه) قائلا لقومه (١) : « ان المسألة الدينية أصبحت اليوم الشغل الشاغل لكبار العقول لان مستقبل الأمم المتمدنة يتعلق بحلها .» أدى بهم لأن يقول العلامة الألمانى الشهير (ادواردوهرتمن) (٢) : « لم يوجد أبدا عصر كان أهله أقل »

---

(١) أنظر مجلة المجلات الفرنساوية مجلد ٢٤ (٢) فى كتابه (عقائد المستقبل)

« تديناً من هـــذا العصر الذى نحن فيه ولكن مع ذلك قدلا »
« يوجد عصر هاجت أهله المسائل الدينية مثل هذا الهياج الهائل . »
أدى بهم لأنه يصيح بينهم الفيلسوف (فيرنس حيڤايرت) (١) :
« لقد شعر النوع الانسانى بحاجة كبرى الى الاعتقاد ولكنا لانستطيع »
« تحديد شكل تلك العقيدة بالدقة ، ولقد أحسسنا كلنا بضرورة ارجاع »
« الحياة الى أرواحنا ولكنا لاندرى ان كانت ثمت روح تقية »
« أقوى من روح عيسى (عليه السلام) وأشد نفوذا منها على الوجدان »
« تستطيع احداث هذا العمل المعجز . ان أرواحنا لمتعطشة الى دين لأننا »
« فى غاية الألم من أنه لا دين لنا . ان هذه الاستغاثات التى تتصاعد »
« من العالم العصرى وتختلط فيها صيحات الرجاء بصيحات الشك »
« تشبه بصفة مدهشة تلك الشهقات اليائسة التى كان يصعدها »
« العالم القديم زمن تلاشى الوثنية اليونانية ان الهيئة الاجتماعية »
« الحاضرة التى توحدت تماما فى أحوالها المادية المعاشية نراها »
« بعكس ذلك متشعبة منشقة بالنسبة لمرامها الفكريه والدينية . ولقد »
« أجهدنا أنفسنا فى بيان كيف أن جيلنا هذا قد تدلى شيئاً فشيئاً »
« فى حضيض هذه الفوضى الأدبية الأخلاقية . وانا لنعتقد أنه لا يوجد »
« الا علاج واحد يداوى به هـــذا الداء العياء : وذلك الدواء هو »
« العقيدة الدينية ، فانها وحدها تستطيع أن تداوى العالم الانسانى مما »
« ألم به . » انتهى

---

(١) فى كتابه العمه الحاضرة

ولكن كيف تؤوب العقيدة الا تلك القلوب التى أصلدتها المعلومات المادية قروناً متوالية ، وكيف تلين تلك العقول التى نشبت شعاب الفلسفات المختلفة فيها مع ماتأسست عليه من شكوك واستشكالات هائلة ؟ لو كان الحال واقفاً عند هذا الحد ، لاستسهلنا الأمر ، ولقلنا ان البرهان اذا تجلى للفؤاد قلب كيانه وفصله عما جمد عليه ؟ ولكن هنالك داء دوى أشربته النفوس فى الثلاثة قرون الماضية ونشأت عليه وهو سحر هذا الرقى الصناعى المدهش الفاتن ، وزخرف هذه المدينة الساحرة !

الانسان وان كان يعرف من نفسه الضعف ، ويأنس من حاله العجز ، ومن شخصه الضؤولة أمام مايحيط به من هذا الوجود الواسع ، والكون المدهش ، الا أنه شديد المحال ، كثير الادعاء ، عظيم المراوغة ، متقن فن التدليس على نفسه ، والتمويه على عقله ؛ يتظاهر بالجبرية المطلقة ؛ والغطرسة المفرطة فى الوقت الذى يعلم أنه أضعف من بعوضة ، وأشد عرضة لمبيدات الحياة من ذرة . يتصنع القوة والحول ، ويرائى بالمقدرة والطول ، فى الحين الذى يندب على قلة وسائله ، وعجز حيله . هذا شأنه وهو فى أبسط أحواله وتاريخه يشهد عليه ؛ فما بالك وهو فى هذا الجيل جيل المدهشات والعجائب ، جيل المكتشفات المحيرة للمدارك ، جيل العلوم الطبيعية ، والحرية الفلسفية ، لاجرم أن يزيد توغلا فى دعاويه ومزاعمه ، ويتغلغل فى ريائه وتصنعه .

كان الانسان وهو فى أبسط أحواله فى القرون الخالية يكذب الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام بدعوى أنهم اخوانه فى البشرية ، يأكلون كما يأكل ويشربون كما يشرب ، ويموتون كما يموت ؛ فكان يحاول أن يرسل الله اليه رسلا من السماء فى أبهة تأخذ ببصره ، وجلالة تذهب بلبه !

كانت هذه الشبه وحدها تمنعه من سعادته ، وتنشطه فى غوايته ، فكيف يكون حال الانسان اليوم وهو بين هذه المدهشات الصناعية ، والسحريات الفنية : التليفون عن يمينه ، والفنوغراف عن يساره ، والمنظار أمامه والآلة البخارية وراءه ، والأتوموبيل تحته ، والبالون فوقه ؛ هذا غير مايحيط به من الآلات والأدوات ، وما يتخلل ذلك من مدافع مكسيم ، وبوم بوم ، وبنادق مرتين وموزر ، وصناديق الديناميت والتوربيد . لاجرم يكون قد زاد ادعاؤه وكبره ، وعظم رياؤه وتصنعه وأصبح يزعم (معاذ الله) أن الأنبياء دونه علما وادراكا ، وأقل منه فهما وتصورا .

يرى بين يديه الملايين الكثيرة من المؤلفات والأسفار وقد أودعت من عجائب العلوم المادية ، والابحاث الطبيعية ، على أصل تكون الأجرام العلوية ، والكرة الأرضية ، والجواء السماوية ، والأمطار والسحائب ، والرياح والعواصف ، والنباتات ومراتبها ، والحيوانات وفصائلها ، والانسان وأدواره ، وتدرجه فى أطواره ؛ واللغات ومناشئها ، والشعوب وتخالفها ، يرى ذلك كله بين يديه فينتفج

حضناه كبرا ويرتفع أنفه شموخا ، ويصعر خده عجبا ، ويتمايل فى مشيته اختيالا ؛ ثم يرمى ببصره الى القرون الخالية فى قلة علومها ، واغلاط أعلامها ، وجهالة السواد الأعظم من أهلها ، فيكبر أن يكون فيها رجل يرضى لنفسه باتباعه أو يطأمن من كبره للرضوخ لأوامره . وكيف يتأتى ذلك وانصياعه له يستلزم أن يعتقد أنه أكبر منه علما وفهما ، وأفوز منه من قسط المعارف سهما .

هذا من جهة . وأما من جهة أخرى فانه يرى أنه قد قيد نفسه بعادات فى الكلام ، عادات فى السلام ، عادات فى اللقاء ، عادات فى الوداع ، وحمل جسمه أحمالا وأى أحمال : أطواقا براقة فى عنقه ، وألواحا ملمعة على صدره وفى معاصمه ، وأقمشة مفصلة على جسده ، وسراويل لاصقة بسيقانه ، وأحذية ضاغطة على أقدامه ، وفى صدره ومعاصمه من أحجار الياقوت والماس ما يأخذ بالعين بصيصه ، ويداعب أشعة الشمس بريقه . ينظر الى نفسه وهو فى هذه الهيئة ثم يلقى ببصره الى أولئك الأنبياء فى بساطة ألبستهم ، وعدم تكلفهم ، فتنتفخ أوداجه صلفا ، ويحاول أن يقنع نفسه رغما عن احتجاج ضميره بأنه قد صعد درجات فى سلم الانسانية وارتقى مراقى بعيدة فى الكمالات الصورية :

ثم ينظر لنفسه فى تفننه فى أصناف مأكله ومشربه ، وما استوجبه بذخه من استعمال الأوانى الذهبية والفضية ، والموائد الأبنوسية ، والمناشف الحريرية ، والطنافس الصوفية ، ذات الصور الملهية ، ثم يرنو ببصره الى أولئك الرسل الكرام فى خشونة مأكلهم ، وقلة مؤونتهم

فيراوغ عقله بما أوتى من قوة المراوغة والخداع ، ويحاول أن يقنعه بأن هذا رقى عظيم لم ينله أهل العصور الماضية ، ويكبر عليه أن يخضع لرجل منهم مهما كانت صفته ! ولما ينزل نفسه بقوة المخادعة والمخاتلة الى هذه الدركة باختياره يكون قد هيأ فؤاده لقبول أثرهائل أنكى فى تسميم معناه من كل ماسبق وهو قصيف هذه الجلبة المصمية المنبعثة من هذه المدنية الذهبية فيعتريه دوار فى رأسه ، يذهله عن ذات نفسه ، فيدور فى تياراتها مع الدائرين ، ويمثل دورا فيها مع الممثلين .

هذا الأثر الهائل الذى بعثته هذه المدنية فى قلوب أبنائها هو بعينه أثر كل مدنية مادية ظهرت فى العالم وستكون نتيجتها كما كانت نتيجة ما تقدمتها من مدنيات الرومان واليونان الارتكاس بأهلها إلى أشد ماعليه الأمم الميتة اليوم إن لم يكن الله تعالى يريد أن يرينا من آيات حكمته أمراً .

بدى فى العالم المتمدن جهة أعلا شرفة من شرفات بنائه الشامخ ضياء ساطع ، وسناء لامع ، يبشر بقرب انفراج أزمة الالحاد ، وانفصام حلقات العناد ، ولكن أين العامة منه ؟

ذلك النور ظهر شطر وجه رجالات خاصتهم ، وأعلياء كلمتهم ، وقد احتملته أعين بعضهم ، وعشت عنه عيون البعض الآخر ، أما العامة (١) الذين تسممت قلوبهم بتعاليم أولئك القادة سابقاً فأمرهم

(١) لاأريد بالعامة من يعرف القراءة والكتابة كما اصطلحنا عليه فى بلادنا بل أريد بالعامة كل من ليس بعالم مؤثر

لم يزل عويصا .

العامة من كل أمة وفى كل زمان كان علاجهم شديدا على الرسل والأنبياء ، ومراسهم صعبا على الأتقياء والأولياء ، فكيف بهم فى القرن العشرين الميلادى وقد أعماهم الترف ، وقذفتهم المدنية المادية بسحرها الى متائه الضلالة والغى . هل ينتظر بهؤلاء إلا أحد أمرين : إما إياب إلى الرشاد ، وتنكب لسبيل العناد والالحاد ، والتوجه شطر هذا النور اللامع ، والأخذ بيد أرواحهم من هذه الهلكة المجتاحة ؛ وإما الاسترسال مع التيار الذى هم هائمون على وجوههم فيه ، فيكون مصيرهم كمصير كل الأمم التى تقدمتهم من الفناء والتلاشى « ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

الفائدة العظمى التى نتنظرها من بحثنا فى علم ماوراء المادة العصرى واثباتنا حيرة زعماء الماديين ودهشتهم من تلك القوارع التى صبت عليهم ، هى إلفات تلك العقول التى تتيه بذلك العلم الطبيعى الناقص وتزعم من أجله أنها فاقت كل أهل العصور الخوالى فى مضمار الفهم والعرفان ، حقيقة كبرى : وهى أن هذا العلم مهما اتسع نطاقه ، وشسع مجاله فليس له علاقة إلا بظواهر الأشياء وقشورها . ولا نسبة بينه وبين الكائنات إلا من جهة غلفها . أما العلم الذى يمس حقائقها ، ويدرك لبابها ، وأعد الانسان بطبيعته للتغذى منه ، وإحياء روحه بمدركاته ، وقضى عليه أن لا يكون انسانا إلا به ، فهو علم جاءت به الأنبياء وحملته صدورهم الرحبة . وان ماأرسله الله على قادة العلم المادى فى هذا العصر

فكسر من شوكتهم ، وأراهم أنهم جهلاء لايدرون شيئا ، وان كل ما حصلوه لايساوى قطرة مما حجبته عنهم هذه المادة الصماء ، فليس إلاصورة ناقصة من ذلك العلم العالى الذى تغلغل أولئك الأنبياء فى أرجائه ، وقلبوا به العالم من شكل الى شكل آخر .

أما نحن الذين قضى علينا أن نكون بضعفنا وباضمحلال شخصيتنا عرضة للتأثر بحال الأمم الغربية والدوران فى حركتهم ، فان أبنا إلى عقولنا ، واعتبرنا بالمثلات التى أدبتهم ، فحمدنا الله على أن هدانا إلى دينه القويم ، وصراطه المستقيم ، حمينا أنفسنا من مثل ما وقعوا فيه ، وصنا أمتنا من فتنة يطول فيها أمد الحيرة ، ويدوم فيها ألم البلاء ، واما ان أبينا الا أن نتسحر بترف أولئك العامة منهم ، مدعين أن عدم التدين دليل على سمو العقل ، ونكران العوالم الملكوتية ارتقاء فى الفلسفة العالية ، فلن نلوم إلا أنفسنا ، ولن نجنى من وراء هذه الحركة الشيطانية إلا ما جنته كل أمة كفرت بأنعم ربها : « وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً » .

نحن قبل الخوض فى هذا الموضوع يحسن بنا أن نقدم بين يدى القارىء بعض أقاويل كبار أولئك الخاصة ليعرف أنه امام أكبر موضوع من مواضيع العصر الحاضر ، وحيال مسألة أمالت رؤوساً كانت لا تميل ، وحولت عقولا كانت لا تستحيل : « والله غالب على أمره » .

قال العلامة (م . ت . فالكومر M. T. Falcomer) أستاذ علم الحقوق فى الكلية الملوكية باسكندرية ايطاليا فى كتابه (المدخل الى علم الاسبرتزم العملى) : « هذه النظرية (النظرية القائلة بأن ما يحصل من خوارق العادات فى جلساته الاسبرتزم » منسوبة لأرواح الموتى) يظهر بادئ بدء أنها جديدة ، ولكن الحقيقة أنها ليست
« كذلك ويمكن أن يقول الانسان بدون أن يخشى معارضاً أن الفيلسوف »
« (أما نويل كنت) (قد أدركها وإن (اللان كاردك) قد نشرها بين »
« العالم بعد أن فحصها فحصاً علمياً من جهاتها الثلاث : تجريبياً وفلسفياً »
« وأدبياً ، ولكنها بالأسف كانت ولم تزل عرضة لنقد صارم بالنسبة »
« لاختبارها اختبارا عملياً وتعليل المشاهدات الروحية بها وبالنسبة »
« لتطبيقها على الحياة الاجتماعية والدينية وأخيرا بالنسبة للشهادة »
« الشخصية . أى نظرية غير هذه النظرية مما يكون أقل تأسساً على »
« العلم كانت تزول من الوجود وتتلاشى أمام هذه الصدمات الهائلة »
« من الماديين والقائلين بوحدة الوجود والروحيين الأقدمين »
« أنفسهم . فانك ترى الكنائس ومجامع العلوم الجامدة على مالديها »
« تحاربها فى آن واحد (مع أنها تسعى فى إيجاد الصلح بينهما) لأنها »
« تلقى على الناس نوراً ساطعاً فينكشف به فساد ذمة البعض وجهالة »
« البعض الآخر وكبر العموم . فالحرب التى تقاسيها هذه النظرية »
« شديدة المراس جدا وأهول مما يمكن وصفه ولكن كلما شهر »
« عليها النقد العلمى سيفه ضممنا صفوفنا وهيأنا أنفسنا وجمعنا أدلة »

« للمقاومة . (فاكزا كوف) يصاول (هارتمن) و (ريشانباش) »
« يقارع (بوشنر) و (ولاس) ينازل (سيد جويك) و (يونج) »
« دحره (جاردى) و (شيايا) هزم (لومبروزو) . وكانت نتيجة »
« هذه الحرب إن انضم الى صفنا واحداً بعد واحـد (شيايارلى) »
« و (لودج) و (ريشيه) و (اكورووبكز) و (منـدليجيف) »
« و (زولنر) و (تندل) و (ويليم كروكس) و (اليوت كوس) »
« و (اديزون) و (بلفور) و (جون لبوك) و (جلادستون) »
« (جيبرس) و (داريجليو) و (بروفيريو) و (جيبيه) وعـدد »
« عظيم من علماء مشاهير أخر (١) الى أن قال . »

« مجموع المشاهدات التى تتأسس نظرية الروحين العصريين »
« عليها متشعبة يجب معرفة كيفية الاتجاه فى بحثها وفحصها ولذلك »
« فنحن ننصح الذين يريدون الاشتغال بها بأربعة أمور : المطالعة والنظر »
« والاختبار والاستنتاج . » الى أن قال : ان الظواهر والمشاهدات »

---

(١) هؤلاء علماء مشاهير من شعوب مختلفة (Aksocaf) من كبار علماء الروس ومستشار القيصر و (R. Wallace) اكبر علماء الفسيولوجيا الانجليز و (Lodge) من أشهر علماء الانجليز ويلقب بدار وين الطبيعة و (Richet) أشهر أطباء العالم وهو فر ساوى له من آثار عظيمة فى الطب و (Zollner) عالم فلكى المانى شهير يعد اليوم أزكى بنى البشر و (Tyndall) علم فرد فى علم الطبيعة وهو انجليزى و (Crookes) أكبر كيماويى الانجليز و (coues Elliot) عالم امريكانى رئيس الجمعية العلمية الامـــيريكية و (Edison) عالم امريكى شهير جدا باختراعاته وهو مخترع الفونوجرافو (Balfour) عالم انجليزى ورئيس وزراء الانجليز الحالية و (I. Lubbock) عالم انجليزى طائر الصيت ويلقب بلورد ابرى و (Gibier) تلميذ باستور

«الروحية المذكورة ليس لها أدنى علاقة بظواهر علم الطبيعة والكيمياء»
« الأرضيين ، بل هي من متعلقات طبيعة وكيميا علويتين أعنى من »
« عالم ماوراء المادة فليعلم الجاهل وليتذكر المتناسى أن العلم البشرى لم »
« يزل موصوما بالنقص وان العالم المحسوس ليس هو فى الحقيقة »
« إلا ظلا للعالم غير المحسوس ، أعنى أن المحسوس ليس هو إلا »
« الظاهر القشرى ، أما غير المحسوس فهو اللباب الحقيقى الى أن قال : »
« هذه الطبيعة العالية ليست خيالية تأملية ولا هى مما تتعلق بالعقائد »
« الجامدة ، بل هى حاصلة على جميع شرائط العلوم الكونية لأنها تجريبية»
« امتحانية . وأخيراً هذه الطبيعة العالية هى وحدها التى تستطيع أن »
« تسلك بجميع العلوم وبالدين مسالك التركيب الفلسفى باشباع العقل»
« والاحساس معا . »

هـذا واحد من خاصة أولئك الأقوام نقلنا مامست اليه الحاجة من كلامه وسنعود ان شاء الله الى ما يلزم الاستشهاد به من أقاويله. وأنت ترى أنه ليس بفاقد العقل ، ولا بقاصر التصور ولا بجاهل غمر بل درج فى مهاد العلم الطبيعى والفلسفى ، وبين يديه من مجالى الصناعات المدهشة والمرائى الفاتنة الملهية ، ما ليس لغيره من صرعى هوى المدنية الغربية من المترفين ، ومع هذا كله وما هو فيه من المركز الاجتماعى العالى بين قومه ، وما يحيط به من نقدة الأقلام ، وأصحاب القيمة فى العلم ، والذرابة فى اللسان ، قام يلفت قومه الى جمال ذاتهم وخلود أرواحهم ، معالجا لهم مما وقعوا فيه من الدوار المدنى الذى أصابهم

من سحر حضارتهم . وسمح لنفسه مع عظم مركزه أن يختم كلامه بقوله :
« ان هذه المشاهـــدات المتعلقة بالعلم الروحانى التى بسطتها »
« وشرحتها فى هذه الوريقات مما يشوش عقل العامة ، كما قال ذلك »
« أيضا الفيلسوف (بابوس Papus) وسيحكم على عملى هذا أكثر »
« من واحد من قرائى ، ولكن بدون برهان ولا حجة ، بأنه نتيجة »
« شكل خاص من أشكال الخلل العقلى ولكن هذا الحكم لا يمنع من كون »
« مذهب (الاسبرتزم) التجريبى تتمة للعلوم الطبيعية لما تأكد من »
« أن الانسان مخلوق صالحا لأن يعيش فى عالمين متميزين . فمن العقل »
« والتبصر أن يطالع الانسان وينظر ويجرب ويتأمل ويستنتج بعد »
« معرفة السبب بدل أن يحكم مثل هذه الأحكام بلا دليل ولا »
« برهان . »

أهميته عند علماء أوربا

كتب الاستاذ الطائر الصيت (الفرد روسل ولاس) الفسيولوجى الانجليزى الشهير مكتشف ناموس الانتخاب الطبيعى مع الأستاذ (داروين) الطبيعى الشهير الى جريدة التيمس : « بما انى قد حسبت لدى كثيرين من مكاتبيكم فى مصاف رجال العلم الذين يصدقون بصحة مذهب استحضار الأرواح فأرجو كم ان تسمحوا لى بايراد مبلغ البراهين التى أسست عليها معتقدى .

ابتدأت أبحاثى من مدة ثمان سنوات تقريباً واعتبر من حسن

حظى أن هـذه المشادات العجيبة كانت فى ذلك الوقت أقـل شـيوعا وأضعف استلفاتاً مما هى عليه الآن ، لأن ذلك سمح لى أن أعمل أبحاثى فى منزلى الخاص بمرآى جماعة من اخوان لى لا أشك فى طهارة قلوبهم » إلى أن قال :

« أنا لا أنتظر من الذين يتشككون سواء كانوا يشتغلون أو لا يشتغلون بالعلم أن يعتقدوا صحة هذه الخوارق التى أستطيع أن أسردلهم منها عددا كبيرا اختبرته بنفسى ، ولـكن يجب عليهم هم أيضاً أن لا ينتظروا منى أنا ولا من الألوف المؤلفة من رجال الذكاء والفطنة الذين تحصلنا على حجج ساطعة فى هـذا الموضوع أن نقبل تعليلاتهم الموجزة التافهة . ولم أكن أخشى أن أطيل عليكم لـكنت أريتكم جملة ملاحظات على الأفكار الوهمية التى تغلبت على عـدد كبير من أهل العلم بخصوص طبيعة هذا البحث . فلأتخذ خطاب المستر (وركس) مراسلكم مثالا لذلك : اعتبر حضرته عدم امكان الحصول على هذه الظواهر بمجرد الارادة برهانا قويا ضد صحتها ، وحسب أن عدم تعليلها بالنواميس الطبيعيه المعروفة حجة أخرى على بطلانها ، وغاب عنه أن الاغماء وسقوط الأحجار الجوية وداء الـكلب لا يمكن الحصول عليها أيضا بواسطة الارادة وهى مع ذلك حوادث لا يشك فى وجودها » .

ثم سرد أسماء جملة من اخوانه العلماء الذين يعتقدون بمـذهب استحضار الأرواح ووصـف فضلهم على العـلم ودقتهم فى التجارب

ثم قال :

« ولم يكتفوا فقط باعتقاد صحة هذه الظواهر العجيبة ولكنهم كانوا يعتبرون نظرية الروحيين الحاليين (أى النظرية القائلة بنسبة هذه المدهشات إلى أرواح الموتى) المفسرة الوحيدة لحصول هذه الحوادث الخارقة للعادة . وأعرف أيضاً فيزيولوجيا حياً للآن ذا مركز سام وهو من أمهر الباحثين فى هذا المذهب ومن أشد المعتقدين به . ملخص الأمر أنه يمكننى أن أقول انه وإن كان من الناس من ينسب حصول هذه الخوارق للغش والتدليس الا أنى لم أكتشف على شيء من ذلك مطلقاً و بما أن الجزء الأكبر من هذه الخوارق لا يتأتى حصوله بطريق الغش الا باستعمال آلات غاية فى الدقة فلم يستطع أحد أن يقف على سر تلك الحيل للآن . على أنى لست بمغال إن قلت ان المشاهدات الرئيسية لهذه الخوارق صارت الآن مؤسسة على قواعد علمية وسهلة على الباحث مثل سائر الظواهر الطبيعية التى لم يكتشف ناموسها للآن . لهذه المشاهدات الخارقة للعادة أهمية كبرى جداً لتفسير حوادث التاريخ فانه غاص بمثل هذه المسائل ، ولدرس مصدر الحياة والعقل اللذين لم يتوصل العلم إلى ذلك معاهما للآن الخ » انتهى

نقول : يرى القارىء من هنا أن اهتمام مئات الألوف من علماء أوربا وأمريكا فى بحث مسائل استحضار الأرواح ليس موجهاً للالتهاء وتمضية الوقت بالنظر لخوارق الطبيعة بل غرضهم أسمى من ذلك بكثير . غرضهم الوصول كما يقول الأستاذ (الفردولاس) المتقدم

ذكره لادراك أصل الحياة والعقل وتلك معميات أخرى فى الخليقة وقف العلم المادى أمامها حائرا لايحير جوابا .

لما قام هؤلاء العلماء الأماثل يبحثون المسائل الروحية بالطريقة العلمية العملية ، قام فى وجوههم أعداء العلم ونصراء اليأس ، ونذر الظلمة ، يستهزؤون بهم و ينبذونهم بالألقاب ويكذبون تجاربهم من غير أن يكون لهم أدنى علم بمسائل ذلك الموضوع ، ولكن سطوات الحقيقة تردع كل جبار عنيد فان أولئك العلماء الجسورون وقفوا أمام خصومهم وقفة الحزم والحكمة وردوا عليهم الردود المفحمة وسلقوهم بألسنة حداد ، قال الاستاذ الشهير (وليم كروكس) أكبر كيماويى الانجليز وأحد رؤساء الجمعية العلمية الانجليزية فى كتابه (الأبحاث فى الظواهر النفسية) الذى طبعت ترجمته الفرنساوية اثنتى عشرة مرة بالانجليزية والفرنساوية عشرات من المرار ماياتى :

« وبما انى متحقق من صحة هذه المشاهدات فمن الجبن الأدبى أن آبى الشهادة لها بحجة أن كتاباتى قد استهزأ بها المنتقدون وغيرهم (تأمل) ممن يعلمون شيئا فى هذا الشأن ولا يستطيعون لما علقوه من الأوهام (تأمل) أن يحكموا عليها بأنفسهم . أما أنا فسأسرد بغاية الصراحة مارأيته بعينى وحققته بالتجارب المتكررة (المدققة) » .

عجيب أمر هؤلاء الماديين يعلمون كما يعلم كل انسان أن الانسان لم يزل من العلم فى دور الطفولية وان المسائل المجهولة لم تزل تنغص عقل كل باحث ، ثم اذا رأوا باحثاً أخذ ينمى مواد العلم بشىء من الأشياء

التى تهدم أصلا من أصولهم المقررة قاموا فى وجهه يدعونه دعاً ، ويوسعونه شتما وهجراً ، كأنهم مأجورون على أن يدافعوا عن الالحاد ، أومرشون على أن يطفؤوا نور الايمان من قلوب العباد ، وكلما اشتدوا فى تحمسهم الباطل لمذهب الفناء والعدم ، قابلهم أولئك العلماء الجسورون بشهب من الافحام تقف بهم عند حدهم .

قال العلامة الانجليزى الطبيعى (كرمويل فرلى) كما نقلته عنه (المجلة الروحية) ما يأتى : ان الشتائم التى تكبدناها فى سبيل الاعتقاد بمذهب استحضار الأرواح لم تأت إلا من جهة الذين لا يحصل لهم اقدام على البحث والتنقيب الا بعد معاداة مايجهلونه . »

وكتب العلامة (اجست مرجان) رئيس قومبانيات التلغرافات الانجليزية وهو من كبار علماء الطبيعة فى مجلة (فروم ماستراف سبريت قال) :

« أنا مقتنع بصحة مذهب استحضار الأرواح مما رأيته بعينى وسمعته بأذنى اقتناعا يجعل تطرق الشك مستحيلا على : وان الروحيين لعلى الطريق التى تقدم العلوم الطبيعية وليس اضدادهم الامشخصين للذين يريدون وضع العقبات فى سبيل الترقى . »

عجيب أمر هؤلاء الماديين . ماذا يصيبهم من الأذى لو ثبت يوما من الأيام بالتجربة والامتحان أن للانسان روحا خالدة وأنه مجزى على كل صغيرة وكبيرة من أعماله وأفكاره فى دار بعد هذه الدار ؟ ماذا يلحقهم من الضرر المادى أو الأدبى لو رجعت تلك القلوب

اليائسة ؛ والاحساسات الكئيبة المتلظية ، فى هذه الحياة الأرضية ؛ فاعتقدت أن الدنيا دار ممر الى دار أخرى فيها ينصب ميزان العدل الالهى . وتتجلى للفاضلين والكاملين سبحات النور القدسى ، فينالون جزاء جهادهم الحيوى الطويل فى معترك هذه المادة الطينية ؟ ثم ماذا ينالهم من الفائدة لو ثبت عكس ذلك وبقت الفطرة الانسانية تئن من فقد العقيدة وانتشر الالحاد فى طبقات العالم حتى أكل الناس بعضهم بعضا من الفساد الخلق ؛ وأصبح الانسان يرى فى الموت العدو اللدود الذى يقطع بينه وبين أهله الأعزاء وأفلاذ كبده المحبوبين ؛ وأضحت الأم التى تفقد ولدها أو بنتها لاترى لها معزيا ولا مسليا غير الذهاب مثله أو مثلها الى عوالم الظلمة والفناء.

الله أرحم بعباده من هؤلاء الماديين ، فليموتوا بغيظهم فان الله متم نوره ولو كره الكافرون وهو القائل وقوله الحق : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز » .

كتب الفيلسوف الفرنساوى الشهير (شارل فوفتى) فى كتابه المسمى (الوحى الجديد — الحياة) يقول : « لما فقد الفكر قدرته على التصديق بوجود الأرواح صارت منابع الحياة الخلقية مهددة بالغيضان وأحست الجمعية الانسانية (تأمل) من نفسها بأنها قد دخلت فى دور الفتن والانحلال الذى يجب أن يعقبه الخراب التام ، ولكن لما أشرقت فى الأذهان هذه الفكرة الجديدة (مذهب استحضار الأرواح) — وان لم تكن بينه الحدود للآن — أحست النفوس بقرب

حدوث تغير جديد فى الأفكار » انتهى .

ولكن حضرات الماديين يظهر أنهم لا يريدون ذلك التغير فى الأفكار بل يريدون أن يبقى الانسان معتقداً بأن روحه ليست إلا وظائف أعضائه المختلفة ، وأن عقله وفكره إفراز من مخه كما أن البول إفراز من كليتيه (كما يثرثرون بذلك فى كتبهم) وان الانسان مثله كمثل النباتات لاحظ له من الحياة إلا السنوات التى يعيشها على سطح الأرض فى وسط هذه المحن الشديدة . دعهم يصدقون هم أنه لا أرواح لهم ولكن هيهات هيهات أن ينصاع الناس بعد اليوم لاعارة أقوالهم السامة جانب الأهمية . فقد زال سلطانهم وتقوضت دعائم دولتهم ونجى الناس من شراك أباطيلهم والحمد لله رب العالمين .

لنرجع إلى ما كنا فيه من نقل أقاويل علماء أوربا فى بيان أهمية مذهب استحضار الأرواح حتى إذا وجدنا لقارئنا فكرة عامة على ذلك نقلنا له إن شاء الله تفصيلات الأبحاث المختلفة ، والمشاهدات العجيبة التى قام بها فحول علماء الارض (والله غالب على أمره) .

نقلت المجلة الروحية أقوالا للأستاذ (هودسن) الانجليزى جاء فيها ما يأتى : « قد ابتدأت أنا والأستاذ (هزلوب) البحث من منذ اثنتى عشرة سنة وكنا ماديين دهريين لا نصدق بشىء مطلقا ولم يكن لنا إلا غرض واحد وهو كشف الغش والتدليس ليس إلا . أما اليوم وما أدراك ما اليوم فانى أعتقد وأجزم بامكان المحادثة مع أرواح الموتى . وقد قام لى الدليل على هذا الأمر بحيث لا أتصور أن يتطرق الشك إلى

فيه مطلقا » .

وقال الاستاذ الفسيولوجى الطائر الصيت (روسل ولاس) المتقدم ذكره فى مقدمة هذا الفصل فى كتابه (الخوارق العصرية) قال : « لقد كنت دهريا صرفا مقتنعاً بمذهبى تمام الاقتناع ولم يكن فى ذهنى أدنى محل للتصديق بوجود حياة روحية ولا بوجود عامل فى هذا الكون كله سوى المادة وقوتها ، ولكنى رأيت ان المدهشات الحسية ان تغالب . . . . فانها قهرتنى وأجبرتنى على اعتبارها أشياء حقيقية قبل أن أعتقد علاقتها بأرواح الموتى بمدة طويلة ، ثم أخذت هذه المشاهدات مكانا من عقلى شيئاً فشيئاً ولم يكن ذلك بطريقة نظرية تصورية (تأمل) ولكن بتأثير المشاهدات التى كان يتلو بعضها بعضا بطريقة لا يمكن التخلص منها بطريقة أخرى (أى بغير نسبتها إلى أرواح الموتى) . »

وقال الاستاذ (متزجر Metzger) السويسرى فى كتابه المسمى (الاسبرتزم العلمى) : « هذا المؤلف يتركب من سلسلة خطب قرئت فى جمعية الأبحاث النفسية فى مدينة (جنيف) وليس من السهل على المؤلف (يحكى عن نفسه بضمير الغائب كما هى عادة بعض العلماء) نشره بين الجمهور على هذه الصفة لأنه يعلم أن شكل الخطب لا يليق أن يكون تأليفا لما يكون فيه من التكرار فى المواضيع والترداد للأفكار التى لا يسهل على الخطيب اجتنابها لاشتغاله فوق كل شىء باقناع سامعيه والزامهم الحجة .

« الموضوع الذى نحن بصدده مشتبك بعضه ببعض جداً فان المشاهدات

التى يلزم امتحانها كثيرة جداً ومتخالفة ، والنظريات التى رؤيت كافية لتعليلها وتفسيرها عديدة ومتناقضة . فمن الناس من ينسب لأرواح الموتى حدوث كل الظواهر النفسية حتى أصغرها ، ومنهم من يقول بأن الرأى القائل بتداخل الأرواح فى حدوثها لالزوم له أصلا ، فان مجرد قوى الانسان تكفى لتعليلها كلها . فالتوسط بين هذين الرأيين المتعاكسين بالبرهنة للأولين بأنهم واهمون فى نسبتهم للأرواح مشاهدات لادخل لها فيها ، وبالاثبات للآخرين بأن تعليلهم كل المشاهدات بدون استثناء بمجرد العوامل الانسانية هو تكليف لنظرياتهم بتفسير مالا قبل لها به لايكون من نتيجته التعرض لاغضاب كل من الخصمين المتجادلين :

« فما العمل اذن ؟ الأولى قول الحق لا السعى فى ارضاء حزب من الأحزاب . فالمؤلف بعد أن درس هذه المسألة درسا مدققا اقتنع بان كلا هذين الطرفين مفرط فى مزاعمه سواء فى ذلك أنصار مذهب استحضار الأرواح الذين يصدقونه بدون أقل تحفظ ، وأضداده الذين ينكرونه بتاتا . فاذا كان لاشك فى أن عددا عظيما من المشاهدات الروحية يمكن تعليلها بدون فرض تداخل الأرواح فى احداثها ، فلا شك كذلك فى أن هنالك مشاهدات أخرى تستلزم فرض تداخل الأرواح بطريقة لايمكن دحضها ولا التردد فى قبولها . هذا مايجب التجاسر على قوله ولو كان فيه مصادمة الثقة الطفلية للذين يتوهمون رؤية الأرواح فى كل شىء ، ومكافحة ذلك الكبر المتناهى من الذين

ينكرون وجودها رأسا أو الذين ينسبونها لفعل الشيطان .

« الذى شحذ عزيمة المؤلف وأمضاها هو أنه يعتقد قلبا وقالبا بأن مذهب استحضار الأرواح المنق مما علق به من الأوهام الطفلية التى تحط من كرامته وتفسده سيحدث أثرا أدبيا فى غاية من الأهمية فى هيئاتنا الاجتماعية المختلة . فانه عدا عما يكسبه للعلم من المواد العلمية ذات القيمة التى لا تقدر ، سيقذف نورا ناصعا على هذا الخبط الفكرى الحاضر ، وسيكسب القسم المعنوى من الفلسفة والدين عضدا قويا ، وسيوجد تسلية عظمى لعيون الباكين ، وروح رجاء لقلوب اليائسين .

« مذهب استحضار الأرواح يثبت وجود الروح ويكاد يجعلك تلمسها بأصابعك . ولقد أصبحت مسألة خلود الجزء المعنوى من الانسان مما لا يمكن الجدل فيه لبداهتها . كما أنه قد انسدت تلك المهواة السحيقة القرار التى كانت تفصل الأحياء عمن كان يقال عنهم ميتون .

« هذه حقائق جديدة فى الواقع ونفس الأمر ، ولكن ما أجل فوائدها وأعظم عوائدها ! فان هيئاتنا الاجتماعية فى هبوط مستمر ، ولقد أصبح الناس يتساءلون بقلوب يملؤها الأسف والأسى عما ستؤول اليه حالة مدنيتنا المتنازعة من كل جانب التى افترسها مذهب الماديين المجتاح للفضائل (تأمل) الذى بقتله فيها عواطف الجرى وراء الكمال ، وبمحوه أنوار مستقبلها يدفع الانسان لغشيان كل ما يطوف بفكره من الملاذ الجسدانية بدون المبالاة بوسائل الحصول عليها .

« بعد هذا كله ألا يكون اقامة الأدلة العلمية على ضلال الذين

يجحدون وجود الروح وبيان أننا لا محالة مجزيون على جميع أفعالنا وأقوالنا وأفكارناهو أنجح العلاجات لهذا الجنون الكثير الاشكال؟ هذا هو تأثير الاسبرتزم وسيكون تأثيره دائماً كذلك فيما نرى . »

ثم تكلم الأستاذ السويسرى على ما سيكون له من التأثير العظيم على الفلسفة والتدين لتأسس مباديه على المشاهدات المحسوسة التى لا تدع للشك مجالا فى النفس ، ولا للارتياب سلطانا على الفؤاد ، فقال مشيرا الى الدين والفلسفة : « انهما سيكونان بواسطته أقرب للفهم ، وسيكتسبان به حياة جديدة وصبغة علمية وستسترد أوامرهما وتعاليمهما السلطان الكبير الذى كان لهما على أرواح الناس ، وسيستطيعان مكافحة الالحاد الذى وقعنا فيه بوسائل أنجح وأسلحة أمضى . هذا ما يعلل سر تزايد استلفاته لأنظار الباحثين رغما عن العداوة الكامنة أو الظاهرة التى يصادفها فى بعض المراكز . فأصبح العلماء (تأمل) يهتمون به لأنه يفتح لهم مجالا عظيما للبحث والتنقيب عن المساتير . والروحيون ذوو الصبغ المختلفة من الفلاسفة ابتدؤا يفهمون بأنهم يجدون منه وحده سنداً ركيناً فى الحقيقة ، وعماداً لا يتزعزع ، يعتمدون عليه فى تأملاتهم على مسائل الروح وبقائها بعد الموت وعلى أحوال الحياة فى العالم الثانى . لهذا ترى عالمين من العلماء الأعلام المسيو (أجوست سباتييه) الأستاذ الشهير جداً فى كلية العلوم فى (مونتيلييه) فى خطبته (بالاولا) من جنيف والمسيو (ارنست نافيل) الفيلسوف الكبير فى كتابه (العلم ومذهب الماديين) يتمنى كل منهما نفوذ ولكن

بصراحة تامة أن يرى تحيقق نظرياته بواسطة المشاهدات النفسية أى مذهب استحضار الارواح .

« فأهمية مسألة استحضار الأرواح وجـــدتها ، ولزوم محاربة مـذهب الماديين ، مـذهب الفناء والعـدم الذى سيؤدى بنا الى أسفل سافلين لو لم توضع العقبات ضد انتشاره ، وضرورة تغيير كيان ذلك التشدد الدينى القديم الذى ساعد مساعدة كبرى على ايجاد هذا الالحاد الذى يساورنا من كل جانب ، والفائدة المنتظرة للحقيقة الفلسفية والدينية والعلمية ؛ كل هـذه الأسباب هى التى ساقت المؤلف لابراز بحثه هذا ولو أنه لايجهل عدم كفايته لبلوغ الغاية من هذا الموضوع وهو يتمنى من صميم فؤاده أن يوجد كتابه هـذاميلا عند بعض قارئيه لبحث هذا الموضوع الذى لم يزل فيه كثير من الجهات المظلمة ، ويرجو أيضا أن يجفف دموع عيـون باكيـة وأن يعيـد القوة والجـلد للذين فدحتهم المصائب وذلك بأن يـبرهن لهم بأن ستجىء الساعـة التى فيها تشرق العدالة والنجاة والسعادة لجميع العالم . فغرض المؤلف من هذا الموضوع هو خدمة الحقيقة والبر . » انتهى

الامضاء (د . متزجر)

بعـد هذا كله يوجد من الناس من يتهم الباحثين فى هذا المذهب والمصـدقين به بالجنون تقليداً لبعض علماء أوربا عند بدء ظهور هذه الخوارق بين ظهرانيهم . ولـكننا نقول لهؤلاء قد مضت سنة الأولين وقد رجع أكبر القائلين بذلك وهو الاستاذ الـكبير (سيزار لومبروزو)

عن زعمه لما رأى أن أكثر اخوانه دخلوا فى ذلك المذهب أفواجا أفواجا ، ثم فحصه بنفسه وألف فيه كتاباً مهما ذكر فى آخره هذه العبارة الصالحة : « ولنحذر من ادعائنا دقة العقل والاعتقاد بأن كل الناس من قبيل المخرفين ، والتوهم بأننا نحن العلماء دون سوانا فان ذلك يوقعنا فى الجهل والضلال » .

فرحم الله فتى خلع عن عقله غاشيات العقائد الجامدة وأسلم وجهه لخالقه تالياً قوله (رب زدنى علما) .

﴿ مذهب استحضار الأرواح ﴾

(عامل كبير لنشر الاسلام فى أوروبا) (١)

أجل مزايا مذهب استحضار الأرواح فى أوروبا هى ما نراه من أنه فتح لذويه نافذة واسعة تطل على العالم الروحانى أشرفوا منها على مسألة الوحى والنبوة وهى تلك المسألة التى طالما قام بمنابذتها أسرى الحس وقصار النظر وأرادوا بذلك الغض من كرامة الأديان والحط من شرف العقائد ، ولكن أين يتاه بهم ! وقد حكم الخالق لأصفيائه بالنصر والتأييد ، رغماً عن كل جبار عنيد فقال تعالى : « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون فتول عنهم حتى حين وأبصرهم فسوف يبصرون . »

---

(١) هذه المقالة تتمة لسؤال وجهه الينا حضرة الاستاذ الشيخ أحمد محمد الالفى بطوخ القراموص بأبى كبير

نعم ان مسألة التنويم المغناطيسى ومذهب استحضار الأرواح قد دلا الانسان من طريق الحس على وجود عالم روحانى ، وراء هذا العالم الجسدانى وكفى بهـذا الرقى العلمى هادما لأصول الملحدة الذين قصروا العالم لقصور مداركهم ، على ماتحسه حواسهم الكليلة . فكانت هاتان الآيتان الكبراوان التنويم المغناطيسى ومذهب استحضار الأرواح اللتان أرسلهما الله تعالى فى هذا العصر من البواعث العظمى التى ألجأت الانسان الى الاعتقاد بالنبوات والاعتراف بوظيفة أولئك الرسل الكرام فى هداية الناس وتربيتهم ، ودلتهم على مقاومهم من عالم الجلال والجمال وخصوصا مقام خاتمهم وأماسهم محمد عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام . وهذه درجة فى معراج الكمال الانسانى لاتساويها درجة سواها وهى بعينها مقدمة لوعد الله تعالى : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز »

اعتقاد الشاعر الفيلسوف الشهير (فيكتور هوجو)
« برسالة نبينا عليه الصلاة والسلام »

ليس فى الشرقيين اليوم من يجهل مقام الفيلسوف الفرنساوى (فيكتور هوجو) الذى يجله الفرنساويون إجلالا لامزيد عليه وتشاركهم فى ذلك كل الأمم الاوربية التى استقت من جداول فكره حكمة فكت لهم كثيرا من معمياة الحياة . هذا الرجل الكبير كان يعتقد بمذهب استحضار الأرواح وله فى ذلك كلام كثير وليس

يعنينا منه اليوم إلا نقل ما يؤخذ منه صورة اعتقاده بالنبوات وبالأنبياء ومنهم نبينا عليه الصلاة والسلام .

جاء فى المجلة الروحية بتاريخ مارس سنة (١٩٠٣) ضمن مقالة مستخرجة من كتبه الشهيرة قوله فى كتاب له : « العالم متحرك بمحركين متميزين ، كلاهما محجوبان عن مشاعرنا وهما الأرواح والقوى الطبيعية ، أما القوى الطبيعية فهى تابعة لدستور رياضى لا يتبدل ولا يتغير ، وأما الأرواح فهى حرة لا يقيدها شىء . من هنا كان من لوازم القوى الطبيعية النظام والأحكام ، أما الأرواح فى حريتها فجائز عليها الشطط والضلال ، ومع ذلك فلتلك الحرية التى تتمتع بها الروح معدل يعدلها وينظمها كلما مالت ذات اليمين أو ذات الشمال ، وذلك المنظم هو الضمير . هذا الضمير ليس هو فى الحقيقة إلا الشعور بدستور معنوى خفى ناتج من ذلك القانون الأدبى العام المعزوز فى فطر البشر .

ما تلك الذات الكاملة التى نسميها (الله) والتى يمكن تسميتها أيضا بمركز الافاضات ، فهى المفيضة لتينك القوتين السالفتى الذكر وبناء عليه فهى قيوم الروح والقوة معا . »

ثم شبه تلك الذات الكاملة بالشمس وشبه الأنبياء فى اكتساب النور منها بالأقمار فقال : « الفطرة المودعة فى صميم الانسان بوجود الله آتية من تلك الشمس مباشرة . أما الديانة اليهودية والصائبية والبوذية والمعددة للآلهة والمانوية و (المحمدية) والمسيحية فهى من نور القمر . لأن موسى ، وبوذا ، وذورو ، واستر ، وارفيه ، وكونفوسيوس

ومانى ، (ومحمد) ، وعيسى هم أنواع من الكواكب دائرين حول تلك الشمس يستشرقون نورها ويعكسونه على من دونهم من العالمين .
فالديانات التى هى أقمار الشمس الالهية وظيفتها افاضة النور على الانسان فى غياهب حياته وظلمات بقائه . » انتهى .

هذا (فيكتور هوجو) وليس هو وحده الذى أصبح يقول هذا الكلام بل كل نخبة المعتقدين بمذهب استحضار الأرواح وقد أضحى هذا الموضوع شائعاً بينهم لدرجة معها صار يخطب به خطباؤهم ويكتبه كتابهم بدون حرج . ومن ذلك مانقلته المجلة الروحية فى جزئها الصادر فى يوليو الماضى سنة (١٩٠٣) من ملخص خطبة خطبها فيلسوف الاسبرتزم وخطيبها المفوه (ليون دونى) فى غرفة الزراعة بباريس . تكلم الخطيب فى أثناء الخطبة على وظيفة رجال القرائح الكبرى فى العالم الانسانى وعلى مكانهم فى هداية الخلق وارشادهم ثم قالت المجلة : « المسيو (ليون دونى) استعرض أمام سامعيه كبار الوسطاء بين الملأ الأعلى والناس ، وهم الذين خلد لنا التاريخ أسماءهم ، وسرد أدلة وحججاً استملاها من الحوادث ومن تفاصيل حياتهم ، وذكر من أولئك الرجال المسيح ، ومحمد ، وكريستوف كولومب ، ولوتاس ، وشكسبير ، وجوث ، وديكارت ، والفريد موسيه نفسه الذى كان يقر بأنه إنما كان يكتب أشعاره باملاء روح عالية (١) من

(١) يرى قارئنا معنا أن القوم اعتقدوا بالوحى حتى أفرطوا فصاروا لايفرقون بين الأنبياء ورجال القرائح . انما الذى يهمنا هو اثبات اعترافهم بوظيفة نبينا وخرجهم من جحودهم السابق

هنا يرى أن خاصية الأشراف على العالمين قد ملأت تاريخ العصور كلها ، وان كل العاملين العظام على ترقيـة النوع الانسانى كان يوحى اليهم من قبل الأرواح العالية النيرة .

« هذه الخاصية كانت دائمـا الممدة للقرائح العالية ، والمهـذبة للعالم والمعلمة المرشدة للأمم والشعوب أى أنها كانت الوسيلة التى بها يربى الخالق عباده ويخرجهم من طور الى طور آخر . وقد كان ينجى بها الشعوب فى بعض الأحيان من سيطرة الظالمين كما حصـل بواسطة (جان دارك) التى خلصت فرنسا من هاوية العدم . فالأرواح الكبرى بوحيها للمصطفين من النوع الانسانى ونريد بالمصطفين رجال المدارك العالية ترتقى الانسانية بهم ، ويكـبر معهم قسطها من ادراك الحقيقة ومن التنور والحب » انتهى

وكتب الكاتب الباحث (سنكس) فى المجلة الروحية فى جزئهـا الصادر فى يونيو سنة (١٩٠٣) مقالة تحت عنوان « محمد » هى عقيدة اراكـين مذهب استحضار الأراح فيه صلى الله عليه وسلم ، نقتطف منها مايمس موضوعنا ، وربمـا ترجمناها برمتها إن شاء الله فى فرصـة أخرى قال حضرته : « ظهر محمد بعد المسيح بخمسمائة وسبعين سـنة وكانت وظيفته هو أيضاً ترقية عقول البشر باشرابها الأصول الأولية للأخلاق الفاضلة وبارجاعها الى الاعتقاد باله واحد وبحياة بعـد هذه الحياة . » ثم قال :

« ان الديانة الاسلامية أحدثت رقيا كبيرا جدا فى الفكرة الدينية

فى العالم وخلصت العقل الانسانى من قيوده الثقيلة التى كانت تأسره حول الهياكل بين يدى الكهان ذوى الصبغ الدينية المختلفة . نعم ارتقى العقل بواسطة الاسلام للاعتقاد بحياة أخروية ، وهذه العقيدة هى الوازع الأقوى فى محاولات الانسان المادية والى الأخبات لاله واحد يستطيع أن يعبده بنفسه ، بدون مداخلة أحد بينه وبينه ، وان يرتقى فى مصاعد كرامته الى مجالى أنواره بدون وساطة الوسطاء ولا شفاعة الشافعين من بنى جنسه . ولقد توصل محمد بمحوه كل صورة فى المعابد وابطاله كل تمثيل لذات الخالق المطلق ، الى تخليص الفكر الانسانى من عقيدة التجسيد الغليظة التى كانت من لوازم الفكر البشرى فى القرون الخالية ، وأجبر النوع الانسانى بتأثير هذه التعاليم لأن يرجع الى نفسه ويبحث عن الله خالقه فى أعماق روحه وصميم سره ليستطيع أن يرتفع بهذه العقيدة النقية اليه تعالى بواسطة العبادة القلبية المملوءة احتراما وشكرا ومحبة . ولقد قصر الناس فى الالتفات الى ذلك الرقى الأدبى الباهر الذى تم بواسطة الديانة الاسلامية . وقد حصل هذا الرقى بعيدا عنا لدى شعوب يسهل علينا وصفهم بالمتوحشين ظلما بمجرد كونهم لا يخضعون لأفكارنا ولا يقولون بعقائدنا ولأنهم أحط منا فى العلم والفكر ؛ ولكن مع كل هذا يجب علينا أن نعترف بأن هذه الحركة الدينية قد رقت ولم تزل ترقى الى اليوم عقول أمم شتى من سكان هذا المعمور .

« أما الاسلام فى ذاته فهو فى نظرنا اليوم — على شرط تخليصه

من كل التعاليم التى ألصقتها به الشعوب الطفلة ومن كل الشروح الباطلة التى شرحت بها أقوال النبى — أكبر وأعظم ما يدركه الانسان من معنى الدين ، وتعاليمه فى العلاقات التى يجب أن تكون بين الانسان وخالقه هى أكثر التعاليم انطباقا على نواميس الطبيعة وقوانين العقل الانسانى » انتهى

هذا أجل نتيجة لمذهب استحضار الأرواح فى أوربا وهو من أهم الأسباب التى تدعونا للاكثار من الكلام فيه والتنويه به وتلقى كل مايجد فى مواده بالبشر والارتياح ، لأننا رأينا من مطالعة ما كان يكتبه القوم فى مؤلفاتهم وما كانوا يبثونه فى فلسفاتهم قبل ظهور هذه المسألة العجيبة ، ان أفكارهم قد تشبعت بأصول المذاهب الحسية حتى صار من المستحيل عليهم أن يتصوروا بعقولهم مالم يكونوا يلمسونه بأيديهم أو يحسونه بأحد حواسهم ، وكان قد تأصل فيهم هذا الجمود وأفرع فروعاً كثيرة تشبثت كلها فى مجارى تصورهم ، ووقفت فى مهب روياتهم ، وأثمرت ثمراتها المعهودة من الشكوك والشبه والاشكالات والشطط . على انا رأينا أن كل ذلك كان منهم تابعاً لناموس رد الفعل حيث أن رؤساء مذاهبهم الدينية كانوا قبل ظهور دولة العلم وتأيد صولته عاملين على نشر الأوهام والخرافات وتسميم الفطر بالترهات والأضاليل ترويجاً لمصالحهم ، وحفظاً لمراكزهم ، فلما ظهر نور العلم على ظلمات الأوهام ، واسترجع كل من العقل والفكر حريتها الفطرية المفقودة ، وهبت نفوسهم من خدر الغفلة والجمود ، نبذوا كل شىء يشتم

منه رائحتهم ، ويحس فيه بأثرهم ، وأولعوا بالتشنير عليهم ، والحط من كرامة كل شيء يذكر فيه اسمهم ، ولما كان أكثر كلامهم في مواعظهم، وأكبر دعامة يستندون عليها في أداء وظيفتهم هي مسألة الوحي والنبوات، فقد تشدد أنصار العلم وقادته في القرون الثلاثة الأخيرة في دحضها وابطالها فانهم لكذلك وإذا بهذه الآية الكبرى آية استحضار الأرواح قد ظهرت من بين تلك الكسف الالحادية المتكاثفة ظهور الكهرباء الجوية من خلال السحب المتراكبة في الليل الدامس ، فثار ضدها العلماء من أراكين المذاهب الحسية ، وصاحوا بالناس صيحات تدل على نهاية الكبرياء والتطرف في الجبروت قائلين : هذا عود الى الظلمات الماضية ، هذا رجوع الى خرافات الامم البائدة ، هذا هدم لأصول العلوم العالية. وغلا كثير منهم فقالوا : هذا جنون يلم بالحاضرين في جلسات التحضير فيريهم أشباحاً ومرائي لاحقيقة لها إلا في وهمهم ، ولا أثر لها إلا في خيالهم ، حتى أن الاستاذ الشهير أكبر البحاثين في الجرائم (سيزار لومبروزو) كتب هذه المسألة في بعض كتبه ونسبها لجنون آتيها وعين اسم هذا النوع من الجنون وزعم بذلك أنه هدم أصل المسألة واستأصل شأفتها وتبعه غيره في مزاعمه هذه وكثر الجؤار والخوار من كل الأفواه مصبوغة بصبغ مختلفة حتى أن رجال الدين أنفسهم كانوا من أكثر الناس تشدداً في دحضها وابطالها قائلين ان تلك من ألاعيب الشياطين والجنة بعقول الناس ونصحوا العامة بعدم التعرض لها وقاموا لها مقاوم لها شأن في الهياكل والمعابد ، ولكن ! تلك

حادثة اقتضتها الحكمة الالهيـة رحمـة بذلك العـالم الخابط فى متاهات الالحاد والجمود ، المشرف على هاوية العدم والزوال . فبينماهم يتلفتون يميناً وشمالا وإذا بها امتدت وانتشرت واتبعت فى انتشارها عين الناموس الذى تتبعه كل حقيقة ، وصار لهااليوم أى بعدمضى خمسين سنة تقريباً من ظهورها أكثر من مائتى مجـلة خاصة وعشرون مليوناً من الأتباع ذوى المكانات الاجتماعيـة والعلميـة المختلفة . وقد مرت فى خلال هذه المدة على قرائح قوية ، وأفكار نقية ، وثافنها نقدة العلوم ، وأصحاب الباع الأطول فى تدقيق التجارب ، وتمحيص الحقائق ، ولم نسمع أن عالماً فحصها أو كذب بها ، أونقاداً اختبرهاوأرى العالم وهن أصولها ووهى أسانيدها ، بل بالعكس رأينا أن كل من جربها هام بها وصدقها وصارمن أشياعها، ولو كانت أحبولة من أحابيل المشعوذين، أو ضرباً من سيمياء الدجالين ، لمـا مرت على كل هذه الأنظار سليمة من الطعن، نقية من الجرح . كلا فهاهى لليوم تنتشر انتشار النور فى الظلام تفتح غلف الأفئدة وتأسر أقوى العقول المتشددة ، وكانت هى السبب الوحيد فى رجوع الناس إلى الاعتقاد بأن لله رسـلا إلى خلقه يحملون اليهم أنواردينه ، وأصول شرائعه . ولئن رأيت فى كلامهم على الوحى والأنبياء شيئاً مما يخالف العدل والتبصر كوضعهم الفلاسفة والشعراء فى مصاف الرسل والأنبياء فليس ذلك بالخطب الصعب ، فان الذى أرجعهم عن الجنود المطلق إلى هذاالبصيص من النور قادر على أن يقيمهم على الصراط السوى بعد قليـل « سأريكم آياتى فلا

تستعجلون»

وأنك لو عرفت كم حجاباً كان يحول بين هؤلاء وهذه الحقائق ، وكم سداً كان مقاماً بينهم وبين هذه العقائد ، لقلت انهم قدخطوا خطوة لو حدث الأنسان بها لما صدق ، ثم انك لو رأيت كل ما كتبوه فى كتبهم إبعاداً للقلوب عن خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم وتنفيرا لها حتى عن الحوم بالفكر حوله بواسطة مادسوه من تلك الأكاذيب والأراجيف التى سمحت لهم أنفسهم بابتكارها واختلاقها ، ثم قرأت اليوم ماترجمناه عنهم بشأنه صلى الله عليه وسلم ، لعلمت أن روحه الشريفة قد عملت فيهم وهى فى عالمها العالى مالم تفعله الظبي من الأعناق ، ولا السمهريات من خبيئات الأضالع .

أليس كل هذا تحقيق لوعده تعالى :« سنريهم آياتنا فى الآفاق ، وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد . ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شىء محيط . »

﴿ كيف كان اسراء النبى صلى الله عليه وسلم ﴾

وردتنا من حضرة المحترم رياض سليم افندى بمصر هذه الأسئلة وهى :

(١) هل اسراء النبى صلى الله عليه وسلم حصل بالجسد والروح أم بالروح فقط ؟

(٢) المراد بالصراط والميزان أشياء حسية أو معنوية ؟

(٣) هل الحشر والنشر بالأجساد والارواح أم بالارواح فقط ؟
(٤) أى شىء يتنعم فى الآخرة الاجساد أم الأرواح ؟
(٥) ما الحكمة فى ابراز عالم الشهادة من عالم الغيب ؟ هل هى كما يقال لاظهار النور المحمدى ؟ وهل حق مايقال من أنه لولا رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تخلق هذه العوالم كلها ؟ انتهى

هذه خمسة مسائل من أعوص المسائل الدينية التى خاض عبابها العلماء قديماً وحديثاً وكانت سبباً لكثير من الخلافيات بينهم وهى من الأمور التى تختص بعلم ماوراء المادة ولذلك فقد جعلناها من مواضيعه فى هذا الجزء ولكننا لانحب أن نجمل الكلام فيها اجمالا لاتشتفى النفس به بل رأينا أن نحاول حلها واحدة بعد أخرى ليكون الموضوع أنفع لغلة العقل ، وأرد لعادية الريب ، وأنفذ لمكان الاقتناع من النفس والله الكافى .

المسألة الأولى

(هل حصل الاسراء بالروح والجسد أم بالروح فقط ؟)

قال الله تبارك وتعالى « سبحان الذى أسرى بعده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا » وقال تعالى « والنجم اذا هوى ماضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى . ذومرة فاستوى ،

وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنى فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى ؛ فأوحى الى عبده ماأوحى ، ما كذب الفؤاد مارآى، أفتمارونه على مايرى ، ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة مايغشى ، مازاغ البصر وما طغى ، لقد رآى من آيات ربه الكبرى . »

هذه الآيات الكريمة نصوص صريحة فى حصول الاسراء الى بيت المقدس والعروج الى السماء ورؤيته صلى الله عليه وسلم لآيات الله الكبرى مما لايخطر على بال أحدنا خطوراً لمانحن فيه من التورط فى أوحال الحس ، والأمة بازاء هذه النصوص النيرة مجمعة على حصول الاسراء والعروج لاخلاف بينها فيهما لاعتقادها بأن النبوة أمر عظيم ينكشف به للأنبياء من جهة عالم الملكوت والجبروت نوافذ يطلون منها على سكان حظائر التقديس ، وعمار الصفيح الأعلى ، هذا مالاخلاف فيه بين اثنين من هذه الأمة ، ولكن الخلاف فى كيفية الاسراء والعروج : هل كان بالروح وحدها أم بها وبالجسد أيضاً ؟

قال الأستاذ القاضى عياض رحمه الله تعالى فى شفائه « ثم اختلف السلف والعلماء : هل كان اسراؤه بروحه وجسده ؟ على ثلاث مقالات :

(١) فذهبت طائفة الى أنه اسراء بالروح وأنه رؤيا منام ، مع اتفاقهم أن رؤيا الأنبياء حق ووحى والى هذا ذهب معاوية وحكى عن الحسن والمشهور عنه خلافه ، الخ »

« (٢) وذهب معظم السلف والمسلمين الى أنه اسراء بالجسد وفى اليقظة ، وهو الحق ، وهو قول ابن عباس وجابر وأنس وحذيفة وعمر وأبى هريرة ومالك بن صعصعة وأبى حية البدرى والحسن وإبراهيم ومسروق ومجاهد وعكرمة وابن جريج ، وهو دليل قول عائشة ، وهو قول الطبرى وابن حنبل وجماعة عظيمة من المسلمين ، وهوقول أكثر المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين

« (٣) وقالت طائفة كان الاسراء بالجسد يقظة الى بيت المقدس ، والى السماء بالروح ؛ واحتجوا بقوله تعالى « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى » فجعل الى المسجد الأقصى غاية الاسراء الذى وقع التعجب فيه بعظم القدرة والتمادح بتشريف النبى محمد صلى الله عليه وسلم به ، واظهار الكرامة له بالاسراء اليه . قال هؤلاء ولو كان الاسراء بجسده الى زائد عن المسجد الأقصى لذكره فيكون أبلغ فى المدح الخ لخ » انتهى كلام القاضى عياض .

نقول من هنا يتضح لقارئنا أنه لايوجد نص صريح بالاسراء بالروح والجسد معاً ، ولووجد لما كان مساغ لهذا الخلاف كله ؛ ومما يحسن أن يلتفت اليه المطالع أن منكرى الاسراء بالجسد ليسوا ممن لايعتد بإيمانهم أولا يؤبه لأقوالهم ، الأمر الذى يدل على أن القول بالاسراء بالروح فقط ، لايقدح فى ايمان المؤمن ، ولايؤثر على كمال عقيدته بشىء .

على أن الذى يود الاحتياط لعقله فيميل لرأى القائلين بأن الأسراء

كان بالروح فقط ، لا يليق به أن يتخذ هذه الرخصة سببا للحط من كرامة السواد الأعظم من الأمة الذين قالوا بأن الاسراء كان جسدا وروحا . ولو تأمل أحدنا لرأى ان أولئك النفر الكبار الذين قالوا بمحض الاسراء الروحانى ، لم يقولوا ذلك استبعادا له على قدرة الله وعلى كرامة رسوله ، ولكن قالوها وقوفا مع مبلغ اجتهادهم فيها . ولو حاسب نفسه المستبعد منا وقوع ذلك الاسراء بالجسد والروح معا ، لرأى أن حرج صدره يرتكز على ضيق دائرة علمه بمساتير الوجود وجهله لأسرار الخليقة ، وعلى ظنه (وان لم يصرح به) بأن كل ما خرج عن احاطته الذاتية ومعارفه الشخصية باطل لايعتد به فى شىء . ونحن لأجل تبرئة هؤلاء الأسلاف الكرام . الذين كانوا يعتقدون بالاسراء الروحانى الجسدانى ، من وصمة الركون للخيال وسرعة التصديق لكل مايقال ، كما يميل لأن يرميهم به أعداؤهم ، نود أن نقيم الأدلة الطبيعية على قدر يسمح به طاقة العلم المادى بأن عقيدتهم ليست من باب المستحيلات أو الظنون البعيدة التحقق بل هى من مشاهدات الطبيعة وحوادثها اليوم فنقول :

ان وجوه استحالة هذا الاسراء الجسدانى ينحصر فى أمرين :

(أولها) السرعة العظيمة التى يقتضيها ذلك الانتقال من مكة الى بيت المقدس وهى مسافة يمكن تقديرها بألفى كيلو متر يتعذر على القطار المستعجل قطعها فى أقل من ستين ساعة ذهابا وايابا .

(ثانيهما) انتقال الجسم الانسانى من مكان الى مكان بدون آلة من

آلات الانتقال المعروفة .

نقول : أما الأمر الأول فليست السرعة اللازمة لقطع ألفى كيلو مترا ذهابا وايابا فى بضع ساعات من الليل بالأمر المستحيل فى ذاته . فان هذه السرعة لو قرنت بالسرعة المتمتعة بها السيارات السماوية فى مداراتها الواسعة لما عدت شيئا يذكر . وهذه كرتنا الأرضية التى نعيش عليها ولا نتخيل أنها دائرة ، قد برهنت العلوم الفلكية على أنها دائرة حول الشمس بسرعة (ثلاثين كيلو مترا ونصف فى الثانية) أى أنها تقطع الألفى كيلو متر التى تفصل مكة عن بيت المقدس فى أقل من (عشر دقائق) وبناء على هذا فليس أمر هذه السرعة بالخطب الكبير ، ولا بالشيء العجيب . وكيف نعجب منه بعد ماثبت بالبرهان المحسوس أن هذا الكوكب الأرضى الذى نسرح ونمرح على صهوته ، دائر بنا كل لحظة هذا الدوران المزعج لايفتر آونة ولا يغفل طرفة عين ، ولو حصل فيه شيء من التغير لاختلت موازنته ، ولتغيرت أوقات الشروق والغروب ، ولتبدلت أحايين الفصول ، ولتعطلت بسبب ذلك الزروع والضروع ، مما لاأستطيع أن ألم ببعضه فما بالك بكله والله أعلم .

على أن هذا كله ليس هو الشأن العويص فى هذه المسألة ، فان الخطب الجلل هو البرهنة على امكان حصول انتقال الجسم الانسانى بدون وسائل النقل المعروفة الى مثل هذه المسافات الشاسعة .

نقول المسلمون بازاء أمثال هذه المسائل العويصة التى تختص بالنبوات أحد رجلين : رجل جاز عقبة الحياة المادية ، واخترق

قشورهذه الحوائل الصورية فأشرف بروحه على عالم الأرواح واستشرف بفؤاده عجائبها وغرائبها ، وألم بطرف من أمورها وشؤونها . فهو لا يصدق فقط ان بعض المسائل يصح أن تحصل بقوى روحانية فوق القوى الانسانية ، بل يعتقد اعتقاد مشاهدة وعيان ، بأننا تحت سلطان العالم الروحانى بحالتيه العلوية والسفلية . فنوايانا الصالحة ، وعواطفنا نحو الكمال والجمال ، وما نحدث به نفوسنا من جلائل الأعمال ، وصالح الأميال ، وما نجده من الخفة للنجدة والمروءة ، وما نحسه من الحمية لمدافعة الضيم ، ومقارعة الذل ولو عدى على الحياة ، كل ذلك الهامات ودوافع آتية الينا من تلك القوى العالية المحيطة بنا من كل مكان مما نسميه الملائكة . وأما مقاصدنا السيئة ، وسائركنا خطط الفجور ، ومخالج الفتن وتفكرنا فى الاضرار بالناس ، فوسوسة من القوى السفلية التى تتناثر حولنا من كل صوب ونسميها بالشياطين ، هـذا الرجل الذى نحكى عنه ممن تذوق طعم الروحانيات وعرف مكانها من الخليقة ، لا يستبعد مثل هذه الأمور ، ولا يجيش فى صدره أن يثور عليها .

ورجل آخر مؤمن ولكنه لم يفتح لهذلك الباب العالى ، ولم يشرف على شىء من بدائع العالم الروحانى فانه يحتاج بازاء هذه المسائل الى دليل يعتمد عليه ويقارع العدو بسلاحه كما هو شأن المسلم فى كل ما يعتقد ، فلمثل هذا الرجل نسوق شيئا مما فتح الله به على بعض العلماء الطبيعيين فى أثناء تجاربهم فى مسألة استحضار الأرواح لنستطيع أن

نقرب للأذهان كيفية انتقال الجسم الانسانى من نفسه (بحوامل روحانية) محضة . واذ كانت هذه المسألة من عويصات المسائل فقد آلينا على أنفسنا أن لانبنى أسانيدها إلا بواسطة من لا يمترى أحد فى صدقهم من علماء أوربا .

كتب الاستاذ الشهير العالم الفرد فى علم الكيمياء العصرى (ويليم كروكس) الانجليزى فى كتابه (القوة النفسية) الذى ترجم إلى اللغة الفرنسية وطبع بها اثنتى عشرة طبعة ، تحت عنوان « ارتفاع الجسم الانسانى » مايأتى :

« هذه الحادثة حصلت فى الظلام بحضورى أربع مرار فى شروط من الرقابة كافية مرضية . ولكن لما كان البرهان الحسى لازم جداً للبرهنة على مثل هذه المدهشات ليمكننا أن نهدم من أذهاننا عقائد جامدة « حددنا بها لأنفسنا ماهو الممكن وماهو المستحيل » رأينا أن لانذكر من هذه المشاهدات إلا مايكون فيها الاستنتاج العقلى معضدا بحاسة النظر .

« شاهدت فى فرصة من الفرص كرسياً عليه امرأة جالسة ارتفع بها عن سطح الأرض بمقدار عدة عقد . وشاهدت مرة تلك المرأة ، وقد أرادت أن تبعد عنها كل ظن من الحاضرين فى أنها سبب هذا الارتفاع ، جثت على ركبتيها فوق كرسيها ، فارتفع بها الكرسى على هذه الصفة بحيث أننا رأينا كلنا قوائمه الأربع . ارتفعت هذه المرأة بهذه الصفة مقدار ثلاث عقد و مكثت معلقة فى الهواء مدة عشر ثوان

تقريبا . ثم نزلت بهدو وبطء . ورأيت مرة غلامين صغيرين فى فرصتين مختلفتين ارتفعا بكراسيهما من على سطح الأرض فى رابعة النهار وفى شروط من المراقبة والضبط مرضية جداً (بالنسبة لى) لأنى عند ذاك كنت جاثيا على ركبتى لم تذهب عن مرمى عينى مطلقاً قوائم الكرسى . فتحققت أنه لايمكن أن يكون بينه وبين أحد أدنى اتصال .

« أما أغرب مسائل انتقال الجسم البشرى وأعظمها فوق كل ماحصل من ذلك أمامى ورأته عيناى فهو ماحدث بحضور (المسيو هوم) فلقد رأيته فى ثلاث حالات مختلفة يرتفع بجسمه من على سطح الأرض تماماً ويتعلق فى الهواء . أما المرة الأولى فقد كان جالسا على كرسى طويل . وأما المرة الثانية فقد كان جاثما فوق كرسيه . وأما فى المرة الثالثة فقد كان واقفاً على كرسيه . وفى كل مرة من هذه المرار الثلاث كنت متمكناً من مشاهدة هذه الحادثة فى بدىء ظهورها .

« وقد حصلت هذه الارتفاعات الجسيمة من المسيو هوم نحو مائة مرة شوهدت أحسن مشاهدة ، وروقبت تمام المراقبة امام كثيرين من ذوى الصفات المختلفة . وقد سمعت من فم ثلاثة من شهود العيان وهم الكونت (دونرافن) واللورد (لندسى) والقبطان (س . وين) تاريخ حوادث من هذا القبيل من أغرب مايتصوره العقل شوهدت بكل مفصلاتها وادق جزئياتها » ثم قال الأستاذ عقب هذا « ان رفض صحة هذه الحوادث يعادل رفض كل شهادة انسانية مهما كانت صفتها ، لأنه لاتوجد حادثة سواء فى التاريخ الدينى أو فى التاريخ الدنيوى

مستندة على براهين بهذه القوة . » انتهى كلام الاستاذ (كروكس)

من هنا يرى قارئنا ان مسألة انتقال الانسانى بواسطة القوى الروحية أمر أثبته العلم العصرى ، وقد رأيت أنه يحصل لمثل الدكتور (هوم) على مابه من رعونات البشرية ، وغلبة القوى النفسيه مما لا يسلم منه الا الأقلون ؛ فما بالك بنبي مرسل أخاصه الله لنفسه ، واصطفاه لاعباء وحيه ، وانتخبه لحمل شرعه ، وطهره من أدناس الخصال ، وأرجاس الخلال ، وزكاه من جماح البشرية وزيغ الأميال الشهوية ، وجعله فى عالم وسط بين عالمى الملك والملكوت . لاجرم أنه لا يستبعد على مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو تلك الروح العالية التى برهنت للعالم أجمعه على أنها أكبر الأرواح قدراً ، وأعظمها مقاماً ، ان تنال من مزايا القوى الروحانية أكثر مما يناله مثل هوم بما لا يقدر ، فاذا كان هوم يستطيع أن يقف على كرسيه فى الهواء فلا يستبعد على محمد صلى الله عليه وسلم (لاتنس مابينه وما بين هوم من الفارق فى القوة الروحية) ان ينتقل بجسمه الشريف على أجنحة القوى الروحانية من مكة الى بيت المقدس ثم يعود فى ليلته . فيا صاح لاتقنع بأنك صاح !

ماوراء المادة

سالنا حضرة الفاضل محمد أفندى العطفى مترجم محافظة السويس

عن رأينا فيما قالته مجلة المقتطف فى مسألة الاسبرتزم (استحضار الأرواح فى أوروبا) بمناسبة سؤال وجه اليها فقال حضرته : طالعت فى أحد أعداد مجلة المقتطف اجابة لصاحبه على سؤال وجهه اليه أحد قرائه بشأن مسألة استحضار الأرواح فأنكر صحتها ونسب التصديق بها لهوس المشتغلين بالبحث فيها وقال لاعبرة بكونهم علماء فان مراكز الادراك تختلف فى الدماغ فقد يكون الانسان أعلم العلماء بفن من الفنون ولا يفترق عن العامة فى ماعدا ذلك من الأمور ، فما قولكم فى ذلك . أرجوكم الاجابة كتابة فى الاسلام فى عصر العلم لافادة العموم »

نقول : نحن ان كنا نكتب فى فن استحضار الأرواح وندافع عنه فانما نكتب فيه لجملة أوجه مهمة : منها أكبر هادم لمقررات العلم المادى الحاضر الذى قرر عدم وجود شىء فى الوجود غير المادة وقوتها الذاتية ، وان كل هذا الأبداع فى عالم الشهادة ناشىء من فعل نواميس الطبيعة القديمة كقدم المادة ، وأنه لاروح ولا خلود ولا روحانيات ولا ملأ أعلا ولا نعيم أخرويا ولاشقاء ولاجن ولا ملك ولا ولا مماترويه للناس كتب الأديان ، وان الانسان حيوان مرتق فى سلسلة الوجود ليس غير . فننقل من مذهب ما وراء المادة التجريبى العملى مايكسر من شرة القائلين بهذه المقالات ، المطنطنين بتلك المنكرات ، لاسيما وهم يتبجحون بطلب الأدلة الحسية لا العقلية . حتى انك لو أتيتهم بأعظم البراهين العقلية المنطقية لقالوا انما أنتم واهمون ، وفى

بحار الخيال غرقون ، تصدقون ماتتصورون ، وتدينون لمالا تتحققون ، ولو كانت ثمة حقيقه كما تقولون لظهرت آثارها للعيون ، ولا اهتدى اليها الباحثون . فان رويت لهم من كتب الأولين والآخرين ماشاهده الأولياء والصالحون ، ورآه بأعينهم العابدون ، لما ازدادوا الاسخرية بك واستهزاء منك . زاعمين أن تلك المشاهدات ليست على أسلوب يكفل لها الحفظ من الخطأ ، والتنزه عن العبث واللعب كما هو عليه أسلوب البحث فى هذا العصر . فلم نر سلاحاً يطأطىء من هذه الرؤوس الشامخة ، ويطأمن من هذه الكبرياء المفرطة ، ويرغم من هذه المعاطس المعجبة ، الا مقابلتهم بأبحاث أراكين علماء أوروبا فى فن استحضار الأرواح والتنويم المغناطيسى فانها أقوى سلاح اتخذه حماة العقائد ضد هؤلاء المبطلين ، وشاع استعماله فى الناس أجمعين . قال المسيو (دولن) فى كتابه (الحادثة الروحية) الذى طبع خمس مرات يقول صحيفة (٢٨٣) : « كان الماديون قبل قليل من الزمن يستطيعون أن يطرحوا براهين الفلاسفة المليين قائلين لهم انها ليست على أسلوب يوصل الى حقيقة ، ولكن باتباع أسلوب الروحيين لايخشى من الماديين العود الى مثل هذا الرفض . فانا لانقول للناس يجب أن تعتقدوا فيم أفيض علينا بالتسليم وعدم الدليل ، ولم نحرم حرية البحث على أحد من العالمين . بل بالعكس نقول لهم : هلموا اقرءوا وجربوا وابحثوا كل ما يؤكد لكم صحة الحوادث التى ظهرت للعموم ، وكونوا بحاثين مدققين ولا تسلموا بصدق مشاهدة الا اذا استطعتم أن تكرروها بأنفسكم

كثيراً وفى شروط مختلفة . وبالاختصار نقول لكم تقدموا والحذر ملء أفئدتكم فى سبيل الوقوف على هذه المجاهيل لأن الذى يجشم نفسه بناء أصول جديدة يكون معرضاً للغلط والضلال ومتى درست حادثة من تلك الحوادث ترها تحدثك بذاتها على كنه طبيعتها ومقدار أهميتها . أليست هــذه الطريقة هى أسلوب الفلسفة العملية عينها ؟ وبماذا يستطيع أن يلاحظ أشد الماديين شكيمة على أمثال (روبيرهار) والأستاذ (مابس) والمستر (أكسون) ؟

« اننا انما نقارع أعداءنا بنفس أسلحتهم لارغامهم على الهزيمة ، فبنفس أسلوبهم نعلن على رؤوس الأشهاد خلود الروح بعد الموت .

« كل النظريات المادية التى تزعم أن الانسان آلة مادية بسيطة مجردة عن الروح ، وكل العلماء الذين اتخذوا العلم المادى سلاحاً لاثبات مادية الانسان وعدم روحانيته ، قد كذبوا أشد التكذيب وبأن ضلالهم بواسطة المشاهدات الحسية الروحية الخ » الى أن قال :

« إن قوة الاسبرتزم وسيطرته على العقول آتية اليه من تركه حرية البحث لذويه ، فان كل أصوله يمكن بحثها والمناقشة فيها وامتحانها ولكنها ماوضعت للامتحان مرة الاوخرجت أقوى مما كانت قبلا . والأديان فى هذا العصر الأخير تشبه تلك الأربطة اللازمة للطفل لتعليمه المشى ، ولكنها صارت لاتفيده الآن (يظهر أن دولن لايعرف الاسلام ولو عرفه لما عمم حكمه على الأديان) بل صارت مضرة به لبلوغه سنا يسمح له بالمشى وحده . والرجل فى القرن التاسع عشر

لما رآى أن تلك الأديان ثابتة لا تتغير على حسب ناموس الترقى أحس أن تعاليمها القديمة لا توافق الدرجة التى وصل اليها من العلم ورآى نفسه بين أمرين : اما التسليم لمقررات العلم الواضحة ، واما الخضوع للعقيدة التقليدية ، فلم يسعه الا القاء نفسه بين احضان العلم المادى . ولكن متى رآى مثل هذا الرجل أن هنالك مذهبا يوفق ما بين مطلوب روحه من العقيدة ومطلوب العلم فلا يتوقف عن الأخذ به واتباعه . هذه الملحوظات الموجزة على الاسبرتزم تفسر لك سر سرعة انتشاره هذا الانتشار المدهش . لا يتوهمن أحد أن الاسبرتزم عدو الأديان وانما هو عدو خرافاتها فقط . أما غريمه فهو المذهب المادى ، والذين يشكون بوجود العالم الأخروى وإن لم يكونوا كفاراً للنهاية . »

نقول ونحن لعين هذه الأسباب نكثر الكلام من البحث فى علم ماوراء المادة العصرى ونقول بأعلى صوتنا انه أكبر نصير للاسلام وبواسطته ستسلم أوروبا إسلاماً تدريجيا كما اثبتنا ذلك فى الفصل الماضى من أقوال (فيكتور هوجو) أكبر رجل فى الفرنساويين وأقوال الفيلسوف (ليون دونى) خطيب الاسبريتيين ، وأقوال (سينكس) الكاتب البليغ .

إن اتهام المشتغلين بالاسبرتزم بالهوس والجنون كانت تروج لدى العقول قبل خمسين سنة فى أوروبا ، أما الآن وقد صار المشتغلون بها أعلم علماء الأرض فلم يعد لتلك التهمة وزن ولا خطر ، بل أصبحنا ولا يقولها فى أوروبا الا الذين لا علم لهم بكنه الحركة الفكرية فى العالم ،

واذاساغ لنا أن نتهم بماقاله المقتطف عالما أوعالمين فكيف يسوغ لنا ذلك وهمالآن يعدون بالألوف ؟ اليك جدولا بسيطاً يشتمل على عشرات من أسماء علماء أوروباالأعلام ، نوردهم بدون القاب ولا نتأخر عن إيراد تاريخ أكثرهم والادلال على أنهم جميعاً من رجال النهضة العصرية فى الفنون الطبيعية فى العالم .

« فى انجلترا »

(١) وليم كروكس (٢) لودج
(٣) دومرجان (٤) هكسلى
(٥) فارلى (٦) اكسن
(٧) دوكتور تشامبيرس (٨) هودسن
(٩) ستنوس موزس (١٠) مستر بلفور
(١١) رسل ولاس (١٢) باريت
(١٣) جون لبوك (١٤) لويس
(١٥) جان كوكس (١٦) جورج سكتون
(١٧) دوكتور جمس جللى (١٨) باركس
(١٩) جلادستون

« فى فرنسا »

(٢٠) كاميل فلامريون (٢١) موتنيه
(٢٢) دوكتور دوزار (٢٣) دوكتور أوليفيه
(٢٤) ساردو (٢٥) جول بوا

(٢٦) أوجين نو (٢٧) دور وشاس
(٢٨) دوكتور داريكس (٢٩) دوكتور ريشيه
(٣٠) شارل فوقى (٣١) جان فينو
(٣٢) فيكتور هوجو (٣٣) جريمار

« فى أمريكا »

(٣٤) مابس (٣٥) اليوت
(٣٦) أدمون (٣٧) هار

« فى ألمانيا »

(٣٩) زولنر (٤٠) فيشنر
(٤١) أولتريسى (٤٢) ونير
(٤٣) شبنر (٤٤) وندت

« فى ايطاليا »

(٤٥) لومبروزو (٤٦) انجلوبروفيريو
(٤٧) كيايا (٤٨) جيوزيب جيروزا
(٤٩) كياپارلى (٥٠) فولى
(٥١) بورتيسى (٥٢) فالكومر
(٥٣) فنزى (٥٤) جيوفانى

هؤلاء أربعة وخمسون عالماً شهيراً ولو شئنا لأصعدنا عددهم من نفس كتبهم إلى مئات عديدة وكل منهم له كلام على هذا المذهب وأهميته وتوقع انفراج الأزمة الالحادية به سلكوا فى تقريرهم نظرياته مسلك

المتحمسين الغيورين بقدر ما كانوا متشددين فى دحضه وراجمين بالجنون أشياعه وأتباعه . فان الدكتور الشهير الباحث فى الجرائم والقوى العقلية (سيزارلومبروزو) كان من كبار القائلين فى النصف الأخير من القرن الماضى بجنون من يعتقد فى الابرتزم أو يظن أنه يرى بعينيه شيئاً فيه وكتب ذلك فى بعض مؤلفاته ، ثم لما أهداه الأستاذ (فالكومر) كتابه المسمى (بوصلة المستقبل) وقرأه الأستاذ قراءة إمعان وتدبر ، تغير فكره واتهم نفسه وتألم من كتابة ما كتبه قبل أن يفحص ذلك الأمر بنفسه فكتب للأستاذ صديقه يقول ما معناه : « لقد جعلنى كتابك هذا كالحصاة الحقيرة هوت من قمة جبل عال فهى تهبط إلى حيث لاتعلم ، يتلقاها سفح ويصدمها سفح آخر . وقد عزمت على أن أفحص تلك المشاهدات بنفسى . » ثم صدق فى وعده واكب على دراستها وتجربتها سنة وشهوراً عديدة حتى ثبت لديه بالامتحان أنه كان يجهل هذا الأمر بالمرة وأنه كتب عنه ما كتب عن جهل فندم على ذلك ولم يشأ أن يصر على ذنبه ، بل كتب كتاباً فى هذا الموضوع كذب فيه نفسه واختتمه بهذه الجملة الجميلة : « لنحذر من ادعاء دقة العقل واعتقاد أن كل من سوانا مخرفون واهمون ولنحترس من الزعم بأننا وحدنا العلماء دون غيرنا فان ذلك يوقعنا ولا شك فى الضلالة والحيرة . »

واليك الدكتور (جورج سكستون) الخطيب الانجليزى الشهير كان من أشد الناس طعناً فى الابرتزم وأمضاهم سلاحاً ضد الآخذين به ، ثم لأمر يعلمه الله حبب اليه بحثه فأكب عليه بذلك العقل الشكاك المتردد

زيادة عن عشر سنين ثم اعتقده وكتب فى مجلة (سبرتوالى مجازين) مقراً بغلطه ، وكذلك كان شأن الدكتور تشامبرس والدكتور جمس جللى أما الاستاذ جورج سكستون فقد كتب عن نفسه يقول ، كما رواه عنه الاستاذ الشهير (روسل ولاس) فى كتابه عجائب العصر الحالى : « انى تحصلت فى بيتى الخاص وبمعزل عن كل واسطة للتحضير (غير أصحاب لى لديهم خصيصة استحضار الأرواح) على البرهان الذى يستحيل دحضه (تأمل) والذى هو من طبيعة تؤثر على كل عقل ثابت ، بأن المخاطبات التى تحصلت عليها هى آتية من أصحاب وأقارب ميتين . »

يظهر لنا أن المقتطف لم يطالع ولا كتاباً واحداً فى هذا الموضوع لأنه لو كان فعل لكبر عليه جداً أن يتهم هؤلاء العلماء بالجنون وكل واحد منهم لم يدخل إلى ميدان البحث إلا وهو متسلح بسلاح العلم الطبيعى الحاد ، ومدرع بدرع الفلسفة الحسية الشديدة الشكيمة . هنا نقل جملة مما كتبه (الاستاذ كروكس) فى بعض المجلات الانجليزية ثم نقله فى كتابه المسمى أبحاث على المسائل الروحية قبل أكثر من ثلاثين سنة ، أى قبل أن يصل هذا المذهب إلى ماهو عليه الآن من الشيوع وكثرة الأنصار . نقل هذه الجملة ليعلم الذين يشكون فى عقل أولئك العلماء كيف أنهم ولجوا باب البحث فى هذا الموضوع وكيف أنهم فيه كما هم فى كل فرع من الفروع العلمية التى يبحثون فيها رجال حزم وعزم ودقة وروية قال كروكس :

« قبل بضعة أسابيع كتب فى مجلة (ذى اثنوم) بأنى شرعت فى

عمل أبحاث فيما يسمونه مذهب استحضار الأرواح وبالنسبة لما تحصلت عليه من المشاهدات العديدة منذلك العهد رأيت أن أكتب كلمتين فيهذه الأبحاث التيابتدأت فيها . علىأنى لاأستطيع أن أقول بأن لى حكماً أوفكراً على موضوع لاأدعى أنى قد سبرت غوره للآن فانىأعرف أنالواجب علىرجال العلم الذينتدربوا علىالعمل بأسلوب دقيق أنيختبروا الحوادث التىتستلفت أنظارالعموم حتىيبينوا حقيقتها أويفسروا إنأمكنهم وجوهاغترار ذوىالنوايا الصالحة بها ويكشفون تدليسات المدلسين . ولكنىآسف أن يعلن عن شخص بأنه بدأ فىبحث شىء قبل أن يحكم هو نفسه بأنه قد حان الوقت المناسب لاشاعة ذلك وإذاعته .

« يمكنأن يكون الانسان عالماًحقاً ويتفقمع الأستاذ (دومرجان) فىقوله : « لقد رأيت حوادث كثيرة روحية ، وسمعت بأن كثيراً منها حدث فى أحوال وشرائط تجعل الشك فيها مستحيلا ، بحيث ان أى كائن عاقل لايستطيع أنيقبل أى تعليل لحصولها بالخديعة أو الصدفة أو الغلط . وانىمن هذه الوجهة أحس بأنى واقف على أرض ثابتة ؟ أمامن جهة سبب حدوث هذهالخوارق فلا يمكنى أن أختار تعليلا من التعليلات التىقيلت فى هذا الشأن . فان من الناس من وجد لها بغاية السهولة تعليلات طبيعية ولكنها لاتغنى عن الحقيقة شيئاً . ومنهم من عللها بنسبتها إلىأرواح الموتى ، ولكنهذا التعليل مع كونه أشفى للصدر من الأول إلا أنه لميزل غامضاً يصعب قبوله . » انتهى قول الاستاذ

دومرجان .

ثم قال الأستاذ كروكس : « أنالا أستطيع أن أحكم على السبب المحدث للمشاهدات التى رأيتها ولكن يوجد منها بعض حوادث طبيعية مثل تحرك الأشياء المادية وحدوث اللغط الشبيه بصوت بطاريات كهربائية تحصل فى أحوال لايمكن تعليلها معها بأى قانون طبيعى معروف . وهذاشىءأرانى متحققاًمنهتحقق بأبسطالحوادثالكيماوية .

« كل أبحاثى العلمية حلقة مستطيلة من مشاهدات دقيقة فأريد اليوم بأن يعرف عنى بأن المشاهدات التى سأوكد حصولها هى نتيجة أبحاث بلغت فيها حد الجهد من التمحيص والتدقيق (تأمل) . أنا لا أستطيع الآن أن أجازف بابداء أى رأى على سبب هذه الحوادث فانى لم أر للآن مايقنعنى بصحة (الرأى الروحى) (القائل بأن سبب حدوثها الأرواح) فانالعقل فىمثل هذا البحث يودأنيكون البرهان على ذلك الرأى من الوضوح بحيث لا يتطرق اليه الشك ، فانالحقيقة يجب أن تكون مؤثرة مقنعة بحيثلا يتجاسرأحدعلىالترددفىقبولها . »

من هنا ترى أن هؤلاء العلماء المصدقين بمسألة الاسبرتزم ، وكروكس من أكبرهم بل من أكبر علماء الأرض ، لم يصدقوا بها جزافا بل أنهم حاولوها بما يحاولون به سائر مساتير الطبيعة بعلومهم التى برعوا فيها ، وعالجوها بعقلهم الخاص لابالهوس وعدم التروى .

هنا يحسن بنا أيضاً أن نترجم لحضرات القراء جملة طويلة من كتاب (الحادثة الروحية وشهادات العلماء) تأليف الكاتب الفرنسى

الشهير (جابريل دولن) فانها تشمل سير الحركة الاسبريتية فى العالم بالتفصيل الموجز . فاليك ملخص ماقاله تحت عنوان « العلماء » :

يمكننا أن نبدأ فصلنا هذا بذكر اسم قانونى كبير من نيويورك هو الآن رئيس مجلس الأعيان الأميريكى واسمه (أدمون) فلقد كان لخبر دخوله الى مذهب الأرواح رجة عظمى دوت لها الجرائد الدينية والدنيوية دويا هائلا . فرد ذلك الأصولى على جميع خصومه بكتاب سماه « الحوادث الروحية » كان له صدى كبير فى جميع المملكة الأمريكية وبث فيها المشاهدات والتجارب التى استند عليها فى تقرير مذهبه ، فصعد أحد الملحين على المؤتمر المقيم فى وشنجتون بضرورة فحص المسائل الروحية الى عــدة ملايين ولم يكن قبل كتابه الى خمسة عشر ألفاً

اليك كيفية نفوذ العقيدة الروحية الى فؤاد ذلك القانونى العظيم . قال حضرته عن نفسه : « فى ٢٣ ابريل سنة ١٨٥١ كنت أحد تسعة عشر رجلا جالساً معهم حول مائدة فى وسط الحجرة وكان يعلو المائدة مصباح منير وكان مصباح آخر فوق أنبوبة البخار الذى يسخن الحجرة . فمالبثنا غير قليل حتى ارتفعت المائدة نحو قدم عن الأرض ، وأخذت ترتج وتضطرب الى الامام والخلف بالسرعة والسهولة التى أستطيع أن أحرك بها قدحا بين يدى . فحاول بعضنا أن يوقفها وبذلوا لذلك منتهى ماتصل اليه قواهم ، فلم ينجحوا . فلم يسعنا الا الابتعاد عنها ، ولم نكد نفعل ذلك حتى رأيناها على نور المصباحين صعدت

مع ثقلها وتعلقت بالهواء . فغريت من ذلك الوقت على متابعة هذه الأبحاث ظاناً (تأمل) انى واهم أومغشوش ، وآليت على نفسى أن أسعى فى قشع ظلمات الخرافات عن عقول الناس بفضح سر هذه الألاعيب . ولكنى رأيت ان أبحاثى وتجاربى أدتنى الى نتيجة غير التى كنت أقصدها ، أى الى التصديق بها واعتقاد أنها أمور روحية »
ثم قال (جبريل دولن) :

« والذى يجب ملاحظته والالتفات اليه فى كل هذه الشهادات التى يقدمها العلماء للناس أنهم انما ابتدءوا ابحاثهم وهم مجمعون جازمون بأن هذه المسائل كلها غش وتدليس ، وأنهم ما كلفوا خاطرهم ببحثها وتجربتها الا لشفاء معاصريهم من هذا الداء الجنونى المعدى . قال الأستاذ (مابس) الامريكى الشهير مدرس الكيمياء فى المجمع العلمى الأهلى فى الممالك المتحدة : « لقد رفضت بادىء بدء هذه المسائل واحتقرتها ، ولكنى لما رأيت أن بعض زملائى غرقوا فى بحارها وهو على ظنى سحر جديد عزمت على استعمال عقلى وقواى فى بحث هذه المسألة بالدقة ، وغرضى من البحث نجاة رجال متنورين محترمين فى كل ماهم فيه ولكنهم على زعمى كانوا على وشك الهوى من هذه المسألة الى مهواة الغفلة والغباوة » قال جبريل دولن : « فكانت نتيجة أبحاث حضرة الأستاذ (مابس) مثل نتيجة القاضى (ادمون) وهى الغرق التام فى حياض الاسبرتزم » وقدحصل مثل ذلك للاستاذ (روبيرهار) وهو من أشهر علماء أمريكا ومدرس فى كلية (بانسيلفانى)

فانه بدأ فى البحث سنة ١٨٥٣ وهو زمن كما يقول عن نفسه « أحس فيه بوجوب استعمال كل معلوماته ومداركه لايقاف هذا التيار الجارف تيار المسائل الروحية التى هى ، كما كان يعتقد قبل اعتقاده بها ، نزعة عامية ظهرت رغما عن مقررات العلم وقضايا العقل . » انتهى

قال (جبريل دولن) قبل أن يدخل الاستاذ (روبيرهار) هذا فى معمعان هذا البحث كان يعرف نتائج ابحاث الاستاذ (فاراديه) على الموائد المتحركة بنفسها وكان يظن ان ذلك الكيماوى الكبير قد وقف على علة تلك الحركات ، وفسرها تفسيراً مقبولا ، ولكنه لما جربها وامتحنها بنفسه وجد أن تعليلات الاستاذ الكيماوى ناقصة فأخذ فى تكميلها باختراع الآلات وأدوات جديدة . فأخذ كرات بليارد مصنوعة من نحاس ووضعها على سطح مصقول من الزنج ووضع أيدى الواسطة على تلك الكرات ليتحقق من عدم استعمالها ليديها . فرآى وهو مندهش غاية الدهشة أنه رغماً عن ذلك الاحتراس تحركت المائدة واضطربت بدون فعل فاعل . عند ذلك رآى أن يغمس أيدى تلك الواسطة فى الماء بصفة لا تستطيع معها أن تلامس السطح الموجود عليه الاناء الشامل للسائل . فلم يلبث الا قليلا على ذلك الشكل حتى رآى أن قوة تعادل ثمانية عشر رطلا انجليزياً حدثت على ذلك السطح من غير أثر مؤثر مرئى . فلم يقنع بذلك أيضا فوجه أبحاثه وتجاربه وجهة أخرى . وذلك أنه أتى بميزان ذو حلزون له دليل متحرك وأتى بمعول حديدى ثقيل ووضع طرفه على مشبك الميزان فتأثر طبعاً بثقل

المعول ووقف عند حد محدود . أما طرف المعول الآخر فركزه على سطح ثابت غير متحرك ثم أمر الواسطة بوضع أصبعها على ذلك الطرف امام عينيه بطريقة لاتؤثر على وزن المعول ولو أثرت عليه لأنقصت وزنه . فلم يلبث الأستاذ حتى رآى أن المعول ازداد وزنه فى الميزان جملة أرطال فاندهش غاية الدهشة وقضى بالعجب العجاب .

وسترى بعد قليل بأنه فى مثل هذه الحالة صنع الأستاذ الكيماوى كروكس جهازاً يدل على كل تغيرات الميزان فى أثناء العمل وذلك ليتقى غش مشاعره ولكى يكون البرهان مادياً محسوساً من كل وجه .

لما اعتقد روبيرهار بأنه يوجد فى الوجود قوة طبيعية تظهر كما ظهرت له فى شروط مخصوصة أراد أن يعرف ما اذا كانت تلك القوة متمتعة بعقل دراك أم لا . فصنع لذلك القصد دائرة كتب على أحد جهتيها حروف الهجاء جميعها وترك الوجه الآخر خالياً ووضع فى وسطها ابرة تتحرك كابرة الساعة لتشير الى الأحرف المطلوبة على التوالى متى تحركت بأثر يقع عليها . ووضع هذه الدائرة على المائدة بحيث أن وجهها المكتوب كان امام المجربين ووجهها الخالى من الخط امام الواسطة من الجهة المقابلة فتحركت الابرة ودلت على الأحرف المرادة وتركبت بذلك جمل معقولة بدون علم الواسطة ولا تداخلها .

« كل هذه التفاصيل مكتوبة فى كتاب ألفه الدكتور (روبيرهار) وطبعه ونشره باسم (الأبحاث التجريبية على المشاهدات الاسبريتية) وكان له نجاح باهر فى أمريكا أكبر من نجاح كتاب القانونى أدمون .

لأن كتاب أدمون ربما يفسح مجال الظن لبعض الشكاكين بخلاف كتاب الأستاذ (روبيرهار) فانه بمثابة اقرار رسمى من العلم الرسمى عن لسان أحد أبنائه الذين لهم الحق فى أداء مثل هذا الحكم .

« من هذا العهد نشبت الحرب العوان ، وصعد لهيب الجدل الى العنان ، واشتبك بذلك العلماء فيما بينهم أخذاً وردا ، وتمحيصا وفحصا ، ولم يستطع واحد من المكذبين أن يبرهن على أن مافعل من التجارب (تأمل) غير موافق للشروط العلمية العملية . فبقى النصر فى جانب المنتصرين للاسبرتزم .

والخلاصة أن أكثر الداخلين فى هذا المذهب هم الرجال الذين تعهدوا فى مبدا الأمر بدحضه واقامة الأدلة الحسية على فساد مبناه وأصله . ولسنا فى حاجة الى زيادة الشرح فى هذه النقطة فان المسألة . عينها حصلت فى انجلتره . فان رجال العلم الغيورين على صفتهم العلمية فى هذه المملكة الأخيرة لم يريدوا أن ينهزموا أمام ما كانوا يعتبرونه وساوس عامية وخرافات جاهلية ، بل رموا بأنفسهم فى لجة البحث والتنقيب . ولما أنسوا بأن نتيجة التجارب العملية أدتهم الى خلاف ما كانوا ينتظرون لم يجبنوا عن إعلان الحقيقة بدون خشية ولا خوف من الاستهزاء والسخرية وهما سلاحا الجهالة والتعصب الذميم .

«من بين الرجال العظام فى أمريكا الذين دخلوا الى مذهب الاسبرتزم حديثاً (روبير دال اوين) الحائز لصفتين كبيرتين : أولهما كونه معدوداً

بين العلماء العاملين ، ثانيهما كونه من فطاحل الكتاب المنشئين باللغة الانجليزية . فان كتابه الأخير الذى طبعه فى فيلادلفى سنة ١٨٧٧ تحت هذا العنوان المبتكر « عثرات على حدود العالم الأخروى » مفعم بالأفكار العالية والملحوظات السامية والوقائع المعلمة المهذبة .

«والخلاصة أن الحركة الاسبريتية فى هذه الأوقات أحيا وأنشط منها فى أى زمان كان . فانك ترى فى كل بلدة وعاصمة من عواصم أمريكا وبلادها جمعيات منتظمة متسعة دأبها وهمها البحث فى المسائل الروحية وامتحان مشاهداتها وخوارقها . وبها نحو من اثنين وعشرين جريدة ومجلة تنشر بين الناس لنقل أخبار وحوادث تلك الحركة المدهشة اليهم . ومجلة (بتراوف ليت) التى تطبع فى (بوستون) هنالك من منذ اثنين وعشرين سنة هى الرائد الخبير للاسبرتزم فى أمريكا . ومما يدل بأجلى دليل على قوة سير الحركة الاسبريتية فى أمريكا هى الاجتماعات السنوية التى تلتئم سنويا حول شاطىء بحيرة (كساراجا) . فقد ابتنى الروحيون هنالك محلات تسع نحوا من عشرة آلاف نسمة ، ومع ذلك فالزحام يشتد هناك لدرجة ان كثيرين من الوفود بعائلاتهم يسكنون الخيام حول المدينة .

كل هذه الأمور تثبت أهمية الحركة الروحية فى أمريكا لا سيما وان مثل هذه الاجتماعات تحصل على شواطىء المحيطين الاتلانتيكى والهادى وجميع البحيرات الامريكية . ولنضف الى هـــذا أن جميع عواصم الممالك المتحدة لها جمعيات روحية ملتئمة منتظمة ، وقد ثبت

من الاحصاء الذى عمل سنة ١٨٧٠ (أى قبل ٣٣ سنة) أنه يوجد بأمريكا للروحيين عشرين جمعية للمملكة ومائة جمعية وخمسة جمعيات للروحيين أنفسهم ومائتا خطيب وسبعة خطباء واثنين وعشرين واسطة تحت طلب الناس غير الوسطاء الخاصين . وقد نقل الأستاذ الفيسيولوجى الانجليزى (روسل ولاس) فى كتابه (عجائب العصر الحالى) ان عدد الروحيين فى أمريكا وحدها بلغ أحد عشر مليونا (فتأمل) .

الاسبرتزم فى انجلتره

« فى انجلتره خصوصاً يجد الانسان ثلة من كبار العقول مشتغلة دائبة فى درس الاسبرتزم والتعمق فيه .

وأول مانبتدىء به من الشهادات على صحة هذا المذهب شهادة الأستاذ وليم كروكس الذى تغنينا شهرته عن سرد ألقابه الكثيرة وما له من الاحترام والاجلال فى أفئدة العالم .

ولأجل الادلال على بعض فضله يكفينا أن نقول انه هو الذى اكتشف الجوهر المسمى (تاليوم) وهو المقيم البرهان العملى على وجود المادة الذى تخيلها (فأراديه) قبله تخيلا ، هذا الاستكشاف فتح للأبحاث العصرية مجالا فسيحاً وميدانا واسعاً وأبعد مدى التأملات الانسانية حتى يمكن أن يقال انه من أكبر الاكتشافات التى حدثت فى هذا القرن .

«لا جرم أن عقلا مثل عقل الأستاذ كروكس لا يجازف بنفسه فى مضمار مجهول بدون أن يكون قد أخذ مايخطر بالفكر من أسباب الدقة ووسائل الوصول إلى الحقيقة مع الأمن من الخطأ والخطل.

اليك ماقاله فى شأن الاسبرتزم فى فصل كتبه فى المجلة الانجليزية المسماة (كواترلى رفيو) فى شهر يوليو سنة ١٨٧٠ : (أى قبل ٣٣ سنة)

« يقول الروحى أن جسما يزن ٥٠ رطلا أو ١٠٠ رطل يمكن »
« أن يعلو فى الهواء بدون أدنى قوة محسوسة ، ولكن العالم الكيماوى »
« اعتاد استعمال ميزان حساس جداً بحيث أنه يشعر بنقل مالوجمع »
« منه عشرة آلاف ضعف لما زاد وزنه عن الحبة . فهو لا يطلب »
« من تلك القوة المحتجبة التى تقول انها عاقلة مدركة وترفع تلك »
« الاجرام الثقيلة الى السقف، الا أن تحرك ميزانه الحساس فى شروط »
« مخصوصة عند مايكون فى حالة التوازن »

« الروحى يتكلم عن طرقات تسمع فى جهات مختلفة من الحجرة »
« لما يجلس نفران أو أكثر حول مائدة فى غايه السكون ، ولكن »
« المجرب العلمى يود أن تلك الطرقات تحدث على غشاء فونوغراف . »

« يتكلم الروحى عن اهتزاز وارتجاج حدث فى غرف بل على »
« بيوت حتى أحدث فيها خللا بواسطة قوة فوق قوى الطبيعة ، »
« ولكن رجل العلم لا يطلب الا تحرك كرة البندول الموضوع »
« تحت ناقوس من زجاج ومرتكز على أساس ثابت . »

« يتكلم الروحى عن أشياء ثقيلة وأنواع من أثاث البيوت تتحرك »

« من غرفة الى غرفة بدون فعل فاعل ، ولكن العالم قد اكتشف عدة »
« تقسم له العقدة الى مليون درجة وتراه يشك فى كل ماتعمله تلك »
« القوة المحتجبة ان لم تستطع أن تحرك دليل تلك الآلة درجة واحدة »
« من تلك المليون درجة ».

« الروحى يتكلم عن سقوط أزهار مكللة بالندى وعن أثمار »
« بل وعن كائنات حية أنفذت من خلال الحائط ، ولكن المنقب العلمى »
« لا يطلب الا وضع جزء من مليون من حبة على كفة ميزانه الحساس »
« بينما يكون ذلك الميزان موضوع داخل وعائه الزجاجى المقفل ؛ »
« والكيماوى لا يطلب الا ادخال جزء من ألف من حبة الزرنيخ »
« فى سائل موجود داخل أنبوبة محكمة القفل »

« الروحى يتكلم عن ظهور قوى تعادل الوف من الأرطال »
« بدون سبب مولدها ، ولكن رجل العلم الذى يعتقد بأن القوة »
« محفوظة وانه لا ينتج منها شىء فى جهة الا بحدوث فقد يقابلها فى »
« جهة أخرى ، لا يطلب من تلك القوى الظاهرة الا أن تحدث فى »
« معمله حيث يستطيع أن يزنها ويقيسها ويجرى عليها الامتحانات اللازمة »
انتهى كلام الأستاذ كروكس . وقال (جبريل دولن) عقب هذا مباشرة

« من هنا يعلم بأى حذر واحتراس تقدم هذا العالم الكيماوى الى بحث ماتصدى له من هذه المشاهدات . ولم يرد أن يجرب مايجربا الا فى معمله الخاص حتى يكون واثقاً بأن لا غش ولا خداع فى أقل حركة من حركات تجاربه العلمية ، وهذا هو العقل والحكمة .

وكم بين هذا العلامة الجسور وبين علمائنا الفرنساويين من الفروق الجسيمة حيث أن هؤلاء الأخيرين ينكرون الاسبرتزم بدون دليل ولا برهان ! هذه الجملة التى نقلناها عن كروكس مكتوبة فى سنة ١٨٧٠ ولكن هذا العالم بعد أن أمضى أربع سنوات متوالية دائباً وراء البحث والتجربة كتب سنة ١٨٧٦ يقول :

« أنا لاأقول ان هذا ممكن (يريد مشاهدات الاسبرتزم) ولكنى أقول انه ثابت محقق »

وسترى بعد قليل ماهية التجارب التى أقنعت هذا العالم الانجليزى

« الجمعية الحديثة التى تكونت فى لوندره سنة ١٨٦٧ تحت رياسة السير جون لبوك (هو الآن لورد افبرى) والتى من وكلائها (توما هنرى هكسلى)وهو من أعلم علماء الأنجليز (والمستر جورج هنرى لويس) الفسيولوجى الطائر الصيت ، قررت فى جلستها المنعقدة فى ٦ ينايرسنة ١٨٩٦ بأن تتألف لجنة من أعضائها لدرس الحوادث الأسبريتية المزعومة وإعطاء الجمعية تقريراً عنها . فما حدث من الجدل والشغب لدى تقرير هذا العزم وإخراجه من القوة إلى الفعل يدل على أن أكثر الأعضاء كانوا مكذبين بالاسبرتزم ، وتلقت الجرائد الانجليزية هذا الخبر بالفرح والسرور ظانة أنها ستقضى على الاسبرتزم الحاضر القضاء الأخير . فلبثت هذه اللجنة ثمانية عشر شهراً دائبة فى فحص مشاهدات الاسبرتزم ثم قررت صحتها للملأ فلا تسل عن الدهشة التى عرت عموم الناس عند ذاك من سماع هذا الخبر

« من بين الأعضاء الذين حضروا هذه التجارب العلامة الطبيعى الأنجليزى الشهير (الفريد رسل ولاس)نديد(دارون)الشهير وزميله فى أعماله وقد كان قبل حضوره تلك الجلسةمعتقداً بصحة الاسبرتزم .

وقد ألف هذا العالم الكبير كتاباً شرح فيه اعتقاده وفكره فى الاسبرتزم ولم يخش اللائمة ، وسمى كتابه (عجائب العصر الحالى) كمافعل قبله الأستاذ (مابس)والاستاذ (هار) وكثيرون غيرهما

« ومن ضمن الشهود الذين سمعت اللجنة أقوالهم فى صالح الاسبرتزم الأستاذ (اجوست دومرجان) رئيس الجمعية الرياضية بلندره وسكرتير الجمعية الفلكية الملوكية . والمستر(فارلى) رئيس مهندسى قومبانيات التلغراف الدولى ومابعدالمحيط الأتلانتيكى ، ومخترع مكثف كهربائى ، والذى توصل إلى حل غوامض مسألة التلغرافات البحرية »

« المستر (دومرجان) هذا قد أقر بعقيدته علناً بكتابه المسمى (فروم ماستراوف سبريت) وسترى بعد قليل خطاباً من المستر (فارلى) المتقدم ذكره يشكر فيه الأرواح شكراً جهرياً » .

« ان اجتماع آراء مثل هؤلاء الرجال المشاهير فى صحة الاسبرتزم كاف فى تقرير نظريته وتدعيمها تدعيماً ثابتاً ،ولكن فى مثل هذه المواضيع الغويصة يحسن بالانسان أن يكثر من الشهادات عليها . فاليك شهادات أخرى : »

« المستر اوكسون استاذ كلية « اكسفورد »درس فى مدة خمس سنين مسألة الكتابة بلا واسطة أى الكتابة التى تحدث بنفسها بدون

تداخل انسان . وكتب فى ذلك كتاباً سماه « سبريت ايدانتنى »
الذى سنستفيد منه فى الجدليات التى ستلى هذا الموضوع »

ولننوه أيضاً باسم المستر (باركاس) عضو الجمعية الجيولوجية بنيوكاسل ، فلقدقص تجاربه الذاتية فى كتاب مفيدجداً اسمه(اوتلينس اوف انفستيجيشن انتوموردن سبيريتواليزم) ولا يسعنا هنا إلا استلفات أنظار الذين يودون الاقتناع بصحة الاسبرتزم أن يقرءوا هذا الكتاب بامعان وروية »

« الحرب العوان التى قامت فى انجلتره من جراء المسائل الاسبريتية لم تكن بأقل حماسة وشدة منها فى الممالك المتحدة بأمريكا ، فلقد تألب أعداء الاسبرتزم هنالك أيضاوجمعوا كل قواهم لهدم الاصول الجديدة ولكن فى تلك المملكة التى فيها حرية البحث محترمة مرعية ، والخوف من السخرية أقل تأثيراً على النفوس ، لم يتأخر الداخلون إلى مذهب الاسبرتزم من الاعتراف بعقائدهم علناعلى رءوس الأشهاد »

« من بين الشكاكين الجامدين جداً كان الدكتور (جورج سكستون) الخطيب الانجليزى الشهير الذى كان شاهراً على الاسبرتزم حربا عوانا ولكنه لما أكب على البحث خمسة عشرة سنة رجع إليه واعتقده »

« وهناك عالم آخر الدكتور (تشامبرس) الذى عادى المذهب الجديد زماناً طويلا رجع فأقر بصحة الاسبرتزم وكتب بذلك لمجلة (سبريتوال مجازين) »

« ولنضف إلى هؤلاء الدكتور (جمس جللى) مؤلف كتاب فى الأمراض العصبية له شهرة فائقة ، ومؤلف كتاب (قانون الصحة فى الأمراض المزمنة) الذى يرحل إليه فى انجلتره »

« مما مر بك ترى أن الاسبرتزم قد اجتذب من الناس العلماء الكبار. وقد أجرى هؤلاء العلماء على خوارق الاسبرتزم قانون العلم العملى وأسلوب الفلسفة الحسية فخرجت منه غالبة منصورة رغما عن التجارب المتكررة التى أجريت فى ذلك »

من منذ عشر سنين تألفت فى انجلتره جمعية اسمها (سوسيتى فور بسيشيكال روتشيرتش) غرضها توسيع دائرة البحث فى الاسبرتزم على موضوع ظهور الأشباح . وقد نقلت بالترتيب فى مجموعتها المسماة (بروسيدنجس) حكاية مشاهداتها وكتبت كتاباً فى ذلك اسمه (أشباح الأحياء) فيه سرد مائتى حادثة ثابتة لا يشك فيها .

وقد نسب هذه الحوادث (ميبروجورنى وپودمور) مؤلفو هذا الكتاب إلى (التليباتيا) أى تأثير الروح الانسانية على انسان آخر عن بعد ، فالشبح الذى يظهر فى تلك الحالة يسمى خيال صادق . وهذا كما لا يخفى محاولة علمية الغرض منها تسرية القوانين الطبيعية المعروفة على المشاهدات الاسبريتية .

فاكتسب الاسبرتزم من هنا صبغة جديدة ، وقد رأينا عالماً من كبار العلماء مثل (لودج) الملقب بداروين علم الطبيعة يلح على الجمعية العلمية الانجليزى لترقية العلوم بضرورة التقدم للأمام والالتفات لهذه

المسائل الاسبريتية الآسرة الباهرة الجديرة بالدرس والفحص الواجبين.
ويمكننا أن ننوه من بين سائر الجرائد الانجليزية الكثيرة باسم مجلة (ذي ليت) التي يديرها المستر (اكسون) ومجلة (ذي مديوم نددبريك) لنمسك القلم هنا ولننظر فيما حصل في فرنسا .

الاسبرتزم فى فرنسا

تابع ماقبله من تعريب مقالة (ج . دولن)

صدى صوت المشاهدات الخارقة للعادة التي كانت تحصل في أمريكا أحدثت في فرنسا ميلا شديداً الى الوقوف على أمرها ولم يمض غير قليل حتى أصبح أمر سؤال المائدة منتشرا بين سائر الطبقات انتشاراً عجيباً . فكنت ترى (المودة الجديدة) في الصالات هي القاء الأسئلة التافهة جداً على الموائد المتحركة ، حتى صارت تلك المسألة تسلية في أوقات الفراغ ونشبت بالأذواق نشوباً جنونيا .

« مضت سنتا ١٨٥١ و ١٨٥٢ ولم ير أحد في مسألة الاسبرتزم الا العوبة ظريفة ولم يكن أحد ليسلك بها مسلك الجد والنظر العلمي ، ولما كان الناس يجهلون مابذل فيها العلماء من العناية فيما وراء المحيط الا تلانتيكي زهدوا في استعمالها وهجروها لأنها لم تكن بالنسبة للجماهير الا شيئا جديداً فقط .

« ومع ذلك فقد كان بعض المنشئين مثل (أوجين نو) و بعض

رجال المظاهر مثل الكونت (دوريس) والبارون (دو جولدنستوبيه) التفتوا الى أن المائدة فى أثناء حركتها انما تتحرك بعقل وروية فكتب الأخير كتابا سنة ١٨٥٧ سماه (صحة ظهور الأرواح) . وفى هذا الكتاب ترى التجارب الأولية التى أجريت فى بلادنا على الكتابة بدون واسطة .

«هذا المؤلف لم يحدث أثرا كبيرا فى عالم المطبوعات ، فقد قابلته الجرائد على عاداتها الممدوحة (تهكم) بالسخرية ببعض أولئك الرجال الذين ثبتوا فى فحص هذه المسائل المفيدة ، وركد ريح المسألة الاسبريتية بعد ذلك حتى ظهر (كتاب الأرواح) لمؤلفه الشهير (اللان كاردك) فاشتعلت الحرب العوان بين رجال الأقلام ورأى الناس أجمعون وهم فى غاية الدهشة والاستغراب أن ما كانوا يعتبرونه قبل قليل من الزمن العوبة مسلية قد انتج أكبر النتائج الفلسفية ، وأنه قد نشأ من تحرك المائدة البرهان المحسوس على خلود الجزء المفكر من الانسان ، وان النوع الانسانى بذلك أصبح امام علم جديد بمستقبل الروح بعد الموت .

« هذه المسائل الكبرى لا يمكن أن يقبلها جمهور الناس بدون جدال ونزاع فقابل الناس هذا المؤلف المجازف بصيحات مزعجة من كل مكان . وواجهته الجرائد والمجامع العلمية بالاعتراض والتبكيت ، ولكن من حسن حظ بلدنا (فرنسا) لم يحصل للاسبرتزم ماحصل له فى أمريكا من المشاهد الخشنة والمواقف القاسية .

« لم تكد تظهر مسألة الموائد المتحركة ثانية فى فرنسا حتى انقسم

أصحاب الفكر فيها الى قسمين : قسم حكم بأن تلك المسألة أكذوبة محضة من أصلها ، وأن حركة المائدة نتيجة التدليس والغش ، أو نتيجة حركة غير اختيارية ناشئة من المجربين . وهذا كان رأى جمعية العلوم و (رابينيه) و (شفرول) وسندرس بعد قليل ما يحتويه هذا الرأى من صلاح أوفساد . والقسم الثانى قرر بأن حركة المائدة و إجابتها على الأسئلة المختلفة نتيجة فعل مغناطيسى ذى تأثير خاص لايزال مجهولا . ومن القائلين بهذا الرأى (الكونت، أجينور دوجا سباران) الذى له الأبحاث الدقيقة فى هذا الشأن وصاحب كتاب : (الموائد المتحركة — ماوراء الطبيعة والأرواح)

« هذا التعليل الأخير قبله وجرى عليه عدد من الكتاب مثل (شفيار) أما الأستاذ (تورى) من جنيف فقد علل هذه الحوادث بعامل خاص بهاسماه (بسيكود) وهو سيال يخترق الأعصاب و كل المواد العضوية وغير العضوية مثله فى تلك الخاصية كمثل الأثير الذى اخترعه العلماء . وعللها المستر (روجرس) وهو كاتب أمريكى بأنها نتيجة الحركة الذاتية للمراكز العصبية الخ .

كل هذه الأبحاث وكل هذه المجادلات أوصلت المشتغلين بهذه المسألة للجزم بأن هذه التعليلات غير كافية وأنه يوجد عامل آخر فى حدوثها . فالتجئوا لقبول الرأى القائل بوجود القوة النفسية وإمكان تأثيرها على المادة فى شروط مخصوصة . ولكن هنا أيضا انقسم الناس الى جزءين : حزب الفلاسفة الروحيين ، وهؤلاء حكموا بأن تلك

الحوادث منشأها أرواح الموتى ؟ وحزب الكتاب الدينين ، وقد قرروا بأن تلك الحوادث لامصدر لها الاالقوة السفلية قوة الشيطان نفسه . ومن بين القائلين بهذا الرأى الأخير كان المركيز (أودد ومير فيل) الذى سرد فى كتابه (الأرواح وظهورها) عدداً عديداً من مشاهدات ونسبها لابليس . وقال بهذا الرأى عينه (الشفاليه جوجنو ديه موسو) وسمى الاسبرتزم السحر الحاضر ، وبرهن هو والقس (فنتورا)من الكتاب المقدس على أن ظهور الجنة للناس منصوصة فى الانجيل نفسه وذكرها كثيرون من قسوس الكنيسة . وهنايجمل بنا أن ننوه بكتب القس (بوسان دونيس) والقس (مارسوا) اللذين كانا يذهبان هذا المذهب

« كل هذه الاختلافات المذهبية بازاء هذه المسألة ليست بالأمر المستغرب ، فان التخالف والنزاع أمام مسألة مجهولة كمسألة الاسبرتزم وذهاب كل حزب فى تعليلها على مقتضى الأسلوب الفلسفى فى مذهبه أمر طبيعى ، ولكن لايخطر على فكر عاقل أن يتخيل تعليلا عجيباً مضحكا مثل التعليل الذى أتت به جمعية العلماء الفرنساوية بشأن تحرك الموائد فى جلستها المنعقدة فى سنة ١٨٥٩ . فقد اكتشفت جمعية العلوم الطبية وترا فى الفخد يتحرك بصوت مرتفع فى بعض الأحيان ونسبت اليه مايظنه الروحيون فى جلسات التحضير حوادث روحية آتية من العلم الآخر .

« وجد هذا التعليل الغريب (جوبير دولمبال) فلم يسع الجمعية

العلمية الاتحييذه والاطراءبه لوجدانه فى شحم ساق الاسان هـــذه الخاصية غير المنتظرة . ولـكن جمهور الناس لم يعلق أدنى أهمية على هذا التعليل التافه ، وليس علينا من حرج فى إشهار اسماء كثير من العظاء الذين قبلوا الاسبرتزم فى فرنسا قبولا تاماً .

« كتب (اوجست فا كرى) فى كتابه (فذلك من التاريخ) بلهجته الحادة الشجية التجارب التى جربها هو و (مدام جيراردان) فى بيت الشاعر الـكبير الفيلسوف (فيكتور هوجو) وسترى بعـد قليل حكاية تلك التجارب مكتوبة بقلم ذلك المنشىء الطائر الصيت الذى تؤثر عنه هذه الـكلمة الجميلة : « أنا أصدق بوجود الأرواح التى ظهرت فى أمريكا وأسمعت الناس قرعاتها لشهادة خمسة عشر ألفاً من الناس فى صحة ظهورها »

« أما أكبر شعرائنا العصريين (فيـكنور هوجو) فقد قال فى موضع آخر « لقد استهزأ الناس كثيرا بالموائد التى تحركها الأرواح ، ولـكن مما لاشبهة فيه ان هذا الاستهزاء لاطائل تحته . — فاننا نعرف أن من واجب العلم سبرغور كل الحوادث الطبيعية من أى نوع كانت . وارى أن تجريد الاسبرتزم من مزية استلفات الأنظار التى هو أهـل لها ، يعادل فى نظرنا تجريد الحقيقة من حقوقها . » انتهى كلام هوجو .

« المسيو (فيكتوريان ساردو) (١) قداعتقد بالاسبرتزم وصار

(١) فيكتوريان سارد وهدا من أشهر مشاهير كتاب الفرنساويين فى القرن العشرين

هو نفسه واسطة تستعمل الأرواح يده فى الرسم والتصوير على غير إرادة منه . وقد نشرت المجلة الروحية سلسلة رسوم جميلة رسمتها الأرواح بواسطته وهو مستسلم لها تمام الاستسلام ومعطل إرادته تمام التعطيل . وتلك الرسوم والتصاوير جاءت قطعا باهرة الصنع من حيث الرقة والاتقان الروحانى الحقيقى . »

« وقد كتب المؤرخ (اوجين بونمير) :

« لقد استهزأت بالاسبرتزم كما استهزأ به الناس أجمعون من قبلى ولكن الأمر الغريب أن الاستهزاء الذى كنت أعده استهزاء (فولتريا) لم يكن فى الحقيقة الا استهزاء المغفل الأبله ، وهذا الاستهزاء الأخير أكثر شيوعا بين الناس »

الحركة الاسبرتية اليوم هى أحيا وأنشط مما كانت عليه قبلا فى فرنسا . وقد تكونت فى باريس جمعية المباحث النفسية التى تكونت فى لوندره ، تدعى جمعية المباحث (البسيكيولوجية الفزيولوجية) أى النفسية التشريحية ، الغرض منها درس حوادث (التلبياتيا) أى ظهور الأشباح . وعينت هذه الجمعية لجنة منها لانتقاد الحوادث التى تقدم اليها من هذا القبيل . اليك أسماء أعضاء تلك اللجنة : »

(١) سللى برودوم (من الجمعية العلمية الفرنساوية) وهو رئيس اللجنة

(٢) ج باليه (أستاذ منتخب من جمعية العلوم الطبية)

(٣) بوميه (أستاذ فى الكلية الطبية بمدينة (ناسى)

(٤) شارل ريشيه (أستاذ بالكلية الطبية)
(٥) الكولونل دوروشاس (مدير المدرسة الهندسية الفرنساوية)
(٦) ماريلليه (أستاذ بمدرسة العلوم العالية) وهو كاتم سر اللجنة وللجمعية مجلة شهرية تسمى (أنال بسيشيك) يديرها الدكتور (داريكس) أسست لنقل مباحث تلك الجمعية ونشرها .

« تكون هذه الجمعية من هؤلاء الأعضاء بمثابة الاقرار عليها من جهة العلم الرسمي ، ولكن الاسبريتيون الفرنساويون لم ينتظروا هذه التشجيعات فكونوا من عهد بعيد لأنفسهم عددا عديدا من الجمعيات فى جميع أنحاء المملكة الفرنساوية »

« يوجد فى باريس عدد عظيم من جمعيات صغيرة يحضرون فيها الأرواح ، ولكن هناك جمعيتان عموميتان وهما (المجمع الروحى) نمرة ٥٥ بشارع (ساتودو) و(جمعية الاسبرتزم العلمى) نمرة ١٨٣ بشارع (سان دونيس) .

أما فى اقاليم فرنسا فنستطيع أن ننوه من بينها باسم (المجمع الاسبريتى الليونى) ولهذه الجمعية مجلة تدعى (السلم العام) و (المجمع الاسبريتى بريمس) و (المجمع الاسبريتى برون) تظهر أعماله كل ثلاثة أشهر منشورة فى مجلة (فكر الموتى) »

« أما مدائن (مارسيليا) و (افينيون) و (تولوز) و (بوردو) و (نانت) و (تور) و (لومان) و (اورليان) و (لى) و (بارلودوك و (نانسى) و (رين) و (بيزانسون) فلها مجتمعات مؤسسة على

قواعد ثابتة وبواسطتها يزيد عدد الروحيين وينمو يوماً بعد يوم أما أشهر المجلات الفرنساوية الأسبريتية فهى : »

(١) المجلة الروحية (٢) المجلة العلمية الأدبية للاسبرتزم (٣) الترقى الروحى (٤) النور (٥) الديانة بلا كنيسة (٦) مجلة أتباع سويدانبورغ (٧) منار نورماندى

« سبب انتشار هذه الحركة الروحية فى فرنسا هو المؤتمر الاسبريتى الذى التئم فى باريس سنة ١٨٨٩ . وقد كتب فى خلاصة ابحاث هذا المؤتمر أن عدد أعضائه بلغ أربعين ألف عضو (٤٠٠٠٠) وكان فيه مندوبون من كافة المجامع الاسبريتية .

« سنرى بعد قليل أن الحركة الروحية التى نشأت تحت سماء أمريكا لم تبلغ أوربا فقط بل تعدتها إلى سائر أرجاء المعمور . »

الاسبرتزم فى ألمانيا

« الدكتور (كيرنير) الذى هو أحد أراكين المعارف فى ألمانيا الحالية شاهد فى سنة ١٨٤٠ بعض حوادث روحية وهو يعالج (مدام هوف) التى تعرف (بعرافة بريفورست) وبريفورست هذه هى قرية من (ورتامبرج) التى ولدت فيها هذه المرأة فى أوائل هذا القرن . »

« يقول هذا الدكتور إن هذه المرأة كانت تشكو كثيراً من رؤيا

اشباح بحيث لا يمكن عدحالتها هذه فى عداد أحوال الخلل العقلى ، لأن من كان حاضراً معها كان يسمع بغاية الوضوح والصراحة قرعا يحدث على حواجز الغرف ، أويرى معها أن بعضاً من أثاثات البيت تنتقل أمامهم بدون فاعل منظور من مكان إلى مكان آخر . »

« أمالقب (عرافه) التى الصق الى اسمها فانى اليها من كونها كانت تنذر أهلها بالأخطار التى تكاد تنزل بهم ، وكانت الحوادث تصدق دائماً ماتنذرهم به تمام التصديق . »

« حوالى سنة ١٨٤٠ ظهرت أيضاً فى موتنجن (ورتامبرج) حوادث روحية ، ومن عهد هذا التاريخ أخذ الناس يشاهدون آناً بعد آن حوادث من هذا القبيل ، كظهور أشباح أو سماع أصوات ، أو مكالمات تدل بلاشك أنها آتية من عالم الأرواح . هذه المشاهدات على ما بها من الوضوح والبيان لم يكن لها أهمية حتى ظهرت تلك الحادث الاميريكية فأحدثت فى المانيا مثل تلك الحركة التى أحدثتها فى فرنسا وكونت لها تيارا خاصا من الأفكار العمومية . نحن لا يمكننا أن ندرس هذه المشاهدات بالتفصيل ، فلنكتف بسرد أسماء رجال العلم الذين اعتقدوا بها وأعلنوا أبحاثهم فيها »

« فى مقدمة أولئك الأسماء نضع الفلكى الشهير (زولنر) الأستاذ بكلية (ليبزيج) هذا العالم ألف كتاباً سماه (أوراق علمية) سرد فيه التجارب التى أجراها مع الواسطة (سلاد) وأقر بأنه واجه ذلك البحث وهو يائس من حقيقته غير مجوز امكان حصوله ولكنه أرغم على

الاعتقاد فى صدقه بالتجارب الصادقة والحوادث الغالبة . وسنرى فيما يلى من هذا الكتاب انه اكتشف على أمور جديدة فى الروحيات كامكان دخول المادة من خلال مادة أخرى بدون أن يستطيع الانسان أن يرى أثر انحلال المادة التى حصل فيها التداخل . كتداخل حلقة ممتلئة فى ساق مائدة بدون أن تشاهد أثرا من أى كسر كان »

« هذا الأستاذ من الذين يعتقدون أن هذه الأعمال منسوبة لتأثير أرواح الموتى على المادة ولأجل أن يعلل تأثيرهم هذا تخيل أن للمادة بعدا رابعا .

شهادة هذا العالم على التجارب الروحية مستندة بشهادة (ويبر) وهو الأستاذ التشريحى الكبير . والأستاذ (فيشنر) الذى أصبحت أبحاثه على القوانين الحساسية الانسانية عماداً يعتمد عليها فى العالم العلمى ، وبشهادة الأستاذ (اولتريسى) أيضاً »

هذه ثلة من رجال مشاهير وأساتذة أعاظم تثبت للناس علناً صحة هذه الخوارق »

« هنا يجب علينا أن ننبه على أمر جدير بالتنبيه عليه وهو أن هذه الحوادث الروحيه خاضعة من أول ظهورها لأسلوب البحث النقدى القاسى جداً وبأشكال مختلفة وبواسطة مجربين متنورين وغاية فى المهارة ، ومع ذلك فرغما عن أن هؤلاء المجربين من الذين لا يعتقدون بشىء فى مبدإ أمرهم فقد استحال أمرهم الى الاعتقاد بالاسبر تزم وصاروا حماة لبيضته ، وأنصاراً لحقائقه . أليس هذا أعظم البراهين على الاسبرتزم ،

حقيقة ثابتة فى ذاته وأن المشاهدات التى يرتكز عليها غير قابلة للنقض ؟ »

« أما مجلات المانيا ففى مقدمتها جرنال (الاسفنكس) ومجلة (بسيشيش ستوديان) »

الاسبرتزم فى أرجاء أوروبا

« يجدر بنا أن نضع فى مقدمة اسماء انصار الاسبرتزم فى الروسيا ، الأستاذ(بوتايرو)الذى كرروأعادتجارب الأستاذ(كروكس) الانجليزى بواسطة الواسطة (هوم) ونضيف اليه اسم المستشار (الكسندرا كزاكوف) وهو من العلماء الذين برعوا فى فحص مسألة تجسد الأرواح . وسيكون لنا مجال واسع لايراد ابحاثه التى تؤيد وتؤكد أبحاث الطبيعى الشهير الانجليزى (كروكس) بالنسبة لحقيقة تلك الأرواح المتجسدة »

« ولقد حدث فى الأيام الأخيرة مظاهرة كبرى فى صالح التجارب الروحية فان الأستاذ (اركول كيايا) من نابلى كرر بواسطة الواسطة الشهيرة (اوزابيا بلادينو) كل المشاهدات العالية للاسبرتزم مثل جلب الأشياء من أماكنها وتجسد الأرواح وارتفاع الأجسام الى مسافات فى الهواء الخ ونشر ابحاثه فانتقدها عليه العلامة البحاث فى الجرائم (لومبر وزو) »

فلم يسع الأستاذ كيايا أمام هذا الانتقاد الا أن أعاد تجاربه كلها أمام الأستاذ (لومبروزو) نفسه ليكون برهانه أشد افحاما له . ثم توالت جلسات تحضيرية كثيرة فى أواخر سنة ١٨٩١ كانت نتيجتها كما كانت فى أمريكا وانجلتره وفرنسا (اثبات حقية المشاهدات الروحية) ولقد استطاع الأستاذ (لومبروزو) أن يرى بالحس فى جملة مرار هو والأساتذة (تامبوريني) و (فيرجيليو) و (بيانكى) و (فيزيولى) ان مشاهدات الاسبرتزم حقة لاغبار عليها . ولكنه لايذهب فى تعليلها مذهب الروحيين بنسبتها الى أرواح الموتى ، بل عللها بتعليل آخر لا يفسر كل تلك الحوادث كما ستراه فى هذا الكتاب »

« لاشك أن لومبروزو متى تعمق فى هذه المسائل فى مدة توازى المدة التى درسها فيها الأساتذة (ولاس) و (كروكس) أو (فارلى) يلتجىء لتغيير فكره عليها . فان هؤلاء العلماء الأعلام الذين تقدموه كانوا فى مبدإ امرهم مثله يعتقدون حقية المشاهدات وصدقها ولكنهم لايعزونها للأرواح بل الى تأثير روح الواسطة ذاتها ، ولكنهم بعد شدة البحث والتحرى رجعوا فاعتقدوا نسبتها الى أرواح الموتى »

« فى مقدمة الصحافة الايطالية توجد مجلة (لوكس) وهى شهرية تنقل أبحاث المجمع العلمى الاسبريتى المغناطيسى فى روما . ومجلة (لاسفنج) يديرها المسيو (انجر) و (فيسيو سبيريتيستا) التى يديرها المسيو (فولبى) »

« أما فى هولانده فالمجلة التى تدافع عن الاسبرتزم هى (أوب

جريزن) وتنشر فى مدينة (لاهيه) »

« أما فى بلجيكا فالحركة الاسبريتية فى نشاط وحياة كتلك الحركة فى فرنسا . فان مدينتى (لييج) و (بروكسل) هما مركزان نشيطان لنشر المبادى الاسبريتية . ويوجد بها جمعيات مركزية تتركز فيها أعمال سائر الجمعيات الفرعية ، ولها مجلتان (لوميساجيه) و (لومو نيتور سبريت) تنقل وتنشر الابحاث والمشاهدات التى يتحصل عليها الباحثون . ويحدث فى بلجيكا خطب كثيرة فى صالح الاسبرتزم ، وتظهر كتب ورسائل توزع مجانا كان من نتائجها أن بلغت آثارها أحواض مناجم الفحم الحجرى وأصبح المعتقدون بها من العملة يعدون بالألوف »

« أما فى السويد (فللاسبرتزم) مجلة اسمها (مور جندو مرنجن) تنشر فى (كرستيانيا)

« أما فى اسبانيا فالحركة الاسبريتية أنشط فيها مما هى فى أى بلد من بلاد العالم وعدد الاسبريتين أكثر اذا نسبوا لعدد السكان مما هم عليه فى أى مملكة أخرى ففى كل مدينة من مدنها تجد جرائد ومجلات تابعة لجمعيات فى غاية النظام . من بين تلك المجلات الشهيرة (مجلة الأبحاث النفسية) فى برشلونه وعمرها الآن ٢٣ سنة . يديرها الآن (الفيكونت توريسولانو) وهو بحاث وعالم نزيه . ومجلة (الكريتيريو أسبيريتيستا) تطبع فى مدريد . ومجلة (لوز ديل بروفنير) فى ليريدا . ومجلة (رفيلاسيون) اليكانت الخ »

« أما فى (أستريا) فقد كان الاسبرتزم قبل بضع سنوات ليس له

أهمية فيها ، ولكن التجارب التى تمت على يد (الارشيدوق رودولف) مع (باستيان) وهو واسطة للتجسيد وجهت أنظار الناس أجمعين الى تلك الحوادث ، وان كان قد اكتشف فى اثناء تلك التجارب على شىء من الغش والتزوير ، أما الآن فان عدد الروحيين فى استريا قد ازداد زيادة عظمى ويمكننا أن نذكر من بين مجلاتها الاسبريتية مجلة (ريفورميدن يلاتير) التى تطبع فى بودابست أما فى (البورتغال) فيشخص المذهب الاسبريتى فيها مجلة (أوپسيزمو) التى تطبع فى (ليسبون)

الاسبرتزم فى العالم كله

« يمكننا أن نقول بلا أدنى خشية من التكذيب أن للاسبرتزم اليوم أنصاراً وأعضاداً فى كل صقع من أصقاع الكرة الأرضية . ولأجل أن لا نطيل الكلام فى هذا الموضوع لكيلا نخرج عن حد الاعتدال نكتفى بذكر الممالك التى يطبع فيها جرائد إسبريتية ، إذ لا يخفى أنه ان لولا وجود ناس يعتقدون وجود الأرواح ويصدقون بمذهبها لم تكن لتوجد تلك المجلات . فيمكن للطالع أن يدرك كنه خطارة الحركة الاسبريتية فى العالم بعدد المجلات التى تدافع عنها وأنشئت من أجلها منذ ٤٠ سنة(١) »

فى جمهورية (ارجنتين) يطبع فى عاصمتها (ريودوجانيرو مجلة

---

(١) إنا لن ننوه هنا إلا عن أشهر المجلات فى كل مملكة لأنه من المحال اعطاء جدول بأسماء سائر الجرائد التى تطبع فى العالم فانها كثيرة جداً . (المؤلف)

(لوروفورمادور) وفى مملكة (پارانا) يطبع ثلاث مجلات . فى (لوز) تطبع (أوريجنيرادور) و(ريفيستا اسبيريتستا) وفى مدينة (سان بولص دولواندا) تطبع مجلتا (ڤيردال) و (لوذ)

وفى مملكة (شيلى) يطبع فى مدينة (سانتياجو) مجلة (الپان ديل اسبريتو) وفى مملكة (بيرو) تطبع فى (ليما) مجلة (السول)

وفى جمهورية (سان سلفادور) تطبع مجلة (الاسبريتيزمو) فى مدينة (شالشوابا) . وفى مملكة (فينزويلا) تطبع مجلة (الاريفيسنا اسبريتيستا)

وفى مملكة (المكسيك) بطبع فى مدينة (مكسيكو) مجلة (لا ايللوستراسيون اسبيرتيا) وفى مدينة (سيزيولا) ومملكة (مازالتان) تطبع مجلة (ال پريكورسور)

وتطبع فى جزيرة (كوبا) أربع مجلات (لاالبورادا) فى كوبا ومجلة (لايوينانويفا) فى مدينة (پورتوريكو) ومجلة (لاريفيستا اسبريتيستا) فى مدينة (هافانا) ومجلة (لانويفااليانزا) فى مدينة (سينفويجوس)

وفى جزائر (كناريا) تطبع مجلة (لاكريداد) فى مدينة (سانتا كروذدوتنيرلف) وفى (استراليا) يطبع فى مدينة (مليورن) مجلة (ذى‌ها رينجراوف‌لايت) .

« لنضف إلى ذيل هذا الفصل أن جريدة (المجلة العلمية الأدبية للأسبرتزم) التى نديرها نحن لها مراسلون من رؤساء جمعيات إسبريتية

فى (كنادا)و(السويس)و(القاهرة)و(جزيرة موريس)و(بورينيو)

﴿ موجز ماسبق ﴾

«لقد تقرر مما سردناه آنفاً أن ملايين من الناس يعتقدون الآن فى صحة المذهب الروحى . وأن الحركة التى تولدت فى أمريكا قدسرت إلى سواها من الممالك بسرعة لم يعهد لها شبيه . وأنه ليوجد اليوم نحو من مائة وخمسين جريدة أو مجلة تنشر للجمهور أخبار هذه النظريات الجديدة وأن أعمال وتجارب العلماء الذين ذكرنا أسماءهم قد ترجمت إلى كل لغات العالم على سطح البسيطة ، وقد كانت نتائجها أن نشرت فى أرجاء العالم الأرضى هذا الخبر السار خبر خلود الجزء المفكر من الانسان وعدم فنائه بالموت »

« لقد أخفق مسعى العلم الرسمى ومجامع العلم فى تآمرها على الصمت المطلق بازاء هذه الحوادث ، فان الحقيقة أقوى من كل المؤامرات . ولقد تغلغلت هذه الحوادث فى الدنيا بأسرها واكتسبت أعضادا وأنصارا من كل قبيل ولاتزال تكتسب للآن . فلا الجرائد بسخريتها واستهزائها ، ولا الكهان بجلبتها وتذمرها ، ولا الماديون بتبكيتها وسبها لا يستطيعون صد هذه الدفعة الانسانية التى تدفع الانسان لاكتشاف معلومات حقة يؤكدها عقيدته فى حياته المستقبلة . »

« رغماً عن سوء نوايا العلماء الرسميين ، وامراء العلم الذين يهدم لهم الاسبرتزم نظرياتهم الظلمانية العدمية ، لايرد على فكر عاقل بأن هذه الحوادث الاسبريتية الخارقة للعادة ليس فيها ما يستلفت النظر أو

يوجه اليها العناية ، بل ان موضوعها الذى تبحث عنه هو من الخطارة والجلالة بحيث استلفت نظر الناس أجمعين فى جميع أدوار التاريخ الانسانى .

« لقد صيغت النظريات ، وبنيت المذاهب قديماً وحديثاً ولم تكسب نظرية خلود النفس الدليل القاطع ، أما الآن فقد فتح علينا بالوسيلة لدرس مسألة بقاء الروح بعد الموت درساً علمياً ؟ ولم نكن لنحصل على هذا الفتح لولا تداخل الأرواح فى شؤون هذا العالم ، وسترى أن الحوادث والمشاهدات التى يرتكز عليها المذهب الاسبريتى هى أوضح وأقوى الأدلة لاثبات خلود الروح الانسانية بعد الموت »

« قبل أن نختتم الكلام نقول من المستحيل أن تكون هذه الحوادث الاسبريتية نتيجة الغش والتزوير أو الضلال الفاحش »

(أولا) لأن هذه المشاهدات درسها و فحصها أعاظم رجال العلم (كما رأيت) وان هؤلاء الكيماويين والطبيعيين هم أجدر الناس وأولاهم بمعرفة سلامة الدليل أو فساده فيما يتعلق بسببية الحوادث

(ثانياً) لأن هذه المشاهدات قد روقبت مراراً عديدة جداً بواسطة مجربين ومراقبين مستقلين وكانوا لا يصدقون بشىء فى مبدإ أمرهم ، ولم يكن بينهم وبين المجربين أمثالهم أدنى علاقة من تعارف وقد جاءت نتيجة كل تلك الابحاث متشابهة متحدة فى كل بلد من بلاد العالم

(ثالثاً) لأن كل هذه الحوادث فى مظاهرها الرئيسية واحدة فى جميع بلاد العالم الأمر الذى يدل على أن سببها كلها واحد

(رابعاً) أخيرا أنا نعتقد أن مجموع كل هـذه الشهادات ومقامها وصحتها هى من الخطارة بحيث يستحيل دحضها مجانا بدون بحث دقيق » هذا ما سنحاوله فى هذا الـكتاب ، وذلك أننـا سنستعرض حوادث الأسبرتزم أمام القـارىء ، وسنوجه اليها مسبـار البحث والتمحيص من كل جهاتها ، وسنورد كل التعليلات التى عللت بها بغاية الحرية والصراحة ، ومع ذلك كله فأملنا وطيد فى أن القارىء سيرى أن التعليل الروحانى هو التعليل الشافى لرسيس الصدر الناقع لغلة النفس ، المفسر لـكل تلك العجائب الخارقة للعادة . »

نقول : هذه مقالة طويلة الذيول افتتح بها الـكاتب الاسبريتى الطائر الصيت (جبريل دولن) كتابه المسمى (الحادثة الاسبريتية) الذى طبع خمس مرات لغاية سنة ١٨٩٧ ، وغرضنا من نقل هذه المقالة اقامة الأدلة الساطعة على أن قادة الاسبرتزم اليوم هم قادة العلوم العصرية فى أوربا ، وان من الجسارة التى لاتخطر بالبال أن يتهم هؤلاء الرجال العظـام الذين لهم أكبر الآثار فى نهضة النوع الانسانى ، بالجنون والهوس وعدم الروية والطيش ، ولئن صح ذلك على فرد أو فردين أو عشرين فرداً فى بلد أو بلدين أو عشرين بلداً وراجت خزعبلاتهم على عقل أو عقلين أو ألفى عقل وضرب على وترهم مجلة أو مجلتـان أو عشرون مجلة مثلا فكيف يعقل أن يبلغ عدد أولئك العلماء الألوف المؤلفة فى جميع انحاء الـكرة الأرضية كما أريناك ذلك فى هـــذه المقالة ، وكيف تروج خزعبلاتهم على نحو العشرين

مليونا من الرجال ما بين سياسيين وكتاب ومحامين وأطباء ومهندسين ومنهم غلادستون الانجليزى وبالفور رئيس وزارة الانجليز الحالية وغيرهم من أهل الفطن والذكاء، واذا أمكن أن يدعى الانسان (وهو لم يقرأ فى ذلك الموضوع كتابا ولم يجرب فيها تجربة بسيطة) ان ضلة من الضلات تنطلى على كل هـــذه العقول القوية ، وتلين من تلك الشكائم الحديدية ، وترغم هاتيك المعاطس العتية ، فلا يبعد أن يدعى أنه لا عاقل فى الوجود غيره وكفى بهذا الادعاء مسقطاً لقوله

نحن نقول على رءوس الأشهاد اننا لا نعتقد بان الذى يظهر فى أوروبا فى جلسات التحضير من الأشباح المتجسدة وغيرها أرواح الموتى كما يقوله السواد الأعظم من الروحيين ، ولكننا نعتقد تمام الاعتقاد بظهور تلك الأشباح وبأنها حقيقة لا يمكن انكارها لتوالى الشهادات على صحتها من كل بلد ومن كل عقل وبكل لغة ، ونظن انه لا يليق الاستهانة بشهادة العلماء فى مثل هذا القرن على صحة وجود شىء يقولون انهم رأوه ولمسوه بأيديهم وشاهدوه على اشكال متعددة . وعقيدتنا فى وجود ذلك الشىء وحقيته لا تقضى علينا بالتسليم بكونه روح الميت ، فلا يبعد أن يكون من عالم غير عالم الانسان والعوالم لا يحصيها الا خالقها ومبدعها .

هذه الأشباح التى تظهر لعلماء أورباوما يسبقها ويليها من المشاهدات الخارقة لكل نواميس الطبيعة تثبت بطريقة لا تقبل التأويل ان الانسان عاجز عن الالمام بجميع المعلومات ، وانه فى وسط بحر كله مساتير وعجائب ، وان

العالم الحسى ليس هو وحده كل ما فى هذا الكون البديع ، بل وراءه عالم أبدع وأعظم ، مأهول بأرواح تسبح فيه سبحاً ولها فيه شؤون خاصة لانحلم بها ولا نتخيلها .

لهذا ترى الماديين فى كل أمة وفى كل بلد يعارضون هذه الحقائق ويسعون فى هدمها ، لأنها تقصدهم مباشرة وتحط من كرامة مذاهبهم الظلمانية المؤيسة . ذلك لأنهم قالوا لا موجود الا المحسوس وليس وراء ماتدركه مشاعرنا مرمى ، فجاء الاسبرتزم يريهم قصور مداركهم وضلال أفكارهم ، ويفتح لهم عالما لايحيط به الفكر القوى ، ولا التصور البشرى .

وقالوا ان الانسان حيوان من الحيوانات وانما هو أرقى منها رتبة فى سلم الوجود وانه عبارة عن جسم مادى ليس غير ، وان روحه هذه ليست الا خاصة ذلك التركيب المتناسب الأجزاء المتناسق الأعضاء ، فجاء الاسبرتزم ينعى عليهم ضيق تصورهم ، وحرج صدورهم وسوء نظرهم ويريهم ان الانسان ليس بمادة مجردة وانما تلك المادة فيه غلاف لسر مكنون وجوهر هى الروح التى تحركه ، وان هذه الروح من عالم عال كله جمال وجلال ، وضياء ولألأ الخ الخ

لهذا غرى الماديون بمقارعة الاسبرتزم هذا بكل حيلة وبكل سلاح ولاندرى ماحظهم من ذلك ؟ وأى شىء ينالهم لو أثبتوا للعالم أن الانسان حيوان وأنه متى مات تحلل جسمه وفنى وذهب كالهباء فى الغبراء ، وإن العالم محدود على مايدركه الحس وان الاجمال فيه

الا ماتدركه المشاعر ؟ ماذا ينالهم من بث هذه التعاليم وأى فائدة منها للنوع الانسانى ، وهى طاعونه الفتاك وميكروب سرطانه المستأصل ، وجرثومة بلائه المجتاح ،

لقد أضرت العلوم المادية بالعالم الأوروبى ضررا بليغاً وأصبح الالحاد فى طبقات العامة جرحا دامياً فى فؤاد هذه المدنية المادية وبثرة غصنه فى وجهها الوضاح ، ولقد كادت تلك القرحة الفؤادية تهوى بحياة تلك الأمم الغربية وتنزل بها أسفل سافلين لولا أن أرسل الله اليهم هذا البصيص من النور وما فى الغيب أكثر فقاموا سراعا ، واحتفوا حوله يتزاحمون بالمناكب شوقا الى النور ولهفا على الخلاص فنالوا منه مانالوا ، وهاهم لليوم شخوص اليه ينتظرون مايأتى به الغد من آثار الرحمة الالهية ، وقد نقلنا عنهم فى ذلك أشياء كثيرة وسننقل إن شاء الله أكثر مما مر ، فلماذا لاننوه بتلك الحركة للعالم الشرقى الذى بلى فى هذه الأيام بمتابعة الغربى فى كل شأن من الشؤون ، ليطلع فيرى أن زمن الالحاد وقد فات وأن أوروبا وإن لم تتوصل الى إثبات وجود الروح بطريق الحس فقد توصلت الى إثبات وجود عالم وراء هذا العالم وان الانسان ليس بمادة محضة وكفى بهاتين العقيدتين مريحين للضمائر ، ومهدئين لجيشات السرائر .

نحن نتابع البحث فى تلك الحركة الأوروبية لنثبت للناس أجمعين معنى قوله تعالى : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز » كيف لا وقد قام علماء أوربا فى القرون الأخيرة بواسطة العلم الطبيعى

مقاوم الجبابرة العتاة واتخذوا الفوائد المادية التى تنتج من أبحاثهم فى عالم الصنائع والفنون أسلحة لهدم تعاليم الأديان ، وآلات لتيئيس الانسان من حياة بعدهذه الحياة ، فكتبوا وخطبوا وأرغوا وأزبدوا ، وهدموا وبنوا ، وهزءوا وسخروا ، وتظاهروا بالعتو والجبروت كأنهم أصبحوا قادرين عليها . فبينماهم كذلك واذا بهذه الآية المدهشة فاسقط فى أيديهم وكتب كثيرا منهم مقرا بذنبه فى كتبه كما نقلنا عنهم ذلك ، فنحن نورد عنهم أخبار خضوعهم للاسبرتزم اظهارا لقهر الله على العاتين ، وارغاما لمعاطس المعاندين المقلدين من الشرقيين ، والله مع الصابرين ، وهو ولى المؤمنين .

تاريخ استحضار الأرواح

(حادثة من مس الجن فى صيدا)

خوارق العادات على يد غير المسلم

كتب لنا حضرة الوجيه حسن أفندى نحولى من (صيدا) بسوريا خطابا نلخصه لحضرات القراء ثم نجيب عليه إن شاء الله . قال حضرته :

عثرت فى اثناء اشتغالى ببعض كتب الجدل الدينى على قصة صموئيل الأول تشبه مسألة استحضار الأرواح ، نأتى عليها ادلالا على أن مسألة استحضار الأرواح معروفة قديماً لدى الأمم . وفحوى

تلك القصة أنه اجتمع على شاول ملك بنى اسرائيل الفلسطينيون فجزع واشتد خوفه ولم يكن معه نبى من الأنبياء ليسأله عما يجب عليه عمله كما كانت عوائدهم فى الأمور الجسام ، فلما أعيته الحيل أخذ يسأله عن السحرة والعرافين فدله بعضهم على (عرافة) يقال لها (عين دور) فذهب اليها متنكرا لأنه كان مشهورا بمطاردة أصحاب هذه الصناعة ، فلما انتهى اليها هو وخادمان معه سألها أن تجيبه عن مطلوبه فامتنعت خوفاً من الملك ، فلم يزل بها حتى أقنعها بأن تصعد له روح صموئيل فجاءت بهاله فأخذ شاول يكلمها وهى تجيبه عن كل ماسألها عنه . وهذه القصة موجودة فى (سفر صموئيل الأول — الأصحاح الثامن والعشرون من أوله الى آخره) ويظهر منها أن مسألة استحضار الأرواح كانت معروفة قبل التاريخ المسيحى بقرون عديدة . فلعل القائلين بأن مسألة استحضار الأرواح شعوذة ذهبوا هذا المذهب لاستبعادهم استحضار أرواح الأنبياء . واذا كانت مسألة استحضار الأرواح معلومة كما قررنا من منذ ألفى سنة فكيف يدعى علماء أوروبا أن تاريخها يبتدىء من سنة ١٨٤٦ كما قررتم ذلك فى مجلة الحياة ؟ فنرجوكم اجابتنا عما اذا كان من الممكن استحضار أرواح الأنبياء الكرام صلوات الله عليهم والأصفياء والأولياء رضوان الله عليهم أيضاً ، وماقول الروحيين فى ذلك مع علمنا بأن هذا لدينا ممتنع شرعا

ثم قال حضرته أيضاً ماملخصه :

وقعت بصيدا حادثة بحضور بعض من أثق بهن من السيدات

أثناء زيارتهن لبعض العائلات ان ابنة لصواحبات البيت دخلت فى دور عصبى شديد اصفر لها لونها وانتفخت أوداجها ثم انصرعت الى الأرض ثم تكلم من فمها متكلم قائلا بلغة يهود صيداً (مسيكم بالخير) فرد عليه بعض النسوة لاعتيادهم على رؤية تلك الحالة فى تلك الفتاة، واعتقادهن بأن ذلك جنى يهودى اعتاد أن يتقمص بجسمها فى بعض الأحيان ، فاحتطن به وأخذن يلقين عليه بعض الأسئلة وهو يجيبهن عنها ، حتى سأله من حدثتنى ذلك الحديث عن بعض أقربائهن فى الاستانة العلية فأجاب عن كل مسألة بما يقتضيه المقام طوراً بالسلب وآخر بالايجاب . ولما اخبرت بتلك الحادثة نسبتها للأمراض العصبية ورميتهم بسهولة الاعتقاد بدون توقف رغماً عن تحقق من وقوع بعض ماأخبر به تماماً مع شدة انكارى لتلك المسألة وعددتها فى عداد الأقاصيص.

ثم حدث بعد ذلك ان اجتمع أولئك النسوة من أقارب المصابة وصرن يتلون عليها ورد أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه المتضمن كثيراً من صيغ الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم . عند ذاك اضطربت المريضة اضطراباً شديداً وصرخ الجنى مستغيثاً ليسكتوا عن التلاوة متوعدا اياهم باضرارها لو أصروا عليها . فلم يصغوا التهديده بل مضوا فى التلاوة فلم تمض برهة حتى هدأ اضطرابها وذهب الجنى ولم يعد ، وأخذت تلك الفتاة تقوى شيئاً فشيئاً حتى استردت صحتها الأولى .

هذا ماحصل على مرآى ومسمع من أثق بهن من السيدات فهل يستطيع الجن على التقمص بأرواح الناس مع وجود الروح . وهل صدق الجنى فى أخباره بالمغيبات تعد من سلطة الروح على الجسم؟ هل جميع ماتقدم من الرحانيات وما ينسب للقوة المغناطيسية وسلطة الروح على الجسم يستوى فى احداثها المسلم وغيره ممن ليسوا على دين حق . وهل يوجد فى مصر كم حوادث من هذا القبيل نرجوكم الجواب ولكم الشكر .

تاريخ مذهب استحضار الارواح [1]

آتينا فى بعض كتاباتنا على موجز من تاريخ فن الاسبرتزم فى أمريكا وأوروبا وقلنا إنه حدثت أول حادثة منه فى أمريكا سنة ١٨٤٧ وسرت منها الى أوروبا بعد ذلك التاريخ فأوهم ذاك بعض حضرات قرائنا ان ذالك التاريخ هو مبدأ ظهوره فى العالم ونتج من ذلك ان فاضلا من أولئك الأفاضل جاء يسألنا بكتاب عن رأينا فيما رآه مكتوبا فى سفر صموائيل من قصة الملك شاول مع العرافة (عين دور) قال ان تلك القصة تدل على أن فن استحضار الأرواح كان معروفاً عند الأقدمين ، فكيف يتفق ذلك مع ماقلناه من أنه ابتدأ فى أمريكا سنة ١٨٤٧ ؟

---

(١) هذه المقالة جواب سؤال حضرة الوجيه المحترم حسن أفندى محولى من صيدا وقد رأى حضرات قرائنا السؤال فى الجزء العاشر المقدم .

نقول ان ذلك التاريخ هو تاريخ ظهوره فى العالم الغربى ولم يكن معروفاً قبلها بتلك الصفة التى هو عليها الآن . نعم كان يوجد فى أطراف البلاد أفراد من الرجال والنساء لهم علم بذلك الموضوع وقدم فى مجالاته ولكنهم كانوا مجهولين لدى السواد الأعظم من الناس وكانوا يتحرون أن يبقوا كذلك طول حياتهم لأن الأحزاب الدينية فى تلك العصور كانت فى غاية حماستها ، ومعمعان قساوتها وصرامتها ، فكانت اذا شامت فى شخص بارقة من تلك البوارق التى تتخيل وراءها ضرراً على مركزها أسرعت اليه بالقبض عليه وزجته فى أعماق السجون وتحقيق جنايته تحقيقاً ناقصاً كله تحامل وصرامة ، ثم ينتهى الأمر بالحكم عليه بالحرق بالنار حياً ؛ كما حصل لمئات الألوف من الناس .

لاجرم أن كل من كانت لديه أثارة من علم ماوراء الطبيعة كان يبالغ فى كتمانها ، ويغرق فى إنكاره خشية من الهلاك على أقبح صورة .

هذا كان شأن أوروبا قبل هذه القرون الأخيرة التى تمت فيها الغلبة لرجال العلم على رجال المذاهب الاعتقادية ، ودخل بذلك النوع الانسانى فى دور التنور والبحث بعد تلك العماية الحماسية ، والغيابة التعصبية . ولا غرو بعد هذا ان ظهر تحت ذلك الجو الصاحى مذهب استحضار الأرواح وأصبح له من الاشياع الملايين الكثيرة ، فلا شىء هناك اليوم يمنع بحث الباحثين ، ولا أثر لتعصبات المتعصبين ، وسيرى النوع الانسانى من وراء هذه المسألة ان شاء الله العجب العجاب فى تصم ظهور الملحدين ، وقصم عرى خزعبلات الماديين والله غالب

على أمره ، ولا معقب لحكمه .

لكن قرب عهد ظهور فن استحضار الأرواح فى أوروبا لا يدل على عدم وجوده فى العالم الشرقى قبل تلك المدة بمدد طويلة بل بألوف من السنين .

نعم ان مسألة خلود النفس بعد الموت ، وبروزها فى عالم غير هذا العالم لتحيا فيه حياة أبدية كاملة عقيدة شائعة بين جميع أصناف النوع الانسانى كله شرقاً وغرباً . ومن العجيب أن مسألة استحضار الأرواح ومكالمتهم كانت ولم تزل ملازمة لهذه العقيدة فى بلاد الشرق كله ، وقد أصبح الغرب شريكه فى ذلك أيضاً فى هذا العصر . وإنما هناك فارق جسيم بين مظهرى هذه المسألة المدهشة لدى الأمم الغربية والشرقية فانها لدى الأمم الشرقية قديماً كانت وقفاً على رؤساء الدين ، ومستورة على غيرهم من الناس ، ولم يكن قصد أولئك الرؤساء من ذلك الحجر الكسب المادى أو ابقاء الناس فى ظلمات العماية عما سينالهم بعد الموت ، وإنما كان ذلك منهم لحفظ مراكزهم العالية ، وصبغتهم الدينية محفوظة من الازدراء والابتذال ليستطيعوا أن يقودوا العامة بزمام الطاعة والانقياد

هذا ماينتج من أول وهلة لمن يعتنى بدرس أساطير الأمم الماضية ، فلا يكاد يرى أمة منها إلا وفيها طائفة من الناس جعلوا ديدنهم هذه الوساطة بين عالم الأحياء وعالم الأموات وكان لهم بذلك فى نظر عامة الأمم شأن لا يقاس به غيره من سائر الشؤون العادية .

أقدم الكتب المقدسة الدينية التى تعرف الآن هى (الفيدا) كتب الهنود التى وجدت قبل ميلاد عيسى عليه السلام بعدة آلاف

من السنين. ذكرت فيهامسألة استحضار الأرواح بنص صريح لا يلتبس على أحد فى مغزاه . فقد قال المشرع الهندى الكبير (مانو) فى تلك الكتب بالحرف الواحد مامعناه :

« ان أرواح آبائنا الأقدمين يصحبون على حالة لاتراها أعين »
« الناس بعض البراهمة الذين يدعون (للاحتفال بعيد الأموات وأن »
« هذه الأرواح لتتبعهم أينما ذهبوا وهم على حالة هوائية وتجلس بجانبهم »
إذا جلسوا . »

وقال مؤلف هندى آخر وهو من الأقدمين أيضاً : « ان الأرواح
« التى لم تأت من الأعمال إلا الخير والبر مثل أرواح العباد الأطهار »
« والزهاد الأخيار تكتسب خاصية مكالمة الأرواح التى سبقتها »
« إلى العالم الآخر . وهذا دليل لتلك الأرواح على أن دورهم فى التناسخ »
« قد تم وانقضى . »

اعتاد كهنة الأديان الهندية على اعداد أشخاص يسمونهم (فاكير) ليستحضروا بواسطتهم أرواح الموتى ، ويحدثون بهم أكبر المشاهدات فى التنويم المغناطيسى .

نقل (لويز جاكيو) فى كتابه (الاسبرتزم فى العالم كله) نظرية الهنود على الأرواح السابحة فى الفضاء بعد موت أجسادها . وينتج من مطالعة ابحاث ذلك المؤلف ان أسرار مسألة استحضار الأرواح ماكانت تودع الا لمن يقضى أربعين سنة فى بيوت الدين تحت النظامات الشديدة والاختبارات الدقيقة .

تلك الأسرار كانت موزعة على ثلاث فرق من أولئك الرجال كما يأتى :

(الفرقة الاولى) كلهم من البراهمة أصحاب العبادات العامية ، وكهنة الهياكل المكلفين بقيادة العامة . وتعليم هذه الفرقة قاصر على شرح الثلاث كتب الاولى (للفيدا) ، وكيفية رئاسة الطقوس الدينية، وأداء القرابين . وبراهمة هذه الفرقة يخالطون الامة ويعاشرونها ، فهم قادتهم الأقربون ، ورؤساؤهم الأدنون

(الفرقة الثانية) تحتوى على طردة الشياطين من الاجسام ، والعرافين للمستقبل وأصحاب النبوات ، ومستحضرى الأرواح ؟ وهؤلاء عليهم في بعض الظروف الحرجة أن يؤثروا على أذهان العامة باحداث بعض خوارق الطبيعة . ويسمح لهم بقراءة وشرح (الاتارفا فيدا) وهو مجموعة رقيات سحريه

(الفرقة الثالثة) من البراهمة ليس لهم اختلاط ما بهذا العالم الانسانى ، وليس لهم من شغل فى هذه الحياة الا درس قوى هذا العالم المادى كله ، وإذا ظهروا للناس فلا يكون ذلك إلا لأمر جلل ، وخطب فادح ، ولا يتراءون لهم الا عن بعد .

أما فى بلاد الصين فلا نعلم بالضبط تاريخ فن استحضار الأرواح . والذى ينتج من الاطلاع على حالهم فى تلك المسألة بتحقق أنها قديمه لديهم جداً .

نقل القس الداعى المدير هناك (هوك) أن الصينيين مولعين بمسائل

الأرواح واستحضارها وسرد عنهم جملة تجارب فى ذلك الشأن لم تزل مستعملة لديهم فى كل صقع من أصقاع بلادهم الشاسعة الأكناف ، وفى كل طبقة من طبقات هيئتهم الاجتماعية .

وقد امتدت هذه المسألة فى جميع ممالك آسيا على طول الزمن وبواسطة هجرة بعض الهنديين للاستعمار فى بعض البلاد الأجنبية ، حتى وصلت الى مصر والى العبرانيين كما ثبت ذلك من استقراء أساطير كل من هاتين الأمتين القديمتين .

اتحد المؤرخون جميعهم على أنه كان لدى المصريين الأقدمين اعتقاد فى كثير من المسائل التى تعلو عن هذه الطبيعة المحسوسة كأعمال السحر والطلاسم وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة وقد ذكر كثير منها فى التوراة ، وثبت أيضا أنهم كانوا يعرفون مسألة استحضار الأرواح ومكالمتها فى الشؤون الهامة ، ووجه ثبوت ذلك آت من نهى موسى عليه السلام لقومه فى التوراة عن عمل السحر وعن تحضير الأرواح وسؤالها عن المستقبل . وقد علم قراؤنا مما أورده حضرة الوجيه الذى عرض علينا هذا السؤال أن الملك شاول ذهب الى (عين دور) العرافه واستحضر بواسطتها روح صموائيل وفى هذا دليل قاطع على أن بنى إسرائيل كانوا يعرفون مسألة استحضار الأرواح

لم يقف بعض الناس عند الحد الذى رسمه موسى عليه السلام لقومه من النهى عن تحضير الأرواح بل نألبت بعض النفوس الشيقة

إلى الاشراف على عجائب عالم ماوراء الطبيعة فألفوا فيما بينهم حزبا سريا ومذهباً خصوصياً سموه (كبال) ولكن ماكانوا يبثونه لأحد حتى يأخذون عليه المواثيق والأقسام بأن لا يذيعه ولو لحقه مالحقه من الاضرار

وقد جاء فى التلمود وهو من كتب اليهود مامعناه : ان الذى يحفظ هذا السر سر استحضار الارواح فى فؤاد نقى طاهر له من الله الكرامة وحسن الزلفى ولدى الناس الفضيلة وحسن السمعة ، ويكون اسمه مقرونا بالاجلال وعلمه غير قابل للزوال ، ويرث بعد ذلك الحياتين وينال السعادتين فى هذه الدار وما بعدها

أما فى بلاد اليونانيين فكانت مسألة استحضار أرواح الموتى معروفة وشائعة جدا . فقد كان فى كل هيكل من هياكلهم نساء يقال لهم (العرافات) أى اللاتى يعرفن المستقبل ، مكلفات بمكالمة أرواح الآلهة ، وكثيرا ماكان يود المستحضر أن يكلم الروح بنفسه فكان يجاب طلبه ويكلم الروح المطلوبة بنفسه .

وقد ذكر الشاعر الكبير اليونانى هومير الذى عاش قبل الميلاد العيسوى بأكثر من ستة قرون قصة استحضار البطل اليونانى الشهير (اوليس) روح (تيريزياس) العراف الشهير ، ومكالمته له ، وقد وصف هذا الشاعر المطبوع الصفة التى حضرها والاحتفال الذى جرى لذلك وصفاً دقيقاً . وليست هذه الحادثة منفردة فى بابها فقدكان من الشائع المعروف لدى اليونانيين أجمعين ان من يريد استحضار روح أحد

أقربائه أو ذوى خاصته أمكنه ذلك بغاية السهولة بواسطة الأشخاص المتمرنين على الاستحضار .

وقد نقل عن (أبوللونيوس دوتيان) الفيلسوف الفيثاغورى المشهور انه كان يعتقد كل الاعتقاد بوجود الأرواح وبامكان تحضيرها والمكالمة معها ، وكان يعمل من الخوارق للطبيعة مايدهش الألباب ويحير المدارك ، وكان له اطلاع واسع فى أمور ماوراء المادة

أما عند الرومانيين فقد كانت مسألة استحضار الأرواح معروفة أيضاً ومنتشرة جداً وكان المكلف باستحضارها نساء يسمونهن (سيبيل) . كان قواد الرومانيين يقصدونهن ويسألونهن عن مستقبل الأمور العامة ، وكان رجال الحل والعقد لايبرمون أمراً ولا يشهرون حرباً ، أو يعقدون سلما الا بعد استشارة الأرواح بواسطة هاتيك النسوة

أما لدينا معشر أهل الاسلام فمسألة ظهور الأرواح للاحياء من الأمور الشائعة للصالحين والمقربين ، وأظن أنه لايوجد واحد من المسلمين لم يقرأ فى كتاب أو لم يسمع من قارىء ان روح فلان الصالح ظهرت لفلان التقى وحصل بينهما كيت وكيت من المحادثات والمحاضرات . بل كثيرا ماتروى العامة فى أساطيرها أمورا تدل على معرفتها بمسألة ظهور الأرواح للناس مثل روايتهم عن بعضهم ان فلانا تاه فى الصحراء وألمت به الحيرة من كل جانب ولما أوشك ان يقع فى اليأس اذا برجل مرتد بثياب بيضاء ، وعليه جمال وبهاء جاء اليه فدله على الطريق ، وأزال عنه بوائق التعويق ، ثم يعقب قوله هذا بأن ذلك الشخص

لاشك فى أنه روح التق فلان الخ الخ من أمثال هذه الحكايات التى تعوز النظر ولا يليق بنا أنكارها على عجل .

مسألة مس الجن

يجمل بنا للأجابة على هذا السؤال ان ننقل ما كتبناه فى (الحياة) يبعض تصرف ففيه الكفاية . وهو :

ان فكرة استيلاء الجن على جسم الانسان والتأثير عليه بالمرض والاذى شائعة من مبدا الخليقة فقد كان الناس عموماً ينسبون الأمراض أياً كانت الى الأرواح الشريرة وكان لهم فى ذلك طرائق عجيبة وأعمال غريبة لم تزل للآن منتشرة فى كل البلاد المتوحشه . وقد كانت هذه الفكرة آخذة فى التناقص شيئا فشيئا حتى كادت أن تنتهى الى الصفر خصوصاً فى العالم العلمى ولكنها قد حييت الآن حياة قوية وصار يستطيع المنتصر لها ان يقيم على صدق قوله ألف دليل محسوس وسبحان مغير الشؤون . روت المجلة الروحية فى هـــذا الشهر (قبل ثلاث سنوات تقريباً) عن جريدة (نيويورك ميل اندا كسبرس) ان الاستاذين الشهيرين (ريشارهودسن)و(جمس هيزلوب) اللذين درسا الاسبرتزم بواسطة (مدام پيپر) مدة ١٢ سنة قد نشرا نتيجة ابحاثهما فى كتاب جاء فيه هذه العبارة : « ان عدداً عديداً من المجانين الذين يحبسون

فى البيمارستانات ليسوا مصابين بأمراض عقلية بل مملوكين لأرواح قداستولت عليهم واستخدمتهم . »

هذاما ينادي به استاذان عظيمان بعدأن عدت هذه من دلائل التوحش والهمجية وفى أوربا وأمريكا ألوف من العلماء لا يداخلهم الشك فى هـــذه النظرية . فلننظر كيف حصل لهم البرهان عليها فنقول : انَّ حل مسألة استيلاء الجن على جسم الانسان تتبع حل مسألتين وهما :هل فى الطبيعة قوةعاقلة مجردةعن المادة ؟ وهل لهذه القوة سلطان على المادة وعلى الجسم الانسانى ؟. أما المسألة الاولى فمحمولة ومثبتة بأدلة حسية لاتدخل تحت حصر فان كل تجارب الروحيين تثبتها . وقد وقف الاستاذالشهير (وليم كروكس) أمام مئين من أعضاءالجمعية الملوكية الانجليزية حيث فوض اليه رئاستها فى سنة ١٨٩٧ وفاه بخطبة مهمة جاء فيها هذه الجملة : « وليس فى تاريخى العلمى ماهو أشهر من اشتغالى بالمباحث النفسية فانى نشرت منذ ثلاثين سنة وصف تجارب جربتها من مقتضاها ان وراء ماندركـه علمياً قوة يتولاها عقل غير عقل الانسان العادى. »(روت هذه الخطبة أكثر جرائد العلم وهذه الجملة ترجمة المقتطف .)

بقى علينا أن نسأل هل لهذه القوة تأثير على المـادة وعلى الجسم الانسانى ؟ أما تأثيرها على جسم الانسان فمما لايصح التردد فيه لأن حالة الوسطاء الذين يستعملهم علماء الروح فى الاستحضار يثبت ذلك إثباتاً محسوسا . فانا نرى الواسطة يدخل فى دور تشنج هائل وربمـا

لطم صدغه وخمش وجهه ثم تتخشب أعضاؤه ويصير فى حالة مؤلمة . فتارة تستولى الروح على يده فيكتب مالا يراه ولا يعلمه وتارة تستولى على لسانه فيتكلم فى شؤون لم تمر على مخيلته . لاشك أن كل هذا يكفى للدلالة على سلطة تلك القوة على جسم الانسان فى بعض الأحوال ولدينا أدلة محسوسة على هذه القضية نستنتجها مما تحدثه الأرواح عند تجسمها (عذرا على هذا التعبير) من الآثار السيئة على جسم الواسطة . روى الاستاذ (اكزاكوف) الروسى فى كتابه (المذهب الحيوى والاسبرتزم) أنه شاهد هو وعدة دكاترة معه أن الجزء الأسفل من جسم الواسطة وهى (مدام ديسبرنس) قد تلاشى بالمرة بينما كانت الروح قد تجسمت من نصفها الأعلى . قال وقد فحصنا ذلك باللمس والنظر فلم نزدد الا اقتناعا ولما ذهبت الروح عاد ثانياً . أما فى سائر أحوال التجسيم فان وزن جسم الوسيط يستحيل الى النصف ولاشك أن نقصان وزن الجسم أو تلاشى قطعة منه يدل على أن تلك القوة تستطيع أن تؤثر على الانسان آثارا سيئة . ومن أحسن الشواهد وأغربها على امكان استيلاء تلك القوة على الجسم مارواه الدكتور الالمانى (سيرياكس) عن نفسه كما رواه عنه الكاتب الشهير (جبريل دولن) فى كتابه (الظاهرة الروحية) . هذا الدكتور كان مراده درس الاسبرتزم بنفسه بدون واسطة ليكون اقتناعه ذاتياً ، وذلك لشدة تشككه وجلس لتلك الغاية هو وامرأته وبعض اخوانه ١٩ مجلساً فى غاية الخشوع ينتظر روحا تطرق المائدة أو تظهر بأثر آخر كما يحصل

بحضور الواسطة فلم ير شيئا ولكن لم تخر عزيمته . قال: « فى الجلسة العشرين شعرت باحساس خاص من برودة وحرارة متعاقبتين . ثم أحسست بمرور تيار هوائى بارد على وجهى ويدى. ثم شعرت بأن ذراعى الأيسر قد تخدر تماما وصار مشلولا . ثم شعرت بمن يحركها تحريكا شديدا بحيث لم أستطع إيقافه . ولما كانت تلك الحركة تشبه حركة يد الكاتب أتت امرأتى بقلم وورقة فاستولت عليهما يدى اليسرى وأخذت تتحرك فى الهواء بسرعة عجيبة حتى خاف الجلوس أن تصيبهم فى حركاتها . ثم لطمت هى المائدة بفجأة وكسرت القلم . عند ذلك هدأت يدى فعلمت علما يقينا بأن لادخل لارادتى فى حركة يدى كما لا دخل لها فى سكونها . ثم لما برى القلم امسكته يدى اليسرى وأخذت ترسم فى الورقة خطوطا غير منتظمة ثم أخذت ترسم أحرفا أولية كما يفعله الأطفال ثم شعرت بتيار هوائى كالمتقدم فزايل يدى كل ألم وكل تشنج . فرفعنا الجلسة وأنا مسرور لتحقق ان فى الطبيعة قوة مستقلة عن ارادتى . الى أن قال . ومن ذلك الحين أخذت خاصية الوساطة تنمو معى بنصائح اخوانى الأمريكيين فابتدأت بالكتابة ثم حدث انها رسمت (سبتا) مملوءا زهرا . هنا يجب على أن أقول انى لا أستطيع عمل شىء بيدى اليسرى حتى ولا يمكننى أن آكل بها . أما الرسم فلست احسنه قط ولا بيدى اليمنى . فأنا الآن مقتنع تماما بأن القوة التى ترسم أو تكتب بواسطتى مستقلة عنى ولها عقل غير عقلى لأنى فى أثناء ظهورها أرانى متمتعا بكل

قواى العقلية ولا أحسن بأدنى حادث غير ما يحصل فى يدى اليسرى التى تظهر كأنها ليست بيدى طول مدة الجلسة وكأنها تحت تصرف غيرى . وانى أستطيع فى أثناء هـذا الأمر أن اكلم الذين حولى بكل حرية . فأراد أحد زملائى الدكاترة أن يوقف حركة يدى فضغط عليها بيديه بطريقة جعل ثقل جسمه كله عليها ، ولكنه لم ينجح ، واستمرت يدى تحت ضغطه تعمل بقوة ونظام ، مع انى أستثقل بطبيعتى ضغط اليدين مجردتين » . انتهى

أليس فى كل هذا ما يدل على أن فى الوجود قوة عاقلة لها على جسم الانسان سلطان فى بعض الأحوال ؟

((تم الجزء الأول ويليه الجزء الثانى))

فهرست

﴿ الجزء الاول من كتاب الاسلام فى عصر العلم ﴾

صحيفة

صحيفة

كتاب

حياة خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم ٢٠٨

صحيفة

صحيفة